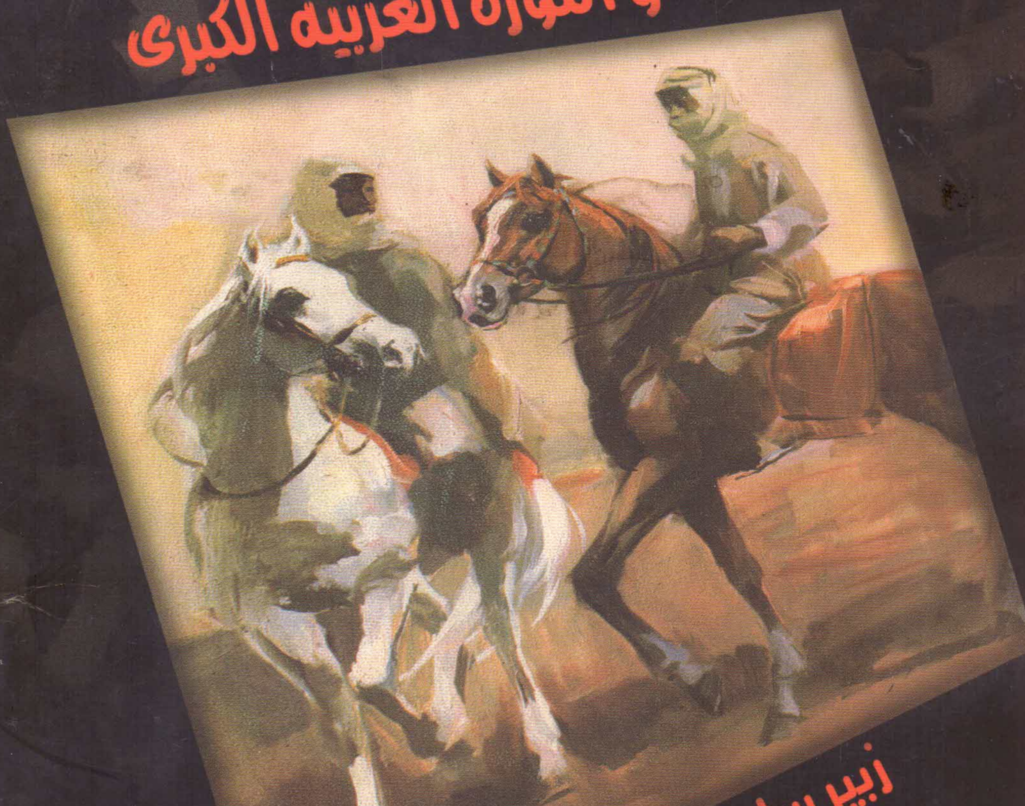
العسكريون
والثورة العربية الكبرى



زبير سلطان قدوري

سلسلة الدراسات [12] . 2008

اتحاد الكتاب العرب
دمشق

كان العسكريون العرب في مقدمة من حمل الهم القومي . حسب رأي المؤلف . حين شعروا بخطورة نتائج التطهير القومي العنصري، والذي بات يهدد الأمة العربية وجوداً من خلال الذوبان و التلاشي في أمة أخرى، و تخلف بعدها إلى قائمة الأمم التي طوى التاريخ صفحاتها، والتي باتت تعرف لدى الدارسين والمؤرخين بالأمم التي (سادت و بادت).

استيقظ العسكريون قبل أوان الذبح العنصري، وأدركوا أن تنظيماً يجمعهم هو أنجع السبل للمواجهة، فشكلوا تنظيمهم القومي (جمعية العهد)، ثم خاضوا معارك الحرية سواء في مواجهة العنصريين في معسكراتهم ومواقعهم، فتعرضوا للسجون والتعذيب وحكم الإعدام أو القتل في ميادين القتال غدراً وظلماً، ثم انتقلوا إلى مواجهة الاستعمار والتجزئة والتقسيم . واتصلوا بالقوى الدولية باحثين عن عون يخلصهم ويخلص أمتهم من هذا السحق القومي المريع، فلم يجدوا سوى أشرَّ ممن حاربوه، الذي غدر بالعهود والاتفاقيات فناضلوا ضده، بعد أن مدوا أيديهم إلى إخوانهم في الحجاز، ليصنعوا معهم ثورة قومية تجمع قدرات الأمة؛ لتطهر أرضهم ؛ وتحررها من الغلاة القوميين، ولتعيد لأمتهم وجودها وهويتها ولغتها، واكتشفوا وهم في أتون المعركة أنهم خدعوا ووقعوا في شراك الطامعين الجدد في أرضهم وثرواتهم .

Designed by Muneer Al-Refai

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق

(400) ل.س داخل القطر
(600) ل.س خارج القطر

العسكريون
والثورة العربية الكبرى

البريد الالكتروني: E-mail net.sy@Vunecri
aru@net.sy
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
dam.org http://www.awu

الإخراج الفني: سنديا عثمان
وفاء الساطي
تصميم الغلاف: منير الرفاعي
لوحة الغلاف: فائق حسن

زبير سلطان قدوري

العسكريون والثورة العربية الكبرى

دراسة

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة الدراسات (12)
2008

المقدّمة:

كتب العديد من الباحثين والمؤرخين عن الثورة العربية، وقدمت للدارسين بصور عديدة عبر العديد من الدراسات والأبحاث، لكل كاتب أو مؤرخ له اجتهاده ورؤيته في أهدافها وتطوراتها ونتائجها وسلبياتها وإيجابياتها. قد لا تتطابق أو تتوافق مع البعض إلا أن اجتهاد يحمل معه الصح والخطأ، وكما قيل في المجتهد إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر. وهذا الكتاب يحاول أن يسهم مع ما كتب هؤلاء الباحثون في دراسة الثورة العربية، إلا أنه يعالج دور العسكريين العرب في صناعتها، وأثرهم في نجاحها.

ويظهر دورهم في تبني المشروع القومي العربي، من خلال تأسيسهم أول تنظيم سياسي خاص بهم، بعد أن شعروا أن أمتهم العربية تتعرض لخطر محدق وقاتل من خلال إلغاء هويتها ووجودها وتاريخها وكيانها وخصوصيتها وشخصيتها، وتذويبها من قبل غلاة سيطروا على السلطة في قوميتهم، كان الدّين العامل المشترك بينهما.

وأدى هذا التنظيم العسكري العربي وأنصاره دوراً هاماً في استنهاض الأمة للدفاع عن هويتها ووجودها، وكان في طليعة المناضلين القوميين

العـرب وفي الخطـوط الأمامـية لمـواجهة الاسـتبداد والـتطهير العرقـي علـى أسـاس قومـي، وقـدم في دفاعه عن العروبة وهويتها ثلة من الشهداء الأحرار مـن خـيرة الـضباط والجنود العرب، سواء من عُلق على مشانق السفاح وهو يـردد نـشيد الأمـة العـربية وحـريتها، أو ممـن تحمـل ببطولة نادرة التعذيب الـشديد في الـسجون علـى أن يكـشف سـر التنظيم ومنتسبيه من العسكريين العـرب في الجـيش العثمانـي. لهـذا بقـي التنظيم عصياً على المستبدين، فلم يفلحوا في كشفه أو معرفة قادته.

وازداد الغـلاة شراسـة وحقداً بعد أن فشلوا في كشف أسماء العسكريين العـرب الذين ينتمون إلى التنظيم القومي، فأمروا أتباعهم بتصفية العسكريين العـرب في معـسكراتهم، أو في ميادين القتال ثم الإعلان عن استشهادهم في الحـرب، وتـؤكد العديـد مـن الوثائـق أن القـادة الاتحاديـون كانـوا يدفعـون الـضباط العـرب والجنود إلى الخطوط الأمامية مع العدو ليتم التخلص منهم نهائياً.

وكـان العـسكريون العـرب أكثر إدراكاً للمخاطر التي كانت ترسم لهم، ومـدى الغلـو القومـي تجاههم، فبادروا إلى حل هذه المعضلة بتقديم حلول توفيقـية تعـيد العلاقـة الطيـبة بـين القوميـتين الـتي كانـت سائدة قبل وصول الاتحـاديين إلى الـسلطة، ومـنها اعتراف كل واحد بهوية الآخر دون المساس بتفكـيك الدولـة، حتى تبقى دولة واحدة وتحت قيادة رأس واحد لها، أي أن تـتكون الدولـة العثمانـية من قوميتين شقيقتين لا تلغي إحداهما الأخرى بل تحـافظ كـل مـنهما على وجودها ولغتها وتراثها وعاداتها وتقاليدها، فرفض الحـل، وقـوبل بـزيادة التنكـيل والقـتل والـسجون والأحكـام الجائـرة علـى القوميين العرب والنفي والتشريد لعائلاتهم إلى مناطق الجوع والهلاك.

لم يجد العسكريون طريقاً للخلاص سوى الثورة بعد أن سدت في وجوههم كل الطرق والحلول الناجعة، فبدؤوا بالبحث عن وسيلة نجاة مضمونة وغير متهورة لنجاح الثورة، حتى لا يتعرض الشعب العربي إلى مأساة تضاف إلى مأساته التي يعيشها، فبحثوا يميناً وشمالاً عن حليف قوي يعينهم على نجاح الثورة ويساندهم في تحقيق أمانيهم، فلم يجدوا خارج بلادهم إلا الشياطين التي تتربص بهم الدوائر، فوقعوا كما وقع جيش طارق بن زياد "البحر من ورائكم والعدو من أمامكم".

وأمام هذه المحنة القاسية، بدأت تلوح أمامهم بارقة أمل حين اشتعلت الحرب العالمية علهم يستفيدون من نيرانها المشتعلة، فاتصلوا بالطرف الآخر من الحرب، فوجدوا منه قبولاً مريباً، وحين حادثوه خشي منهم ومما يحملون من رؤى، فهؤلاء الحلفاء لم يتعودوا على سماع هذا الوعي القومي من أبناء عمومتهم من زعماء القبائل والعشائر الذين كان تفكيرهم لا يتعدى مضارب القبيلة، أما هؤلاء يتحدثون عما وراء المحيط، ويفهمون ما يدور في المنتديات السياسية في أوربا ومطابخها وما يخطط وما يرسم، فشعروا بخطرهم وخطورتهم على مشاريعهم واستراتيجيتهم المستقبلية في المنطقة، فأرادوا أن لا يضيعوا فرصتهم التاريخية وهم يخوضون الحرب من توظيفهم لمصلحته في تلك الحرب مما يضعف الخصم، وفي الوقت نفسه لا يقدموا لهم العون والمساعدة التي طلبوها لأن في نجاحهم تتبدد كل ما رسموا وخططوا لاستعمار المنطقة والهيمنة على ثرواتها، عندها عرض عليهم الحلفاء الالتحاق بركب ثورة قادمة من الحجاز أو لا شيء.

فاختاروا الالتحاق بالثورة، ووفروا لها كل عوامل النجاح، يحدوهم الأمل بما عرض عليهم قائدها بأن اتفاقاً تم مع الطرف الآخر يعطيهم كل

ما يتمنون من حرية واستقلال وسيادة ودولة عربية كبرى في المشرق العربي، فقاتلوا في صفوفها، بعد أن نظموا جيشها وقواها، وحملوا على أكتافهم مصيرها، فاستبسلوا في ميادين القتال بشجاعة شهد لها العدو قبل الصديق، وحمل الكثير من ضباط العهد أوسمة على الصدور من الحليف لبسالتهم وبطولاتهم.

وانتصرت الثورة من خلال تضحياتهم، فحرروا بلادهم وأعادوا لها هويتها وتاريخها المشرق، إلا أن الشيطان سرعان ما قفز ونهب حصيلة الثورة ونتائجها، ليدخل العسكريون بعدها من جديد درب النضال الشاق الطويل ضد الشيطان، لاستعادة الحرية والاستقلال والأرض والثروة والكرامة.

زبير سلطان قدوري

الباب الأول

العسكريون والمشروع القومي

الفصل الأول،

البذور الأولى للنهوض القومي الحديث

دخلت الأمة العربية في حالة غيبوبة وذوبان في إطار الدولة العثمانية منذ الاحتلال العثماني عام 1516 على يد السلطان سليم الأول كأمة تابعة كبقية الأمم والشعوب والقوميات الأخرى التي قهرت، ودخلت تحت رعاية الدولة العثمانية. وعلى الرغم من مرور أربعة قرون على هذا الاحتلال، لم تفقد خصوصيتها القومية، بالرغم من انتشار الصبغة التركية وسيادتها على كافة مرافق الدولة، واعتبار اللغة التركية هي اللغة الرسمية للسلطنة، وإدارتها، ووسيلة التعامل الرسمي في دوائرها، مع أن الكثير من مفردات اللغة التركية دخلت إلى اللهجات المحلية العربية، وإحلال بعض السلوكيات التركية في الحياة العامة للأمة العربية بسبب مرور مئات السنين على الهيمنة، بقيت الأمة العربية غير قابلة للذوبان، ومنيعة على الزوال والانتهاء.

يعود الفضل الأول في إبقاء الأمة على وجودها وخصوصيتها، ومناعتها من الذوبان الكامل خلال خمسة قرون من الاحتلال إلى اللغة العربية التي شكلت جلداً (قُنفذياً) (1) دفاعياً أمام خطورة التصدع والذوبان، والفضل الأكبر أيضاً للقرآن الكريم على إبقاء اللغة العربية صامدة، الذي استمر يتلا منذ أن أنزل على محمد ﷺ، والسبب أن الدولة ذات طابع إسلامي، والقرآن الكريم أساس التشريع إضافة إلى السنة النبوية التي ترتكز على الحديث الشريف المكتوب باللغة العربية أيضاً.

استمرت حالة الركود والجمود الفكري والعلمي والإداري، الذي ترافق مع فساد كبير في كافة مؤسسات الدولة ومرافقها، مما شكل تراجعاً هائلاً في الوعي الفكري والثقافي، فساد الجهل والتخلف والأمية الأمة العربية في كافة مُدنها وقراها، حتى بات من الندرة أن تجد في تلك البلدان العربية من يلمّ بالقراءة والكتابة. هذا التخلف المريع الذي ساد الولايات العربية نتيجة الحكم العثماني جاء عقب نهوض علمي وفكري عربي كبير ساد العالم في القرون الوسطى.

بدأت الإصلاحات في القرن التاسع عشر بعد سلسلة الهزائم العثمانية العسكرية وخسارة أرض إسلامية، وما ترافق من الركود السياسي والاقتصادي، ولم تأتِ الإصلاحات في البداية كما تتطلبها الصيرورة التاريخية، أو من خلال الضغط الشعبي المطالبة بالإصلاح أو من نتائج لانتفاضات الجماهيرية كما جرى في أوربا وشرق آسيا، بل الذي بدأ عملية الإصلاح هو رأس الهرم في السلطة السلطان نفسه، نتيجة الإخفاقات العسكرية الخارجية، وتعاظم تكتل الفساد بين المؤسستين العسكرية والدينية، والتهديد المستمر لتلك المؤسستين لرأس السلطة. بدأت أولى أشكال الإصلاح على يد السلطان العثماني سليم الثالث (1789 ـ 1807)، الذي أحدث تغيرات هامة في المؤسسة العسكرية، التي كانت يد السلطة وقوتها الضاربة في بداية تشكل الدولة العثمانية، وسبب توسعها، وفرض هيمنتها على أرض واسعة في العالم القديم، إلا أن تلك المؤسسة مع مرور ثلاث قرون من الزمن تخللها الفساد، ونخرها من الداخل، حتى غدت هيكلاً لا مضموناً، وباتت عبئاً على السلطة لا قوة لها، وحملاً ثقيلاً عليها.

أنشأ السلطان سليم الثالث المدارس العسكرية، وأقام الصناعات الحربية، وحدث الجيش على النمط الغربي، وفتح عام 1805 باب التطوع للجيش والإنكشارية، إلا أنه واجه معارضة شديدة من مفتي العاصمة وبعض العلماء وقادة الإنكشارية. وهذه المعارضة شكلت تكتلاً ضخماً ضد السلطان المصلح،

الـذي لم يجـد لـه أنـصاراً أقـوياء يـساندونه، لهـذا سقط حين ثار عليه هذا التكتل الفاسد، وأطاح به، وعيّن السلطان محمود بدلاً عنه. ورداً على هذا الانقلاب حاول أحـد أنـصارِ الإصلاح مصطفى باشا بيرقدار قائد إنكشارية روميليه إعادة السلطان المصلح، وقام بانقلاب ضد السلطان محمود، إلا أنه لم يلبث في السلطة إلا أشهر قليلة، فتآمـرت عليه القوى الفاسدة، فتم قتله على يد أحد جنوده، وبقتل البيرقدار توقفت المرحلة الأولى من الإصلاح. (2)

تمت الفترة الثانية من الإصلاحات على يد السلطان محمود الثاني (1808 ـ 1839)، واشـتهرت تلـك الإصـلاحات باسـم (التنظـيمات الخيريـة)، حـيث جدد الـسلطان عملـية تحـديث الجـيش العثمانـي، وللـتخلص من قوة الفساد، قام بحل الجـيش الإنكـشاري، ولم يكـتف فقط بالحل، إنما عمل على القضاء على قيادتهم وإبادتهم، كما سدد ضربة للمؤسسة الدينية التي كانت تساندهم، الذي كانت تتمثل في مجمـوعة أطلـق علـيها أصـحاب الطـريقة (البكطاشـية)، وتم لـه ذلك بعد أن استمال إلـيه مفـتي استنبول إلى صـفه، فاضطهد أفرادها، وهدم عدد من زواياها. وحتـى يـضمن عدم انقلاب رجال الدين ضده، وضع دائرة الأوقاف تحت إشراف الدولـة، فجعـل مـواردهم المالية بين يديه، فأنهى الاستقلال المالي لهم، الذي كان يعطـيهم قـوة ضـد الـسلطان، ويجمـع حـولهم الأنـصار بسبب العطايا، وبمصادرة الاسـتقلال المالـي تم تجفـيف مـصادر العمـل ضـد الـسلطة والـتعاون مـع قـادة الإنكشارية في مواجهة الإصلاح.

وانـتقل بعـد أن أنهـى العقـبة الإنكـشارية والدينـية، إلى فـتح المـدارس الـتي تـرعاها الدولـة وتـشرف علـيها، فقدم للطلاب المرتبات المالية، واستقدم الخبراء الأوروبـيون مـن أجـل تطويـر الجـيش الجديـد والتعلـيم، كما أرسل البعثات إلى أوربا، وفي عهده تم إجراء أول إحصاء للسكان بغية فرض التجنيد الإجباري، كما فرضـت الـضرائب لـتمويل الجـيش، وصـدرت أول مجلـة حديـثة على يد الفقيه والمـؤرخ أحمـد جـودت باشـا عـام 1869، والتي اشتملت صفحاتها على قوانين (مدنـية، مبنـية علـى مـزيج مـن القـوانين الأوروبية والشرعية، فيما يتعلق بالأمور

الجـزائية والـتجارية والعقاريـة وقضايا الجنسية، وأقيمت محاكم غير دينية لتنفيذ قوانين المجلة). (3)

كانـت أهـم الإصـلاحات إعـلان الدسـتور في عـام 1876، الـذي جاء ضمن سلسلة من التغيرات التي أحدثها السلطان عبد الحميد الثاني، ومنها إعلان الحرية الدينـية لغـير المـسلمين، والمساواة أمام القانون، وفي الضرائب والوظائف العامة، والانتـساب إلى المـدارس، والخدمـة العـسكرية، إرضاء للدول الأوروبية، ولتهدئة التنظيمات العسكرية والمدنية ضده.

مـن أهـم الدوافـع التي دفعت السلطان عبد الحميد لتحديث الدولة، إعدادها لمـواجهة الأخطـار الـناتجة عـن أطمـاع الـدول الأوروبية الاستعمارية في أرضي سـلطنته، اسـتغلالاً لـضعفها العسكري والاقتصادي، وكانت تلك الدول تعلن عن تقـسيم الدولـة العثمانـية، واقـتطاع أراضيها، والاستيلاء عليها، وكانت تطلق عليها اسـم (الـرجل المـريض)، وفعـلاً نفذت بعض الدول الأوروبية مخططاتها المعلنة، واسـتولت علـى أجـزاء مـن الـسلطة العثمانـية كالجزائـر واليمن الجنوبي ومصر والـسودان وبعـض المـناطق الـشمالية مـن السلطنة العثمانية من الأناضول وشمال الأناضول وغيرها.

الفصل الثاني

العسكريون والبذور الأولى للوعي القومي العربي

شكلت الإصلاحات التي تمت على يد العديد من الوزراء الولاة أمثال رشيد باشا، وعالي باشا، وفؤاد باشا، وما تم على يد الوالي مدحت باشا في ولايتي العراق والشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر البذور الأولى لتشكل الوعي المعرفي القومي العربي، وظهور تمايز الشخصية العربية عن باقي الشعوب المحكومة من قبل السلطنة بما فيها الشخصية التركية.

فقد شملت إصلاحات مدحت باشا خلال توليه ولايتي العراق والشام ومعظم ميادين النهوض في الاقتصاد والتربية والتعليم والخدمات والمرافق، فتم فتح المدارس على مختلف أشكالها العسكرية والمدنية، وشق الطرق، وبناء الأسواق، وإنشاء الميادين، ولا تزال العديد من الميادين والأسواق في بعض المدن السورية والعراقية تسمى باسم السلطان عبد الحميد ومدحت باشا.

ونذكر من أهم الإصلاحات ما تم على مستوى التعليم في الولايات العربية، وللدلالة على ذلك ما تشير إليه إحصائية جرت في بداية القرن العشرين تتحدث عن زيادة نسبة المتعلمين في الشرق العربي، فذكرت: إن العراق مثلاً تزايدت فيه نسبة المتعلمين خلال خمسين عاماً، وهي الفترة الواقعة ما بين 1850 ـ 1900، فارتفعت من نصف بالمائة إلى خمسة بالمائة إلى عشرة بالمائة (4).

وقد أدى تطوير التعليم إلى ظهور الطبقة المثقفة في الوسط الاجتماعي العربي، التي سعت بوتيرة عالية إلى تطوير وسائل الثقافة والإعلام في المشرق العربي، فتم افتتاح أولى المطابع في العراق وهي (مطبعة الزوراء) في بغداد عام

1869، ومنها تم إصدار الجريدة الرسمية، التي كانت تكتب باللغتين العربية والتركية. كما أنها خصصت بعضاً من صفحاتها إضافة إلى بلاغات الحكومة الرسمية، إلى نشر نشاطات الوالي، وحركات العشائر، والحديث عن الأوضاع الاقتصادية (5).

ونتيجة للإصلاحات بدأت المدارس بتخريج الكادر الإداري من الموظفين العرب سنوياً، كان غالب هؤلاء الخريجين من أبناء الطبقات الفقيرة، لأن الأسر الغنية لا تدرس أبناءها في المدارس الحكومية المحلية، إنما كانت ترسل أبناءها إلى خارج الولاية للدراسة، إما إلى أوروبا أو الأستانة عاصمة الدولة بغية التحصيل العلمي العالي، من أجل تبوأ المراكز والمناصب العليا في الدولة، كونهم يحملون شهادات عالية وتخصصات رفيعة، لم يكن بمقدور الطبقة الفقيرة الحصول عليها.

كان لهؤلاء القادمين من الدول الأوروبية أثر واضح في نشوء الوعي القومي النهضوي، كونهم تعرفوا على قرب على التقدم والتطور الذي وصلت إليه الدول الأوروبية، مقارنة بالتخلف الذي تعيشه الدولة العثمانية عامة والولايات العربية خاصة، مما كان له الأثر في تشكل الحراك السياسي والثقافي والاجتماعي في الولايات العربية، وتأسيس النوادي والجمعيات والأحزاب العربية الباحثة عن التغيير وإخراج الأمة العربية من هذا النفق المظلم.

أما أبناء الأسر متوسطة الدخل والموظفين، فكانوا يختارون المدارس الأقل كلفة، والتي تؤمن لهم عيشاً كريماً بعد التخرج، لهذا كانت تلك الأسر ترسل أبناءها إلى المدارس العسكرية الداخلية، وخاصة التي توجد في العاصمة، والتي كانت تقدم لهم الإقامة المريحة المجانية مع راتب للطالب كاف للدراسة من دون تكاليف باهظة من قبل أسرته، لهذا جعلت تلك المدارس محط أنظار وطموحات أبناء تلك الأسر.

وقد كان الطالب بعد تخرجه من المدرسة العسكرية، يحصل على رتبة

عسكرية، وراتباً مغرياً، تعطيه في رأيه ورأي أسرته مكانة اجتماعية لائقة، كانت تفتقدها من قبل، وهذه المكانة تسمح لأبنائها أن ينافس أقرانه من الطبقة الغنية في الوسط الاجتماعي في مدينته أو بلدته أو قريته.

ونذكر هنا أن العراق كان أكثر الأقطار العربية الذي يتوجه أبناؤه إلى تلك المدارس بسبب الوضع الاجتماعي والاقتصادي المتردي الذي كان يعيشه، ويذكر الكاتب العراقي وميض جمال نظمي عن سبب إقبال العراقيين على تلك المدارس العسكرية بأقرانهم السوريين إلى: (إن المنشأ الاجتماعي واختيار السلك العسكري هما وجهان لعملة واحدة، وقد كان العراقيون بالمقارنة مع السوريين فقراء، سواء في التعليم أو الدخل. وكان السلك العسكري ذاتياً وموضوعياً، وهو الخيار الممكن الوحيد لإرضاء مطامحهم). (6)

لذلك كان عدد الطلاب العراقيين الذين يلتحقون سنوياً بالمدارس العسكرية أكثر من غيرهم، فتم تقديرهم بما يقارب الستين طالباً سنوياً (7). في حين يقل ذلك العدد من نظرائهم من طلاب بلاد الشام السوريين والأردنيين والفلسطينيين واللبنانيين "لأن أغلبيتهم كانوا يختارون الدراسة المدنية على الدراسة في المدارس العسكرية، وتعود أسباب هذا الاختيار إلى أوضاعهم المادية، كما نجد أن معظم انتماء العسكريين إلى الطبقات الأقل ثراء، ومن الشرائح الاجتماعية التي لا تملك الأراضي، أي لا تعود أصولهم إلى الطبقات الإقطاعية، لهذا كان راتبهم من الدولة مصدر الدخل الوحيد، فارتبطوا بها كمصدر عيش لهم، إلا أنهم مع مرور الزمن شكلوا شريحة اجتماعية متميزة من الطبقة الغنية والوسطى، في توجهاتها وطموحاتها.

كما أشارت دراسة عن أعداد النشطاء القوميين العرب في العاصمة العثمانية القوميين العرب في العاصمة العثمانية الآستانة مع بداية القرن العشرين من العسكريين والمدنيين، إلى أنهم كانوا (113) قومياً عربياً ناشطاً، ينتمون إلى جمعيات ومنظمات قومية عربية في الآستانة، ومن خلال التوزيع القطري نجد بينهم مصرياً واحداً، و18 عراقياً، والباقي من بلاد الشام وعددهم (94) وبحسب

مناطق بلاد الشام فإنهم يتوزعون على الشكل التالي: (51 سورياً، و22 فلسطينياً، و21 لبنانياً). وكان من بين (113) فقط (29) عسكرياً، وبحسب انتماءاتهم القطرية نجد (10) سوريين (18) عراقياً، و(1) مصرياً (8).

كان العسكريون العرب يشكلون شريحة متميزة، اتسمت ببناء علاقات ثقافية واجتماعية، جعلت منها شريحة خاصة، لها نوع التفرد والانغلاق عن بقية الطبقات الاجتماعية لما يجمع ما بينهما من ثقافة عسكرية وحياة اجتماعية مشتركة ورؤية سياسية ذات أهداف قومية تحررية.

نتج عن تلك الإصلاحات تغيرات هامة في البنية الاجتماعية والثقافية العربية، حيث تخرج من تلك المدارس عشرات المتنورين العرب، الذين قادوا النهوض القومي العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وسعوا إلى إحياء الفكر القومي العربي، وشكلوا الجمعيات والتنظيمات والأحزاب السياسية التي حملت راية تحرر الوطن العربي من الاضطهاد التركي، واستعادة الهوية القومية للعرب.

الفصل الثالث

النهوض القومي في الدولة العثمانية

شارك الطلبة العرب في الآستانة من مدنيين وعسكريين في الحراك السياسي، الذي شهدته العاصمة العثمانية ما بين أعوام 1880 إلى عام 1914 أي إلى قيام الحرب العالمية الأولى، حيث شهدت تلك الفترة الزمنية نشاطات سياسية سرية وعلنية تتمحور باستعادة الوعي القومي للأمة، والمطالبة بالحقوق القومية بإقرار اللغة العربية، والمشاركة الفعلية في إدارة الدولة ومؤسساتها، ونشر مناخ الحرية لقوى المجتمع المدني في البلدان العربية.

وقد تأثر هؤلاء الطلبة والمتنورون العرب بالفكر القومي الذي كان يسود القارة الأوروبية بأكثر من قرن من الزمن، وبأفكار الحرية والديمقراطية والمساواة التي طرحتها الثورة الفرنسية، وما تبعها من أحداث هامة عقبت انتصار الثورة، وما تركته من أحداث ثورة كومونة باريس من أفكار العدالة والاشتراكية، وقدرة الضعفاء من عمال وفلاحين في إلحاق الهزيمة في النظم الاستبدادية، وبالدعايات التي يسوقها الإعلام عن الحرية والمساواة في الولايات المتحدة، إضافة إلى التطورات اليسارية التي تجري في روسيا وبريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية. كما شاركت منظمات سرية ومن أبرزها (الجمعيات الماسونية) التي تغلغلت إلى صفوف الجيش التركي مستفيدة من انتساب العديد من أبناء الدونما إليها(9) لتحقيق أهدافها في تغيير النظام تحت غطاء شعارات العدالة والمساواة، التي كانت تتاجر بها المنظمات الماسونية في العالم.

وبانتشار الأفكار القومية والتحررية بدأ ظهور الجمعيات والأحزاب السياسية

السرية في العاصمة وغيرها، وتعتبر (الجمعية العثمانية الفتاة) أولى التنظيمات السياسية، التي شكلها الإصلاحيون في العاصمة العثمانية عام 1865، وقد ضمت في صفوفها عدداً من ضباط الجيش والموظفين والمفكرين المعتدلين، وطرحت شعار (عدالة، حرية، مساواة)، ودعا منهاجها السياسي إلى إقامة حكم ملكي دستوري، وتميزت هذه الجمعية عن غيرها مما تلاها من التنظيمات السياسية التركية، بأنها كانت تطرح (القومية العثمانية) (10) وليست القومية الطورانية، كما كانت تطرح معظم الجمعيات التي جاءت من بعد تلك الجمعية على الساحة العثمانية، وقد انتهت تلك الجمعية للخلافات الشخصية والعقائدية والطبقية بين أفراد الجمعية، حيث تم حلها عام 1889 بعد تعطيل الدستور العثماني.

وخلفتها في نفس العام جمعية أكثر حركة ونشاطاً وثورية، وهي حركة (تركيا الفتاة)، التي نشأت بين صفوف طلبة المدارس العسكرية، وكان المنتمون إليها مزيجاً مختلفاً من مختلف الانتماءات القومية من ترك وعرب وألبان وغيرهم، كان أهم شعاراتها الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني، وإعادة الدستور (11)، وبعد أن تم كشف التنظيم من قبل السلطان الأمنية، جرت ملاحقة عناصره بتهمة التآمر لتغيير نظام الحكم، وقد اعتقل البعض، وهرب البعض إلى أوروبا.

شكل القسم العسكري من تنظيم تركيا الفتاة جمعية أخرى سميت بجمعيه (الاتحاد والترقي)، التي لعبت دوراً هاماً في توجيه السياسة التركية بعد الانقلاب الذي قامت به ضد السلطان عبد الحميد، وتشير العديد من المصادر التاريخية إلى أن المحفل الماسوني التركي كان له الدور الهام في تشكلها، ورعايتها، وتوجيهها، ومن ثم السيطرة عليها. وتم اختيار مدينة (سالونيك) عاصمة مكدونيا المركز الرئيسي للجمعية، وهي التي يسيطر عليها اليهود الدونما مالياً واقتصادياً، وكان السلطان مراد الثاني استضافهم فيها، بعد أن توسلوا له، وناشدوه أن يخرجهم من إسبانيا، من شدة الاضطهاد الذي يتعرضونَ له من محاكم التفتيش، فسمح لهم بالمجيء إلى تركيا رغم تحذيرات عدد من مستشاريه، وأقاموا في سالونيك، واستقروا فيها، وسيطروا على تجارتها وحركتها المالية، وما أن تعزز موقعهم

المالـي والاقتـصادي، حتـى راحـوا يحـيكون المؤامرات ضد الدولة العثمانية التي استضافتهم.

ومـن يـبحث في المـصادر التاريخية، يجد أن اليهود والمحفل الماسوني في سـالونيك كانـا وراء كـل التنظـيمات والحـركات والمؤامـرات، الـتي وقعـت في الـسلطنة العثمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى سقوطها في العقد الثاني مـن القـرن العـشرين، ويـشير إلى ذلك المؤرخ التركي جواد اتيلهان بقوله: (حال وصول اليهود إلى تركيا بادروا إلى ترويج الإشاعات وإطلاق الأضاليل والأكاذيب للتـشنيع بالدولـة العثمانـية الـتي رحـبت بقـدومهم، فاسـتنبطوا القـصص الخيالـية لتشويه سمعة السلاطين وللحط من قدر الإسلام والمسلمين، وكانوا يرسلون تلك الأخـبار الملفقـة والقـصص المخـتلفة إلى صـحافتهم المعهودة في أوربا لتنشرها على أوسع نطاق بغية الإساءة لمن أحسنوا إليهم.

ثـم عمـدوا إلى تأسيس المحافل الماسونية في مختلف أنحاء البلاد، وورطوا خـيرة رجـال الأمـة في الانتـساب إلـيها، كما أسسوا عدة جمعيات سرية للتغرير بـالطلاب الأتـراك في الـداخل والخـارج وإدماجهم في صفوف الماسون والهيئات الـسياسية العاملـة لمـصلحتهم، ومـن ثـم أحدثـوا جمعية تركيا الفتاة التي رعوها حتى اشتد عودها) (12).

وتذكـر بعض المصادر التاريخية أن يهود الدونما بزعامة مدحت باشا، كانوا وراء اغتـيال الـسلطان عـبد العزيـز عـام 1876 حين حدّ من مؤامراتهم ونفوذهم كمستـشارين مقـربين للـسلطان، احتلوا مراكز هامة في الدولة، فقرب إليه الأرمن ووضـعهم مستـشارين لـه وفي مراكـز هامـة في الدولـة، ممـا مـنعهم مـن الـتأثير والسيطرة في القرار السياسي في السلطنة.

لهـذا تآمـروا علـى اغتـياله بالـتعاون مـع بعض من أفراد حاشيته، ثم أكملوا مؤامـرتهم بتنـصيب مـراد الخـامس المعـتوه سـلطاناً، في وقـت كانت فيه السلطنة بـأمس الحاجـة إلى سـلطان قـوي يديـر شـؤونها العـسكرية والـسياسية لمواجهة

المؤامرات الخارجية التي تحيكها الدول الأوروبية، وتخوض معركة عسكرية من أجل أراضيها. ففي الوقت الذي قتل السلطان عبد العزيز، كانت الجيوش العثمانية تقاتل في البوسنة والهرسك. (13)

ومن الملاحظ أنه بعد تولي السلطان عبد الحميد الثاني الحكم، أعاد سياسة عبد العزيز في محاربة النفوذ اليهودي داخل السلطنة، والذي استشرى في البلاد بعد مقتل عبد العزيز، فاعتقل مدحت باشا أكبر المتعاملين معهم وأهم أدواتهم آنذاك ونفاه خارج البلاد، إلا أن هذا الإجراء كان متأخراً فقد كان التغلغل اليهودي السرطاني قد سمم معظم جسم الدولة العثمانية، وتوصل يهود الدونما إلى المناصب العليا في الدولة التركية، مما أحبط مشاريع السلطان عبد الحميد، حتى أنه تراجع قليلاً عن الإجراءات التي اتخذها ضدهم، بسبب شعوره بقوة تيارهم وتيار محفلهم الماسوني، الذي كان يضم أشهر رجال الأتراك وقادة الدونما.

وخلقوا مأساة الشعب الأرمني من خلال الدس والتلفيق وإطلاق الإشاعات المسيئة للأرمن، وتطوع مناصروهم مع عدد من قادة الترك من داخل القصر بتحريض السلطان عليهم، وكتابة تقارير سرية إخبارية ضد الأرمن للسلطان ووزرائه، واشتهر من بين الذين كانوا يعدون تلك التقارير /المحامي أمانوئيل قره صو/ الذي كان يقدم تقارير يومية للسلطان (يتهم فيها الأرمن بالتجسس وبالتأهب لاغتياله، أو بتهريب الأموال إلى الخارج) (14) كل هذه الدسائس والأكاذيب أدت إلى قيام مأساة الشعب الأرمني الكبرى، والتي لا تزال تؤسس العداء بين الأتراك والأرمن بعد مرور عشرات السنين عليها.

وعلى الرغم من استكانة السلطان عبد الحميد الثاني لهم حين عرف قوتهم ومقدرتهم، طمعوا أكثر حين جاؤوا يفاوضونه على فلسطين بعد مؤتمر بال بسويسرا عام 1879، والسماح لليهود بإقامة كيان لهم، عارضين عليه المساندة الدولية وتسديد ديون الدولة ورشوة مالية بأربعة ملايين جنيه إسترليني، فرفض العرض، وطردهم، فشوهوا صورته داخلياً ودولياً، واستعانوا بكل ما لديهم من

قدرات حتى تم خلعه، واعتقاله في مدينة سالونيك مركز الماسونية واليهودية لينال جزاء معارضته لخطط اليهود والماسونية.

لاشك أن حركة التنوير القومي العربي بدأت قبل في المشرق العربي على يد عدد من الثوريين والإصلاحيين وهذا ما تذكره معظم المصادر التاريخية، التي بحثت في وثائق تلك المرحلة الهامة من تاريخ الأمة العربية. لقد كانت مرحلة استنهاض قومي عربي بعد رقاد دام ما يقارب الألف عام، منذ وصول الترك إلى بغداد وهيمنتهم على القرار السياسي في الدولة العباسية منذ القرن الرابع الهجري تقريباً.

لاشك أن محاولات عدة جرت منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي عبر الثورات المحلية ضد النظام العثماني، ولكن الفشل كان نصيبها جميعاً. في منتصف القرن التاسع عشر كان الاستنهاض القومي شديداً، بسبب الشعور بالذوبان القومي الذي يمارسه الغلاة القوميون الترك ضد بقية القوميات وخاصة العرب، والشعور بالتخلف المريع لما وصلت إليه الأمة العربية مقارنة بالأمم الأوروبية آنذاك، وخاصة من قبل الطلاب الذين ذهبوا إلى أوروبا لتلقي العلم أو من الزوار لتلك البلدان، فقد فاجأهم التطور العلمي والصناعي والثقافي والحضاري في أوربا، وقارنوه مع حال بلدانهم، فتملكهم شعور بضرورة التغير في بلدانهم، وخاصة بعد أن استحضروا التاريخ وما كانت عليه أمتهم العربية من مجد وعزة وحضارة.

كما أسهم الأدباء العرب في إحياء النهضة القومية من خلال نشر اللغة العربية والتراث العربي، ونذكر منهم ناصيف اليازجي (1800 ـ 1871) م الذي ألف الكتب المدرسية في اللغة العربية، وبطرس البستاني (1819 ـ 1883) الذي ترجم الإنجيل إلى اللغة العربية، وقاموس اللغة (محيط المحيط)، وموسوعة عربية باسم (دائرة المعارف). وتتابع الأمر من خلال الصحافة السياسية والمجلات العلمية التي لعبت دوراً هاماً في نشر الفكرة القومية في القرن التاسع عشر كمجلتي "البيان" و"الضياء"، التي أصدرها إبراهيم اليازجي في عام 1883،

وجريدة الجوائب التي أصدرها أحمد فارس الشدياق في الآستانة عام 1861، وغيرها من الدوريات والصحف التي زادت من بعث الوعي القومي في الوسط الاجتماعي العربي.

وساهمت حركات الإصلاح الديني في عملية التغيير كالوهابية والسنوسية والمهدية، والبعض منهم من حمل لواء الثورة والتغيير لإسقاط القيادة التركية للدولة وإعادتها للعرب، مثل الحركة الوهابية التي نشأت على يد محمد بن عبد الوهاب (1703 ـ 1792) ودعت إلى إصلاح ديني ثم سياسي من خلال مبايعة محمد بن سعود للخلافة بدلاً من السلطان التركي ومن بعده ابنه عبد العزيز، فكانت أول نهوض ديني سياسي عربي يواجه احتكار الدين والسياسة للترك، استخدمت السلاح في سبيل نشر دعوتها، مع سيطرة سياسية خارج النفوذ العثماني على منطقة عربية حساسة دينياً وسياسياً، حيث فرضت سيطرتها على الرياض عام 1750، ثم وصلت قواتها إلى الإحساء شرقاً، وهددت كربلاء والنجف ودمشق والحج الشامي في 1807 واستولت على المدينة ومكة.

مما أدى بالدولة العثمانية إلى أن تشن حروباً ضاربة لإخماد انتفاضات الوهابيين والقضاء عليهم، لما تسبب لها من إحراج داخلي، كونها تتم في الأراضي المقدسة الإسلامية (مكة والمدينة)، وهي التي تدعى أنها ورثت الخلافة الإسلامية، وبسبب ضعفها العسكري، وفشل حملة واليها على البصرة في معاركه مع الوهابيين، كلفت واليها في مصر محمد علي باشا في القضاء عليهم، الذي كان يبحث في الوقت نفسه عن دور سياسي يلعبه في المشرق العربي، فأرسل ابنه طوسون على رأس جيش مصري، فخاض عدة حروب، أدت إلى هزيمة الوهابيين، والاستيلاء على عاصمتهم الدرعية في عام 1818 (15). إلا أن هذا الاستيلاء لم ينه الحركة نهائياً، بل استعادت ذاتها من جديد، فكانت تشكل بحق تهديداً واضحاً للسلطة العثمانية، ولنفوذها في المشرق العربي.

كما ساهم العديد من المفكرين الإسلاميين المتنورين العرب أمثال محمد رشيد رضا (1865 ـ 1935) الذي دعا إلى بعث الأمة الإسلامية، وتطبيق مبادئ

الإسلام الأولى في عهد السلف الصالح، وإلى الملاءمة بين العلم الحديث وقواعد الدين، وفق ما كان يدعو كل من محمد عبده وجمال الأفغاني، إلا أنه تميز عنهما في رؤيته الإصلاحية بالتركيز على العروبة، وإيمانه بالقومية العربية هي التي تجمع أبناء الأمة الواحدة (16). ولعبت مجلة المنار التي أصدرها من القاهرة عام 1898م دوراً هاماً في نشر الوعي العربي. وكان يذكر العثمانيين فيها بالدور الذي قام به العرب في الفتوحات الإسلامية، وإلى ازدهار الدين الإسلامي في عصر الراشدين والأمويين والعباسيين، أي حين كان العرب هم الخلفاء وقادة الدولة. وهاجم السلطان عبد الحميد واستبداده، ودعا العثمانيين إلى إقامة نظام الشورى وفقاً لتعاليم الإسلام، وأيد الانقلاب ضد عبد الحميد الثاني، إلا أن ممارسات الاتحاديين الشوفينية جعلته يناوئهم، ويدعو إلى إقامة حكومة لا مركزية، تعطي للعرب فيها حقوقهم، ومن أجل تلك المبادئ كان أحد المؤسسين لحزب اللامركزية في القاهرة.

ومن بين أهم المناضلين القوميين في تلك الفترة عبد الرحمن الكواكبي ممن سعوا لإحياء الفكر القومي العربي ومحاربة الظلم التركي والاستبداد، فكان لما كتبه من كتابات أثر في إذكاء الوعي القومي العربي آنذاك، ولا تزال كتاباته إلى يومنا هذا معيناً للمناضلين من عشاق الحرية وضد الاستبداد.

ولد الكواكبي في حلب عام 1849، وعمل في القانون والصحافة في بداية حياته، وتولى رئاسة بلدية حلب عام 1892، ولم يستمر طويلاً حتى أعلن ثورته على السلطان عبد الحميد وعلى مستشاره أبي الهدى الصيادي، هاجر من حلب عام 1900م/1318 هـ إلى الجزيرة العربية وشرقي إفريقيا والهند والشرق الأقصى، واستقر في مصر خوفاً من ملاحقات السلطات التركية، وتوفي فيها في ظروف غامضة عام 1902، وأشارت الصحف آنذاك أن عبد الرحمن الكواكبي مات مسموماً من قبل عملاء عبد الحميد (17).

ومن أهم ما أصدره في مواجهة الاستبداد كتابي (أم القرى) و(طبائع الاستبداد)، أعلن فيهما ثورته ضد الهيمنة التركية والاستبداد، ودعا إلى الحرية

والاستقلال، ونادى بمشروع نهضوي وحدوي عربي يؤسس لخلافة عربية، وبين أن القومية العربي هي الجامع للجميع دون النظر إلى الدين والمذهب، كما وجه نداء للعرب جميعاً وخاصة من العرب غير المسلمين دعاهم فيه إلى ضرورة وحدة الجميع، وتناسي خلافاتهم مع إخوانهم المسلمين لأنهم كلهم عرب وذلك لمواجهة واقعهم تحت الاحتلال، ودعاهم إلى التكاتف من أجل قيام نهضة قومية عربية واحدة. فقال لهم في نداء أورده في كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد: (يا قوم، وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين، أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلكم أن لا تهتدوا إلى وسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون.. دعونا يا هؤلاء، نحن ندبر شأننا، نتفاهم بالفصحى، ونتراحم بالإخاء، ونتواسى في الضراء، ونتواسى في السراء، دعونا ندير حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم الأخرى فقط، دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي: فلتحيا الأمة، فليحيًا طلقا، أعزاء) (18)

كما جاء في النداء تقريع حاد لقومه فدعاهم بحدة واضحة إلى ضرورة الصحوة من النوم العميق على فراش الاحتلال والذل فقال: (يا قوم عافاكم الله، إلى متى هذا النوم، وإلى متى هذا التقلب على فراش اليأس ووسادة اليأس؟ أنتم مفتحة عيونكم ولكنكم نيام، ولكن أبصار ولكنكم لا تنظرون، وهكذا لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور لكم سمع ولسان ولكنكم صم بكم، ولكمن شبه الحس ولكنكم لا تشعرون به ما هي اللذائذ حقاً وما هي الآلام؟ ولكم رؤوس كبيرة ولكنها مشغولة بمزعجات الأوهام والأحلام، ولكم نفوس حقها أن تكون عزيزة ولكن لا تعرفون لها قدراً ومقاماً).

ثم يقول: (هل طاب لكم النوم على الوسادة اللينة، وسادة الخمول؟ أم طاب لكم السكون وتودون لو تسكنون القبور، أم عاهدتم أنفسكم أن تصلوا غفلة الحياة بالممات، فلا تفيقون من السبات قبل صياح النشور، يوم تعلوا السيوف رقابكم، وتصمي المدافع آذانكم فتمسون الأذلاء، حقاً وحق لكم أن تذلوا)

صـرخة استنهاض كبيرة مؤلمة ولكن لابد من لسعة تيار كهربائي يوقظ الأمة من الـرقاد، ومـن كلمـات التحريض الاستنهاضية نجده يستخدم كلمات تؤلم العربي إلا إنهـا كية نار من أجل داء طالت مدته فيقرعهم فيما يفتخرون به قائلاً: (يا قوم وقـاكم الله مـن الـشر، أنـتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة، مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل).

ودعـا في كـتابه طـبائع الاستبداد إلى الـثورة والتغـيير حين قال: (.. ابنوا قصور فخـاركم علـى معالـي الهمـم ومكـارم الـشيم، لا علـى عظام نخرة. وأن تعلموا أنكم خلقـتم أحـراراً لـتموتوا كـراماً، فاجـتهدوا أن تحـيوا تلكم اليومين حياة رضية، يتسنى فـيها لكل منكم فيها أن يكون سلطاناً مستقلاً في شؤونه لا يحكمه غير الحق، ومديناً وفـياً لقـومه لا يضن علىهم بعين أو أعوان، وولداً باراً لوطنه، لا يبخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله ومحباً) وقال في الحرية: (أنا حر وسأموت حر) (19).

كمـا كـان لكـتابات نجـيب عـازوري أثـرها الكـبير في إحياء الفكر القومي والحـركة العـربية النهضوية، وكان العازوري وكيلاً لمتصرف القدس، ثم انتقل إلى فرنـسا حـيث أسـس فـيها (عـصبة الـوطن العربـي) عـام 1904، وكان من أوائل القومـيين العـرب الـذين تبـنوا مصطلح الوطن العربي، وإن لم يكن قد سبق غيره ممـن اسـتخدموا هـذا المصطلح، الذي أصبح شعار القوميين العرب بعد ذلك، إلا أن مـا يـؤخذ علـيه فهمـه للـوطن العربـي، فحـدوده تقتـصر فقط على بلاد الشام والعـراق، مـتغافلاً عـن الجزيـرة العـربية ووادي النيل والمغرب العربي. دعا إلى الـثورة بـشكل صريح ضد العثمانيين، وأصدر كتاباً هاماً عن تاريخ حركة التحرر القومـي العربـي، الـذي أسمـاه (يقظـة الأمة العربية). فأكد على وجود أمة عربية واحـدة تتميـز عن الترك، وتضم كل العرب المسلمين والمسيحيين، ورفض فكرة الإصلاحيين في دعوتهم إلى بقاء السلطنة العثمانية مع اعتراف بحكم ذاتي للعرب والمساواة مع الترك.

الفصل الرابع

السلطان عبد الحميد والعرب

من خلال ما قدمت لنا البحوث والدراسات في تلك المرحلة الهامة من تاريخ العرب والترك والمشرق كله، نجد عدداً من الوثائق والدراسات بأن السلطان عبد الحميد الثاني قرب العرب إليه، وقلدهم مناصب رفيعة في الدولة، ومن أقربهم إليه مستشاره أبو الهدى الصيادي من سورية (خان شيحون) (20)، الذي اكتسب لديه حظوة كبيرة.

حاول السلطان عبد الحميد أن يسبغ على دولته صفة الخلافة الإسلامية، بحيث تصبح الممثل الأول للمسلمين ومرجعهم، وأن يعيد للخلافة دورها السابق كما كانت عليه في العهدين الأموي والعباسي ولكن بتاج تركي، لهذا أعلن عن إعادة الخلافة الإسلامية، ولقب نفسه بالخليفة، وأجرى العديد من الإصلاحات العلمية والاقتصادية والخدمية في البلدان العربية. إلا أن هذه الإجراءات لم تأتِ إلا لأسباب خارجية وداخلية دفعت عبد الحميد للقيام بها، ومنها:

ـ أنه أراد استباق الانفجار القومي في إمبراطوريته، فصبغ الدولة بالطابع الديني الذي يتخطى القومية، وحركاتها التي بدأت تبرز بشكل ظاهر في الأمم، التي تعيش داخل السلطنة وخاصة التركية والعربية والكردية وغيرها، فقد كان التطور القومي في سلطنته أصبح بارزاً بشكل حاد بين مكونات الدولة العثمانية، مما بات يهدد وحدتها، فوجد أنَّ الانتماء الإسلامي للدولة قد يشكل عامل تصدٍ وتسكين للفورة القومية لدى تلك الشعوب وخاصة التركية منها، فالعامل الإسلامي هو العامل المشترك بين تلك الشعوب وعنصر التوحيد الذي يضم

تحت عباءته كل القوميات التي تنتمي للإسلام.

ـ إن عبد الحميد شعر من خلال ما تقدمه له أجهزته الأمنية من تقارير بتفشي الشعور القومي الشوفيني لدى الترك، وشعورهم بالتميز من باقي الشعوب في السلطنة، هذا الشعور أعطاهم بضرورة تولي الترك قيادة الدولة بشكل كامل، وبالتخلص من بقية القوميات التي تسيطر على بعض مفاصل الدولة الحساسة وخاصة العرب، بما فيها المناصب المتوسطة ، وإبعادهم عن القرار السياسي والإداري في الدولة، هذا يعني لعبد الحميد تفكيك الدولة وتجزئتها.

ـ إدراك عبد الحميد وإحساسه بعدم قدرته على إيقاف الفورة القومية التركية في نهايات القرن التاسع عشر، رغم ما اتخذه من إجراءات أمنية شديدة بحق قادتها وأتباعهم، وملاحقة التنظيمات السرية لتلك الجماعات من سجن وملاحقات، إلا أنه فشل، وخشي على نفسه وأسرته والسلطنة لما تحمله تلك التنظيمات من عداوة لنظامه، وإصرارها على تغييره، جعلته يتجه نحو من الحماية الذاتية، أو الخوف على السلطنة من التفتت إلى بعض القوميات غير التركية وخاصة العرب، لتشكيل قوة تواجه هذه الفورة القومية التركية، فأدخل العديد من العرب في الإدارة والجيش، وقلد البعض منهم قيادة عدد من الفرق العسكرية الهامة، كما استخدم الأكراد في الحرس الخاص له.

ـ كان شعار تغيير وتحديث الدولة هو ما يطرحه القوميون الترك بما يتلاءم والنظم السائدة في أوربا، أي بتقييد سلطة السلطان بالدستور، وبناء مؤسسات تشريعية وتنفيذية حديثة للدولة تتوافق والنموذج الأوربي، وهذا يعني التغيير الشمولي بما فيه السلطان عبد الحميد ذاته والنظام القائم، والذي اعتبره القوميون الترك بأنه يشكل عائقاً أمام طموحاتهم في التغيير الذي يحلمون به، فكان في مشروعهم ضرورة الإطاحة بالنظام السلطاني ككل. وهذا ما يظهر أن السلطان شعر به وبخطورته عليه، ولانعدام وجود قوة تركية قوية قادرة على المواجهة، اتجه إلى أسلمة الدولة بإقامة الخلافة الشمولية، وتعويمها إلى ما فوق القومية كسباً للأنصار من غير الترك.

ـ شعور عبد الحميد أن اليهود والمنظمات الماسونية سيصفون الحساب معه، لما مارسه في بداية حكمه في تصفية عناصرهم والقوى المؤيدة لهم، ورفضه تحقيق أمانيهم ومنها السماح لليهود بإقامة الكيان الصهيوني في فلسطين، وملاحقاته لتنظيماتهم من قبل أجهزة السلطة، وعلى الرغم من التراجع عن تلك الملاحقات، ومحاولاته في أيامه الأخيرة استمالتهم، لكن علم يقيناً أنهم يضمرون الحقد الشديد عليه، كما أنه شعر بضعف قدرته على القضاء عليهم رغم الملاحقات والإبعاد، حين تأكد بأنهم سيطروا على أهم مرافق الدولة قوة وهي المؤسسة العسكرية من خلال تغلغل تنظيمات قريبة منهم كالاتحاد والترقي والمنظمات الماسونية، وهذا أحد العوامل التي جعلته يتجه نحو العرب كحلفاء يعتمد عليهم.

الفصل الخامس

العرب والقوميون الترك

واكب العرب الحراك الفكري والسياسي الجاري داخل الدولة العثمانية، وتظهر بعض الوثائق التاريخية أن الغالبية العظمى من العرب كانت ترغب على إبقاء الدولة العثمانية موحدة تضمهم مع الترك وباقي القوميات مع مساواتهم مع الترك في الحقوق والواجبات. مساواة ترفض تسلط قومية على قومية أخرى، فأسس بعض المتنورين العرب جمعيات سياسية وأدبية تدعو إلى ذلك، ومن أهم الجمعيات التي أسسها العرب مع بعض الترك (جمعية الإخاء العربي العثماني) في استنبول في الثاني من أيلول 1908 وكان من أهدافها:

1 ـ حماية الدستور.

2 ـ صهر العرب والعثمانيين

3 ـ استعمال اللغة العربية في التعليم

4 ـ مراعاة التقاليد العربية. (21)

وقد فتحت عضويتها لجميع العرب مسلمين ومسيحيين، وافتتحت لها فروعاً في عدد من المدن العربية، وأصدرت جريدة ناطقة باسمها، ورغم أن طرحها كان الإبقاء على وحدة البلاد العثمانية إلا أن الترك الاتحاديين، أغلقوا هذه الجمعية بعد ثمانية أشهر من إشهارها، ومنعوا هؤلاء الوسطيين العرب من التعبير عن آرائهم، ودفعوا الأمور إلى الهاوية بين القوميّتين الكبيرتين إلى الانقسام والمواجهة.

علماً أن العرب كانوا مع التغيير وتحديث الدولة وبناء الدولة العصرية الحديثة كما كان الترك ينادون، لهذا نجد أن بعض العرب من العاملين في الحقلين المدني والعسكري انتسبوا إلى جمعية الاتحاد والترقي متأثرين بالشعارات التي طرحتها من حرية ومساواة وإقامة الدستور، وكان من أبرز العسكريين العرب (محمود شوكت وعزيز علي المصري) اللذين لعبا دوراً هاماً في الإطاحة بالسلطان عبد الحميد ووصول الاتحاديين إلى السلطة.

وتم افتتاح فروع لجمعية الاتحاد والترقي في الكثير من المدن العربية بعد وصول الاتحاديين إلى السلطة بعد الانقلاب الأول الذي قاموا به ضد السلطان عبد الحميد، وأجبروه على إعادة دستور مدحت باشا في 24 تموز 1908، جاء افتتاح فروع الاتحاد والترقي دليلاً على ترحيب العرب كبقية القوميات الأخرى بالعهد الجديد، الذي بشرهم بالحرية والمساواة، وبناء دولة عصرية تتساوى فيها كل القوميات.

كان أول شعور للعرب على أن شعارات جمعية الاتحاد والترقي خادعة وكاذبة، بما حدث في الانتخابات التي جرت للبرلمان الجديد وفق الدستور، فانهارت شعارات المساواة، وبرزت الشوفينية القومية التركية حادة على حقيقتها من خلال توزيعهم لمقاعد البرلمان، التي تمت وفقاً لهوى النزعة القومية التركية، فأعطوا أنفسهم أغلبية المقاعد ضاربين بعرض الحائط النسبية العددية لكل مكون من مكونات الدولة العثمانية من قوميات، من أجل إثبات السيطرة والهيمنة التركية على الدولة.

فقد كانت الإحصاءات التقريبية لسكان الدولة العثمانية آنذاك في عام 1908 تشير إلى أن عددهم بلغ (22) موزعين على الشكل التالي:

- **الترك: سبعة ملايين ونصف.**
- **العرب: عشرة ملايين ونصف.**

- باقي القوميات: أربعة ملايين.

ورغم الغالبية الواضحة للعرب في تلك الإحصائية الرسمية، إلا أنهم أعطوا (60) مقعداً، والترك (150) مقعداً، من أصل عدد مقاعد البرلمان البالغة (245) مقعداً (22)، كان لهذا التوزيع غير العادل أثره في العرب الاتحاديين، فأشعرهم أن زملاءهم الاتحاديين الترك يخططون للهيمنة على الدولة والانفراد بالسلطة التنفيذية والتشريعية، من خلال تهميش العرب، ورفض إعطائهم حقوقهم المشروعة من حيث التمثيل الحقيقي في البرلمان أو في السلطة، فأدى هذا التوزيع إلى انقسامات داخل جمعية الاتحاد والترقي بين العرب والترك، وبداية التوجس العربي من الاتحاديين الترك في المستقبل.

وعلى الرغم من ذلك لم يتم الطلاق النهائي بين العرب الاتحاديين والترك الاتحاديين بسبب البرلمان، ولكنه تم بعد أن تم تسخير القائد العربي (محمود شوكت)، الذي كان قائداً في سالونيك، أن يوقد قوة عسكرية انقلابية احتلت العاصمة الآستانة في 24 نيسان 1909، وألقت القبض على السلطان عبد الحميد واعتقلته، وتم نقله إلى سالونيك مركز الماسونية، والثقل المالي والسياسي لليهود في الدولة العثمانية انتقاماً منه لرفضه طلبات هرتزل في مساعدته بإنشاء كيان يهودي في فلسطين. مع تأييد أوروبي بسبب تقرير نشرته الصحف الغربية تحدث عن ظلم واستبداد عبد الحميد، اعتبرته الدول الأوروبية كافياً لإزاحته، وهذا التقرير كان قدمه رفيق نوزت إلى الحكومة الفرنسية بسبب إعدام السلطان لأخيه توفيق نزوت، وكان السلطان قد أعدمه بسبب دفاعه (عن هرتزل وعصابته، وطلب من السلطان إعطاءهم فلسطين، فاعتبر السلطان عبد الحميد مسلكه خيانة وطنية، وأمر بإعدامه، ونفذ الحكم فيه جزاءً وفاقاً) (23)

وجاء الخلاف بين الطرفين العربي والتركي في جمعية الاتحاد والترقي بعد خلع السلطان عبد الحميد، وتم تشكيل ثلاثي ماسوني من يهود الدونما للإشراف على البلاد وهم (جاويد، وقره صو، والمتر سالم)، مما أزعج محمود شوكت، فرفض هذا الإشراف وعارضه بشدة (24)، وبسبب الرفض والخوف من اتساع

نفـوذ شـوكت الـسياسي والعـسكري، والـذي تعاظم بعد قيادته للانقلاب، فحاكوا مؤامـرة في الظـلام لتـصفيته بالاغتيال الشخصي، وفعلاً تم اغتيال محمود شوكت القائـد العربـي (وهـو في الأصـل مـن العـراق) ولتغطـية الجريمة، وإلهاء العرب بحـدث آخـر تمت إثارة فتنة بين الأرمن والأتراك من خلال مذبحة كبيرة، فادعوا أن القـتلة لمحمـود شوكت والأرمن من أنصار عبد الحميد، ثم سهلوا هروب قتلة شـوكت خـارج الدولـة، وقمعـوا الاشـتباكات بـشدة لإرهاب الجماهير والخضوع لهم. (25) ومن بعد حادثة اغتيال الصدر الأعظم (رئيس للوزراء) محمود شوكت في حزيران 1913، بدأ انفضاض العرب من جمعية الاتحاد والترقي.

جـاءت تصفية محمود شوكت لتحطيم آمال العسكريين العرب من التعايش المـشترك مـع الـترك ضـمن جمعـية حاكمـة واحـدة يهيمن عليها الغلاة القوميون الـترك، فقـد كانـوا يحملون أن يجري الحكام الجدد تغييراً ديمقراطياً في هيكلية الدولة، تعطيهم دوراً مشاركاً، وتحررهم من التخلف والفقر، وتتحقق الحرية التي وعـد بهـا الاتحاديـون. فبدلاً من كل تلك الأحلام الوردية، حلّ الاستبداد والظلم، وبـرزت النزعة الطورانية بدلاً من الهوية العثمانية السابقة، ذات الطابع الاستعلائي على بقية القوميات الأخرى.

الفصل السادس

بدايات التفكك التركي/العربي في ظل الاتحاديين

ظهرت أولى بوادر الانشقاق العربي/التركي في العام الأول من وصول الاتحاديين إلى السلطة عام 1909، بدأت من إغلاق جمعية الإخاء العربي العثماني، التي كانت تدعو لاستمرار وحدة الدولة العثمانية، ومن ثم ممارسة الضغط العنصري على العسكريين العرب الذين كانوا معهم في جمعية الاتحاد والترقي لإخراجهم منها أو القبول بما يفرضونه عليهم، وتذكر بعض المصادر التاريخية أشكالاً من تلك الممارسات، التي أثارت العسكريين العرب في الجيش العثماني، ودفعتهم دفعاً إلى التكتل القومي لمواجهة الشوفينية التركية الجديدة، نذكر منها:

1 ـ استدعاء وزارة الحربية للضباط العرب من أوطانهم بدعوى الحضور إلى الآستانة لمناقشتهم في أمور عسكرية، وبعد حضورهم استبقتهم في العاصمة، ورفضت إعادتهم إلى أماكنهم السابقة، وبقوا في العاصمة دون تكليف وتحت الرقابة العسكرية.

2 ـ منع الضباط العرب المقرر التحاقهم مع زملاء الترك ببعثة الضباط العلمية إلى ألمانيا، دون ذكر الأسباب لهذا المنع، إلا منعهم من الاستفادة من العلوم العسكرية الحديثة، والشك بعدم تسلميهم لمراكز قيادية وحساسة في الجيش العثماني.

3 ـ التآمر الواضح من قبل الاتحاديين الأتراك بمنع زملائهم الضباط العرب من المنتسبين إلى جمعية الاتحاد والترقي من الوصول إلى عضوية اللجنة

المركزية للجمعية.

4 ـ تم عزل العديد من الموظفين العرب عن وظائفهم تحت ذريعة أنهم من أنصار السلطان عبد الحميد ومن أتباعه، علماً أن زملاءهم من الموظفين الترك لم يمسوا وبقوا في وظائفهم.

دعوة أعضاء جمعية الاتحاد والترقي كل زعماء العناصر العثمانية إلى العاصمة الآستانة عدا الزعماء العرب من أجل مناقشتهم في الشؤون الداخلية، فوجد الزعماء العرب أن ذلك إهمالاً مقصوداً وتهميشاً واضحاً من السلطة لهم، وكأنهم ليسوا من رعايا الدولة العثمانية الأساسيين، وإنما رعايا من الدرجة الثانية. (26)

أما السبب الرئيسي الذي قصم علاقات العيش المشترك بين العرب والترك، لتحل العلاقات العدائية بينهم هي ما اصطلح عليه (سياسة تتريك الدولة)، وفرض القومية التركية على العرب وغيرهم.

نتيجة لتلك الممارسات الشوفينية حدث الصدام القومي بين الطرفين، وكانت أولى صدامات العرب والترك، قد تمت بين الطلبة ونظرائهم الترك في الكليات العسكرية في العاصمة. ويتحدث فوزي القاوقجي في مذكراته عن تلك الصدامات، بأنه لم يمر بخاطره أثناء وجوده في المدرسة الحربية كلمة عرب أو عروبة، فالخليفة كان للعربي والتركي والكردي وغيرهم، أي كان رمزاً لجميع رعايا الدولة العثمانية. وكان التلامذة في المدرسة من كل الأقطار كانت تجمعهم الجامعة العثمانية. ومما لفت انتباهه لكلمة (العروبة) ما حدث من شجار في الكلية بين طالبين تركي وعربي فيقول القاوقجي:

(وسمعت قائلاً بحماس وجدّ: "أنا تركي"، فأجابه آخر على الفور بحماس وفخر "وأنا عربي"، وانتصر التلامذة العرب لزميلهم. وكأن هذه الكلمة الأولى التي انطلقت في سماء "المدرسة الحربية"، قضت على الصلة التي تجمعنا بالدولة العثمانية، فأصبحت كلمة "عرب" الآن جامعتنا، ومنذ وقوع ذلك الحادث بدأنا

نشعر بأن لنا قومية عربية مستقلة، وراءها أمة وتاريخ ومجد تالد) (27).

ويتحدث الدكتور أحمد قدري في مذكراته عن النعرة القومية التركية الشوفينية لدى هؤلاء العسكريين، والتي أظهرت عداء ظاهراً للعرب، دفعتهم لاختيار الطلاق النهائي بين الطرفين، والاندفاع نحو بناء دولة عربية مستقلة عن الترك، فيذكر أنه كان طالباً في الآستانة حين أعلن عن إعادة الدستور عام 1908 فيصف ما أعقب ذلك من قوله: (ثم شرع الاتحاديون يناهضون العرب مستغلين حفاوة الشعب بإعلان الدستور؛ وإن أنسَ لا أنسَ حادثاً مرّ بي في الآستانة، وهو من أوثق الأدلة على الشعور العدائي الموجه ضد العرب، فبينما كنت أسير مع زميل الدراسة عوني عبد الهادي عقب إعلان الدستور، شاهدت جمهوراً غفيراً من الأهلين أمام ضابط يدعى سري بك، وقد قام يخطب فوق عجلة متغنياً بحسنات الدستور وأمجاده، ثم ما لبث أن انتقل إلى التحامل على كبار الموظفين العرب السابقين، كأنه يقول: (الخائن عرب عزة، والخائن عرب أبو الهدى) (28) الخ.. وقد عجبت أيما عجب لهذا التحامل المغرض، أفلم يكن بين رجال الحكم البائد طائفة كبيرة من الأتراك، فلم يندد الخطيب بواحد منهم مثل ما ندد بالشخصيتين العربيتين؟. وإذا كان يندد بهما لشخصهما فلم يعمد ذكر قوميتهما؟

حقاً هزني شعوري القومي وتعاظمتني العزة العربية، فانطلقت إليه وصديقي عوني عبد الهادي ندفع صفوف الجماهير المزدحمة حتى إذا وصلنا إليه جابهناه باستنكار مزاعمه وفي ملامحنا الغضب وفي صوتنا نبرات مثل النار). (29)

كانت السياسة الشوفينية الحادة التي مارسها الغلاة القوميون الاتحاديون ضد العرب، سبباً إلى دفعهم دفعاً إلى استعادة هويتهم القومية، وفجرت فيهم النزعة القومية والتضحية في سبيل الهوية والوجود، وكانت عاملاً في نشوء الأقطار العربية الحديثة في المشرق العربي، كما يقول الدكتور مجدي حداد: (يمكن القول أن الاتحاديين ساعدوا على تغيير مجرى التاريخ في الجزء الآسيوي من الوطن العربي، فإن بمحاولتهم "تتريك الإمبراطورية" أو بعبارة أدق "مركزة"

إدارتها، أثاروا النزعات الاستقلالية والقومية، وبمحاولاتهم إنزال السياسة من "السماء" إلى عالم الجماهير، حركوا تنظيمات ونزعات سياسية لم يستطيعوا احتواءها، وبإعلانهم عن برامج إصلاحية أنعشوا آمالاً لم يستطيعوا تحقيقها في الواقع) (30).

تسببت هذه السياسة الاتحادية في إحداث تغيرات في عقلية المتنورين العرب وخاصة العسكريين منهم، ومنها سقوط شعارات الحرية والمساواة التي كان يرفعها الاتحاديون بين الأمم داخل الدولة العثمانية، فكانت تلك الشعارات تقابل بالسخرية من العسكريين العرب عندما يطلقها الاتحاديون، لأنهم أكثر الذين عايشوا ممارسات السلطة التركية الجديدة في كلياتهم العسكرية، ويصف ذلك فوزي القاوقجي: (دخل علينا يوماً أحد الضباط مضطرباً، شرع يخطب فينا قائلاً: "أن جيش الحرية (!) دخل استنبول، وأعلنت الحرية والعدالة والمساواة والأخوة في الدولة". وكنت أنا، أضحك في سري، وأتساءل قائلاً: "ما هو جيش الحرية؟ وماذا يحدث إذا دخل استنبول؟ وما معنى الحرية؟ وهل كانت مفقودة فوجدناها؟" ظل الضابط يحدثنا بمثل هذه الأخبار، ونحن نستمع إليه كأننا نستمع إلى درس في آداب اللغة العربية يلقيه معلم صيني). (31).

الفصل السابع

العسكريون العرب والخطر الخارجي والداخلي

شعر العسكريون العرب بخطورة ما يمارسه الاتحاديون في سحق الهوية العربية، وما يقومون به من نسف للعقد الاجتماعي غير المكتوب وهو التساوي كما طرح الإسلام، الذي كان يسوس العلاقات بين العرب والترك منذ مبايعة السلطان العثماني سليم الأول عام 1517 ليكون سلطاناً لكافة المسلمين في الدولة من قبل الزعماء والعلماء والفقهاء العرب، على أن الجامع هو الإسلام من دون تفريق بين عربي وتركي، وبعد أن أصبح خليفة للمسلمين بعد أن تنازل له آخر خليفة عباسي كان يعيش في القاهرة عن الخلافة عام 1517. فنقض الاتحاديون العقد الاجتماعي من خلال تتريك الدولة بدلاً من أسلمتها.

كما ازدادت مشاعر المتنورين العرب تخوفاً بعد ظهور المخططات الاستعمارية الأوروبية، التي تستهدف الأرض العربية وتقسمها إلى مناطق لكل دولة جزء منها، وفي تلك الفترة بلغ الصراع الفرنسي/الألماني أوجه على استعمار المغرب العربي، تخللتها تهديدات للطرفين، وقام غليوم ملك ألمانيا بزيارة للمغرب كتحد لفرنسا، ثم أسفر الصراع إلى استرضاء ألمانيا بقطعة من الكونغو مقابل تخليها عن المغرب، كما تم في تلك الفترة احتلال استعماري لبعض ولايات عربية تحت النفوذ العثماني كتونس وليبيا، ثم تتابع مع الاحتلال البريطاني للبصرة عام 1914 كبداية لاحتلال العراق.

وازداد التخوف العربي مما كان يصلهم عن خطر صهيوني على فلسطين، بعد أن كشف الروس عن مقررات المؤتمر الصهيوني في بال بسويسرا عام 1897، الذي وضع مخططات خطيرة تهدد المشرق العربي بكامله وليس فلسطين

وحدها، كانت هذه التحديات الكبرى من قبل القوى الاستعمارية، إضافة إلى الممارسات العنصرية للاتحاديين شكلت أهم العوامل إلى دفع النشاط السياسي التنظيمي إلى التسارع بين أوساط العسكريين العرب، للعمل على وقف السحق القومي والمحافظة على الهوية العربية في الداخل، وإلى منع الاندفاع الأوروبي الاستعماري من احتلال المشرق العربي، وخلق عوامل التصدي له بتحريض الطاقات العربية الكامنة، إضافة إلى هدف استراتيجي يسعى إلى ردم الهوية الحضارية بين العرب والغرب الأوروبي.

المطالب العربية قبل المواجهة

كانت أهم مطالب العرب ولغاية عام 1910 تنحصر في ما يلي:

1 ـ معرفة أسباب إقصاء عدد كبير منهم عن الوظائف التي كانوا فيها في الآستانة، ولاسيما في وزارتي الخارجية والداخلية، بحكم قانون "التنسيق" ـ أي تغيير المأمورين ـ بحيث تناول هذا التنسيق كل المأمورين من أبناء العرب عمداً، فكان الاتحاديون يكتبون في جداول التنسيق حرف ع (أي عربي) أمام اسم كل مأمور من أبناء العرب ليعرف المنسقون جنسيته.

2 ـ عدم دعوة أبناء العرب إلى أي اجتماع غايته التآلف بين العناصر العثمانية.

3 ـ عدم إدخال عربي من أعضاء الجمعية الاتحادية في اللجنة المركزية في سلانيك حتى الضباط العرب الذين كانوا أول من أعلن الدستور.

4 ـ عدم قبول أي عضو عربي من أعضاء الجمعية في المذاكرات السياسية التي كانت الجمعية تجتمع لأجلها في الآستانة.

5 ـ عدم قبول أي عربي في اللجان المركزية الاتحادية، وتحويل جمعية الاتحاد والترقي من جمعية عثمانية إلى جمعية تركية.

6 ـ انتزاع وزارة الأوقاف من وزير عربي وإسنادها إلى وزير تركي بحيث لم يبق أحد من أبناء العرب في الوزارة.

7 ـ استبدال الولاة والمتصرفين والقضاة من أبناء العرب بولاة ومتصرفين من الترك، وعدم تعيين موظف عربي أو عارف باللغة العربية في سورية والعراق.

8 ـ معارضة الاتحاديين لكل مشروع علمي أو أدبي في البلاد العربية، مثال ذلك أنهم عملوا على حل جمعية "النهضة السورية" الأدبية التي تألفت في دمشق، وألغوا الشركة التي تألفت في نابلس لإنشاء مدرسة منظمة فيها. الخ.

9 ـ مناهضتهم للغة العربية مناهضة غريبة في بابها، فقد نشر سفير الدولة في واشنطن سنة 1909 إعلاناً حظر فيه على العثمانيين المقيمين في أمريكا مخاطبة السفارة بغير اللغة التركية مع علمه بأن الجالية السورية هناك لا يقل عددها عن نصف مليون، وأنه ليس بينها رجل واحد يحسن التركية). (32).

الفصل الثامن

جمعيات القحطانية والائتلاف والحرية

ولدت جمعية العهد (العسكرية) من رحم جمعية سرية سياسية أطلق عليها (الجمعية القحطانية)، التي كانت تضم عدداً من المدنيين والعسكريين العرب، التي أسسها عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي، وكانت الجمعية القحطانية تضع شروطاً مشددة على كل من ينتسب إليها خوفاً من عيون السلطات الأمنية التركية، التي كانت تلاحق التنظيمات والأحزاب القومية غير التركية وخاصة منها العربية. وقد اشترطت على راغب الانتماء إليها أن يكون فوق الشبهات، ويتميز بالقدرة على حفظ السرّ، ولشدة سريتها كانت توزع على أعضائها كلمة (سر) للتعارف بينهم، وإشارة خاصة لإثبات شخصية العضو.

لم يكن هدف الجمعية القحطانية استقلال العرب عن الدولة العثمانية، بل حددت أهدافها بالسعي لتحويل الدولة العثمانية إلى مملكة ذات تاجين (عربي وتركي) على غرار الإمبراطورية النمساوية، التي كانت آنذاك تتكون من تاجين (النمسا والمجر). وأن تؤلف الولايات العربية مملكة واحدة، لها برلمانها، وحكومتها المحلية، وأن تكون اللغة العربية لغة معاهدها ومؤسساتها (33).

وأشار الكاتب السوفيتي لوتسكي إلى أهداف تلك الجمعية: (إن أهداف الجمعية القحطانية نشر مبادئ الحقيقة بين أبناء الشعب، وتوحيد جهودهم، ولمّ صفوفهم، وغيرها من الأهداف. واعتبروا العرب أمة قائمة بذاتها، وصمموا على إعادة تنظيم الإمبراطورية العثمانية كدولة مؤلفة من الأمتين العربية والتركية على غرار النمسا ـ والمجر. على أن يكون السلطان التركي في الوقت ذاته ملكاً

للعـرب، وان تكون الولايات العربية مملكة مستقلة في نطاق الإمبراطورية العربية لهـا بـرلمان خـاص، وحكومة محلية، ولغة رسمية هي اللغة العربية. وكان مركز الجمعـية السرية الآستانة. ولها فروع في خمس مدن عربية إضافة إلى المركز في الآستانة). (34)

وقد انضم إلى الجمعية عدد من الضباط العرب ممن يحملون الرتب العالية، وشخـصيات مـن بلاد الشام ممن عرفوا بدعوتهم إلى إحياء القومية العربية، وكان مـن بينهم المقدم عزيز المصري (مصر)، وسليم الجزائري (دمشق)، وأمين عادل أرسـلان (لبنان) وأمـين كزما (حمص) وصفوت العوا (دمشق) وعلي النشاشيبي (القدس) شكري العسلي (دمشق) (35)

وكمـا أشـرنا أن مـن بـين الذين انتسبوا إلى الجمعية القحطانية المقدم عزيز علـي المـصري، الـذي لعـب دوراً في إنـشاء أول تنظـيم عسكري يحمل مشروعاً قومياً عربياً. وكان أيضاً كما نوهنا من قبل بأنه كان من أهم العرب الذين انتسبوا إلى جمعية الاتحاد والترقي، وقد كانت له مكانة مرموقة بين الاتحاديين، لما قدم مـن خـدمات لهـم سـواء في الإطاحـة بالـسلطان عـبد الحمـيد أو بالحروب التي خاضـوها في ليبـيا والـيمن، ولكـنه كبقـية العرب الذين كانوا في جمعية الاتحاد والترقـي أصيبوا بنكسة في أحلامهم في الحرية والمساواة، وخيبة الأمل بعد تولي الاتحاديين السلطة كما أسلفنا سابقاً.

إلا أن الجمعـية القحطانـية رغم تكتمها الشديد، واستخدام سرية محكمة في التنظـيم، فإن الأتراك استطاعوا اختراقها، وزرع الجواسيس داخلها، ولم يمض على قـيامها سـوى فـترة من الزمن حتى تم اكتشاف تنظيمها وعناصرها وقياداتها، مما أدى إلى قـيام الاتحـاديين إلى باعـتقال العديـد مـن المنتـسبين إليها ووضعهم في الـسجون، وتـسبب اكتـشاف التنظيم إلى مسارعة قادة الجمعية إلى حلها، للحفاظ علـى مـا تبقـى مـن أعـضاء التنظـيم ممن لم تكتشفهم انسلطات الاتحادية وعدم زجهم في السجون والمعتقلات.

حزب الائتلاف والحرية

تشكل بعد الغزو الإيطالي لليبيا، الذي كان له صداه السيئ لدى الشعب العربي عامة، ولدى الضباط العرب خاصة، فكان للاحتلال وما تبعه من مجازر أثره في النفوس والمشاعر العربية، حين تأكدوا أن الأرض العربية أصبحت معرضة لأطماع الدول الأوربية، مع غياب دولة قوية تستطيع وقف هذه الأطماع، وحملوا حكومة الاتحاد والترقي نتائج الاحتلال، وبأنها لم تقم بالواجب المطلوب منها بالدفاع عن الأرض الليبية، وصد العدوان الإيطالي عليها، كونها هي المسئولة عنها بحكم التابعية.

مما حدا بعدد من القادة والمثقفين الترك من المؤمنين بضرورة إبقاء الدولة العثمانية قوية موحدة، ومن المناوئين للغلاة الترك في الاتحاد والترقي إلى تشكيل حزب جديد في 8 تشرين الثاني 1911 أطلقوا عليه اسم (حزب الائتلاف والحرية)، في أعقاب الغزو الإيطالي، وفشل الحكومة التركية برده، وهدف الحزب الجديد إلى وقف الاحتقان القومي في الولايات العثمانية بسبب ممارسات الاتحاديين، على أن تعطي الولايات العثمانية استقلالاً إدارياً، وإدارة البلاد على نظام لا مركزية. وضم الحزب مجموعة من القادة الترك أمثال: كامل باشا والبرنس صباح الدين، وصالح باشا، ورضا نور، ولطفي فكري، وعلي كمال، وصادق بك، وغيرهم وانضم إليها معظم أعضاء المبعوثان من العرب والأرمن والأروام والألبانيين (36) وفريق من القادة والضباط ومنهم ضباط عرب من بينهم المقدم عزيز المصري (37).

استطاع الحزب أن يسحب البساط من الاتحاديين، ويهدد مشروعهم القومي التعصبي الذي أصبح خطراً على كيان الدولة ووحدتها، فسير العديد من المظاهرات، وكانت أقواها بعد ثورة ألبانيا، حين قاد الحزب ثورة جماهيرية في الأستانة، أسفرت عن سقوط حكومة الاتحاديين، وحل مجلس المبعوثان، وتعيين وزارة ائتلافية برئاسة مختار باشا، التي لم تدم طويلاً حيث أعقبتها وزارة ائتلافية

جديدة برئاسة كامل باشا، ففرح العرب بهذه الوزارة لما في رئيسها من اتزان قومي وتفهم لقضايا العرب.

إلا أن ما تركه الاتحاديون من إرث قاسٍ كالفساد المالي والنزعات القومية، وخواء الخزينة، وفساد الجيش، وما تركته الحرب مع إيطاليا وثورة ألبانيا ومشكلة مقدونية والمسألة البلقانية وغيرها من الأزمات، منع هذه الوزارة من أن تحقق أهدافها. وكانت من أهم أسباب فشلها عدم قدرتها على حل مشكلة مكدونية، فبعد أن تم الاتفاق مع الدول الأوربية الكبرى على حل تلك المشكلة، بما يتوافق ومطالب السكان والدول البلقانية وبما يحفظ حقوق الدولة العثمانية؛ سير الاتحاديون مظاهرات حاشدة في شوارع العاصمة قبل التصديق على الاتفاقية من قبل الحكومة بذريعة التفريط بالمصالح القومية التركية، فأرغمت تلك المسيرات والمظاهرات الحكومة للرضوخ لمطالب الاتحاديين على شن الحرب على البلقانيين، حرب لم تكن الدولة مستعدة لها، فكانت نتائجها هزيمة ومأساة على القوات العثمانية، وكانت من أولى نتائج الحرب خسارة الائتلافيين الوزارة والدولة، واستعادة الاتحاديون سدة الحكم مرة أخرى.

الفصل التاسع

مقررات مؤتمر باريس ومناورة الاتحاديين عليها

مع ظهور نذر الحرب العالمية الأولى شكل عدد من المتنورين العرب (لجنة باريس) بتوجيه من (جمعية العربية الفتاة) لعناصرها وهم عوني عبد الهادي - جميل مردم بك - محمد محمصاني - عبد الغني العريسي) ثم أضافوا إليهم كل من: (ندرة المطران - شكري غانم - شارل دباس - جميل معلوف).

وشكلوا أمانة سر لهم أطلقوا عليها (أمانة سر مؤتمر باريس) تألفت من: شارل دباس وعبد الغني العريسي وجميل مردم بك) (38).

أرسل المقيمون من أعضاء العربية الفتاة في باريس في 4 باريس 1913 كتاباً إلى اللغة العليا لحزب اللامركزية في القاهرة، يؤكدون فيه على ضرورة عقد مؤتمر عربي، يدرس الوضع العربي خاصة في المشرق تحت حكم الاتحاديين، ووضع خطط للإصلاح في الأقطار العربية، ويؤكد على الدولة العثمانية على إعطاء الحقوق العربية المشروعة، وإقامة نظام لا مركزية في الولايات العربية. وقد جاء في نص الكتاب: (لقد جمعتم في برنامجكم الأماني التي يرتادها أبناء العرب لسعادتهم، وترقيتهم في كل حين لذلك أوقفنا أنفسنا لخدمة غايتكم النبيلة، واعتبرناكم مصدراً لما نتوقع أن نقوم به في هذه الديار إزاء مناظرات الجرائد، ومغامز الخطباء في الأندية السياسية، ومجرى المخابرات الدولية بشأن البلاد العربية. ذلك ما حمل الجالية العربية على الاجتماع، والبحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن المحبوب من الطوارئ، وإصلاح أمور بلادنا على أساس اللامركزية.

وبعـد المناقـشات ارتـأت أن تعقـد مؤتمـراً للعـرب تظهـر فيه للأجانب، أن العـرب يـدرؤون عادية الاحتلال من أية دولة كانت، ويحتفظون بحياتهم الوطنية، وتـصارح الدولة العثمانية بوجوب تطبيق الإصلاحات اللامركزية في بلاد العرب. وإليكم ما تدور حوله مباحث المؤتمر:

1 ـ الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.

2 ـ حقوق العرب في المملكة العثمانية.

3 ـ ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية.

4 ـ المهاجرة من سورية وإليها.

وحـسبنا الله أن يأخـذ بأيـديكم وأيدينـا لوقاية الأمة والبلاد من فساد البداية والمعـاد والسلام عليكم)(39). استجاب حزب اللامركزية لكتاب أعضاء العرب المقـيمين في بـاريس دون معـرفة أنهـم ينـتمون إلى جمعية سرية (العربية الفتاة) كـونها حديـثة التـشكل، ولم تعـرف مـن قـبل، وفعـلاً أرسـلت مندوبين عنها إلى بـاريس لحـضور وقائـع المؤتمـر، كمـا اتـصلت جمعـية الفـتاة العربية بالجمعية الإصـلاحية التي تأسست عام 1912 في بيروت، ووافقت على الحضور، مع العلم أن الجمعـية المذكـورة قد حلها أنور باشا بعد أشهر من تأسيسها، لكنها استمرت بالعمل سرياً.

الاتحاديون محاولات إفشال عقد المؤتمر

سـعى الاتحاديـون لإفـشال عقـد المؤتمـر بعد أن علموا بما تقوم به النخبة العـربية في بـاريس على جمع ممثلي الجمعيات والأحزاب العربية ضمن مؤتمر يعقـد في بـاريس، يحـدد المطالب العربية المشروعة للحكومة الاتحادية وللرأي العـام العالمـي وللـدول الكـبرى. ويحـدد العلاقـات العـربية مـع الاتحاديين وفق الإقـرار بالحقوق العربية ضمن الدولة العثمانية، فاغتاظت الحكومة الاتحادية من هـذه الأنـباء غـير الـسعيدة لـيقظة مـارد مـن نـوم دام خمـسة قـرون، فاسـتخدمت

مجموعة من المحاولات لعلها تمنع انعقاد المؤتمر، ومن تلك المحاولات:

1 - أجرت الحكومة الاتحادية عدة اتصالات مع الحكومة الفرنسية لمنع عقد المؤتمر على أراضيها، ولم تثمر تلك الاتصالات عن شيء.

2 - أوعزت لبعض العرب الاتحاديين بالإعلان عن رفضهم للمؤتمر، ومنها استخدام وسائل الإعلام كإعلان عن الرفض، فكتب مثلاً (طه أفندي) صاحب جريدة الرأي العام الاتحادية في الآستانة: بأن ما يقوله العرب، ويدعونه، أو يطالبون به من إصلاح، هو تصحيح أخطاء أقوال الصحف التركية عنهم من تقليل من شأنهم، وأكد غير تلك الصحف فليس وجود لخلاف بين العرب والترك.

3 - أثارت بعض رجال الدين العرب ضد القوميين العرب، فدعا الشيخ عبد العزيز جاويش (وهو من أقطاب الحزب الوطني المصري) إلى إنشاء جامعة إسلامية بديلاً عن المطالب العربية.

4 - أوعزت للموظفين ورجال الأمن العرب بإرسال برقيات استنكار لعقد المؤتمر وتأييد للحكومة الاتحادية، وأن يقذفوا الساعين إلى عقد المؤتمر بالاتهامات والافتراءات بأنهم جواسيس ومتشردون ولا يمثلون العرب، وكانت معظم البرقيات تتضمن كلمات واحدة وهي: (أن القائمين بفكرة الإصلاح في سورية فئة من المتشردين الفارين من وجه الحكومة السنية. فجميع أهل سورية مسلمين ومسيحيين يكذبون افتراءاتهم، ويظهرون للحكومة امتنانهم وسرورهم من طراز الإدارة الحاضرة التي أعلت شأن الدولة، ورفعت راية الدين). (40)

5 - كما شكل عدد من وجهاء العرب وأثريائهم من المناصرين للدولة العثمانية في دمشق حزباً أطلقوا عليه حزب (الإصلاح) لمواجهة مؤتمر باريس، وكان مؤسساه محمد باشا العظم وعبد الرحمن باشا اليوسف، وبعد ذلك انضم إليهم كل من: الأمير شكيب أرسلان والدكتور حسن الأسير والشيخ أسعد الشقيري والشريف علي حيدر وأخوه جعفر، وانضم إليه من مصر الشيخ عبد العزيز جاويش. ومن تونس عبد العزيز الثعالبي بغية مساندة حزبه الوطني، ومن

ليبيا الشيخ المجاهد سليمان الباروني من قادة الوطنيين المجاهدين في طرابلس الغرب ومعه يوسف شتوان نائب برقة السابق، وادعى هؤلاء من حزب الإصلاح أن مؤتمر باريس يعمل بوحي الدول الأجنبية. (41)

6 ـ شنت الصحف التركية التابعة لجمعية الاتحاد والترقي حملة إعلامية على المؤتمر والداعين إليه، واتهمتهم بأن لا يمثلون العرب، وأنهم قد تخلوا عن جنسيتهم العربية، وأنهم حصلوا على الجنسية الفرنسية، حتى بلغ بصحيفة تركية تدعى جريدة (تصوير أفكار) بالطلب من الحكومة الاتحادية بإعادة احتلال الدول العربية، وحكمها حكماً مباشراً فقد قالت: (يجب علينا أن نفتح البلاد العربية من جديد) (42) (انظر إلى باب الوثائق).

إلا أن إدراك الحكومة الاتحادية أن أي عمل عدواني في هذه الفترة ضد النهضويين العرب، ستجلب لهم عواقب وخيمة ومنها ارتفاع موجات الغضب العربي الشعبي على عنصريتها، وهضمها للحقوق العربية، مما جعلها تلجأ إلى المناورة السياسية بامتصاص هذه الموجة العربية القادمة من باريس، بدلاً من التصعيد العنيف مع المؤتمرين الذي لا يحمد عقباه، وما عليها إلا انتظار الفرصة التاريخية لسحق النهضة القومية العربية وروادها.

الفصل العاشر

مؤتمر باريس

انعقد المؤتمر في باريس في 18 حزيران 1913، واستمر لغاية 23 حزيران 1913، حضره ثلاثة وعشرون مندوباً، يمثلون أحزاباً وجمعيات وبعض الجاليات العربية في الخارج، وترأس الجلسات الشيخ عبد الحميد الزهراوي ونائبه إسكندر عمون، وبعد أربع جلسات منها ثلاث مغلقة، ورابعة مفتوحة حضرها أجانب وأقر المؤتمر المقررات التالية:

ـ إن الإصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للملكة العثمانية فيجب أن تنفذ بوجه السرعة.

ـ من المسلم به أن يكون تمتع العرب بحقوقهم السياسية مضموناً وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً.

ـ يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لا مركزية تنظر في حاجتها ومتطلباتها للرقي.

ـ كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة صودق عليها يوم 31 كانون الأول 1912 بإجماع الآراء، وهي قائمة على مبدأين أساسيين وهما: توسيع سلطة المجالس العمومية، وتعيين الدولة العثمانية لمستشارين أجانب كموظفين لدى الحكومة، فالمؤتمر يطالب بتنفيذ وتطبيق هذين المطلبين.

ـ اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية.

تكـون الخدمـة العـسكرية محلـية في الـولايات العـربية إلا في الظـروف والأحيان التي تدعو إلى الاستثناء الأقصى.

ـ يـصادق المؤتمـر ويظهـر مـيله لمطالـب الأرمـن العثمانـيين القائمة على أساس اللامركزية، ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم، ويحيي العراق.

ـ يجري تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية.

ـ وتبلـيغ هـذه القـرارات أيـضاً للحكـومات الأوروبـية، ويـشكر المؤتمـر الحكومة الفرنسية شكراً جزيلاً لترحابها الكريم بضيوفها.

ـ ملحق لهذه القرارات:

ـ إذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها المؤتمر فالأعضاء المنتخبون في لجان الإصـلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية إلا بموافقة خاصة من الجمعيات التي ينتمون إليها.

ـ تكـون القـرارات بـرنامجاً سياسـياً للعـرب العثمانـيين ولا يمكن مساعدة مرشح في الانتخابات النيابية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وتنفيذه.

ـ المؤتمـر يـشكر مهاجـري العـرب علـى وطنيتهم في مؤازرتهم له. (43) (انظر إلى الوثائق وثيقة مؤتمر باريس).

الفصل الحادي عشر

الاتحاديون ونتائج مؤتمر باريس

بعد انتهاء المؤتمر توجه إلى السفارة التركية في باريس وفد من المؤتمر يضم كلاً من عبد الحميد الزهراوي وشكري غانم وإسكندر عمون وسليم علي سلام وأحمد طبارة وأحمد مختار بيهم وخليل زينية، وقابلوا السفير، وسلموه نسخة من قرارات المؤتمر مرفقة بكتاب جاء فيه:

(انفاذاً للقرار الصادر من المؤتمر العربي في 23 حزيران 1913 نتشرف بأن نرسل لدولتكم مع كتابنا هذا نسخة من القرارات التي صادق عليها المؤتمر. راجين أن تتفضلوا بإطلاع الحكومة العثمانية عليها. وتقبلوا فائق احترامنا). (44)

وزار الوفد وزير خارجية فرنسا المسيو بيشون، وشكروه على استضافة فرنسا للمؤتمر، وبينوا له أن المؤتمر لا يبغي سوى إصلاح الدولة العثمانية، والسعي لنيل بعض الحقوق العربية منها.

وحين وجد الاتحاديون أن الظروف السياسية الداخلية والدولية لا تسير وفق صالحهم، وأن الوضع الدولي يشير إلى صراع عسكري محتمل بين الدول الأوربية لا ينجو منه أحد، سعت إلى استخدام المناورة السياسية في كسب سياسي مؤقت من هؤلاء القادة العرب المتواجدين في باريس. تقوم تلك المناورة على سحب هؤلاء إلى الداخل من خلال الإغراء بالمناصب الحكومية، وبوعود من إصلاح داخلي لمصلحة العرب، والتظاهر بقبول بعض طلبات العرب التي وردت في مقررات المؤتمر.

فأرسلت الحكومة الاتحادية إلى باريس أمين سر جمعية الاتحاد والترقي

مدحت شكري بك ممثلاً عنها لإجراء حوار مع ممثلي المؤتمر، وفعلاً عقد عدة اجتماعات مع أعضاء المؤتمر، وبعد عدة جلسات ومناقشات تم الاتفاق بين الطرفين على بعض الشروط. إلا أن المصادر التاريخية تضاربت حول مضمون الاتفاق الحقيقي الذي وصل إليه كل من أمين سر جمعية الاتحاد والترقي وقادة المؤتمر، فنجد أن الدكتور أحمد قدري وهو من قادة العربية الفتاة يقول في مذكراته بأنهم توصلوا بعد جهد جهيد مع مدحت باشا إلى الشروط التالية:

- يكون التعليم العالي فقط باللغة التركية، وما عداه فيكون باللغة العربية في جميع الولايات العربية.

– يجب على الموظفين في الولايات العربية باستثناء الولاة أن يعرفوا اللغة العربية، ويجري تعيينهم من قبل السلطات المحلية ما عدا القضاة الشرعيين الذين تعينهم العاصمة.

- توسيع سلطات الإدارة المحلية فتشمل النافعة والتعليم والأوقات.. الخ.

– يكون في الوزارة مبدئياً ثلاثة وزراء من الأمة العربية، وتضم وظائف الدولة الكبرى عدداً كافياً منهم يتناسب مع عدد العرب في الدولة.

– لما كان أعضاء مجلس الأعيان يعينون تعييناً من قبل السلطان وجب تعيين اثنين عن كل ولاية عربية (45).

في حين يذكر الدكتور عبد الكريم رافق في كتابه المشرق العربي في العهد العثماني، بأنهم توصلوا إلى شروط مقبولة هي:

- اعترفت الحكومة بالتجنيد المحلي.

– جعل اللغة العربية لغة رسمية في المقاطعات العربية، واستعمالها في التدريس في المدارس الابتدائية والثانوية العربية.

- وافقت الحكومة الاتحادية على تعيين مشرفين أوروبيين لإصلاح الإدارة.

- إعطاء بعض الوظائف العليا للعرب.

– أدخال ثلاثة وزراء عرب إلى الحكومة، وتعيين عدد آخر في مجلس

الشورى ومحكمة التمييز والمشيخة الإسلامية.

- تعيين اثنين من كل ولاية في مجلس الأعيان (46)

على الرغم من عدم وجود تباين كبيرين في المصدرين التاريخيين سوى في بنود التجنيد واللغة، إلا أننا نرى وثقة الاتفاق الأقرب إلى الحقيقة الكاملة هي ما ذكره أسعد داغر في كتابه ثورة العرب، والذي نشر فيه القرار الرسمي الذي أصدرته الوزارة الاتحادية في أوائل آب/أغسطس/ 1913، والذي تم نشره آنذاك في الصحف التركية في العاصمة الآستانة، وقد نص على التالي:

(أنه بالنظر إلى الضرورات واختلاف الأمزجة في الولايات العثمانية، وإلى وجوب ترقية البلاد، وإسعاد أهلها وزيادة رفاهيتهم تقرر بعد الاتكال على الله ومفاوضة الولايات:

ـ أن يعهد في إدارة الأوقاف الموقوفة على عمل الخير المحلي بحسب شروط الواقف إلى مجالس الجماعات في الولايات وذلك بموجب قانون جديد ينشر قريباً.

ـ أن تكون الخدمة العسكرية في زمن السلم في دائرة التفتيش، إلا إذا رأت الحكومة لسبب ما حشد قسم من الجنود في جهة من الجهات، فترسل العساكر على الطريقة النسبية إلى الولايات البعيدة كاليمن والحجاز وعسير ونجد.

ـ أن يكون التدريس باللغة العربية في جميع مدارس الولايات التي يتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة، وذلك لتوفير أسباب المدنية التي تحتاج إليها في الحال وفي الاستقبال. هذا ولما كانت هناك فائدة أساسية من أن يكون التدريس باللغة العربية وفي جميع المكاتب فيجب مباشرة ذلك الآن في المكاتب الرشدية والإعدادية، وتوفير أسباب التدريس العالي بلغة الأكثرية أيضاً، بشرط أن يبقى التدريس باللغة التركية، كما كان في المكاتب الإعدادية في حواضر الولايات، وذلك لتعميم اللسان الرسمي.

ـ أن يعين المأمورين من الواقفين على اللغة العربية علاوة على اللغة

الـرسمية، وأن ينظـر حـين تعيينـهم إلى هـذا الـشرط. وتعيين الحكومة المركزية المأمـورين الـذين يقتـضي لتعيينـهم إرادة سنية. أما المأمورون الثانويون فيعينون بمقتضى القانون الجديد.

وقد أبلغ هذا القرار إلى وزارات الحربية والمعارف والأوقاف للعمل به. وقد تقـرر استقدام مفتـشين مـن الأجانـب لكل ولاية من الولايات على قدر الحاجة. ولـذلك جـاء في قانـون الـولايات الجديـد أن المصاريف المحلية ولاسيما عجز ميـزانية المعـارف والـنافعة تضاف إلى ميزانية الولاية. وعلى الولاية أن لا تخرج عـن دائرة الصلاحية الممنوحة لها في قانون الولايات. فيجب بذل الهمة...) انتهى. (47).

بعـد الإعـلان عن الاتفاق بين الاتحاديين ووفد مؤتمر باريس العربي، عمت الفـرحة كافـة العـرب في بـلاد الشام والعراق وفي العاصمة الآستانة، وتشكل وفد عربـي مـن المقيمين في العاصمة لشكر الحكومة الاتحادية على قبولها المطالب العـربية. ولكـن مـن الطـريف ونحـن نـستعرض هـذه الحقبة التاريخية الهامة من تـاريخ العرب، أن نجد تبدل الجلود لدى الانتهازيين والنفعيين كما في كل زمان، حـيث تحـول مـن جاهـر بالعـداء للمؤتمـر إلى مندوب تهنئة عن أعضاء مؤتمر بـاريس. حـيث ضـم الـوفد الموالين للحكومة التركية والمطالبين بالإصلاح، فكان يـضم الـشريف حـيدر وولديـه، وشكري الأيوبي وشكـري الحسيني ومحي الدين الجزائـري وبديـع المـؤيد ونجـيب شـقير ومعروف الرصافي والشيخ عبد العزيز جاويش وسامي العظم وحسين حيدر وعبد الكريم خليل.

التقـى الـوفد بالـصدر الأعظـم يوم الثلاثاء في 5 آب 1913، وأثنى عدد من الخطـباء بقـبول الحكومة والتمجيد بما أقدمت عليه كما هو الحال في كل زمان، إلا أن كلمـة الـشهيد عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي والذي كان الشبيبة العـربية في الآسـتانة، كانـت تتميـز بالجرأة وقراءة المستقبل، حين أشار في كلمته إلى تقديـر الشبيبة العربية للإصلاح في البلاد العربية، وضرورة التنفيذ عملياً على أرض الواقع وليس بالأماني والوعود، ومما قاله للصدر الأعظم ينم عن خوف من

التسويف ومستقبل الأرض العربية: (أرجو من صميم الفؤاد تنفيذ قرارات الإصلاح بأقرب ما يمكن)، وعرض في كلمته بعض المطالب العربية ومنها التأكيد على رفع الإحكام العرفية خاصة في بيروت، والسماح بحرية الصحافة والتعبير، ورفع المنع عن الصحافة المصرية، ومن أهم ما أشار إليه وقف الاستيلاء على الأرض العربية وخاصة في فلسطين، ومن أهم ما طرحه عدم بيع تلك الأراضي في فلسطين للأجانب إشارة إلى اليهود. (48) (أنظر إلى الوثائق)

الالتفات على المؤتمر وبيان الحكومة الاتحادية.

لم تكن الحكومة الاتحادية كما أشرنا جادة في ما أعلنت من إصلاح في الولايات العربية، أو منح الحدّ الأدنى من الحقوق العربية، بل نجدها أنها عملت وفق خطة مدروسة تستهدف تفتيت القوى النهضوية العربية المتصاعدة، لمعرفتها بوجود فوارق في الأهداف والوسائل والثقافات لكل حزب وجمعية وتكتل، فعملت على القضاء على كل جماعة على حدة، لعلمها أن هناك اختلافات في الوسط السياسي والثقافي العربي، وما يجمعهم سوى هدف التغيير والإصلاح، وتفرقهم المصالح والأهداف.

لهذا يظهر لنا من الحالة السياسية التاريخية لتلك المرحلة المفصلية من تاريخ العرب الحديث؛ أن الحكومة الاتحادية بدلاً من القبول بالمطالب العربية الرافضة للانفصال والساعية إلى الإصلاح، وتغيير حال العرب من التابع إلى الشريك، كانت تعمل من منطلقها القومي التعصبي الضيق القائم على احتواء وقتي للحركة العربية الناهضة، ومن ثم القضاء عليها بكل الوسائل، وهذا ما أدى إلى الطلاق النهائي بين العرب والترك، وتغليب اتجاه الثورة وبناء وطن عربي متحرر من كل تبعية.

لقد استخدمت الحكومة الاتحادية مجموعة من الوسائل لتفتيت الحركة العربية النهضوية من بعد إعلانها الوزاري بقبول بعض الطلبات العربية ومنها:

ـ استخدام أنصار الحكومة الاتحادية من العرب المنتفعين منها، بإطلاق

حملة تشكيك وتخوين بقادة الحركة النهضوية العربية عامة وخاصة منهم أعضاء مؤتمر باريس، بغية إسقاطهم في نظر الجماهير العربية وخاصة الشباب منهم، وكان من بين الذين تجندوا قادة عرب لهم مكانتهم في المجتمع العربي لتلك الحملة حتى تجد آذاناً صاغية لدى العامة من العرب. فقد تم استحضار إلى العاصمة الآستانة عبد الرحمن بك اليوسف والأمير شكيب أرسلان ومحمد باشا العظم والشيخ أحمد شقير وغيرهم، فأطلقوا حملة تشكيك في الصحف الصادرة في العاصمة، نذكر منها ما قاله أحدهم لصحيفة (تصوير أفكار) التركية: (إن العرب يأسفون جداً لانخداع الحكومة ومسالمتها لشبيبة عربية ليست على شيء من الوطنية، غايتها تسليم البلاد إلى الأجانب والقضاء على الدولة والإسلام والمسلمين).

وصرخ آخر لمحرري الصحف ناسفاً كل نضال الحركة ولب حركة نضالها الاعتراف باللغة العربية حين قال: (إن بقاء اللغة التركية لغة رسمية في البلاد العربية في مصلحة العرب أنفسهم، لأنهم إذا كتبوا الاستدعاءات (العرضحالات) بالعربية وأرسلوها إلى الآستانة، طالت مدة إقامتها فيها، وقد تظل السنين الطوال فيكون العرب خاسرين) (49).

ـ زرع الشك بين الشبيبة العربية وقادة المؤتمر، وخاصة استهداف الشهيد الشيخ عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر ليكون موضع شك لديهم، وأنه قد خانهم بقبول المنصب. ففي أواخر كانون الأول نشرت الصحف الاتحادية طنين وتصوير أفكار صورة للشهيد عبد الحميد الزهراوي (وإلى يمينه رمز للجيش العثماني، وإلى يساره رمز للأسطول، وتحته رسوم صغيرة لأنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا مع العبارة التالية بحروف كبيرة "بمثل هؤلاء الأبطال يعتز الملك وعلى مثل هذا الاتحاد تشييد الدولة العثمانية مستقبلها العظيم") (50) مما أثار حفيظة العرب النهضويين والشبيبة العربية في الآستانة ضده، وأوجد جواً من استياء لدى الشهيد نفسه.

ـ تأخير تنفيذ الاتفاقات التي تمت بين الطرفين العربي، وإبقاء زعماء

المؤتمر وفي مقدمتهم الشهيد عبد الحميد الزهراوي منذ وصوله إلى الآستانة في 28 تشرين الثاني 1913 وحتى 4 كانون الأول 1914 دون تنفيذ الاتفاق، أوجد حالة من الريبة والشك بين العرب على مختلف اتجاهاتهم، وخاصة لدى العرب النهضويين، وهذا ما عبر عنه الشهيد الزهاوي في رسالته السرية بتاريخ 16 كانون الثاني 1914 للشيخ رشيد رضا في القاهرة. تضمنت شرحاً للوضع العربي والدولي وحال الحكومة الاتحادية، وما عانت من ردة فعل سلبية من قبل الشبيبة العربية في العاصمة حين صدر تعيينه في مجلس الأعيان، وشرح مفصل عن حالة العرب في العاصمة وخارجها وفي الولايات العربية، وفي دوائر الدولة والجيش، قال فيها: (إن العاصمة في حالتها الحاضرة ليس فيها عرب تستطيع جماعتنا (حزب اللامركزية) أن تعتمد على أحد منهم، أو أن تعمل صلة ورابطة مع أحد) (أنظر إلى نص الرسالة في باب الوثائق).

وبعد مماطلات استهدفت التلاعب في نفوس القادة وإذلالهم، صدرت القرارات التنفيذية لبعض بنود الاتفاق الذي تم بين مندوب الحكومة الاتحادية وقادة المؤتمر في باريس. ففي صباح الأحد 4 كانون الثاني 1914 صدرت الإدارة السنية بتعيين عبد الحميد الزهراوي وعبد الرحمن بك اليوسف، ومحمد أفندي بيهم، ويوسف أفندي سرسف، ومحي الدين أفندي النقيب، وأحمد أفندي الكيخيا أعضاء في مجلس الأعيان العثماني، وعينت شكري العسلي وعبد الوهاب الإنكليزي وناجي السويدي وأمين التميمي في مناصب رفيعة، وأحدثت مدرستين ثانويتين عربيتين في دمشق وبيروت، وعينت وفيق التميمي مديراً لثانوية دمشق، ورستم حيدر مديراً لثانوية بيروت، وسمحت للمحاكم في البلدان العربية أن تتم فيها المرافعات باللغة العربية (51).

هذا ما تصورته الحكومة الاتحادية بأنها استطاعت أن تحقق للعرب مطالبهم، وتنهي المعارضة العربية النهضوية، وتجمدها لفترة من الزمن، فحين كانت تباشير الحرب العالمية بدأت نذرها تكاد تشعل العالم، وكان لتركيا تحالف دولي مع ألمانيا خاصة مما يؤدي إلى دخولها الحرب إن اندلعت، وأيضاً

لها آمال في استعادة ما خسرته في حروبها السابقة في أوربا وآسيا.

إلا إن النهضويين العرب رأوا فيما قدمه الاتحاديون لا يلبي طموحاتهم في المساواة مع الترك في الحقوق والواجبات، مما شكلت تلك القرارات الناقصة فصلاً آخر من الصراع بين العرب المطلبين بالعدل والمساواة الندية والاتحاديين المتسلحين بعنصرية استعلائية، ترفض مساواتها بأي عنصر آخر سوى أنه تابع لها، وما ليس له إلا بعض الحقوق البسيطة. وهكذا بدأت نيران الصراع بين الطرفين العربي والتركي تشتعل من جديد..

الفصل الثاني عشر

عزيز المصري ونشوء جمعية العهد

من خلال ما ذكرناه عن نشوء الجمعيات العربية؛ يلاحظ تكرار انتساب عزيز المصري إلى العديد من الجمعيات العربية، الباحثة عن اعتراف تركي بالهوية القومية العربية على أنها شخصية سيادية أسوة بالقومية التركية الصاعدة والطامحة لاستمرار الترك قيادة الدولة ومؤسساتها.

وما الانفجار القومي العربي الذي تم التعبير عنه خلال الجمعيات والأحزاب، إلا بسبب فرض الهوية التركية من قبل الاتحاديين كهوية وحيدة في الدولة العثمانية على بقية القوميات الأخرى بما فيها العربية، والعمل على تهميشها ثم إذابتها واستيعابها في القومية الطورانية، وتتابع ذلك بالملاحقات الأمنية والبوليسية للتنظيمات السياسية من أحزاب وجمعيات لكافة القوميات غير التركية، والساعية من أجل تحقيق مطالبها القومية. في الوقت نفسه تخدع جمعية الاتحاد والترقي تلك القوميات والدول الأوربية والرأي العام العالمي برفع شعارات الحرية والمساواة والعدالة، وبناء الدولة العصرية على أساس تلك الشعارات.

ولضرورة دراسة الدور العسكري في النهوض القومي العربي في تلك الفترة نأخذ عزيز المصري أنموذجاً لهؤلاء العساكر القوميين الذين خدموا في الجيش العثماني، وشكلوا أو انتسبوا إلى أحزاب وجمعيات قومية استقلالية في تلك الفترة، على اعتبار المصري كان الأكثر إثارة في تلك المرحلة، واشتهر بتأسيسه لتنظيم عسكري قومي، وحوكم لمقاومته للنظام التركي، وكتبت عنه آنذاك

الصحف الأوربية كحامل لمشروع قومي، وسعيه لاستقلال بلاده في الحكومة التركية، وتوجهت آنذاك إليه أنظار الرأي العام العربي خاصة والأوربي عامة، كما أصبح مثلاً للعسكريين في العهد التركي وما بعد الثورة العربية، وحتى خلال النضال ضد الاستعمار الأوربي وبقي مثلاً للضباط العرب إلى ما بعد أواسط القرن العشرين وخاصة الضباط العرب المصريين والعراقيين والشاميين.

ومن يقرأ تاريخ عزيز المصري في تلك المرحلة من المخاض السياسي والفكري والإيديولوجي، يجد أن المصري لم يستطع خلال وجوده في الجمعية القحطانية أو جمعية الائتلاف والحرية خلق كتلة قومية متراصة مع الجناح المدني القومي العربي تواجه الاتحاديين، وتفرض عليهم المطالب العربية ولو بالحد الأدنى كالاعتراف بحق العرب في الحكم الذاتي، وجعل اللغة العربية لغة رسمية في الأقطار العربية إلى جانب التركية.

الدوافع الأساسية لإنشاء تنظيم قومي خاص بالعسكريين

والسبب يعود لكثرة الانشقاقات بين المدنين، لاختلاف الرؤى والثقافات والبيئات، والتنافس الشخصي على مناصب ثانوية، وعدم التوحد وراء استراتيجية عربية مستقبلية. وهذا ما سمح بالاختراق الأمني التركي لتلك الجمعيات، مما شكل خطراً على الجميع وخاصة العسكريين منهم، لأن وجود العسكريين في التنظيمات السياسية المعادية لحكومتهم وقيادتهم يعرضهم للاعتقال والمطاردة، وحرمانهم من مزايا الراتب والمعيشة، إضافة إلى أن وجودهم في داخل قطاعاتهم العسكرية وقيادتها أو في مفاصلها الحساسة، يعطيهم مركز القوة في ياي تحرك ثوري لتحقيق المطالب العربية.

بسبب الفشل في توحيد المناهضين العرب المدنيين والعسكريين لسياسة التتريك، ولخطورة العواقب التي ستسفر عن كشف التنظيمات السرية على العسكريين، قرر عزيز المصري إنشاء جمعية خاصة بالعسكريين العرب ذات طابع سري تنظيمي، تستطيع منع أجهزة الاستخبارات التركية من اختراقها،

وكشف عناصرها، وتعمل بشكل منعزل عن بقية التنظيمات لتحقيق أهدافها. كما أنها تقوم من خلف الستار بمساندة بقية الأحزاب والجمعيات العربية لتحقيق أهدافها القومية. فأنشأ جمعية العهد مع لفيف من العسكريين العرب في العاصمة الآستانة، لتكون هذه الجمعية أول تنظيم عسكري عربي سياسي في العصر الحديث.

وتعتبر جمعية العهد أول تنظيم عسكري سياسي يتبنى مشروعاً قومياً عربياً متأثراً بالحراك القومي التحرري الذي بدأ منذ منتصف القرن التاسع عشر، وأول من وضعت برنامجاً سياسياً لتحقيقه. بدأت مطالبها في بداية التأسيس بالفيدرالية، الحكم الذاتي الذي للعرب شخصيتهم، وانتهت بعد المطاردة التركية والاعتقال والتنكيل إلى المشاركة في ثورة عسكرية ومدنية عام 1916 حققت الاستقلال التام عن الترك (ثورة الشريف حسين).

انضم معظم قادة جمعية العهد إلى الجيش العربي أثناء الثورة العربية الكبرى، وشاركوا في القتال ضد الترك، واحتل العديد منهم مراكز هامة في الدولة العربية في دمشق في الحكم الفيصلي، وفي مرحلة الاستعمار الغربي لبلاد الشام والعراق تبوأ البعض منهم مناصب سياسية وعسكرية هامة في بلدانهم، وهذا ما سنتناوله في الفصول القادمة، ولكن لابد من إلقاء نظرة على مؤسس هذه الجمعية عزيز المصري. الذي لعب دوراً هاماً في إنشاء هذا التنظيم العسكري القومي، وفتح باباً لتكوين التنظيمات العسكرية السياسية السرية ما بعد الاستقلال في المشرق العربي، فكان المثل الأعلى لتلك التنظيمات.

الفصل الثالث عشر

عزيز علي المصري

ولد في القاهرة عام 1880م، نشأ وترعرع فيها، وأكمل دراسته في مدرسة الثانوية في القاهرة خلال عهد المندوب البريطاني الشهير كرومر (1883 ـ 1907)، والتحق بالكلية العسكرية بالآستانة، ثم بكلية الأركان، وتخرج بتفوق عام 1904، عين في هيئة أركان الجيش الثالث في مقدونية، وفيها انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي، وكان رجلها القوي في مقدونية، شارك في قيادة انقلاب 1908 الذي أعاد الدستور، وكان عزيز المصري أول من أعلن إعادة الدستور؛ قبل أن يعلنه نيازي باشا بما يزيد على عشر ساعات. وقد اعترفت له جمعية الاتحاد والترقي بخدمته العظيمة من أجل العمل على إعادة الدستور، ووضعته موضع التقدير والاحترام (52) لما قام به من أعمال أوصلتها إلى السلطة، وإرغام السلطان على إعادة الدستور، كما شارك مع الفريق محمود شوكت في يوم 24 نيسان 1909 بالهجوم على الآستانة، وخلع السلطان عبد الحميد واعتقاله.

ويتحدث جورج أنطونيوس عن صفاته الشخصية، والعوامل التي دفعته للانضمام لجمعية الاتحاد والترقي: (كان انضمامه إلى الاتحاد والترقي لعاملين: مُثله العليا القومية العربية، وإخلاصه لمصلحة الدولة العثمانية. فحين أدرك في الشهور التي تلت الثورة المعاكسة سنة 1909 أن سياسة الاتحاديين كانت تعارض العامل الأول، كما تسيء التصرف بالنسبة للعامل الثاني، أخذ يبحث عن حلفاء له أجدر من الاتحاديين. وكان نفوذه أعظم كثيراً من مستوى رتبته

العسكرية، وسبب ذلك أنه كان يحاضر في وقت ما في كلية الأركان، فاستطاع أن يستميل قلوب الجيل الناشئ من ضباط الجيش، كما امتاز في ميدان العمل بالخلق والجرأة والحكمة. وأهله إخلاص نيته، وثبات عزمه في وطنيته، أن يرقى بزعامته من هم أسن منه) (53).

وخلال وجوده في حملات عسكرية سواء في حروب البلقان أو اليمن أو ليبيا، كان حريصاً على دماء قومه العرب، كما كان دائماً طيلة حياته مناضلاً من أجل أبناء عروبته، وللدلالة على ذلك نذكر ما قام به، حين أرسلته الحكومة التركية عام 1910 معاوناً لقائد قوة عسكرية إلى اليمن، لإخماد ثورة بقيادة الإمام يحيى ضد الحكم التركي، فكره أن يقاتل أبناء جلدته العرب اليمنيين، أو أن يسفك دم عربي أو تركي، فسعى إلى حل سلمي يمنع سفك دماء الطرفين، فأجرى مفاوضات مع إمام اليمن بدل القتال الذي أمر به من قادته، واستطاع أن يتوصل معه إلى حل سلمي، بأن يجري حواراً مع الباب العالي لتسوية الخلافات بالطرق السلمية، وانتهت الحملة بإعادة السلام لليمن والحفاظ على دماء أبنائه، وأيضاً دماء الجنود الأتراك الذين لا حول لهم ولا قوة وهم مسلمون أيضاً. (54) لأن هذا الاتفاق كما قلنا كان حقناً لدماء العثمانيين في اليمن، الذي تعرض إلى خسائر كبرى في معارك جيزان بعسير، فقد فيها الجيش العثماني أكثر من ثمانية وعشرين ألف قتيل ما بين ضابط وجندي بسبب شدة الحروب، والجوع، وانقطاع المؤن والذخائر (55) حتى سميت اليمن آنذاك بـ (مقبرة الأناضول)، فكان الاتفاق لصالح السلطة العثمانية أولاً قبل اليمن، ورغم ذلك حوكم عزيز من قبل الاتحاديين على ما قام به في اليمن.

شارك عزيز المصري في قتال الإيطاليين الذين غزوا الأراضي الليبية، حين أرسل إلى ليبيا على رأس وحدة عسكرية تحت قيادة الجنرال التركي أنور باشا (56). وفي ليبيا اختلف مع أنور باشا وعاد بعدها إلى الآستانة.

وتذكر بعض المصادر التاريخية عن سبب هذا الاختلاف أنّ إشكالية حدثت بينه وبين المجاهدين العرب، تحتاج إلى إعادة تدقيق ودراسة حتى يمكن أن

تتبين الحقيقة. فتتحدث تلك المصادر أن عزيز المصري قد اختلف مع المجاهدين حول موضوع الأسلحة قبل عودته مع قواته من ليبيا إلى استنبول، وأنهم طالبوه بترك الأسلحة التي هي في عهدته لهم، والتي كان قد استلمها من الجيش التركي قبل توجهه إلى ليبيا.

وتقول المصادر أن عزيز رفض التخلي عن الأسلحة، ما أثار حنق المجاهدين عليه، وكادوا يبطشون به (57)، كما تشير المصادر التاريخية إلى البسالة والإقدام في المعارك التي خاضها عزيز المصري في ليبيا، فقد استطاع أن يوقف الإيطاليين على الساحل زمناً طويلاً، رغم قلة الجند تحت إمرته، وضعف الموارد المادية، ويقول أسعد داغر: (وقد شهد أعداؤه بالبسالة والمقدرة والتفوق في ميادين القتال، وكانت معركة 16 يوليو (تموز)، التي انتصر فيها من أعظم المعارك من الوجهة الحربية، حتى أن بعض صحف الغرب شبهتها بمعركة (كان) الشهيرة التي انتصر فيها هانيبال (58) على الرومانيين)(59).

ويبرر سليمان الموسى أنّ سبب رفضه تسليم الأسلحة للمجاهدين العرب، الذين كانوا في حاجة إليها في قتالهم للغزاة الطليان، يعود إلى أن تصرف عزيز المصري ينبع من أنه قائد عسكري، استلم عهدة عسكرية لوحدته القتالية تتضمن عتاداً وسلاحاً، وهي أمانة يفرض عليه القانون العسكري إعادتها كاملة لقيادته، وقد يكون عدم ترك السلاح لدى المجاهدين العربي في ليبيا سبباً في خلافه مع أنور باشا القائد التركي في حرب ليبيا ووزير الحربية بعد ذلك، الذي رفض أن يعطي عزيز المصري سلاحاً للمجاهدين. والدليل أن أنور باشا حين أصدر أمراً باعتقال عزيز في شباط 1914، كان الاتهام سوء التصرف بأموال قد كان أنور باشا قد سلمها إليه، (60) ومن المعروف أن تلك الأموال قد أعطاها للمجاهدين الليبيين، وكانت تلك الاتهامات سبباً في اعتقاله فيما بعد الحكم عليه بالإعدام.

ولكن هذا المبرر غير كاف في إيضاح عدم تسليم الأسلحة للمجاهدين الذين كانوا في أمس الحاجة إليها، فمن المعروف أن الأوامر التركية قد طلبت من جنودها بعد فترة من القتال الانسحاب من ليبيا، وكونه القائد العربي الذي

يتبنى قضايا العرب ويتحمس لها، عليه أن يترك الأسلحة لدى المجاهدين، ويقدم التبريرات لحكومته إن اقتنعت أم لم تقتنع.

ويذكر جورج أنطونيوس في كتابه يقظة العرب أن عزيز المصري بعد عودته إلى العاصمة التركية، وجد مناخاً معادياً له من قبل القيادة التركية، وأنها شوهت في نضاله في ليبيا. فترك الجمعية القحطانية بعد اكتشاف عدد من الجواسيس في صفوفها لصالح الترك، وتوجه نحو تأسيس جمعية العهد العسكرية السرية. (61)

ووجد المصري بعد عودته أيضاً أن القيادة التركية قد أعدت لوائح تنقلات للضباط العرب، تتضمن إرسالهم إلى المناطق النائية البعيدة، فوجد فيه إبعاداً عن قضيته، ونوعاً من الممارسة العنصرية القومية، فقدم استقالته من الجيش في 20 كانون الثاني 1914، ومن الأسباب الأخرى تبوأ عدوه اللدود أنور باشا وزارة الحربية، والذي كان يتحين الفرص للانتقام منه، والفتك به عند أول فرصة تسنح له، وهذا ما حدث فعلاً بعد استقالته بخمسة عشر يوماً إذ تم اعتقاله بذرائع كان يتوقعها. وقد جاء في نص الاستقالة التالي:

"إلى وزارة الحربية الجليلة"

لقد تركت الجيش العثماني من هذا التاريخ، ولكن حياتي العسكرية الماضي لا تزال تربطني به برباط متين، لا تقوى الأيام على فصمه، فإذا نشبت حرب، واحتاج الوطن إلى أبنائه، فلتطلبني وزارة الحربية من القومسيرية العثمانية بمصر محل إقامتي، على أن تعين لي الفرقة التي أقودها"

الإمضاء "عزيز علي" (62)

لاشك أن الذي دفع عزيز المصري على تأسيس جمعية العهد هو شعوره بالإحباط من ممارسات قيادة الاتحاديين بعد وصولهم للسلطة ضد الأماني القومية للعرب، على الرغم من مشاركته مع عدد من العسكريين العرب في جمعية الاتحاد والترقي قبل وصولها إلى السلطة، وكانوا في طليعة عملية التغيير

الـذي قامـت بـه الجمعـية في هـرم الـسلطة عامـي 1908 و1909، وساهموا في الاستقرار السياسي لها، سواء في اليمن أو غيرها.

ووجـد عـدم جـدوى في تغـيير الذهنـية التركـية الجديـدة المـصابة بهستريا العظمـة القومـية، والـتفوق العـرفي علـى بقـية القومـيات التي تكون الإمبراطورية العثمانـية داخـل المـنظمات المـشتركة كتنظـيم الاتحـاد والترقي. وشكلت سياسة الـتتريك الـتي اتـبعت مـن الاتحـاديين تغيراً في الأهداف، من حالة تطوير الدولة العثمانية على أساس الوحدة الإسلامية، إلى ضرورة الفصل بين العرب والترك مع الإبقـاء علـى وحـدة الدولـة، ولكن على صورة الفيدرالية بحيث تحافظ كل قومية على شخصيتها دون انصهار إحداهما بالأخرى.

الفصل الرابع عشر

تأسيس جمعية العهد

تم تأسيس جمعية العهد في الآستانة في 28 شباط الأول (أكتوبر) 1913 (63)، حسب معظم المصادر التاريخية، في حين نجد جورج أنطونيوس يخالف ذلك التاريخ فكتب: (في بداية سنة 1914 أخذ عزيز علي ينفذ خطة اختمرت في فكره منذ أيام "الجمعية القحطانية" إنشاء منظمة منفصلة مستقلة عن الجمعية الأولى، وإن كان برنامجها يشبه من بعض الوجوه برنامجها السابق، وسميت الجمعية الجديد باسم "العهد").

كما كتب البعض إن تأسيس الجمعية تم بعد عودة عزيز المصري إلى الآستانة من ليبيا في صيف عام 1913، وهذا ما يجعلنا أننا نرى أن تاريخ 28 تشرين الأول 1913 هو الأقرب إلى الحقيقة في ولادة جمعية العهد من التواريخ الأخرى. أما قصرها على العنصر العسكري من العرب فهذا أيضاً حقيقة تاريخية شبه ثابتة، إلا أن بعض المصادر التاريخية تشير إلى دخول عدد من المدنيين لا يتجاوز الثلاثة فقط سمح لهم بالانتماء للجمعية. ويذكر أنطونيوس في كتابه يقظة العرب إلى اثنين من المدنيين فقط هما من دخل في عضوية الجمعية بعد اختبار لنزاهتهما ووطنيتهما، فذكر اسم الأمير (عادل أرسلان) الذي كان من العناصر المتميزة والفاعلة في الجمعية القحطانية، فذكر اسم الأمير (عادل أرسلان) الذي كان من العناصر المتميزة والفاعلة في الجمعية القحطانية، ولم يذكر الاسم الثاني (64). وبعض المصادر تقول أن الأمير فيصل بين الحسين انتمى إلى الجمعية (65).

أما سبب اختيار اسم العهد للجمعية المذكورة، فقيل أن الضباط العرب

اختاروا اسم العهد لأنهم عاهدوا الله على خدمة الوطن (66).

برنامج الجمعية

1 ـ إن جمعية العهد جمعية سياسية سرية، أنشئت في الآستانة، وغايتها السعي للاستقلال الداخلي للبلاد العربية، على أن تظل متحدة مع حكومة الآستانة، على الأسس القائمة بين (الاتحاد المجر مع النمسا).

2 ـ ترى جمعية العهد ضرورة بقاء الخلافة الإسلامية وديعة مقدسة بأيدي آل عثمان.

3 ـ لما كانت تعتقد أن الآستانة رأس الشرق، وأن الشرق لا يعيش إذا اقتطعتها دولة أجنبية، فهي تعنى عناية خاصة بالدفاع عنها، وتعمل للمحافظة على سلامتها.

4 ـ لما كان الترك منذ 600 سنة المخافر الأمامية للشرق أمام الغرب، فعلى العرب أن يعملوا للحصول على ما يؤهلهم لأن يكونوا القوة الاحتياطية لهذه المخافر.

5 ـ على رجال العهد أن يفرغوا قصار جهدهم في إنماء المزايا المحمودة، وبث الدعوة إلى التمسك بالأخلاق الفاضلة، فالأمة لا تحتفظ بكيانها السياسي والقومي، ما لم تكن مجهزة بالأخلاق الصالحة القومية. (67)

وكان للجمعية شعار مدون على ختمها مأخوذ من آية قرآنية يقول (ليس للإنسان إلاّ ما سعى)، والمنتسب للجمعية لابد له من أداء القسم على القرآن الكريم في صورة مثالية بحيث يضع يده اليمنى على القرآن الكريم، ويده اليسرى على السيف أو المسدس، ثم يحلف يمين الإخلاص والولاء. (68)

قراءة في برنامج العهد

من خلال قراءة للبرنامج السياسي الذي طرحته جمعية العهد يتبين لنا أن الضباط المؤسسين للجمعية، لم يرغبوا في فصل المشرق العربي عن الدولة العثمانية، وهو المتبقي من الأرض العربية، التي ضمت إلى الدولة العثمانية أيام

السلطان سليم الأول عام 1517/1516، حيث الشمال الإفريقي العربي ووادي النيل والجنوب اليمني قد احتل من قبل الدولة الأوروبية الاستعمارية. بل طالبوا بإبقاء الدولة موحدة ضمن إطار الخلافة الإسلامية، أن تبقى الخلافة في عُهدة بني عثمان، وكان طلبهم أن يتم ذلك ضمن خلافة ذات بنيان اتحادي على غرار الإمبراطورية النمساوية، بحيث يكون اتحاداً بين العرب والترك تحت تاج الخليفة العثماني، وأن تبقى الآستانة عاصمة الخلافة، على أن يأخذ العرب فيها حقوقهم القومية في الحكم الذاتي، واللغة، والإدارة، والمشاركة الحقيقية في إدارة الدولة.

وعبروا عن حسن نواياهم للدولة العثمانية كونها رأس الشرق حين دعوا إلى حمايتها من الغرب وخاصة من النوايا والمخططات الاستعمارية والأوروبية، التي بدأت تظهر على العلن، وتمارس على الأرض باحتلال عسكري علني واضح. ،عبروا عن حسن نواياهم تجاه الترك حين أكدوا على احترامهم لمبدأ الخلافة، وأكدوا أيضاً أن يبقى على رأس مؤسسة الخلافة رجلٌ من آل عثمان، على الرغم من أن السنَّة النبوية تقول أن يكون الخليفة عربياً من قريش.

تلك الدلائل التاريخية لتطور الحركة العربية النهضوية حتى العقد الثاني من القرن العشرين، تبرهن على أن النهضويين العرب من مدنيين وعسكريين لم يرغبوا في الانفصال التام عن الخلافة العثمانية في بداية النهوض، وكل ما هدفوا إليه تحريرهم من الذوبان القومي، وممارستهم لحقوقهم في اللغة والإدارة، والعدالة والمساواة في الحقوق والواجبات في الدولة مع شركائهم الترك.

الضباط العرب المشاركون في جمعية العهد

تذكر معظم المصادر التاريخية أن عدد أعضاء الجمعية من العسكريين العرب قد بلغ (315) ضابطاً عربياً من أصل (490) ضابطاً عربياً كانوا يخدمون في العاصمة الآستانة، أما من حيث التوزيع الإقليمي، كان العراقيون يشكلون الغالبية العظمى من أعداد المنتسبين، ويشكل السوريون النسبة الثانية (68)، نذكر من بين المنتسبين:

من العراق نذكر منهم: نوري السعيد، طه الهاشمي، ياسين الهاشمي، مولود مخلص، جميل المدفعي، شريف الشريف، علي جودت الأيوبي، إسماعيل الصفار، عبد الله الدليمي، تحسين علي، رشيد الخوجا، وحمدي الباجهجي، وحميد الشالجي، وعلي رضا الركابي، ومحمد شريف الفاروقي، وجعفر العسكري.

ومن سورية نذكر منهم: محمد إسماعيل الطباخ، مصطفى وصفي، سليم الجزائري، خالد الحكيم، يحيى كاظم أبو الشرف عابدين، عارف التوأم، محي الدين الجبان، صادق الجندي، أمين لطفي الحافظ، علي النشاشيبي، علي رضا، عبد القادر سري، سعيد العاص، أمين الشريف، عبد القادر زهرا (69).

كان عدد المنتسبين في السنة الأولى من التأسيس (315) ضابطاً، الذين كانوا في الآستانة وحولها، إلا أنهم تضاعفوا بعد سنوات، ويذكر الكاتب السوفيتي (لوتسكي) أن عدد المنتمين إلى جمعية العهد وصل إلى (4) آلاف عضو (70)، أي شملت تقريباً معظم الضباط العرب في الجيش العثماني. لهذا نجد أنها قد نشرت فروعها في المشرق العربي بشكل واسع، فتم فتح فروع لها في دمشق وبغداد وحلب والبصرة والموصل، كما كان لها أنصار في الحجاز وفلسطين وطرابلس.

اعتمد تنظيم الجمعية على (السرية المطلقة)؛ وهذا يعود إلى طبيعة المنتسبين إليها، فهم عسكريون، ومن سماتهم السرية، وهي من أولى الدروس التي يتلقاها الضابط في الكليات والمدارس، وتعتبر سرية العدد والسلاح والأوامر من مقدسات العسكري. لهذا لم تستطع السلطات التركية وأدواتها الأمنية أن تصل إلى بنيتها التنظيمية، على الرغم مما تملك من شك ويقين على أن الضباط العرب غير بعيدين عن الحركات والجمعيات والأحزاب العربية التحررية، والتي كانت تمارس العمل السري والعلني في سبيل نيل العرب حقوقهم القومية. وحتى مع اشتداد المراقبة الأمنية على العديد منهم خاصة بعد انعقاد مؤتمر باريس عام 1913، وما أعقبه من تطورات جرت على الساحتين الداخلية والخارجية من بعد

إعلان المطالب العربية فيه، وما شكل المؤتمر من تحول هام في مسيرة العرب التحررية الحديثة، وما تكون من تعاطف عربي كبير مع المؤتمر بما فيهم العسكريين، فإن الأجهزة الأمنية التركية لم تستطع أن تكشف أحد من عناصر تنظيم جمعية العهد.

هل كان للعهد اتصال مع بريطانيا؟

ذكر لوتسكي في كتابه تاريخ الأقطار العربية الحديثة بأن ضباط العهد كانوا ذوو ميول بريطانية، وخص منهم ذوو نوري السعيد وجميل المدفعي، بل اتهم بعض الضباط بالاتصال بالاستخبارات البريطانية، وقال: (وكان الكثير من أعضائها من ضمنهم عزيز علي المصري على اتصال بالمخابرات البريطانية) (71). ويظهر أن الاتهام الذي ساقه لوتسكي بحق عزيز المصري ورفاقه، تم بناؤه على التعاون الذي حدث بين عدد من ضباط العهد وبريطانيا خلال مجريات الثورة العربية الكبرى (1916 ـ 1918)، وما فرضته ضرورات التعاون آنذاك خلال الحرب العالمية الأولى، وما كانت عليه القوى القومية العربية من بحث من أجل الوصول إلى طريق الخلاص من ممارسات العنف والسجن والملاحقة والقتل لقادتها، الذي كانت تقوم به السلطات الأمنية التركية، وخاصة من قبل وما بعد إعدام الشهداء من زعماء النهضة في عام 1916 في دمشق وبيروت على يد القائد التركي جمال باشا، وضرورة عدم ضياع فرصة تاريخية تهيأت لهم، بالتخلص من الاحتلال العثماني الذي دام أربعة قرون، ومن استبداد قومي عنصري يتبع سياسية التذويب القومي، والصهر في قومية أخرى.

وهذا لا يعني أن تطور الأحداث أثناء الثورة وبعدها؛ لم يخلق إقامة علاقات مع بعض ضباط العهد والمخابرات البريطانية، بل هناك من الضباط من وثّق هذه العلاقات أثناء الثورة، واستمر بها حتى منتصف القرن العشرين أمثال نوري السعيد وغيره من ضباط العهد، ولكن في فترة التأسيس نرى استبعاد التعاون الذي أشار إليه لوتسكي لعدم توفر الدليل.

وهـذا لا يعـني أن عـدم احـتمال وجـود علاقـات بعـضهم مـع المخابـرات الـبريطانية. ولكن إن وجد في فترة لبعضهم التأسيس فإن العدد لن يتجاوز أصابع الـيد الـواحدة، لأن (315) ضـابطاً عـربياً في فـترة التأسيس كانوا يسعون إلى نيل بلادهـم لحقـوقها، ويعملـون علـى وحـدة الدولة العثمانية لخوفهم من مخططات بـريطانيا وغيرهـا مـن استعمار بلادهـم، ولـو كانـت هناك اتصالات لما استبسل الـبعض مـن قـادة العهـد في المعـارك ضـد الإنكليـز، كمـا رفض البعض كياسين الهاشمـي الانـضمام للـثورة العـربية الكبرى التي قامت في الحجاز، بسبب العلاقة مـع بـريطانيا علـى الـرغم من أن الهاشميين دعا الأمير فيصل بن الشريف حسين في دمـشق سـنة 1915 للـثورة ضد الترك، وضمه إلى حزب العهد. هذا ما سنبينه إن شاء الله في الصفحات القادمة.

أمـا عـن اتهـام عزيـز المـصري بالتعامل مع المخابرات البريطانية، فدراستنا لمعظـم المـصادر التاريخـية تـشير إلى كـرهه للـبريطانيين والفرنـسيين، وخـشيته الدائمة من مخططات الغرب الاستعمارية الهادفة لتمزيق الدولة العثمانية، والدليل البند الثالث من البرنامج الذي وضعه عزيز مع عدد من الضباط الذي يبرهن على تخـوفهم، العاصـمة العثمانـية مـن الاقـتطاع والاحـتلال الأوروبـي لها، واعتبروها الرأس للجسد العربي والعثماني والإسلامي.

كمـا أن المتتـبع لمـراحل حـياة عزيـز المـصري يـرى أنهـا ذات محطـات تـصادمية مـستمرة مـع الإنكليـز سواء بعد عودته إلى مصر، أو أثناء مشاركته في الـثورة العـربية، وكانـت مـن أهم أسباب خلافه مع الشريف حسين وتركه للثورة والعـودة إلى مـصر، وبقـي طـيلة حـياته يحـذر من مخططات الغرب ضد العرب والمـسلمين، ويـندد بالاسـتعمار البريطانـي. وبقـيت شخـصيته الوطنـية والقومـية والإسـلامية والـشرقية مـثلاً لمعظـم الضباط القوميين في الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين الماضي.

أمـا ياسين الهاشمي كما أوضحنا سابقاً من تخوفه من كل اقتراب أو تعاون مع بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية، وبقي بعد الثورة وحتى مماته أشد أعداء

بـريطانيا، وقـد أسـس ثـورة في دير الزور ضد الوجود البريطاني في العراق نهاية عـام 1919 وبعـد انـتهاء الـثورة العـربية الكـبرى (وسـنتحدث عـنها مفـصلاً في الفـصول القادمـة إن شـاء الله). وكان شخصية عربية وحدوية مناضلة ضد الوجود الاسـتعماري، ومـات في دمـشق عـام 1936 بعـيداً عـن العراق بسبب نضاله ضد الوجـود البريطانـي فيه، وقدره السوريون حق تقديره، حين دفنوه إلى جوار صلاح الدين الأيوبي تقديرا لنضاله وتاريخه المشرف في سبيل أمته.

أمـا نـوري الـسعيد وجعفـر العـسكري وارتـباطهما مـع بريطانيا وبسياستها وتـسويق مخططاتهـا، وربـط العـراق في عهـد الـسعيد بـالأحلاف الغـربية تم بعد عـشرات الـسنوات مـن التأسـيس للجمعـية، فـإن ذلـك أصـبح واقعـاً وما مصيره ومـصير جعفـر العـسكري إلا دلالـة علـى نبذ الشارع العربي وضباط العهد لأية علاقة تؤدي إلى خدمة الاستعمار ومخططاته.

بـل شـهد الـتاريخ أن معظم من انتسب إلى جمعية العهد من الضباط العرب كانـوا يعتـنقون الفكـر القومي العربي، وأنهم نذروا أنفسهم في سبيل أماني أمتهم، ومـن يـراجع الجـو الـسياسي والأمـني لـتلك المرحلة يعرف مدى الخطورة التي كانت تحيط بكل من ينتسب لتنظيم سواء أكان حزباً أو جمعية يناوئ المتشددين الـترك، ويدعـو إلى حرية العرب وحقوقهم، فكانوا لا يتورعون من تعليق العديد مـن القـادة العـرب على أعمدة المشانق بسبب طروحاتهم القومية وتبنيهم لأماني أمـتهم، فكـيف بالعـسكريين الـذين يـنادون بمـثل ما نادى بهم أولئك القادة؟ لقد كانـت أرواحهـم علـى كـف عفـريت، فالإعـدام مـصير محـتوم لمن يكتشف بأنه منتسب إلى جمعية سرية تناهض مشروع التتريك الذي تتبعه القيادة التركية، فهل مـن يقـدم حـياته في سـبيل أمـته، يرتضي أن يكون جاسوساً لمستعمر أشد فتكاً وحقـداً ممـا هـم علـيه؟. وهـذا ما ينفي عن الجمعية ككل التابعية أو التعامل مع المخابرات البريطانية.

الفصل السادس عشر

اعتقال عزيز المصري

كانت السلطة الاتحادية تنظر بالريبة والشك لعزيز المصري الذي قدم استقالته من الجيش بعد عودته من ليبيا، منذ أن كان أحد زملائهم في جمعية الاتحاد والترقي قبل الانقلاب التركي عام 1908، بسبب طروحاته القومية العربية، ودعوته للمساواة بين القوميات المنضوبة تحت الحكم العثماني، كما أن صداماته مع قادة الاتحاديين جعله في موضع الشك والريبة، فقد اصطدم مع أنور باشا أحد القادة الكبار في ليبيا عام 1910، الذي أضمر له الكره والحقد.

جاء اعتقال عزيز المصري ضمن حملة بدأت من نهايات عام 1914 وحتى عام 1916 ضد الضباط العرب، من خلال النقل والتفريق والإضعاف لشعورهم بأنهم الأخطر عليهم من المدنيين، وفي إضعافهم يتمكنون من تحطيم قوة الحركة القومية العربية، ويستطيعون السيطرة على المدنيين، فأجروا عدة تكتيكات عسكرية، ومنها إرسال الفرق العسكرية العربية التي كانت في ولاية (بولاير) إلى ولاية حلب وما حولها، وابعدوا في أسبوع واحد أكثر من أربعمائة ضابط عربي عن العاصمة الأستانة إلى الأناضول وتراقيه وشبه جزيرة غليبولي، وهناك أبعدوهم عن المراكز العسكرية الحساسة في تلك الفرق إلى مراكز ثانوية لا قيمة لها، وجمدوا بدون عمل يذكر (72).

وبعد أن تم نقل وتفريق الفرق العسكرية العربية وقادتها من الضباط العرب، توجهت القيادة الاتحادية إلى مخطط التصفية لإنهاء الحركة القومية، وذلك بتوجيه ضربة قوية للضباط العرب، يستهدف بها من هو أكثرهم حركة

ونشاطاً في المجال القومي، وأكثرهم شعبية في الأوساط الشعبية وشهرة في المواقف المضادة لسياسة التتريك، وعلى هذه الأسس تم استهداف عزيز المصري رأس الحربة في كل الجمعيات العربية المنادية بحقوق العرب.

أصدرت الحكومة الاتحادية أمراً بتوقيف عزيز المصري بشكل مفاجئ، وتم التوقيف في العاصمة الآستانة يوم الاثنين 9 شباط/فبراير/ 1914، بينما كان خارجاً من فندق (توكلتيمان) من قبل رجال البوليس الملكي، الذين احتجزوه في دائرة البوليس في استنبول، وما أن أعلن الخبر حتى تداعى العرب في العاصمة لمعرفة أسباب التوقيف ومعالجته، وحاول مدير البوليس تهدئتهم بالكذب عليهم، بأن المصري ليس موقوفاً لتهمة، بل يستجوب لأمور لا دخل له فيها. إلاّ أن معرفة العرب من مدنيين وعسكريين بما درج عليه الاتحاديون من كذب ومراوغة، فلم يصدقوا مدير البوليس، كلفوا الشهيد الشيخ عبد الحميد الزهراوي بمراجعة رجال الحكومة حول التوقيف والأسباب، وحاول الزهراوي في اليوم الأول مقابلة طلعت باشا في منزله، إلا أنه رفض المقابلة بالإدعاء بعدم وجوه في المنزل.

يذكر أسعد داغر حين تأخرت الحكومة التركية من الإفراج عن عزيز المصري في نفس الليلة، ذهب أحد الضباط العرب إلى الشهيد عبد الحميد الزهراوي ليلاً، وطلب منه أن ينقل رسالة من الضباط العرب إلى الحكومة، تعبر عن استيائهم من اعتقال عزيز بك، الذي لا دخل له في سياسة الآستانة وشؤون أحزابها، وقال له: (ابلغ الحكومة أيها الأستاذ أن دماءنا نحن العرب يجب أن تحفظ للدفاع عن الوطن، فلا تضطرنا إلى إراقتها في سبيل الأفراد) (73)

وفي اليوم التالي 10 شباط/ فبراير/ التقى ممثلو الأحزاب العربية مع جمال باشا وطلعت باشا، واستفسروا منهما عن سبب الاعتقال، فنفيا الاعتقال، وقالا إنما هم يحققون معه في بعض الشؤون العسكرية التي تتعلق بأمر الدفاع عن الدولة، وأن عزيز بك في مرتبة الأخ لهم وأن الحكومة قررت تعيينه والياً على البصرة. (74)

ولكـن العـرب لم يقتـنعوا، فسيروا التظاهرات في العاصمة مطالبة الحكومة بالاستعجال بالمحاكمـة، وأن يـضاف إلى المجلس العسكري الذي يحاكمه لجنة مـن أركـان الحـرب وكبار الأمراء العسكريين الخبراء في الشؤون الحربية، إلا أن الحكومة رفضت الطلب.

وفي 25 آذار/ مـارس/ 1914 وجـه مجلس التأديب العسكري لائحة الاتهام لعزيز المصري تضمنت الاتهامات التالية:

- اختلاس أموال الجيش.
- تسليم ولاية برقة للإيطاليين مقابل رشوة.
- السعي لإقامة مملكة عربية في شمال إفريقيا (75).

وتمـت المحاكمـة يـوم الأربعـاء في الأول مـن نيـسان /أبـريل/ 1914، وتم إحـضار شـهود مـوالين للاتحـاديين مـثل: سـليمان العسكري، ورمزي المهداوي، وضـيا أفـندي، والمـلازم نـور الـدين أفندي، ورشيد أفندي، الذين قدموا الشهادات التالـية ضـد عزيـز المصري (نوردها لأهميتها لمعرفة جذر الصراع بين القوميين العرب والاتحاديين):

قـال سليمان العسكري: (إن فكرة عزيز بك تناقض المصلحة العثمانية، فقد سـعى وهـو في طـرابلس الغـرب في بـث الفكـرة العربية بين الأهلين، وفي إنشاء دولـة عـربية مـستقلة، يـتولى هو إدارتها، وكان ينجح في سعيه لولا معاكستي أنا وبعض الضباط الأتراك له).

ـ قال رمزي أفندي: (إن عزيز بك اجتمع بالإيطاليين أثناء الحرب، اجتماعاً مهماً، ولكني لا أعرف ما دار بينهم من كلام).

ـ وقـال ضـيا أفـندي: (إن عزيـز بك عدو للأتراك عموماً، وعدو لأنور باشا خصوصاً فهو خائن للدولة التركية).

- وقال نور الدين أفندي: (إن عزيز بك اتفق مع الإمام يحيى على نهج خطة واحـدة الغرض منها ضم اليمن إلى مصر، وكان يسعى وهو في بنغازي إلى تنفيذ

الفكرة، وجعل بنغازي واليمن دولة عربية واحدة).

ـ وقال رشيد أفندي: (إن عزيز بك أعرب أمامي عن سروره وارتياحه إلى ما أصاب المسلمين في البلقان، وأنه ذبح بعض العرب في بنغازي، ودفن عشرات من العرب أحياء). (76)

شهادات لا ترابط بينها، يغلب عليها طابع التلفيق والتزوير من أجل صياغة اتهامات لحكم شبه جاهز، يتضمن التخلص من أهم الشخصيات القومية العربية المؤثرة، فنرى ما قاله الشهود:

ـ أنه يعادي الفكرة العثمانية، في حين أن كل الوثائق تشير إلى أنه كان مع المؤسسين للجمعيات، التي انتسب إليها تؤكد محافظتها على الاتحاد العثماني، وعلى الإبقاء على التاج العثماني، وبقي على مبدأ المحافظة على الدولة العثمانية إلى يوم اعتقاله، ومن الأمثلة على ذلك ما قام به بعد عودته من ليبيا، وإقامته في الآستانة، حيث دعا في عام 1911 عدداً من النخب السياسية والثقافية إلى منزله وناقشهم بضرورة اتفاق الشعوب التي تضمهم الدولة العثمانية لتعطيها قوة، لأن الانقسام ضعف يستغله أعداؤها (77).

وأنه كان يسعى لإقامة دولة عربية مستقلة في ليبيا، وهذا يناقض ما قاله الشهود سواء بما قاله رمزي أفندي، أنه ينسق ويتعامل مع الإيطاليين المحتلين، ويسعى لاستقلال ليبيا، فمن يسعى للاستقلال لا يتعاون مع محتل أجنبي، ومن أشكال التناقض ما قاله رشيد أفندي مع ما شهد به سليمان العسكري، فكيف من يسعى لإقامة دولة عربية مستقلة مع الليبيين، ويذبح شعب الدولة، ويدفنهم أحياء، وعلى جماجمهم يقيم دولة تقاتل الترك والطليان؟

والتناقض الآخر ما قاله نور الدين يسعى عزيز لدولة تجمع ليبيا باليمن، وكأنهما دولتان متلاصقتان، ويقول إن عزيز أقنع الإمام يحيى بضم اليمن إلى مصر، فإلى من تنضم اليمن إلى مصر أم مصر إلى اليمن.

ردود الفعل على اعتقال عزيز المصري

كانت المحاكمة الصورية التي أرادها الاتحاديون لتصفية الحساب مع عزيز المصري أثرها الكبير في الوطن العربي، حيث خرجت المسيرات والمظاهرات لتشمل بلاد الشام والعراق ومصر، والتي طالب بالإسراع بالإفراج عن عزيز المصري، وخاصة بعد تسرب أنباء من الدوائر الحكومية عن عزمها عن إصدار حكم الإعدام بحق عزيز المصري، فانتفضت الجماهير العربية بعد سماعتها تلك الأنباء، وأقسم الضباط العرب بالأخذ بالثأر إن تجرأت الحكومة على إعدامه. (78)

وتشر بعض المصادر أن الاتحاديين كانوا يسعون إلى قتله بدون محاكمة، ولكنهم عدلوا عن ذلك بسبب الهيجان الشعبي العربي ضدهم، وردة الفعل لدى الصحافة والرأي العام الأوروبي، ويذكر أسعد داغر أنهم قروا اغتياله في السجن، فعلم بالأمر الزعماء العرب في الآستانة، فالتقوا الصدر الأعظم والمرشال فون ساندرس باشا وسفراء الدول الكبرى طالبين منهم باسم العدل والقانون منع الاتحاديين من اقتراف تلك الجريمة (79)

وفي مصر خرجت المظاهرات الشعبية تطالب بالإفراج عن عزيز المصري، وعقدت عدة ندوات جماهيرية تندد بالإجراءات التركية، وما تسربه من الأنباء الواردة من الآستانة عن حكم إعدامه، كما أن الصحف المصرية شنت حملة إعلامية ضد السلطة التركية، وتشكلت في القاهرة لجنة للدفاع عن عزيز المصري برئاسة شيخ الأزهر. وتم إرسال البرقيات إلى الباب العالي تطالب بالإفراج عن عزيز المصري، ولم تقتصر الاحتجاجات على السياسيين بل شملت كافة النخب الاجتماعية والأدبية، ونذكر هنا قصيدة أرسلها أمير الشعراء أحمد شوقي إلى السلطان يعزيه بالطيارين الترك الثلاثة الذين سقطت طائرتهم وهم قادمون إلى مصر، وقد ضمنها شوقي أبيات يطلب العفو عن عزيز المصري من السلطان، قال فيها:

هـذا مقـام أنـت فـيه محمـد   والـرفق عـند محمـد مأمـول

بـالله بالإسـلام بالجـرح الـذي ... مـا انفـك في جـنب الهـلال يـسيل
أيقـول واشٍ أو يـردد شـامت ... صـنديد بـرقة موثـق مكـبول
هـو مـن سـيوفك أعمـده لـربه ... مـا كـاد يغمـد سـيفك المـسلول
فاذكـر أمـير المؤمـنين بـلاءه ... واسـتبقه إن الـسيوف قلـيل

كما أن وفوداً شعبية زارت اللورد كتشنر المعتمد البريطاني في القاهرة تحثه للتدخل لدى السلطات البريطانية للضغط على الحكومة التركية لإطلاق سراحه.

الاتصالات الأولى لضباط العهد بالبريطانيين

بعـد اعـتقال عزيز المصري من قبل البوليس التركي خشي عدد من الضباط العـرب مـن أن يفـشي عزيـز بأسمـاء أعـضاء جمعـية العهد تحت التعذيب، مما يـؤدي إلى نـسف كـل مخططـاتهم في تحقـيق الأمانـي القومـية، وينهـي أكبر قوة عـسكرية عـربية قـادرة علـى الـتأثير علـى مجـريات الـسياسة التركـية بما يخدم الحقـوق القومـية العـربية، فـإن الكـشف سـيؤدي إلى اعـتقال الـبعض، وتـشريد، واختفاء البعض الآخر.

وتـشير بعـض المـصادر أنهـم قـرروا القـيام بعمـل عـسكري استباقي ضـد الحكومة التركية، فيفاجئونها قبل أن تفاجئهم، ويمنعونها من القضاء عليهم وعلى أعـضاء جمعيـتهم، وأثـناء المـداولات في الخطط والحلول فيما بينهم حول كيفية تنفـيذ خطـة التحـرك العـسكري العربـي الـسريعة، تم طـرح فكرة استطلاع رأي بـريطانيا، ومعـرفة وجهـة نظـرها من احتمال ثورة عربية ضد الترك، وما الموقف الـذي سـتتخذه في حـال قـيامها؟. وقـد وافقـوا علـى هـذا المقـترح، وشكلوا وفداً لمقابلة السفير البريطاني.

ذهـب وفـد مـن الـضباط العـرب في 24 شـباط/ فبراير/ 1914 إلى السفارة الـبريطانية، وقابلـوا الـسفير، وناقـشوه في كافة الاحتمالات التي ستحدث في حال

استمرار اعتقال عزيز المصري أو إعدامه، فأبرق السفير البريطاني إلى وزير خارجيته، يخبره بأن عدداً من الضباط العرب قاموا بزيارته، وتحادثوا معه، ليتعرفوا على وجهة نظر بريطانيا في حال قام ظروف صعبة داخل الدولة العثمانية (80). وتغيب عنا المصادر التاريخية إجابة الحكومة البريطانية للضباط العرب، وكذلك سبب عدم تحرك الضباط العرب العسكري ضد الحكومة الاتحادية، هل بسبب أخبار وردت إليهم من عدم إفشاء عزيز لأسرار الضباط والجمعية، وعن صموده أثناء التحقيق معه، أو أنباء عن تردد الحكومة الاتحادية بقتله أو إعدامه أو تعذيبه، أم أنهم تقلوا من بريطانيا خبراً يطالبهم بالتهدئة، أو وعداً منها بأنها سوف تمارس ضغطاً دبلوماسياً على الحكومة الاتحادية لإطلاق سراح المصري؟ أسئلة لم تظهر لها إجابات بعد!!

تحركت الدبلوماسية البريطانية لإطلاق سراح عزيز المصري، فقد أرسل السفير البريطاني في الآستانة السير لويس مالت إلى وزير الخارجية البريطاني مذكرة في 24 شباط 1914 جاء فيها: (إن الصدر الأعظم أخبرني بأن اعتقال عزيز المصري كان لموقفه من الحكومة بعد عودته إلى استنبول، وأعتقد بناء على مصادر أخرى، أن السبب كان سياسياً، فعزيز المصري كان دون شك أحد القادة القوميين في مجموعة الضباط الشباب العرب غيرهم الذين لم يكونوا راضين عن الحكومة الحالية، ومن الصعب تقييم تلك المجموعة، ولكن كما وصل لعلمي، أن بعضهم على الأقل قاموا بتخطيط كبير أو صغير، لتنظيم حركة، يكون هدفها تحرير المنطقة من الموصل إلى الخليج الفارسي من الحكم العثماني، وأنهم قد أقاموا الاتصالات مع مختلف القادة المحليين، بما فيهم شيخ الكويت الذي نالوا تعاطفه، وأنهم سيربطون المنطقة التي يهتمون بها بمنطقة الشيخ المذكور) (81)

كما أرسل السفير البريطاني في العاصمة الآستانة في 9 آذار 1914 إلى وزير الخارجية: (أخبرني الصدر الأعظم أن عزيز المصري كان يتفاوض سراً مع الخديوي، الذي كان يتآمر سراً مع الإيطاليين على تنفيذ خط حديد مريوط.

ودهشت لهذه الأخبار.. ولنفترض ذلك صحيحاً، فمن الأفضل إعادته حتى لا يتآمر مع الضباط العرب ضد الحكومة..) (82)

وفي 2 نيسان 1914 أرسل مذكرة أخرى جاء فيها: (إن أحد أصدقاء عزيز بك المصري أتى برسالة من السنوسي في برقة، يذكر فيها أن أنور باشا وعد السنوسي بإرسال كمية من المال والذخيرة على يد عزيز المصري، وأن أنور لم يوف بوعده، ولم يرسل شيئاً، وكانت غايته إيقاع الشقاق بين السنوسي وعزيز المصري، وتهدد الرسالة بإفشاء الخبر إذا لم يطلق سراح عزيز المصري، وكان طلعت من الراغبين بإطلاقه إلا أنور). (83)

نتيجة الإلحاح الذي مارسه اللورد كتشنر المعتمد البريطاني في القاهرة نتيجة الضغط الشعبي المصري، وبرقيات السفير البريطاني في الآستانة، ومارست الحكومة البريطانية ضغوطاً قوية على الحكومة الاتحادية، ودعتها لإطلاق سراحه بسبب براءته من كل ما اتهم به، وطلبت منها إيقاف حكم الإعدام بحقه. وبذلك السير لويس ماليت مساعي حثيثة في هذا الاتجاه مع الحكومة الاتحادية.

كما قام الإعلام البريطاني بشن حملة إعلامية ضد إيقاف عزيز المصري، وإصدار حكم الإعدام بحقه، وقد ذكرت صحيفة التايمز في عددها الصادر في 9 نيسان 1914 ما يلي: (.. لو أن هذا الظلم الذي أحاق بالضابط العربي الباسل أعقبه ما لا يمكنا ن يسمى إلا جريمة بحق القانون، فإن العلاقات بين الحكومة العثمانية ومصر ستتأثر تأثراً خطيراً، وربما لن يقتصر الأمر على العلاقات بين تركية ومصر وحدها..) (84)

الحكم بالإعدام وإطلاق السراح

وفي 15 نيسان/إبريل /1914 صدر الحكم علنياً بالإعدام على عزيز المصري من قبل المحكمة العسكرية، وبعدها أعلن عن بيان صادر من السلطان محمد رشاد يعلن فيه تخفيض حكم الإعدام إلى خمسة عشر عاماً أشغال شاقة. فكان لهذا الحكم ردة فعل داخل السلطنة من قبل العرب وأنصارهم ومصر

والـدول الأوروبـية وعلـى رأسها بريطانيا مستنكرة ومنددة بالأحكام الصادرة بحق المصري.

وتـدخلت بـريطانيا بقـوة بعـد الحكم ومارست ضغطاً سياسياً كبيراً لإطلاق سـراحه والعفو عنه، وأجرت مفاوضات مع الحكومة الاتحادية بذلك عدة مرات، ويكتب أسعد داغر أن بريطانيا بعد مفاوضات أقنعت الحكومة البريطانية ببراءته، ووجـوب إطـلاق سـراحه، فلـم يجد الاتحاديون بداً من الاستجابة (85) للطلب، وخـشية ما سوف يحدث من انعكاسات خطيرة في البلاد، أن أقدموا على إعدامه، فالـبلاد العربية في حالة غليان ضدهم، وإعدام عزيز المصري قد يفجر فيها ثورة لغير صالحهم.

ولإظهـار حسن النوايا من قبل الحكومة الاتحادية للعرب ولعزيز المصري، أعلـن في الآسـتانة عـن مـساعٍ لأنـور باشا (عدو عزيز اللدود) لدى السلطان من أجـل إطـلاق المـصري، ومـن المعـروف أن السلطان محمد رشاد كان ألعوبة بيد الاتحـاديين، وأعلن أن المساعي قد أفلحت التي قام بها أنور باشا، وأنه استحصل علـى السلطان على إرادة سلطانية بالعفو عن عزيز المصري، وترحيله إلى مصر، وفعـلاً تم إطـلاق سـراحه في 21/ نـسيان/ إبـريل/ 1914 أي بعـد سـتة أيـام من صـدور الحكـم، وغادر عزيز في نفس اليوم الآستانة إلى مصر، حيث استقبل فيها اسـتقبالاً حماسـياً لـدى وصـوله القاهـرة مـن قبل السلطات المصرية والجماهير العربية والمصرية فيها. (86)

المصادر والهوامش

1 ـ القـنفذ: حـيوان صـغير يتميـز جلده بكثرة الأشواك، عندما يشعر بخطر داهم عليه يدخل رأسه وأطرافه داخل جلده، ليدافع عن نفسه من الخطر القادم.

2 ـ د. عـبد الكريـم رافق ـ المشرق العربي في العهد العثماني ـ دمشق ـ مطابع مؤسسة الوحدة ـ 1981 ص 276.

3 ـ د. عبد الكريم رافق ـ المشرق العربي في العهد العثماني ـ مصدر سابق ص 277.

4 ـ د. أحمد طربين ـ دمشق ـ مطبعة طربين ـ الطبعة الأولى 1981 ـ ص 328.

5 ـ أحمد طربين ـ المصدر السابق ـ ص 328.

6 ـ وميض جمال عمر نظمي ـ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ الطبعة الأولى ـ آذار 1984 ـ ص 140.

7 ـ وميض جمال عمر نظمي ـ الجذور السياسية ـ المصدر السابق ص 137.

8 ـ د. مجدي حماد ـ العسكريون العرب وقضية الوحدة ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ص 61.

9 ـ يهود الدونما: هم مجموعة يهودية ادعت أنها دخلت الإسلام، وفي الحقيقة كان دخولها الإسلام لنجاة زعيمها من الإعدام بعد ادعاءه أنه المسيح المنتظر، وقد كفرها اليهود، ودخلت الإسلام شكلاً وأبطنت اليهودية، تغلغل أبناؤها في الجيش حتى سيطروا عليه إلى يومنا هذا.

10 ـ عبد الكريم رافق ـ المشرق العربي في العهد العثماني ـ مصدر سابق ـ ص 280

11 ـ المصدر السابق ص 280.

12 ـ س. ناجي ـ المفسدون في الأرض ـ دمشق ـ مطبعة الإنشا ـ الطبعة الأولى 1965 ص 213.

13 ـ P. Hepper (La nouvelle Bibe des people Martyres)

14 ـ س. ناجي ـ المفسدون في الأرض ـ مصدر سابق ص 314.

15 ـ عبد الكريم رافق ـ المشرق العربي في العهد العثماني ـ مصدر سابق 250/249

16 ـ عبد الكريم رافق ـ المشرق العربي في العهد العثماني ـ مصدر سابق ـ ص 369

17 ـ تشير بعض المصادر أنه مات في القاهرة متأثراً بسم قد دس له في فنجان قهوة عام 1230هـ /1902 ميلادي وقد اختفت أوراقه ومذكراته ليلة وفاته مع مخطوطين هامين هما (العظمة لله) و(صحائف قريش) رثاه العديد من الأدباء وقد نقش على قبره بيتان من شعر حافظ إبراهيم:

هنا رجل الدنيا هنا مهبط الفتى ... هنا خير مظلوم هنا خير كاتب

قفوا واقرؤوا أم الكتاب وسلموا ... عليه فهذا القبر قبر الكواكب

18 ـ عبد الرحمن الكواكبي ـ طبائع الاستبداد مصارع الاستعباد ـ دمشق ـ دار المدى ـ 2002 ـ ص 106.

19 ـ عبد الرحمن الكواكبي ـ طبائع الاستبداد ـ المصدر السابق ص 108.

20 ـ أبو الهدى الصيادي من أشهر مستشاري السلطان عبد الحميد الثاني وأقربهم إليه ولد في مدينة خان شيخون التابعة لمحافظة إدلب السورية في 1266 هـ/ 1849 م عالم فقيه، تعلم على أيدي علماء الصوفية وأصبح من علماء الصوفية حين قلدوه في بغداد 1283 ما يسمونه بالخرقة ليكون عالماً من علمائهم. وصفه الزركلي في كتابه الإعلام بالذكاء والإلمام بالعلوم الصوفية ومعرفة الأدب وظرف وتصوف (الإعلام 94/6)، له الكثير من قصائد الشعر وكتب علوم التصوف والدين، تعرض للتنكيل بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد حيث نقل إلى جزيرة الأمراء (رينيكيبو) وكان مريضاً حيث توفي فيها عام 1909.

21 ـ عبد الكريم رافق ـ المشرق العربي في العهد العثماني ـ مصدر سابق ـ ص 380

22 ـ س. ناجي ـ المفسدون في الأرض ـ مصدر سابق ـ ص 316.

23 ـ عبد الكريم رافق ـ المشرق العربي في العهد العثماني ـ المصدر السابق ـ ص 380.

24 ـ س. ناجي ـ المفسدون في الأرض ـ مصدر سابق ـ ص 316/ 317.

25 ـ س. ناجي ـ المفسدون في الأرض ـ مصدر سابق ـ ص 316/ 317.

26 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ حلب مطبعة مطرانية الأرمن ـ 1989 ـ ص 52.

27 ـ فوزي القاوقجي ـ مذكرات ـ تقديم وإعداد د. خيرية قاسمية ـ دمشق طبعة ثانية ـ 1995 ـ ص 16.

28 ـ قصد كلاً من عزة باشا العابد سكرتير عبد الحميد الثاني وأبو الهدى الصيادي مستشاره وشيخه.

29 ـ الدكتور أحمد قدري ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ـ دمشق ـ وزارة الثقافة ـ الطبعة الثانية 1993 ـ ص 7/6.

30 ـ د. مجدي حداد ـ العسكريون والقضية القومية ـ مصدر سابق ـ ص 61.

31 ـ فوزي القاوقجي ـ مذكرات ـ مصدر سابق ـ ص 15.

32 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 53/52.

33 ـ جورج انطونيوس ـ يقظة العرب وتاريخ حركة العرب القومية ـ ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ـ 1961 ـ ص 187.
34 ـ لوتسكي ـ تاريخ الأقطار العربية الحديث ـ دار التقدم ـ 1971 ـ ص 71.
35 ـ جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 186.
36 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 55.
37 ـ العماد مصطفى طلاس ـ الثورة العربية الكبرى ـ دمشق ـ دار طلاس ـ المطبعة الرابعة ـ 1987 ـ ص 71.
38 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ المصدر السابق ـ 90/ 91.
39 ـ أحمد قدري ـ مذكراتي عن الثورة العربية ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق ـ ص 20.
40 ـ د. أحمد قدري ـ مذكراتي ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق ـ ص 14.
41 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 69/ 70.
42 ـ أسعد داغر ـ المصدر السابق نفسه ـ ص 75.
43 ـ أحمد قدري ـ مذكراتي مصدر سابق ـ ص 19.
44 ـ أسعد داغر ـ المصدر السابق ـ ص 78.
45 ـ د. أحمد قدوري ـ مذكرتي ـ مصدر سابق ـ ص 16/ 17.
46 ـ د. أحمد قدوري ـ مذكراتي ـ مصدر سابق ـ ص 18.
47 ـ المصدر نفسه ـ ص 20.
48 ـ عبد الكريم رافق ـ المشرق العربي في العهد العثماني ـ دمشق ـ مطبعة مؤسسة الوحدة ـ 1981 ـ ص
49 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 80/ 81.
50 ـ أسعد داغر ـ المصدر السابق ـ ص 83/ 84.
51 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 107.
52 ـ جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 190/ 191.
53 ـ جورج أنطونيوس ـ المصدر السابق ـ ص 199.
54 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 108.

55 ـ كـان من قادة جمعية الاتحاد والترقي، وتولى وزارة الحربية قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها.

56 ـ سـليمان الموسى ـ الحركة العربية سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908 ـ 1920 ـ بيروت ـ دار النهار ـ 1970 ص 41.

57 ـ هانـي بعـل، يلقـب في الغـرب بـ (هانيبال) يلفظون العين) ألف (ا) لعدم القدرة علـى اللفـظ. وهـو القائـد العربـي الـسوري الفينيقـي القرطاجي، الذي قاد معارك قـرطاجنة ضـد الغزاة الرومان، وهو الذي استطاع أن ينقل الفيلة عبر جبال الألب الـشاهقة، والـثلوج ويـصل بها إلى سهول روما، ويعد من أشهر القادة العسكريين في التاريخ القديم.

58 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 108.

59 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 108.

60 ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ المصدر السابق ص 41.

61 ـ جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ـ مصدر سابق ـ 190 ـ 199.

62 ـ انظـر إلى فايـز سـارة ـ سعيد العاص ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق ـ 1993 ـ ص 37. وأحمـد حلمـي العلاف ـ دمشق في مطلع القرن العشرين ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق 1976. ص 294/ 295. د. وميض جمال عمر نظمي ـ الجذور الـسياسية والفكـرية والاجتماعـية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق ـ مركـز دراسـات الـوحدة العـربية ـ بـيروت ـ آذار 1984 ـ ص 142. مـصطفى طـلاس ـ الـثورة العـربية الكـبرى ـ ط4 ـ 1987 ـ ص 82. لوتـسكي ـ تـاريخ الأقطار العربية الحديث مصدر سابق ـ ص 412.

63 ـ جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 198.

64 ـ علـي سـلطان ـ تـاريخ سورية 1908 ـ 1918 ـ دمشق ـ دار طلاس ـ 1987 ـ ص 425.

65 ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص 33.

66 ـ انظـر إلى مجـدي حـداد ـ العسكريون وقضية الوحدة ـ مصدر سابق ص 73. » وإلى ومـيض جمـال عمـر نظمي ـ الجذور السياسية والفكرية ـ مصدر سابق ص 142 » أحمـد العـلاف ـ دمـشق مطلـع القـرن العـشرين ـ مـصدر سـابق ـ

ص 294/ 295.

67 ـ علي سلطان ـ تاريخ سورية 1908 ـ 1918 ـ مصدر سابق ـ ص 36.

68 ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص 37.

69 ـ علي سلطان ـ تاريخ سورية 1908 ـ 1918 ـ مصدر سابق ـ ص 36/ 37. « فايز سارة ـ سعيد العاص ـ ص 47 ـ مصدر سابق.

70 ـ لوتسكي ـ تاريخ الأقطار العربية الحديث ـ مصدر سابق ـ ص 412.

71 ـ لوتسكي ـ تاريخ الأقطار العربية الحديث ـ مصدر سابق ـ ص 412.

72 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 103.

73 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 104.

74 ـ المصدر السابق ـ ص 104.

75 ـ محمد حسنين هيكل ـ الاتصالات السرية بين العرب وإسرائيل ـ الحلقة الخامسة ـ جريدة تشرين السورية 24/ 3/ 1996.

76 ـ أسعد داغر ـ يقظة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 108.

77 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 105.

78 ـ مجدي حداد ـ العسكريون وقضية الوحدة ـ مصدر سابق ـ ص 72.

79 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 106.

80 ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص 83.

81 ـ F. O. 9013/ 7963/ 14/ 44/ NO. 117

82 ـ F. O. 9013/ 7963/ 14/ 44/ NO. 153

83 ـ F. O. 16768/ 931/ 4/ 44/ NO. 249

84 ـ جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 199.

85 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 106.

86 ـ لوتسكي ـ تاريخ الأقطار العربية الحديث ـ مصدر سابق ص 412 « سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص 41 » جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ـ مصدر سابق ص 199.

الباب الثاني

مقدمات المواجهة والثورة

الفصل الأول

جمال باشا

كان تعيين جمال باشا قائداً للجيش الرابع بدلاً من الفريق زكي الحابي، الفصل الدرامي الدامي بين الغلاة الترك وبين قادة المشروع النهضوي العربي. كان السبب الذي ساقته الحكومة الاتحادية لإقصاء زكي الحلبي رفضه إرسال حملة عسكرية إلى مصر، لأنه كعسكري يملك الخبرة الاستراتيجية بأن نتائجها خاسرة سلفاً، فهي لا تستطيع أن تسير على الخط الساحلي لأن الأسطول الإنكليزي سوف يجهز عليها، والطريق الصحراوي يحتاج لإمدادات مستمرة متوفرة، وطريق شاق يؤدي إلى هلاك الجيش. ولهذا السبب تم نقل زكي باشا الحلبي إلى ألمانيا ، وتعيين جمال باشا ناظر البحرية قائداً عاماً للجيش الرابع في سورية وحاكماً فعلياً عليها بالإضافة إلى منصبه في البحرية(1).

نبذة عن سيرة جمال باشا

ولد جمال باشا في ميتيلان عام 1872، وكان والده يعمل صيدلياً في الجيش العثماني، وبعد أنهى دراسته الثانوية، التحق بالأكاديمية البحرية، وتخرج منها عام 1895، وكان أول تعيين له في هيئة الأركان العامة في العاصمة الأستانة، ثم التحق بوحدة الأشغال في الجيش الثاني المرابط في أدرنة، وفي عام 1898 انتقل إلى الجيش الثالث في سالونيك، ومن المعروف أن سالونيك معقل الماسونية واليهود في الدولة العثمانية، حيث عين أولاً مفتشاً عسكرياً على الطرق الحديدية، ثم نقل إلى المركز الرئيسي للجيش الثالث.

وفي سالونيك تم تنظيمه في المنظمات السرية والماسونية، وتم تبنيه من قبل تلك المنظمات، وكانت أولى مشاركاته المناهضة للخلافة العثمانية وللسلطان عبد الحميد في التنظيم الإقليمي لحركة المقاومة السرية ضد السلطان عبد الحميد الثاني، وانضم إلى جمعيات تركيا الفتاة والاتحاد والترقي. وفي الانقلاب الأول على عبد الحميد عام 1908 ظهر كأحد قادة جمعية الاتحاد والترقي. ثم ذهب بعد الانقلاب إلى الأناضول في بعثة إصلاحية.

وحين وقعت أحداث نيسان 1909 من انقلاب وانقلاب مضاد، عاد مسرعاً من الأناضول والتحق بالجيش الثالث في سالونيك للمشاركة في اعتقال عبد الحميد. وبعد استتباب الأمور لاتحاديين عين في أيار 1909 حاكماً لمقاطعة في إسكودار (استنبول الآسيوية)، وعين حاكماً لأضنه في آب عام 1909 خلال حوادث الأرمن، وكان يقود عمليات التصفية والتطهير العرقي للأرمن خلال تلك الحوادث. ثم حاكماً لبغداد عام 1911، ومع اندلاع حروب البلقان عام 1912 رقي إلى رتبة عميد (كولونيل) وترأس قيادة الوحدات العسكرية الاحتياطية في تلك الحرب.

وحاك مع مجموعة العسكريين القياديين في الاتحاد والترقي انقلاباً في كانون الثاني 1913 ضد حكومة كامل باشا الائتلافية، ومع نجاح الانقلاب رقي إلى رتبة لواء (جنرال)، وعين قائداً للجيش الأول في العاصمة استنبول وحاكماً عسكرياً لها. ومع هذا المنصب الجديد قاد عمليات التصفية ضد المعارضين الترك للقوميين الشوفينيين من الترك وخاصة منهم الاتحاديين، حيث ساق قادة حزب الائتلاف والحرية إلى المشانق عام 1913، وما بين عامي 1913 و 1914 تولى عدة مناصب منها وزيراً للنافعة (الأشغال العامة)، ثم وزيراً للحربية، ووزيراً للبحرية.(2)

كان جمال باشا صديقاً للفرنسيين فحاول في عام 1914 وقبل بدء الحرب أن يقيم تحالفاً مع فرنسا، وقام بزيارة إلى فرنسا بعد مقتل ولي عهد النمسا، وهي الحادثة التي أشعلت الحرب العالمية الأولى، والتقى بوزير الخارجية

الفرنسي وحدثه عن التحالف والحياد مع ضمان إبقاء الدولة العثمانية، لكن الحكومة التي كانت ملتزمة مع روسيا رفضت التحالف أو الضمان إن بقيت السلطة على الحياد ففشلت مهمته، وتشير المصادر التاريخية أن دخول السلطنة العثمانية الحرب أفشل مهمة جمال باشا في فرنسا، مما أدى إلى أن توقع تحالفاً مع ألمانيا في 2 آب 1914، وألزمها دخول الحرب.(3)

عين حاكماً على سورية وقائداً للجيش الرابع المرابط بها مع احتفاظه بالوزارة، وخاض حروباً فاشلة في السويس مع الإنكليز، وساق العشرات من قادة النهضة العربية إلى المشانق، ومن كثرة مجازره بحق القوميين النهضويين العرب لقب بالسفاح.

وفي كانون الأول 1917 استقال من مناصبه في الحكومة الاتحادية، بعد الفشل المريع له في الحروب ولسوء سمعته، وتآمره (كما سنشرح) على بلاده خلال وجوده في سورية، وبعد إعلان الهدنة عام 1981، فر مع قادة الغلاة الاتحاديين من البلاد، وفي عام 1922 تمت تصفيته من قبل الوطنيين الأرمن.

إبعاد جمال عن العاصمة

كان جمال باشا في قرارة نفسه يشك أن هذا التكليف بالتعيين وراءه مؤامرة حاكها أنور باشا، لأبعاده عن طريقه في حمله للوصول إلى حكم البلاد، فمن المعروف أن الثلاثي (أنور وطلعت وجمال) كانوا هم أصحاب القرار الفعلي في العاصمة، ويبدو أن اتفاقاً تم بين الثلاثة في توزع الصلاحيات بعد أن أصبحت جمعية الاتحاد والترقي المهيمنة على السلطة، وقضى هذا الاتفاق أن يكون أنور مطلق الصلاحيات في الحروب الأوروبية، وأعطي لطلعت الشؤون الداخلية يتصرف بها كما يشاء، في حين كان لجمال الإشراف على آسيا الصغرى والتصرف بشؤونها(4). وكل واحد منهم يشعر بنفسه أنه القائد التركي المطلوب لتحقيق حلم القومية الطورانية، التي كانت غايتها كما جاء في مقالة لأحد الكتاب الإنكليز الدكتور نوسيج: (استقلال القومية التركية عن الإسلام.

ـ ترقية الروح العسكرية التركية.

ـ إنشاء علاقات تجارية وغير تجارية مع مسلمي شمال إيران (أذربيجان) وروسيا الآسيوية وجنوب روسيا.

ـ تحرير اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية، ولها غرض لا يعترف به صراحة، وهو حرمان العرب من حقوقهم القومية، والغرض جعل العثماني التركي تركياً أولاً ومسلماً ثانياً. وكانت جمعية ترك أوجاقي تربي الترك والناشئة على التدريب العسكري، مما يؤهلهم لدخول الجيش عند الاقتضاء برعاية أنور بك، ومعظم إشاراتهم وجميع ألقابهم تركية صرفة سابقة لعهد الإسلام بين الترك، ومن كان اسمه عربياً أبدل باسم تركي، وكان نيتهم ترجمة القرآن لكنهم عدلوا)(5).

كان هدف أنور وطلعت إبعاد جمال إلى خشيتهما من تنامي شعبية جمال لدى القوميين الطورانيين، والإعجاب الشديد لشخصيته في وسط غلاة الطورانيين، حتى غدا لديهم بطلاً قومياً، كتب شكيب أرسلان عن خشية أنور وطلعت من جمال لأنه: (كان جباراً، قد بطش بالخلق، ورجفت منه القلوب، وتعود ألا يقف في وجهه أحد.. وكان مستقلاً تمام الاستقلال في سورية، وكان الحزب الطوراني مؤيداً له في استنبول، بحيث أن أنور وطلعت والجميع كانوا يومئذ، يتجنبون المساس بجمال خوفاً من الفئة الطورانية.(6)

لهذا حين تم تعيينه حاكماً على سورية شعر غلاة القوميين الترك بالارتياح والسعادة، ليس لإبعاده عن العاصمة الأستانة بل كانوا يرون في هذا التعيين إعادة فتح سورية من قبلهم وسحق القوى النهضوية العربية التي تطالب بحقوق العرب، فقد كانت رؤاهم لا ترى في السلطنة سوى العنصر التركي، وأن جمال هو القادر على سحق الطليعة القومية العربية وإعادة سورية إلى بيت الطاعة لما عرف عنه من شدة البطش بالمعارضين، ويصف عزيز بك ضابط الاستخبارات التركية وداع القوميين الترك له وهو يغادرهم إلى سورية قائلاً: (كان جمال باشا الرجل التركي العصري، لذلك ترأس نادي تورك أوجاقي (الوطن التركي)، وهو نادي الشباب

والشابات. وقد ودعه الشباب وداع الأبطال، وكان يتخيل نفسه عند انتقاله من تركيا إلى سورية، كأنه الإسكندر يحاول فتح البلاد العربية، مع أنها كانت تابعة للدولة العثمانية)(7).

كانت إزاحته كعقبة في وجه الطامحين للصدارة من زملاء لم يخدموا القضية الطورانية أكثر منه كأنور باشا. وقد أكد تقرير للسفير البريطاني في أثينا هذه المشاعر لجمال باشا حين تم نقله إلى سورية، ويذكر التقرير أن جمال باشا من غضبه لهذا النقل كان يفكر بالزحف على الأستانة والإطاحة بزملائه الأعداء(8).

وذكر سفير الولايات المتحدة الأمريكية في الأستانة أن مجموعة أنور باشا وطلعت باشا هم الذين أبعدوا جمال باشا عن العاصمة، خوفاً من طموحاته الشخصية في الوصول إلى سدة السلطة والتفرد بالحكم(9).

إضافة إلى ذلك كانت محاولات أنور باشا في إبعاد جمال عن العاصمة، أبعاد الوجه الدموي عن العاصمة رغم أنهم مشاركوه، ودفعوه إلى سحق الحركة العربية القومية الناهضة لما يكنه من حقد على كل القوميات غير التركية في الدولة العثمانية، ليتحمل وحده مجزرة النهضويين العرب لما عرف بكرهه لهم. ويصف السفير الأمريكي في العاصمة الأستانة هنري مور غتنو في مذكراته تلك الصفات الوحشية لجمال باشا بقوله: (لم يكن جمال محبوباً من سكان العاصمة لقسوته، وسفكه للدماء، إذ حكم بالإعدام على 13 رجلاً من نخبة رجال تركيا في يوم واحد، عندما عين حاكماً لاستنبول، ونفى وسجن وأعدم.. وكان يعرف أن الإعدام من واجباته اليومية.

وهو يجمع القوة والشراسة، فلا يقدر أحد أن يرى فيه لطفاً وإيناساً، كانت عيناه سوداويتين، إذا نظر اخترق الصدر، وضحكته كانت ممزوجة بشيء من المعاني الوحشية.. ولم يستطع أنور وطلعت إخضاعه، فحسناً فعلا بتعيينه لفتح مصر حتى يبعداه، وهو يكره كل الشعوب غير التركية كالعرب مسلمين ومسيحيين ويونان وأرمن ويهود وشراكس، وكان طموحه يدفعه للاختلاف مع

أنور وطلعت)(10).

كان جمال باشا متشدداً لطورانيته، ولا يسمح لأي شخصية كانت تركية أو عربية أو أرمنية بأن تختلف معه على ذلك أو ترفض طروحاته، ولا يتصور حتى من أقرب الناس إليه كما يشير صديقه محمد كرد علي أن يعارض هذه الفكرة لأنها كما يتصور خيانة، فيتحدث محمد كرد علي عن هذه الصفة فيقول: (كانت عنده غيرية دينية وشعور إسلامي "في أحاديثه" لكنه كان في المسائل السياسية لا يغفر لأحد زلة، إذا حاد قيد أنملة عن قانون الوطنية العثمانية، وكان يقول لو أن ابنه أتى أمراً لأغرقته في البحر حباً بسلامة الدولة، ثم أبكي ابني)(11).

جمال باشا في سورية

ودع جمال باشا من استنبول نادي الوطن التركي (تورك أوجاقي) وداع الأبطال، فقد أعلن هو بنفسه وقادة الدولة أنه ذاهب إلى سوريا لينطلق منها فاتحاً لمصر ومحررها من الإنكليز، وسوف يستعيدها للسيادة العثمانية، والبعض كما أشرنا إلى ما قاله ضابط الاستخبارات التركي عزيز بك، كان يرى من قبل هؤلاء الشبيبة بقيادة جمال باشا للجيش الرابع في سورية فتحاً تركياً جديداً للبلاد العربية بما فيها سورية.

وحين وصل إلى سورية في 5 كانون الأول 1914 استقبل من الشعب استقبالاً حاراً وحاشداً كبطل إسلامي يقود الجيوش العثمانية تركية وعربية لتحرير مصر، فكانت المدن والقرى السورية قد تزينت باليافطات وخاصة التي يمر بها قطار جمال، حتى وصل إلى محطة الحجاز في دمشق، فكانت المحطة تغص بالناس مرحبين هاتفين له كمحرر مصر القادم، وأيضاً منقذ سورية من أطماع الاستعمار الأوروبي، وألقى الشعراء قصائد المديح، وألقيت خطب تمجيد والتفاؤل من قبل زعماء وقادة دمشق، ويصف هذا اللقاء رئيس أركان جيشه علي فؤاد بك بقوله: (وقد استقبلنا في دمشق استقبالاً حافلاً ليس في زيادة لمستزيد، فزينت المدينة احتفاء بقدوم وفاتح مصر، وتراكض الألوف من الناس إلى موقف

القطار، وفيهم رجال الدين وقادة جندها وسادة البلاد وعلماؤها وخطباؤها وشعراؤها وقناصل الحكومات فيها. وذبحت الأضاحي، وألقيت القصائد التي أشبه بأحاديث المناجاة، وانصرف الناس مبتهجين متحمسين، وكان يوماً لا نظير له)(12).

وقد أظهر جمال باشا شكره وإعجابه بالجماهير العربية السورية، وألقى كلمة في الجماهير المرحبة به ومما قال فيه: (اعملوا على ترقية العرب والعروبة، وجددوا مدينتكم.. إن البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه لإصلاح حالة العرب، لأوسع كثيراً مما يخطر ببالكم، ولست لأوجس شراً من بقاء العرب والترك متحدين وخاضعين لخليفة واحد، بل من انفصال إحداهما على الآخر كشعبين مستقلين. يجب علينا أن نعمل كثيراً لإدراك هذه الغاية، واليوم أراني قادراً على أن أؤكد لكم، أن الأماني التركية والأماني العربية لا تتعارضان مطلقاً، فالترك والعرب ليسوا سوى أخوان في غاية الوطنية، وربما أكمل بعضهم مجهود بعض. إن غرض رجال تركيا الفتاة، هو إيقاظ الشعور الوطني في الأمة التركية، وتدريب مواطنيهم على العمل وتحريرهم من النير السلافي وتقويتهم.. إن الشعبين العربي والتركي مقضي عليهما بالفناء في اللحظة التي يتخاذلان فيها.)(13).

مذبحة جمال للقادة العرب

بعد الهزيمة المشينة التي لقيها جمال باشا في قناة السويس، كشف عن أنيابه الدموية، وخلع لباس التودد واللطف للعرب قبيل توجهه إلى السويس، كانت تلك العواطف الكاذبة لحاجته الماسة للمتطوعين العرب في تلك الحملة، ورغم أنه تحدث عن بسالة العرب وشجاعتهم في تلك الحملة، إلا أن ما يكنه من حقد للقوميات غير التركية سرعان ما بدت على تصرفاته، فكما كانت مذابحه ضد الأرمن وقادتهم حين كان والياً على أضنه، أعاد المذبحة من جديد على جنس آخر هم العرب.

لم ينج من مذابحه كما أشرنا من كان حليفاً أو معارضاً، فهو السادي الذي

لا يرتوي من دماء الآخرين. فكان أول ضحاياه صديقه عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي. حين وصل جمال باشا إلى سورية كان بحاجة إلى الضباط العرب والجنود العرب في حملته لفتح مصر كما كان يحلم، وأيضاً بحاجة إلى القوى العربية من جمعيات وأحزاب لتهدئة الداخل العربي للتفرغ للحملة.

فكلف صديقه عبد الكريم الخليل ليكون الوسيط بينه وبين العرب مدنيين وعسكريين لتلك الحملة، ولغرض في نفسه للقضاء الحركة العربية، طلب من الخليل إقناع الضباط العرب وقادة الحركة العربية النهضوية بالقبول بالوظائف الكبيرة التي يعرضها عليهم المدنية والعسكرية في منطقة الأناضول بذريعة حاجة الدولة لهم.

استطاع الخليل فعلاً تنفيذ المهمة أوكلها إليه، فتم إقناع العديد من القادة والضباط بقبول تلك المناصب التي عرضها عليهم جمال باشا. وما تم ذلك حتى تفرغ للحركة العربية وتصفيتها تصفية جسدية لا تزال تؤثر في أعماق العرب القوميين، ومن الغريب أن يكون أول ضحاياه عبد الكريم الخليل الذي ظن الخير في جمال باشا، وانطلى ما أظهره من ود للعرب(14).

ما هي الجريمة التي ارتكبها عبد الكريم الخليل حتى يلاقي هذا المصير على يدي السفاح؟ يذكر جمال من أسباب تعيينه في سورية، أن أنور كان يعلم بوجود نشاط قومي عربي مناهض للترك يعد للثورة الاستقلالية ضد الدولة، وأن تعيينه كان لوقف تلك الحركة التي كان يرى أنها كانت تنسق مع دول أوربية لتحقيق أهدافها. (15)

لهذا كان يحمل الشك في كل العرب حتى المقربين إليه، وخاصة أن لعبد الكريم الخليل مواقف قومية حين كان موجوداً في الأستانة، إضافة إلى أنه كان يقود الشبيبة العربية فيها، ويترأس المنتدى الأدبي العربي القومي التوجه والأهداف.

من المصادر التي تكشف لنا أسباب اعتقاله ومن ثم السرعة في إعدامه رغم

تقـربه مـن جمـال، وكـان جمال شك في عبد الكريم حسب ما ورد في مذكراته، حين سـأله مرة في أيار 1915 عن سبب تباين المواقف بين الإصلاحيين العرب ففي سورية يؤيدون الدولة، وفي مصر يعارضون، فأجابه الخليل أن عليه أن يسأل الإصـلاحيين في مـصر، وكـان مـضطرباً، وحـين سأله عن كيف يذهب إلى مصر وهم في حالة حرب، أجاب الخليل بأنه يمكن أن يوصله إليها.(16)

وزاد هذا الشك لدى جمال حين أخبره وهو في القدس أسعد الشقيري مفتي الجيش الـرابع، وكامـل الأسـعد نائب بيروت وزعيم منطقة صيدا بأن عبد الكريم ومعـه رضـا الـصلح يقـودان مؤامـرة عـصيان وثـورة في مـنطقة صيدا وصور ضد الدولـة.(17) ويقـول فايز الغصين في مذكراته أن عبد الكريم الخليل كان موضع شـك قـبل ذلـك لـدى الـسلطات الأمنـية التركـية، وأنـه كلف مرة بالتحقيق حول المعلـومات أمنـية تقـول أن الخلـيل كـان يجمع تواقيع الناس على مضابط تدعو الـدول الأوربية إلى حمايتهم من السلطات التركية، وأنه فعلاً حقق في تلك الأمور ولم يـستطع أن يجـد دلـيلاً علـى تلك الوشايات، وذكر أنه أخبر عبد الكريم بها وحـذره ممـا يحـاك لـه من قبل السلطات التركية، الذي استغرب قيام الأتراك بهذا علماً أن طلعت باشا ناظر الداخلية يظهر له المودة(18).

وشـكل جمـال باشـا مـا أطلـق عليه المجلس العرفي في عاليه في لبنان، أو ديوان حرب عرفي، الذي كان محكمة عسكرية استثنائية، أعطيت لها صفة قانونية بـصلاحية واسـعة مـن قـبل الحكـومة الاتحاديـة، هدف منها القضاء على الحركة العـربية النهـضوية بطـريقة التـصفية الجـسدية، وزرع الـرعب في قلوب العرب، بسبب إعدام قادتهم ومثقفيهم.

وفي أواخـر حزيـران 1915 تم اعـتقال عـبد الكـريم ورضـا الـصلح بحجة المؤامرة المزعومة، بوشاية ثبت كذبها وعدم صحتها، واعتقل إضافة لهما عدد من القـادة العـرب ومنهم صالح حيدر ومسلم عابدين ونايف تللو ومحمد محمصاني ومحمـود محمـصاني وعـبد القـادر الخرسا ومحمود العجم وسليم الأحمد عبد الهـادي ونـور الـدين القاضـي وعلي الأزمناري. وأحيلوا إلي جميعاً إلى المجلس

العـرفي، بتهمة الانـتماء إلى حزب اللامركزية في مصر، فأصدر المجلس العرفي حكـم الإعـدام بهـم، بعد أن وقع عليه جمال باشا، علماً أن القانون يقول أن الذي يوقـع على حكم الإعدام هو السلطان، ونفذ هذا الحكم بهم شنقاً عدا رضا الصلح في 21 آب 1915(19).

وقـول عـبد الكـريم الخليل قبل أن يعتلي منصة الإعدام يبين لنا الظلم الذي حـاق بـه وبـزملائه بتلفيق جـريمة بهـم هـم بـراء مـنها قـال الشهيد عبد الكريم: (أشـهدكم أيهـا القـوم أننا لم نأت أمراً فرياً، يوجب وقفتنا هذه، وإني آسف على ما أظهرته من الإخلاص للدولة منذ نشوب الحرب. ولكن الاتحاديين أبوا إلا أن يعلـنوا عـداءهم لهـذا العنـصر الكـريم، الـذي لا يملـك مـن أمـره شيئاً. فإذا كان جمـال باشـا يتهمـنا بإضـرام الـثورة لاسـتقلال العـرب، فلابـد مـن ضـحايا لهـذا الاستقلال، ولـنكن أول هـذه الـضحايا. إنني أعرف السبب الحقيقي الذي شنقني جمـال باشا لأجله، وسيعرف التاريخ)(20). وكانت أول قافلة من الشهداء العرب على يد الجزار جمال السفاح.

وعـبد الكـريم الخلـيل شـاب مـن جبل عامـل في لبنان، تخرج من مدرسة الحقـوق والمدرسـة الملكـية في الآسـتانة، وكـان يـرى ضـرورة بقاء وحدة الدولة العثمانـية مـوحدة بـين العـرب والـترك، ولكـن ضـمن التـساوي في الحقـوق بين الطـرفين، أسـس المنـتدى الأدبي في الآستانة عام 1909 لدعم اللغة العربية كلغة رسمـية كالتركـية، وبقـي إلى عـام 1915 حيث أغلقته الحكومة الاتحادية، وكان يـصدر مجلـة المنـتدى الأدبـي، ومـن الذين كانوا معه في التأسيس الدكتور أحمد قـدري ويوسف مخيبر وسيف الدين الخطيب ورفيق رزق سلوم وجميل الحسيني وأحمد عزت الأعظمي، وكان المنتدى الرسمي للعرب الذي تم بموافقة السلطات العثمانـية ودعمهـا، فقد كان قبلة الطلاب العرب في العاصمة، رأى في الاتحاديين وأهـدافهم في الحـرية والمـساواة والعدالـة وغيرها من الشعارات إمكانية التعاون بـين الطـرفين لدولـة حديـثة، وصـدق مقـولاتهم وانخـدع بهـا، بحيـث أصبح من أصـدقائهم المخلـصين، ونتـيجة دعـوته إلى الـتعاون مـع الاتحـاديين، ارتـاب بـه

القوميون العرب الاستقلاليون لصلته القوية بالاتحاديين، ودعوته لهم بالتعاون، وأنهم لا يضمرون للعرب شراً، والأحوال الحاضرة تقتضي على الأمتين العربية والتركية تناسي الخلافات والنزاعات والدفاع معاً قلباً وقالباً عن الوطن المشترك.

وقد خصص له الاتحاديون راتباً كبيراً من صندوق جمعية الاتحاد والترقي،فكان همزة الوصل بين قادة الأحزاب والجمعيات العربية النهضوية، وظل الحليف المقرب للاتحاديين وجمال باشا حتى سوقه إلى المشنقة كما أشرنا سابقاً(21).

الفصل الثاني

قضية إعدام قادة النهضة العربية

تتحدث بعض المصادر التاريخية أن سبب ممارسات جمال القمعية ضد القادة العرب، تعود إلى وثائق حصل عليها من القنصليات الأجنبية التي كانت تعمل في بيروت، والتي تتضمن اتصالات تمت بين بعض هؤلاء القادة وقنصل تلك الدول، تشكل في رأي جمال والدولة التركية تآمراً قد تم بين قادة النهضة العربية مع الدول الأوروبية عبر قنصلياتها، تستهدف الثورة والانفصال عن الدولة العثمانية، مع اتهام أن هؤلاء يريدون الانفصال ووضع سورية تحت الانتداب الفرنسي، واعتبر ذلك خيانة عظمى تستوجب عقوبة الإعدام.

والوثائق التي اعتبرت دليلاً على خيانة هؤلاء ما هي إلا عبارة عن رصد قامت به القنصلية الفرنسية في بيروت للحركة العربية وقادتها وأحزابها وجمعياتها، ومطامحهم نحو الاستقلال والحرية، كما تقوم أية سفارة وقنصلية اليوم، فالقنصلية في أي بلد كان ترصد الحالة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية فيها، وتلتقي الفعاليات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهي من مهام القنصليات والسفارات في العالم. وهذا ما حدث فعلاً فقد التقى القنصل الفرنسي في بيروت مع بعض القادة العرب السوريين (ونقصد سكان سورية الطبيعية كل بلاد الشام) في حفلات أو مأدبة طعام أو لاستمزاج الرأي في موضوع معين، أو بحث شيء معين، وهذا ما جرى في لقاءات للقنصل الفرنسي مع بعض القادة العرب، والذين لا يتجاوزون الأربعة حسب ما جاء في وثائق التهم التي صدرت بحق الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا. هم شفيق المؤيد

العظم وشكري العسلي والأمير عمر الجزائري ونوري القاضي (انظر إلى باب الوثائق).

علماً أن المؤتمر العربي الأول قد عقد في باريس، وكان القنصل الفرنسي له اهتمامات في متابعة ردات الفعل لدى الشخصيات العربية حول عقد المؤتمر وما هي الأمور التي يجب أن تبحث فيه، ومن ثم يتعرف على رأي بعض المشاركين ممن إن استطاع أن يلتقي بهم، إضافة إلى الاستماع لرأي بعض المتنفذين من زعماء المنطقة والأحزاب والجمعيات حول المؤتمر، ومدى تأثيراته عليهم وعلى سكان مناطقهم، وهذه كانت من المهام المكلف بها قنصل فرنسا وغيره من قناصل أوربا، ومن العرف الدبلوماسي أن القنصل يعلم وزارة الخارجية بكل ما وصل إليه من معلومات عبر تقارير سرية دورية، ومن التقاليد الدبلوماسية أن يحتفظ في قنصليته بصورة من التقارير (نسخة ثانية) كأرشيف للقنصل يعود إليه عند الحاجة، هذا إذا كان الوضع آمناً له ولقنصليته أما إذا كانت خطورة على مضامين التقارير وعلى سلامة من تناولهم التقرير فعلى القنصل إتلاف النسخ حتى لا تقع في يد أعداء بلاده، أو في يد الأجهزة الأمنية التي تستغلها في معاقبة واتهام من تراهم معارضي الدولة أو نظامها.

كان جمال باشا قد علم بتلك الوثائق الفرنسية، التي كان قد أودعها القنصل الفرنسي في القنصلية الأمريكية، بعد وصوله إلى دمشق مباشرة عن طريق والي سورية خلوصي باشا، الذي أخبره بها بعد حفلات الاستقبال الشهيرة لوصوله (22) إلا أنه أثر على إبقائها سرية، حتى معرفة نتيجة حملته على مصر لأنه كان بحاجة ماسة للتضامن العربي مع حملته، وخاصة أن أغلب الجيش الذي يقوده من العرب، وبعد فشل حملته، أخرج جمال تلك الوثائق لإدانة القادة العرب والتخلص منهم.

أما قصة الوثائق الفرنسية كما تشير المصادر التاريخية، فتقول أن القناصل الأجانب من دول الحلفاء قاموا بحرق ما لديهم من وثائق مع بداية دخول تركيا الحرب العالمية الأولى في منتصف تشرين الثاني عام 1914، وكان طلعت باشا

الصدر الأعظم أعلم جمال باشا بوجود وثائق في القنصليات، إلا أن والي بيروت سامي باكير رفض تفتيش القنصليات، وبعد أن خلفه عزمي بك على سنجق بيروت داهم القنصليات وفتشها، ولم يجد شيئاً من الوثائق في كافة القنصليات إلا في القنصلية الأمريكية حيث حصل على وثائق أودعها القنصل الفرنسي في بيروت (جورج بيكو) لديها، ولم يحرقها، أما لماذا لم يحرقها فلها عدة إجابات وأن لم تكن قاطعة لهذا اليوم؟ منهم من رأى في خطاب بيكو أثناء وداعه في بيروت عنتريات وتبجح، حين قال أنه سيعود إلى بيروت بعد خمسة عشر يوماً، أي أن هزيمة تركيا محققة في رأيه بعد أيام، لهذا تركها ولم يحرقها بل أودعها لدى القنصلية الأمريكية دليلاً حسب رأيه على هزيمة تركيا، وأنه سيعود بعد أسابيع إلى بيروت منتصراً(23). وهو رأي في ضعف، لأن الحرب دولية ونهايتها لا تحددها تقديرات دبلوماسي، بعيد عن إدارتها.

وقد حملت الصحف الفرنسية القنصل الأمريكي في بيروت مسؤولية تسليم الوثائق للسلطات التركية، وأن عليه ألا يسلمها على اعتبارها أمانة لديه، ولا يحق له تسليمها للسلطات التركية(24). وهناك تفسير آخر يبرر تصرفات القنصل الفرنسي بعدم حرق الوثائق، بأن الإنكليز والفرنسيين فعلاً كانوا قد أعدوا عملية إنزال في إسكندرونة على الساحل السوري، إلا أنهم عدلوا عنها بسبب رفض فرنسا المشاركة في الإنزال. ويظهر أن السبب الفرنسي عن عدول عن خطة الإنزال، كان رداً لما وصولها من معلومات عن اتفاق تم بين إنكلترا والشريف حسين والقوميين العرب على إقامة مملكة عربية في سورية تحت زعامة الشريف حسين أو أحد أبنائه، وهذا ما يفسد عليها ما خططت له لاستعمار سورية ووضعها تحت هيمنتها:(25)

أو أن فرنسا أرادت أن تصل هذه الوثائق إلى السلطات التركية، وبذلك تكون تخلصت من قادة النهضة العربية لمعرفتها بأن هؤلاء سيرفضون رفضاً قاطعاً مخططاتها في استعمار سورية، ولا يقبلون احتلالاً بدل احتلال، وسيقاومونها مقاومة شرسة، وأنهم سوف يشكلون عقبة كأداء في وجه مخططاتها

الاستعمارية. لهذا أرادت أن تزهق أرواحهم بيد الاتحاديين لا بيدها، فهؤلاء لا يتورعون في سفك الدماء، وارتكاب المجازر الوحشية بحق معارضيهم مهما كانت مكانتهم الاجتماعية في بلادهم، وما حدث في استغلال تلك الوثائق يطرح مثل هذا الاحتمال، فأوعزت لبيكو بتركها، وعدم إحراقها، لتصل إليها أيدي السلطات الاتحادية.

ويؤيد تلك النظرة ما جاء على لسان السفاح جمال باشا في كتابه إيضاحات عما اعتبره إدانة بحق الشهيد عبد الغني العريسي، أن العريسي اعترف في التحقيق، أن وزير الخارجية الفرنسي يبشون كتب بعد المؤتمر (مؤتمر باريس) إلى جميع القناصل الفرنسيين في البلاد العثمانية قال فيه: (تحقق لدينا أن الحركة الإصلاحية قد انقلبت علينا ـ عن تصريح الوفد ـ ولذلك أظهروا أنفسكم أنكم تساعدونها لاكتساب قلوب الأهليين، وفي الخفاء اسعوا لقتلها)(26) كل ذلك يعطينا احتمال ترك تلك الوثائق من قبل القنصل الفرنسي كان معتمداً للتخلص من قادة الحركة العربية على يد غيرهم، وحتى لا يكونوا العائق في وجه مخططاتها الاستعمارية لسورية ولبنان.

ومما يلفت النظر أن الفرنسيين أرادوا استغلال إعدام قادة الحركة القومية العربية لكسب قلوب الشعب المكلوم على شهدائه، والاستفادة من ردة الفعل السلبية ضد الترك لدى الوسط الشعبي بما فيه من كان يرفض الانفصال على الدولة العثمانية، ولكسب الفعل السلبية ضد الترك لدى الوسط الشعبي بما فيه من كان يرفض الانفصال عن الدولة العثمانية، ولكسب تعاطف الجماهير لصالحهم، فأظهروا أن هؤلاء القادة كانوا فعلاً جميعاً على اتصال معها، وأنها تقدر تضحياتهم فمنحتهم أوسمة رفيعة، ظاهر التكريم الفرنسي تقدير لتضحيات الشهداء، وباطنه إساءة للشهداء، فبعد رسالة أرسلتها أسر الشهداء للرئيس الفرنسي مسيو بوانكاريه، منحت فرنسا بموجب مرسوم جمهوري بتاريخ 7/ آذار/ مارس 1919 أوسمة وفق المرسوم التالي:

مادة 1 ـ يمنح وسام جوقة الشرف لكل من السوريين الآتية أسماؤهم،

الـذين أعدمـوا مـن أجـل عـدائهم للـسلطات التركـية، ليـبقوا مخلصين ومتعلقين بفرنسا، الحامية التقليدية لبلادهم:

لمـرتبة ضـابط عظـيم: ـ شـفيق المؤيد العظم، رشدي الشمعة (دمشق)، عبد الحمـيد الزهـراوي (حمـص) الـشيخ احمـد طـباره (بـيروت) فريد خازن، فيليب خـازن، جوزيف هاني (بيروت) صالح حيدر (بعلبك) نخلة مطران باشا (بعلبك) محمد المحمصاني، محمود المحمصاني (بيروت).

لمـرتبة فـارس: عـبد القـادر خرسا (بيروت)، محمد العجم (بيروت)، نوري القاضـي (بـيروت) عمـر حمـد (بـيروت)، عـبد الله داغـر (طرابلس الشام)، سليم الجزائـري (دمـشق)، عـبد الوهاب الإنكليزي (دمشق) رفيق رزق سلوم (حمص)، مـسلم، نايـف تللـو، سليم عبد الهادي، سعيد الكرمي (عين كرم) نافع بك السيد، سعيد عقل، جورج حداد، بتروباولي، الأب حايك، علي سيوفي البيطار (حماه).

باريس 7 مارس/آذار/ 1919.

التوقيع بوانكاريه(27).

كانـت الاتهـام الرئيـسي لجمـيع مـن صـدر حكم الإعدام بحقهم بأنهم كانوا علـى اتـصال بالـسفارات الأجنبـية التي كانت في حالة حرب مع الدولة العثمانية، وهـي تهمـة باطلـة في أغلـب مـضامينها كـون الأغلبية ممن أعدموا لم يتصلوا لا بقناصـل أو بـسفراء، ومن اتصل منهم كان لبحث رأي أو لحفل رسمي أو بدعوة علنية، ولم يكن جاسوساً كما جاء في اتهامات الحاكم العرفي، وهذا لا يعني أن البعض منهم لم يكن على علاقة حميمة أو مشبوهة مع القنصلية الفرنسية خاصة إلا أنهم كانوا قلة جداً كما تشير الوثائق، لم يتجاوزوا أصابع اليد الواحدة.

فالغالبية منهم كان يتشاور مع القنصل الفرنسي في سبيل قضية تحرير بلاده مـن الاستبداد والعنصرية مثل شكري العسلي، الذي تظهر الوثائق أنه زار القنصل الفرنـسي في دمـشق في أيلـول 1913، وتحـدث معـه عـن المؤتمـر الـسوري وضـرورات الإصـلاح في الولايات العربية، وانتقد الحكم التركي. فقال له القنصل

كما يقول لمعظم زواره أن فرنسا ستقدم مساعدات لسورية. وتحدث العسلي عن عداء الترك للمؤتمر السوري في باريس، واقتراضهم للمال من أجل شراء أسلحة لقتل العرب، وأنهم اعترفوا مضطرين بمقررات المؤتمر، ولكن لم يعملوا شيئاً. ويذكر القنصل الفرنسي أن معظم الزعماء العرب حدثوه بما حدثه شكري العسلي(28).

هذا كل ما تحدث العسلي للقنصل، واتهم من قبل الحاكم العرفي بأنه يتآمر مع فرنسا ضد الدولة العثمانية، وما قام به من القادة القوميين الذي أعدموا نفس ما قام به شكري العسلي، أما من كان مرتبطاً حقاً مع فرنسا فهم من عشقها واعتبرها الأم الحنون ولا تزال بقاياهم إلى يومنا هذا، ومن بينهم ما أشارت إليه نشرة المشرق اللبنانية الناطقة باسم الكاثوليكيين الموارنة في لبنان في عددها السادس تاريخ جوان /حزيران/ 1921 ما قالته بالحرف عن إعدام الأخوين فيليب وفريد الخازن: (بأنهما نشأ على حب الوطن، وحب فرنسا، والتمسك بالدين، وأنهما خدما بجريدتهما (الأرز) مدة عشرين سنة، الدين والوطن وفرنسا)،

كما أن البعض من اللبنانيين كان يسعى في السر والعلن لفصل لبنان وسورية عن الدولة العثمانية بالتعاون مع فرنسا، وأعلنوا رغبتهم وأمانيهم باستقلال لبنان عن الدولة العثمانية ووضعه تحت الرعاية الفرنسية، ونذكر مثلاً طلباً خطياً إلى وزارة الخارجية في آذار/ مارس 1913 تقدم به ميشيل التويني ويوسف الهاني وبترو طراد وأيوب ثابت ورزق الله أرقش وخليل زينيه يطلبون وضع سورية تحت حماية فرنسا وتوسيع لبنان(29). هذه الفئة استمرت في رؤيتها لفرنسا الحامي والأم الحنون حتى اليوم، وعملت ما بعد الانتداب الفرنسي 1920 إلى تحقيق حلمها بتكوين لبنان الكبير يضم عدداً من المدن والقرى السورية إليه.

وقد دل على هذه الوثائق مترجم القنصلية الفرنسية في بيروت نفسه فيليب زلزل، وأفشى سرها لجمال باشا مدعياً خوفه من النفي إلى الأناضول كبقية المترجمين للقناصل الذي نفاهم جمال باشا، وبعد إفشاء سر هذه الوثائق من

قبل فيليب زلزل لجمال، أستأذن الأخير حكومته بتفتيش القنصلية الأمريكية، وعاد إليه بالموافقة بعد شهرين(30)، كان بإمكان القنصل الأمريكي إتلافها، وأن تطلب فرنسا من السفير الأمريكي إتلافها وحرقها، وهذا ما يدلل على تواطؤ الدول الغربية على إنهاء قادة العرب النهضويين، وهم من خيرة المناضلين العرب صلابة وشجاعة وشكيمة، وهذا ما يجعلهم يشكلون عائقاً كبيراً أمام خطط الغرب لاستعمار المنطقة العربية بعد الحرب، وتحميل جمال السفاح مسؤولية التخلص منهم. وليست بعيدة الولايات المتحدة عن تلك المخططات، وكانت تعمل سراً من أجل كيان صهيوني في فلسطين، وكان لها الدور الأكبر والمؤثر في إصدار وعد بلفور من قبل الحكومة البريطانية أثناء الحرب.

مشانق الشرف والحرية

نقرأ هذه الأيام من يحاول تبرير أعمال جمال السفاح والقيادة العنصرية الاتحادية، ويتباكى على تلك المرحلة الزمنية من التاريخ، تحت ذريعة ضياع الخلافة، ويحمل الحركة القومية العربية سبب الضياع، ويصل به الأمر إلى اتهامها بالتعاون مع الغرب لإسقاط الخلافة، متسلحاً بافتراءات الاتحاديين التي لفقوها لقادة النهضة العربية، وعلقوا أجسادهم بها على أعمدة المشانق، وكل الوثائق التاريخية تبرهن براءة معظمهم. وقد ذكرنا في الباب الأول من هذا الكتاب ما كانت تطرحه الحركة العربية وحتى مجيء جمال باشا إلى سورية حقوقاً مشروعة كأمة شريكة في الحكم، تريد أن تكون لغتها رسمية كاللغة التركية وغيرها من المطالب التي سقناها من قبل، فلا يوجد فيها انفصال أو استقلال، وكانت مقررات مؤتمر باريس أكبر شاهد على ذلك، والاتفاق الذي تم مع أمين سر اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي وقادة المؤتمر في باريس دليل على أن الحركة العربية لم تطرح الانفصال قبل إعدام الكوكبة الأولى من شهداء التحرر القومي في آب 1915. فقد أجبر السحق العرقي القادة والشعب إلى الثورة، والنضال من أجل الاستقلال عن الدولة العثمانية بسبب تبني عنصرية

قومية استعلائية وليس كما صور عدد كبير من الباحثين والدارسين بأن الحركة النهضوية العربية ضد الاتحاديين كانت ضد وحدة المسلمين والخلافة الإسلامية، بل ضد قومية عادت الإسلام والخلافة، وحملة رايتها هم الذين أرسلوا خليفة المسلمين هدية إلى اليهود والماسونية في سالونيك.

استخدم جمال باشا أبشع أنواع التنكيل والتعذيب والقتل بحق العرب وقادتهم. ومن تلك الصور يذكر فائز الغصين في مذكراته مشاهداته عن معاملة المعتقلين من القادة والمثقفين العرب في سجون الاعتقال العنصري، نوردها كشهادة للتاريخ حتى يتذكرها هؤلاء المتباكون على جمال وأنور وطلعت ممن أذاقوا الأمة الويلات والمصائب، وكانت أهم الأسباب لثورة العربية الحرية والوجود.

كان جمال قد شكل الديوان العرفي أو المجلس العرفي ليكون أداة قمع وإرهاب ترعب العرب حتى من فكرة المعارضة لسياسة التتريك، وعليهم القبول بالتبعية المطلقة للترك، فكانت الأحكام تنفذ في قادة العرب، وبعد أن يلاقوا أشد أنواع التعذيب في زنزانات السفاح فيصف فائز الغصين تلك الممارسات البشعة وكان أحد المعتقلين: (كان الضرب أخف أنواع التعذيب، وكان رجال التعذيب ينخزون الموقوفين بالإبر، ولا يدعونهم ينامون لمدة ثلاث ليالي، كما كانوا يضغطون الرأس بين الصدغين بآلة حتى يكاد يخرج المخ من العينيين، وكانوا لا يقدمون الخبز والماء والأكل يومين بأقل ما يمكن، كما يضرب البعض بالفلقة على رجليه، وكانت الثياب تلتصق بالأجسام من الضرب والدماء، وكانوا يحلقون لحى الشيوخ، ويسجنون الشباب بأماكن مظلمة، ويمنعون التكلم مع الآخرين، ولا يسمح لأحد بالقراءة أو الكتابة أو مطالعة الجرائد، أما وضع القيود بأرجل المساجين وصفعهم بالأكف، فهذا من الأمور البسيطة)(31).

ويتحدث فارس الخوري الذي تم اعتقاله في تلك السجون، رغم أنه كان نائباً عن مدينة دمشق، المعتقلون كانوا من شدة العذاب الذي يلاقونه يعترفون بما يريد زبانية جمال، ومن الجرائم التي يزعمون على الاعتراف بها التآمر على قتل

جمال باشا، وطرد الأتراك من سورية، وتعيين فيصل ملكاً على سورية.(32)، وقد نجا فارس الخوري من الإعدام، لتوسط طلعت وزير الداخلية له، وبسبب الحصانة التي له كنائب في البرلمان التركي، وكذلك نجا شكري القوتلي من الإعدام بسبب نقله إلى المستشفى، بعد قطع شرايينه في المعتقل وسال دمه خارج الزنزانة(33).

والهدف هو تدمير الحالة النفسية عند العرب، والشعور بالرعب من تفكير بالثورة أو المطالبة بالحقوق أو المساواة والحرية، يذكر الدكتور أحمد قدري، أنه قبل يومين من الإفراج عنه من المعتقل، اجتمع بكمال بك مستنطق ديوان الحرب أو العرفي، الذي حدثه عن أسرار هذه الحملة ضد القادة والمفكرين العرب، وأسباب التصفية الجسدية لهم، والتعذيب الشديد: (إننا نحكم بالشنق على كل من يؤتى به إلى هنا، كي لا يبقى في بلاد العلاب من يفكر بالانقضاض على الدولة العثمانية، أما أنت فقد غدوت صديقنا، واعتقد أنك من الذين سيفرج عنهم إذ لا خطر منك، فإذا ما دعيت للسؤال، فعليك أن تتظاهر بالبساطة واستنكار كل ما يعزى إليك)(34).

ويذكر قدري بعد الإفراج عنه، أنه حاول أن يساعد زميله شفيق المؤيد، فدعا رئيس ديوان الحرب شكري بك إلى عشاء ساهر، وعرض عليه أن يعمل على الإفراج عن المؤيد وعن البقية من الموقوفين، فأجابه شكري بك (والدموع تخرج من عينيه، ليس في وسعه تلبية الطلب لأن جمال باشا مصر كل الإصرار على شنق أكبر عدد ممكن من المعتقلين، وبخاصة أولئك الذين يخشى أن يقوموا بحركة من الحركات في سبيل قضية بلادهم، وأنه لم يتمكن من حمله على العدول عن رأيه رغم المحاولات الكثيرة في هذا السبيل)(35).

إعدام قادة النهضة العربية

وفي 6 أيار 1916 سيقت كوكبة من خيرة قادة النضال التحرري العربي إلى مشانق جمال باشا بمحاكمات صورية، ينتفي منها القانون، وحقوق الإنسان،

وأبسط أشكال الشرعية في حق المتهم من الدفاع وتكليف المحامين. وكانت الأحكام تصدر بأمر من جمال نفسه، فأعضاء المحكمة كما يشير أمين سعيد في كتابه عن الثورة العربية، بأنهم كانوا يكتبون لوائح أسماء المعتقلين إلى جمال، ويصفون شخصية كل واحد منهم، من حيث الذكاء والقوة والنفسية، فكان جمال يضع الحكم الذي يريد إلى جانب الاسم، ولا ينجو إلا من كتب جانب اسمه أبله، الذي رشا أو تظاهر بالبلاهة. وذكر شكري بك رئيس الديوان العرفي أن الحكم على الدفعة الثانية من المتهمين عدل أربع مرات بأمر جمال باشا، في كل مرة يشطب ويضيف من الأسماء ما يريد، وأبلغ جمال باشا رئيس الديوان العرفي بصيغة الأحكام النهائية في 5 أيار 1916 قبل يوم واحد من تنفيذ الأحكام.(36).

وتشير مجلة المنار أن جمال باشا استدعى شكري بك إلى مكتبه وطلب منه أن يصدر حكماً بالإعدام على أربعين شخصاً، وحاول شكري أن يثنيه على هذا الأمر، وأن يصدر الحكم على ثلاثة أو بالأكثر خمسة لأن ضميره غير مرتاح، إلا أنه أصر على الحكم على الجميع، واستدعى أعضاء الديوان من الضباط الشباب، الذين يهابونه ويخشونه فصوتوا إلى ما يريد، وكانت نتيجة إصرار شكري على خفض أعداد المطلوب إعدامهم من قبل جمال باشا لهذا تم الحكم بالإعدام على (21) متهماً من أصل أربعين الذي أشرنا طلب جمال باشا بإعدامهم(37).

وفي صبيحة يوم السادس من أيار 1916 شهدت ساحتا المرجة في دمشق والشهداء في بيروت عرس الحرية لأمة العرب مع تدلي أجساد قادتها على مشانق الاتحاديين، فبإعدامهم سقطت كل أوهام البقاء ضمن دولة بينهم والاتحاديين، ولابد من انعتاق الأمة من هذا الزواج القسري، وكان ثمن هذا الانعتاق كوكبة من خيرة أبناء الأمة على مذبح الحرية والاستقلال.

كان الأبطال يتسابقون إلى أعواد المشانق بشموخ وعزة كتبته كل مصادر التاريخ، هذا التسابق أذهل كل من رأي أو سمع أو قرأ حفلة الحرية في السادس من أيار. ففي دمشق نفذ بالشهداء: عبد الحميد الزهراوي (عضو مجلس الأعيان)

وشفيق المؤيد (عضو سابق في مجلس المبعوثان) والأمير عمر الجزائري وشكري العسلي (عضو سابق في مجلس المبعوثان) وعبد الوهاب المليحي (الإنكليزي) ورشدي الشمعة (عضو سابق في مجلس المبعوثان)، وضابط الاحتياط رفيق رزق سلوم.

وفي بيروت في صبيحة نفس اليوم 6 أيام 1916 نفذ حكم الإعدام بطليعة من قادة الأمة: العقيد سليم الجزائري ـ العقيد أمين لطفي حافظ ـ عبد الغني العريسي (صاحب جريدة المفيد) ـ الشيخ أحمد طباره (صاحب جريدة الاتحاد العثماني) ـ الأمير عارف الشهابي ـ توفيق البساط ـ سعيد عقل (رئيس تحرير جريدة النصير) ـ جلال بخاري ـ سيف الدين الخطيب ـ بترو باولي ـ محمد الشنطي ـ جرجي الحداد ـ الدكتور علي عمر النشاشيبي ـ الشاعر عمر حمد.

وقد كتب ترك وعرب عن المواقف البطولية لتلك الكوكبة وهي تستقبل الموت، يذكر أحمد قدري عندما سيقوا من عاليه إلى دائرة شرطة بيروت (كانوا ينشدون الأناشيد الوطنية، وأول من حملته أعواد المشنقة كان سعيد عقل وترو باولي وجرجي حداد، ثم أعقبهم إخواننا الأكرمون (يقصد قدري أنهم من المنتسبين للعربية الفتاة) عارف الشهابي وعبد الغني العريسي وعمر حمد، وكانوا يرددون أنشودة:

نحـــــن أبـــــناء الألى	شـــــادوا مجـــــداً وعُلــــى
نــــسل قحطـــان الأبـــي	جـــــد كـــــل العـــــرب

وعندما صعد عمر حمد منصة المشنقة صاح في وجه السلطة الحكومية، أن هذا الذي ترتكبه الحكومة الآن سيقوض أسس الدولة، ويكون سبباً في خرابها. ثم خاطب الحاضرين قائلاً: (أنني أموت فداء الأمة العربية غير خائف ولا وجل، فليسقط الخونة وليحيا العرب).

ثم أعدم الشيخ أحمد طباره ومحمد الشنقيطي. وعندما جاء دور توفيق البساط التفت نحو المشنوقين وكان عددهم أحد عشر شاباً، ثم صاح بصوت

جهوري وعلى محياه ابتسامة مرة: (ألا مرحباً بأرجوحة الأبطال، مرحباً بأرجوحة الشرف، مرحباً بالأعمدة التي يستند عليها استقلال الأمم، مرحباً بالموت في سبيل الوطن)، ثم رفس كرسي المشنقة برجله وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها، وكانت خاتمة المأساة شنق سليم الجزائري وأمين لطفي.

وصاح عبد الغني العريسي والحبل يوضع في عنقه قائلا: (إن الدول تبني على الجماجم، وإن جماجمنا هي أساس استقلال بلادنا). (38) (انظر إلى التفاصيل في الوثائق).

كان جمال باشا يعبر في إصداره تلك الأحكام القاسية بحق هؤلاء القادة العرب عن تصورات الغلاة الاتحاديين، بأن الطريقة الأنجع في وأد الحركات القومية الأخرى غير التركية في الدولة العثمانية، هي إعدام قادة تلك الحركات وهذا ما حدث للعرب وللأرمن على أيدي جمال باشا وبدعم مطلق من قادة الاتحاديين أمثال أنور وطلعت، وقد عبر هذا السلوك الدموي جمال باشا في مذكراته (الإحالات) حين قال: (لقد تعبنا من انحدار الحكومة إلى موقع الضعف، لذا قررنا معاقبة المجرمين بأقسى طريقة، وبدون رحمة، وبصرف النظر عن مكانتهم الاجتماعية. لذا نعتقد أن أمثالهم من الآن فصاعداً سوف يتصرفون بطريقة لائقة)(39).

والحقيقة لم تخدم عمليات التصفية الجسدية لقادة الحركات القومية بقدر ما أنعشتها، وزادت من نشاطها وأكسبتها قوى من الشعب العربي كانوا على موقف الحياد إلى الانخراط في عمل ثوري سريع لإنهاء معاناتهم من الظلم والاستبداد الذي كان يمارسه جمال باشا ومجموعته من الغلاة. ولكن قبل الشروع في مقدمات الثورة، لابد من إطلاع القارئ على أن جمال باشا وغيره من الطغاة، حين تصطدم مصالحهم مع مصلحة شعاراتهم التي قتلوا الناس سرعان ما يكون أول الخونة لوطنهم ولشعاراتهم القومية. وإليك ما ذكرته المصادر التاريخية عن خيانة جمال باشا لدولة الاتحاديين.

الفصل الثالث

جمال باشا المتآمر على دولته

أوردت الوثائق التاريخية الروسية التي تعود إلى تشرين الأول 1915 أن جمال باشا وهو في سورية كان يخطط إلى فصل سورية عن الدولة العثمانية، ويشكل مملكة خاصة به فيها، وأنه كان يراسل الحلفاء الذين كان يقاتلهم حول هذا الأمر(40). وقد أخبر أرمني مقيم في بوخارست وكان على اتصال مع جمال باشا عن طريق عملائه، أن جمال تعهد للحلفاء بالتمرد على حكومته، والسماح بتسليم اسطنبول للحلفاء، مقابل الاعتراف به كحاكم لأراضي الإمبراطورية الآسيوية(41) وقد بقيت إمكانية التعاون بين جمال باشا والحلفاء قائمة من خلال المراسلات السرية من كانون الأول لغاية كانون الثاني 1916. حيث تم التخلي عن تلك الفكرة.

كانت الشكوك تراود الحلفاء فيما نقل عن تعاونه معهم ضد الحكومة الاتحادية، من حيث المقدرة على التنفيذ، أو من عدم قبوله من العرب، ولكن كان لكل دولة من دول الحلفاء رؤيتها وفق مصالحها لما طرحه جمال باشا بالقبول به حاكماً على المناطق الآسيوية.

فروسيا كانت ترحب بالاتفاق السياسي مع جمال باشا لأسبابها ومصالحها، فهو يطرح عليها أن استلم السلطة بتسليمها اسطنبول، ومن ناحية أخرى ترى أن فشل ولم يحقق طموحاته، سيكون الصراع بين القادة الاتحاديين سيؤدي حتماً إلى إضعاف الجيش العثماني الذي تتصارع معه على جبهات القتال، لهذا رأت من صالحها هذا الاتفاق ولا شيء تخسره إن بقي جمال باشا أو قتل.

وقد أيدت إنكلترا رأي روسيا الاتفاق مع جمال سيخلق صراعاً سياسياً بين القادة الاتحاديين ويضعف الجيش العثماني عدوهما المشترك، إلا أنها رأت على جمال أن يتفق مع العرب قبل أن ينفذ مخططاته في إقامة سلطته في بلادهم(42).

وعندما كانت بريطانيا تبدي رأيها لروسيا حول الاتفاق مع جمال، كانت حينها تجري محادثات مع الشريف حسين وضباط عرب للثورة ضد الدولة العثمانية، ولا ترغب مشروع جمال لإقامة سلطة له في المشرق العربي، ليس لكراهية العرب لجمال ورفضهم لمشروعه. ولكن كان لها مخططها الاستعماري في تلك المنطقة، وهذا ما يتعارض ما يطرحه جمال، وهذا ما كتبه السيد هرتزل من مكتب الهند لوزراء الخارجية حول الاتفاق المحتمل مع جمال فقال: (من الصعب جداً على جمال باشا أن ينجح في إغراء العرب بقبول مخططه لتأسيس إمبراطورية تركية آسيوية، إذا كان ينوي تنفيذ هذا المشروع جدياً.. من الواضح أن هناك خسارة لا يمكن تعويضها لمصالح بريطانيا في كل من مصر، والجزيرة العربية، والعراق. وكذلك الإساءة إلى سمعة حكومة الملك فيما يتعلق باحترام اتفاقاتها، إذا ما أصبح معروفاً للعرب بأن هناك دعماً أعطي لمخطط يؤدي إلى التنازل عنهم إلى أعدائهم)(43).

أما فرنسا كانت تتخوف على ما كانت تخططه من استعمار سورية من مشروع إمبراطورية جمال باشا، فأخبرت حليفتيها في الحرب روسيا وإنكلترا عن تحفظها من الاتفاق مع جمال، وتحفظت بشدة للمشروع الذي ينوي جمال القيام به، ولكنها اقترحت في حال القبول، بعدم إبقاء اسطنبول في يد الأتراك بعد الحرب، وغمزت لروسيا باستطنبول مقابل مصالحها في سورية إن جرى الاتفاق(44).

يتضح من تلك المصادر أن الحلفاء لم يتفقوا على ما طرحه جمال من اتفاق معهم، لتضارب المصالح فكل دولة من دول الحلفاء لها مطامعها الخاصة في المنطقة بعد انتهاء الحرب، ومشروع جمال باشا يتصادم مع مخططات دول

الحلفاء الاستعمارية، إضافة إلى إنكلترا كانت قد بدأت مفاوضات مع قوى عربية الشريف حسين وضباط عرب كلهم من الناقمين على جمال باشا الذي أعدم قادة النهوض العربي، فلا يمكن الجمع بين تطلعات العرب بالتخلص من جمال باشا والاتحاديين وبناء دولة عربية مستقلة، وطموحات جمال باشا المرفوضة رفضاً مطلقا منهم. لهذا تم صرف النظر عن الاتفاق مع جمال باشا وطموحاته وخيانته لرفاقه.

وتشير بعض المصادر التاريخية أن الشهيد عبد الكريم الخليل قد يكون سبب إعدامه معرفته بما يخطط له جمال باشا من إقامة دولة له في المشرق العربي بفصله عن الدولة العثمانية، وعن مراسلاته للروس والبريطانيين عن هذا الأمر، لأن الخليل كان من أقرب المقربين واستدلت المصادر على تلك المعرفة ما قاله الخليل وهو على منصة الإعدام: (فإذا كان جمال باشا يتهمنا بإضرام الثورة لاستقلال العرب،فلابد من ضحايا لهذا الاستقلال، ولتكن أول الضحايا، إنني أعرف السبب الحقيقي الذي شنقني جمال باشا لأجله، وسيعرف التاريخ)(45).

لقد كانت ساحات الإعدام نهاية العلاقات العربية، فسقطت كل المقولات السابقة التي تم الاتفاق عليها مع الاتحاديين بعد انتهاء المؤتمر،وانتهى بيان الحكومة التركية بالقبول ببعض مقررات مؤتمر باريس كما سقطت أوهام نظام اللامركزية، والمملكة ذات التاجين على الطريقة النمساوية التي طرحتها جمعية العهد وبعض الأحزاب والقوى العربية على غير رجعة، ولم يعد أمام العرب إلا النضال من أجل الاستقلال.

الموت جوعاً

سقطت أحلام جمال بإقامة إمبراطورية خاصة به، وأصبح منبوذاً من الشعبين العربي والأرمني لما قام به من أعمال بربرية من قتل وإعدام وإرهاب في حق هذين الشعبين وحتى المعتدلين من الترك حين ساق قادة الترك من

حزب الحرية والإئتلاف إلى المشانق فلقب عند الجميع بالسفاح. وارتكب بحق الشعب العربي أكثر من الإعدام، حين يسلب من بيوت الناس القمح والطحين والمواد الغذائية، وعاشت مدن دمشق وبيروت وحلب ودير الزور وكل القرى في بلاد الشام والعراق أسوأ سنين الجوع والقحط، مات بسببها مئات الألوف من الشعب العربي من الجوع والفاقة والأمراض، وقد دونت كتب تلك المرحلة المأساة عن الجوع لا تزال تذكرها عجائز ذلك الزمان، حين أكلت القطط والكلاب والجثث الحيوانية.

وقد مات خمسة وثمانون ألف جوعاً في لبنان خلال ثلاثة أشهر من سنة الجوع التي شملت المشرق العربي كله، وكتب أحد زائري بيروت في تلك الأيام واصفاً حال الناس فيها: (وجوه الناس قاتمة، وأبدانهم شاحبة، وبطونهم خاوية، والأسواق التي تباع فيها الكماليات كسوق الطويلة وغيره خاوية تقريباً، والأسواق التي تباع فيها الحاجيات من مأكل وملبس لا تحوي إلا بضائع يسيرة بعدما كانت مملوءة بالبضائع الكثيرة...

ولو اقتصر الأمر على الكماليات لهان الإنسان، يراعي مقتضى الحال، ولكن غلاء الأسعار عم الحاجيات كالكماليات، فالقمح وسائر الحبوب قلت جداً لانقطاع وسائل النقل بعد أن صادرت الحكومة الخيل والبغال وغيرها من الدواب لقضاء حاجات الجيش، فارتفعت الأسعار حتى صار الناس يطلبون الخبز فلا يجدونه إلا بقدر، وهذا الخبز الأسود القذر تعاف الناس رؤيته، ومع ذلك فثمن الرطل الشامي 17 غرشاً. وإذا سعى موسر وفاز بشراء كيس من الدقيق، فلا يجترئ أن ينقله خوفا من أن يهجم الناس عليه ويتخطفوه كما جرى مراراً.

فكيف ما جلت في بيروت، وأين ما أدرت نظرك رأيت رجالاً وأطفالاً ونساء عراة حفاة يشكون من ألم الجوع جهاراً، ويقفون أمام كل من يدخل مطعماً من المطاعم القليلة الباقية المفتوحة ليأكل فيه، ويُغبطونه على كل لقمة تدخل فمه!!)(46).

بيروت كانت أحسن حالاً من كثير من المدن والقرى، فكانت الجثث تتساقط في شوارع دمشق وبقية المدن السورية، ولقد روت لي جدتي عن أهوال ما حدث في سنة الجوع 1915/ 1916 ما يشيب الولدان، فكان جثث الحيوانات الأليفة تؤكل، وقالت لي: (أن إحداهن أن امرأة جاءت في سنة الجوع، قالت لي بأن ولدها مات، ومن جوعها أرادت أن تأكله، فأعطيتها حفنة من الحنطة حتى لا تأكل ولدها الميت). وحادثة ليس فيها شيء من المبالغة والخيال بل أقل من الحقيقة. وعلى القارئ أن يسأل كبار السن كم مات في بلده في تلك السنة بسبب الجوع. أو يراجع وثائق تلك الحقبة.

يذكر الدكتور أحمد قدري أن سورية والعراق فقدتا سنة 1917 ما لا يقل عن مئة وخمسين ألف نسمة بسبب المجاعة والمرض، مما دفع بعض النسوة إلى التهام جثث الأطفال، فحكم على إحدى النساء بالموصل، وأخرى في طرابلس بالإعدام بسبب ذلك (46ف) هذا ما تركه جمال السفاح في بلاد الشام والعراق والحجاز. غادر جمال سورية بعد أن قدم استقالته في كانون الأول 1917، وبعد إعلان الهدنة في نهاية عام 1918، هرب جمال مع عدد من قادة جمعية الاتحاد والترقي إلى الخارج، وتابعته قوى الثأر فقتل في تموز عام 1922 على يد أرمني في موسكو ثأراً لكل من أعدم وقتل ظلماً على يديه.

الفصل الرابع

اضطهاد الضباط العرب

بدأت ظواهر الانقسام بين الترك والعرب في الجيش العثماني وخاصة في المدارس العسكرية والكلية العسكرية نتيجة ظهور النزعة القومية التركية الحادة في صفوف الضباط الترك، والحقن اليومي الفكري العنصري لهؤلاء الضباط والجنود الترك بأنهم أفضل العناصر القومية في السلطنة العثمانية، وأنهم الأسياد وليس كغيرهم من الأمم المنضوية تحت الدولة العثمانية لا قيمة لها. إلا أن الظروف السياسية الدولية التي كانت تنذر بحرب عالمية كبرى جعلتهم بحاجة للعرب وغيرهم من رعايا السلطنة، فتظاهروا لهم بالمحبة والود أو بقبول بعض المطالب، وبعدها تم تقريب بعض الموالين لهم في بعض إدارات السلطة، واستمرت محاربة الواعين من القوميين غير الترك ومطاردتهم وسجنهم وخاصة ممن يعملون في القوات المسلحة.

ومع اقتراب نذر الحرب العالمية الأولى بدأت الممارسات التعصبية العرقية تشتد على الرعايا غير الترك في السلطنة؛ لشعور السلطة الاتحادية أنها قد تدخل الحرب إلى جانب ألمانيا الحليف الكبير للدولة العثمانية، فجرت ملاحقة التنظيمات العربية من أحزاب وجمعيات وأفراد وخاصة النهضوية منها التي كانت تطالب بالمساواة والعدالة في الحقوق والواجبات.

أما على الصعيد العسكري فبدأت عمليات زيادة الحقن القومي التركي في الجيش خاصة لغسل الأدمغة العسكرية من الإرث العثماني الإسلامي الجامع للترك والعرب، وإلى تنشيط وتهييج الفكري العنصري التركي الشوفيني، اعتقاداً

مـن الاتحـاديين بأنـه العامل المحرض للجيش في الاستبسال في الحرب القادمة، لهـذا جـرت عمليـات غـسيل فكـري واسـعة في الكلـية العسكرية من قبل ضباط اتحـاديين متعـصبين للقومـية التركـية للـضباط والجـنود لاجتـثاث العثمانـية من عقـولهم، مما أدى إلى مواجهات مع الضباط العرب في تلك الكلية الذين رفضوا الـذوبان في قومـية أخـرى، وحـركت في نفوسـهم العـزة القومـية بأمتهم العربية، فاحـتدت المناقـشات بـين الطـرفين داخـل الكلـية وظهـور صراع بدأ يتطور نحو الفراق النهائي بين الفريقين، وإليكم صورة من المناقشات والصراعات التي كانت تـدور في المدرسـة الحـربية في الآسـتانة، من خلال هذه الوثيقة بعد إعلان الدولة العثمانـية مـشاركتها في الحرب العالمية الأولى، ألقى ضابط التربية العسكرية في المدرسة كلمة على صف الضباط قال فيها:

"أود أيهـا الـسادة أن ألقـي علـيكم كلمـة في غاية الأهمية بمناسبة الحوادث العظـيمة الـتي وقعـت في الغـرب، فأظهـرت لنا معاشر الترك أموراً لم تخطر في بالـنا مـن قـبل، وعـبراً ينبغـي أن نعتبر بها. فإن البلجيك الصغيرة تجاسرت على محاربـة ألمانيا العظيمة، ووقفت بجيش لا يزيد على مائة ألف جندي أمام أعظم جـيش ذكـره تـاريخ بني البشر، فحالت دون القضاء على حليفتها فرنسا. لذلك لا يـسعنا نحـن الـترك أعـداء البلجـيك إلا أن نطأطـئ رؤوسـنا إجلالاً لها واحتراماً لجيشها الباسل.

ولكـن أتعلمـون أيهـا الأصـدقاء لماذا أوقفت البلجيك تيار الجيش الألماني العظـيم؟ أوقفـته لأنها كانت تحاربه باسم القومية، وباسم الوطن. أو تعلمون لماذا عظمـت فرنـسا وإنكلـترا وألمانـيا وسـدن العـالم وصـرن أعلى أمم الأرض مقاماً وأكثرها ثراء؟ لأنهن خضن معترك الحياة باسم القومية لا باسم الدين. فعلينا أيها الأعزاء أن نظهر من الآن وصاعداً أمام العالم بصبغة القومية المقدسة، وأن نضرب بالعصبية الدينية عرض الحائط.

نحن أيها السادة أتراك، وأني لأعجب من تسميتنا عثمانيين!! فمن هو عثمان الـذي انتـسب إلـيه؟ أنـه تركـي جـاء من آلتاي، واجتاح هذه البلاد بجيشه التركي،

فانتسابنا إلى أصله أشرف من انتسابنا إليه. ولقد خدعنا بجهل أسلافنا في الماضي، فبئس الأسلاف الذين أنسونا قوميتنا. أنكم أيها الأعزاء ستلحقون بالجيش قريباً، وستكونون أساتذة وجنودنا الأبطال. فعلموهم أنهم ترك، وأنهم إذا حاربوا العدو من أجل الترك وتحت العلم التركي ينتصرون عليه، ويحرزون ما أحرزه البلجيك من المجد والفخر. وتأكدوا أن التركية خير لنا من الإسلام، وأن التعصب للجنسية من أكبر فضائل الهيئة الاجتماعية."

فوقف أحد الضباط العرب من الحاضرين هذه الكلمة فقال له: (تعلم أيها القائد أن للأمم الشرقية تقاليد لا يمكن التغاضي عنها، وقد حفظت الجنسية العثمانية هذه التقاليد، وكفلت سلامة الدولة إلى الآن. فتتريك العناصر العثمانية أو إنكار قوميتها عليها، يؤدي إلى اضمحلال الدولة في القريب العاجل. فأنا أحتج على هذا الكلام.

وأقول بكل صراحة أن الرابطة الإسلامية العثمانية هي الرابطة الوحيدة التي تربطنا بالترك. ولما كنت حضرتك تعلمني الآن أن هذه الدولة دولة تركية، وأن هذا العلم الذي عهدت إلي في الدفاع عنه هو علم تركي، أي علم أجنبي عني، فقد قضيت على قوتي المعنوية قضاء مبرماً، وأخمدت كل عواطفي الوطنية، لأني أنا وأبناء العرب وجميع أبناء العناصر غير التركية لا نحارب في جنب الترك إلا لمقاصد متحدة وذباً عن حياض الإسلام والعثمانية).

فرد القائد التركي عليه قائلاً: (أعلم أن الحقيقة غير العواطف، وأنك وإن لم تكن عربياً فأنت وعنصرك من تابعة تركيا. ألم يستعمر الترك بلادك؟. ألم يفتحوها بالسيف؟ إن العثمانية التي تتخذها حجة لك، هي حيلة اجتماعية يستعملها الضعيف للوصول إلى غايته. أما الدين فلا شأن له في السياسة، وستنهض قريباً باسم التركية وتحت العلم التركي، ونترك الدين جانباً لأنه من الأمور الشخصية الثانوية. أما أنت وأبناء جنسك فعليكم أن تعرفوا أنكم ترك، وأنه ليس في العالم قومية عربية أو وطن عربي)(47).

هذه الواقعة في المدرسة الحربية تمت بحضور عشرات الضباط ومئات من صف ضباط وجنود عرب، فاستاء حتى بعض الترك المعتدلين من هذه الكلمة الاستفزازية، والرد الجاف المتعالي من ذلك الضابط الشوفيني وما أطلقه من عبارات تحقير وإذلال بحق العرب جميعاً وزملائه من الضباط العرب وهم يتهيئون لخوض غمار حرب من أجل الدولة العثمانية. فتقدم الضباط العرب في المدرسة الحربية بعريضة احتجاج إلى وزارة الحربية ما تضمنه الخطاب والرد العنيف، ولكن الوزارة لم ترد عليهم بل اتخذت إجراءات ضدهم.

كانت تلك الممارسات الشوفينية من قبل الضباط الترك والوزارة الحربية والحكومة الاتحادية أثرها الكبير في نفوس الضباط العرب، وبالشعور بضرورة إنهاء هذا الوضع الاستبدادي، والإذلال القومي اليومي، وشعورهم بأنهم مستعمرين من قبل حكومة عنصرية تمارس الاضطهاد العرقي، وتمارس التذويب القومي لهم، لهذا إنما وتصاعد الانتماء لجمعية العهد، مع تغيير في البرنامج من المصالحة إلى ضرورة عمل عسكري يؤدي إلى تغيير السياسة الاتحادية تجاه العرب.

وقد عبر أحد الضباط العرب حالة القلق التي كانوا يعيشونها بسبب تصرف الاتحاديين، فهم في وضع حائر بين الحفاظ على الدولة العثمانية أو الانفصال كرد على السياسة العنصرية التي يمارسها الاتحاديون، ولم تكن في مخيلتهم الثورة على الدولة العثمانية والانفصال عنها، بل كانوا يريدون إصلاحاً يحقق لهم المساواة في الحقوق مع الاتحاديين، وهذا ما عبرت عنه الرسالة التي أرسلها الضابط الشهيد سليم الجزائري الذي أعدم مع قادة النهضة العربية، لصديقه في 15 كانون الثاني 1914 يقول فيها:

(عزيزي

لقد أخلصنا للاتحاديين فلا مجال للشك في إخلاصهم لنا. نعم إن الاتفاق الذي أبرمه معهم الزهراوي وعبد الكريم لا يسعدنا، وليس فيه كل ما يحتاج إليه

مـن الإصلاحات، وأن زعم فريق من الأصدقاء أنه "كجراب الكردي" يحتوي على كـل شـيء، ولكـن مـا العمـل؟ أيجـوز لنا أن نخطئ الزهراوي، وننتقده على هذا الاتفاق؟.

أنـا لـست علـى هذا الرأي لأن الزهراوي لو لم يتفق مع الحكومة لكنا الآن في أشـد المـآزق حـرباً، فإمـا أن نقـوم بعمـل يهدد استقلال الدولة العلية، ونؤدي عكس الغاية التي نرمي إليها، وهي نيل حقوقنا من إخواننا الترك، ومشاركتهم في كـل مـا يـؤول إلى تقوية الدولة، وإسعاد سكانها، وأن نخلد إلى السكينة بعد كل هـذه الفـرقعة، فيهـزأ العـالم بـنا، ويحتقـرنا الاتحاديون أنفسهم، ونصير مثلاً بين الناس.

إن الحالـة السياسية حرجة جداً أيها العزيز فبقدر ما يسيء الاتحاديون إلينا الآن يجب أن نحسن إليهم حرصاً على كيان هذه الدولة المنكودة الحظ.

سليم الجزائري)(47 ف).

مـن هـو سـليم الجزائـري؟ ضـابط عـربي ولد في دمشق ودرس في المدرسة الحـربية، شـارك في العديـد مـن المعارك التي خاضتها الدولة العثمانية، فقاتل في حـرب الـبلقان الأولى في مـنطقة بولاير، وكان وقتها رئيساً لأركان إحدى الفرق، وفي حـرب البلقان الثانية استبسلت فرقته حتى استرجعت مدينة أدرنة، وكان أول مـن دخلـها مـن القـواد والـضباط العثمانـيين، ولمـا أعلنت الحرب العالمية عينته وزارة الحـربية في هيـئة أركـان الحـرب في الدردنـيل، فكـان أحـد الـذين رسموا للجنرال الألماني فون ساندرس تلك الخطة الدفاعية التي أنقذت الآستانة، وحالت دون وصـول الحلفـاء إلـيها، ثـم عـين بعـد ذلك في أركان حرب الفيلق العثماني الـذي كـان مـرابطاً في أزمـير وضـواحيها بقيادة بترو باشا، وبينما كان على جبهة القـتال يحـارب دفاعـاً عـن الدولـة العثمانية، اعتقلته السلطات الاتحادية، وأرسلته إلى جمال باشا في سورية، الذي نفذ به حكم الإعدام شنقاً في أيار 1916، وبدون سبب، سوى أنه كان ينتقد سياسة الاتحاديين العنصرية، فلم يعرف عنه أنه اتصل

بأي من الدول الأجنبية، ولم يكن في حزب اللامركزية التي أعدم بسببها(47 ق).

لم تكـن التحـركات العـسكرية للـضباط العـرب خافـية عن الأجهزة الأمنية الاتحاديـة، فالجمـيع تحـت الرقابة الشديدة، وكانت الأجهزة الأمنية ترفع التقارير للحكـومة عـن تلـك التحـركات وخطـورتها على الدولة، لهذا شكل وجود العدد الكـبير مـن الـضباط العـرب في الآستانة حالة من القلق والخوف من عدم القدرة علـى تنفـيذ الـبرنامج الـسياسي القومـي في تتريك الدولة، لهذا عملت على أعداد خطـة للـتخلص مـن هـذا العدد الكبير، بشكل لا يثير الشك لدى الضباط العرب، ويفـتت تجمعهم، وينهي خطورتهم، بحيث لم يعودوا عائقاً لها. لهذا عقدت قيادة جمعـية الاتحـاد والترقي اجتماعاً في 14 كانون الأول 1914 وبعد مناقشة وضع الضباط العرب، والوضع السياسي في الولايات العربية، اتخذت القرارات التالية:

1 ـ إبعاد الضباط العرب عن العاصمة وإرسالهم إلى الولايات التركية البعيدة.

2 ـ تولية الضباط الأتراك مناصب القيادات العليا في الولايات العربية.

3 ـ الاستغناء بقدر الممكن عن الضباط العرب في المناطق العربية.

4 ـ تطبيق سياسة التتريك بسرعة أكبر.

5 ـ مقاومة الحركة الإصلاحية التي بدأت في مؤتمر بيروت ومؤتمر باريس.

6 ـ إلغاء الأحزاب السياسية العربية.

7 ـ تأليف شعبة سياسية في وزارة الداخلية تشرف على الشؤون العربية، ومقاومة دعاة الانفصال.

8 ـ إبعـاد القـيادات العـربية الإصلاحية من العاصمة، واستمالة ما يمكن استمالته منهم.

9 ـ تعزيـز نفـوذ (جمعـية الاتحـاد والترقـي) في الـولايات العـربية وزيـادة عدد أعضائها.(48).

بعـد انـتهاء الاجـتماع، تم تنفـيذ القـرارات ميدانـياً، فاتخـذت مجمـوعة مـن

الأوامر والإجراءات العسكرية بحق الضباط العرب، تضمنت ما بين النقل والاعتقال والطرد وبعضها ملاحقات ومطاردة للبعض الآخر، ونذكر من تلك الإجراءات التنفيذية:

- نقل العميد طه الهاشمي (من جمعية العهد) إلى اليمن.

- نقل الفريق ياسين الهاشمي (من جمعية العهد) إلى أدرنه.

- واعتقال الضابط محمود أديب (من جمعية العهد) وإخضاعه للتعذيب.

- استدعاء الضابط رشيد الخوجه آمر بغداد إلى الآستانة للتحقيق معه. (علماً أنه من ضباط جمعية الاتحاد والترقي إلا أن قيادة الجمعية تأخذ عليه أنه ذو ميول عربية).

ــ استدعاء الضابط عبد اللطيف الفلاحي (من جمعية العهد) إلى الآستانة للتحقيق معه.

ــ استدعاء الضابط نوري السعيد (من جمعية العهد) إلى الآستانة للتحقيق معه. وقد حكمت عليه السلطات الاتحادية بالإعدام بعد فراره منها.(49)

ــ اعتقال المقدم أمين لطفي الحافظ (سوري من جمعية العهد) وإخضاعه للتعذيب الشديد، وبعد أن فشلت من الحصول على معلومات منه، قامت بإعدامه، وكان أول شهيد من الضباط العرب في سبيل قضية العرب ومشروعها القومي النهضوي.

ــ اعتقال النقيب سعيد العاص (سوري من جمعية العهد) تم التحقيق معه بطريق بشعة، ولكنها لم تحصل منه على أية معلومات لصالحها، فتمت إحالته إلى الديوان العرفي في (عالية) بلبنان، وحكمت عليه بالإعدام، ثم تم استبدال الحكم بالسجن سنة ونصف، قضاها في حلب وعالية، وبعد انتهاء مدة الحكم، نفي إلى (جوردوم) على الحدود الشمالية في أوروبا، وبقي فيها حتى خرج الأتراك من بلاد الشام.(50)

وقد فر كل من رشيد الخوجه وعبد اللطيف الفلاحي إلى بيروت، وفيها

ساعدهما آمر شرطة بيروت (صبح نشأت) على السفر إلى مصر فراراً من بطش السلطات التركية(51).

أما الملازم نوري السعيد فقد فر مع أحد أعضاء العهد الدكتور (عبد الله الدملوجي) إلى البصرة، والتقيا بسيدها آنذاك طالب النقيب، الذي حماهما، وأخفاهما في بيته إلى أن تم احتلال البصرة من قبل القوات البريطانية(52).

كما حاولت الحكومة الاتحادية بعد إعلان الحرب العالمية الأولى تقريب بعض الضباط العرب ممن لا يعرف عنهم أنهم طرحوا آراء قومية عروبية، وكانوا يرضخون لأوامر الحكومة بحكم انضباطهم العسكري، ولا يشاركون بأي نشاط سياسي معاد أو غير معاد للدولة، لهذا اختارت بعض الضباط من هذا السلوك وتعيينهم في مراكز حساسة بغية كسب هذه الشريحة إلى جانبها وهي تخوض غمار الحرب ضد الحلفاء.

فعين الاتحاديون مع بدء الحرب الفريق زكي باشا الحلبي قائداً على الجيوش التي كانت مرابطة في سورية، وجعلوا معاونيه ومساعديه وضباطه وجنوده من العرب، وتظاهروا لهم بحسن المعاملة، وبتقليدهم مناصب رفيعة، وأكدوا لهم الأخوة وأن الوطن واحد يجب حمايته. وقد استبسل هؤلاء الضباط والجنود العرب في معظم ميادين القتال ضد الحلفاء سواء في العراق وقناة السويس والقوقاس والدردنيل وغيرها من الميادين، وقد استشهد الكثير منهم في تلك المواقع والبعض وقع في الأسر، ولكن الاتحاديين الذين مارسوا سياسة الخداع سرعان ما بدلوا سياستهم مع هؤلاء الضباط الحياديين، فلم تمض أشهر قليلة حتى نحي الفريق زكي الحلبي، ليحل بدلاً عنه جمال باشا قائداً للجيوش في سورية ووالياً عليها. وهنا بدأ فصل جديد من المواجهة بين الاتحاديين والعرب النهضويين عسكريين ومدنيين.

جمال باشا والعسكريون العرب

جاءت أولى ممارسات جمال القمعية ضد طلاب الضباط العرب الاحتياط

الذين كانوا في استقبال جمال في محطة القطار، وما أن سمعوا بكلمة جمال باشا التي ألقاها بآلاف المستقبلين والتي تضمنت مديحاً للعرب حتى أخذهم الحماس القومي، فبدؤوا يرددون الأناشيد العربية الحماسية، ومنها:

نحن جند الله شبان البلاد   نكره الذل ونأبى الاضطهاد(53)

فأثارت تلك الأناشيد غضب جمال باشا أثناء إلقاء كلمته، إلا أنه تظاهر باللامبالاة، وتابع الإشادة بالعرب كأخوة للترك، لحاجته الماسة لهم في حربه القادمة ضد الإنكليز في مصر. إلا أنه بعد الاحتفال سأل عن طلاب الضباط الاحتياط الذين كانوا يرددون تلك الأناشيد العربية الحماسية، فعلم أن القيادة التركية قد أحدثت مدرسة لضباط الاحتياط لتدريب الشباب الاحتياط وتخريجهم كضباط في الجيش ليشاركوا في الحرب التي تخوضها الدولة، وأن معظمهم من العرب فاشتاط غضباً، وأمر بإغلاق المدرسة، ونقل كل الطلاب إلى الوحدات العسكرية في ميادين القتال في الدردنيل والقوقاس، وتذكر المصادر التاريخية أن معظم هؤلاء الشباب قتلوا أو أسروا، ولم يعد منهم إلا القليل جداً إلى بلادهم، كل جريمتهم أنهم أنشد لأمتهم العربية.(54)

يذكر أحمد قدري في مذكراته، أن هؤلاء الضباط الشباب تم تجنيدهم من العرب وأغلبهم من مدينة دمشق، واستطاعت جمعية العربية الفتاة أن تؤثر عليهم بأفكارها القومية، وأن عدداً كبيراً منهم انتسب إلى العربية الفتاة، وكانوا يعقدون الاجتماعات في منزله، ويتغنون بالأناشيد العربية التي تذكر المفاخر والأمجاد العربية، وذكر منهم المرحوم جلال بخاري،(55) الذي لم يغفر له جمال باشا ترديده للأناشيد القومية التي كان يتغنى بها بين زملائه، فكان من الذين تم إعدامهم في الوجبة الثانية في 6 أيار 1916، والبخاري حين أعدم لم يتجاوز منتصف العشرينيات من العمر. (انظر إلى باب الوثائق)

وعلى الرغم من هذه الإجراءات الشديدة جرت بحق عدد كبير من الضباط العرب، إلا أن القلق والخوف منهم بقي يسيطر على عقل جمال باشا المعروف

بشدته على المعارضة سواء تركية أو أرمنية أو عربية من أية معارضة له ولمجموعته المتشددة، والتي لا ترى إلا بعين واحدة عين الطاعة العمياء، وحتى هذه الطاعة العمياء إن ظهر شك من صاحبها فإن آلة الموت الجمالية ستسحقه سحقاً، وكم من صديق عربي لجمال باشا سيق لمشنقته لوشاية وأن كانت كاذبة؟!!.

كان جمال في بداية وصوله إلى سورية بحاجة ماسة للجنود العرب في حملته العسكرية على مصر، لهذا أظهر الود للعرب والمديح في إخلاصهم في الدفاع عن أرض الدولة، وكان في الوقت نفسه يضمر لهؤلاء الضباط العرب الجنود الحقد، وخاصة بعد أورد له رجال الأمن تقارير أن تنظيماً عربياً يجمعهم، وأنهم يعملون سراً من أجل نيل العرب حقوقهم من الترك بما فيها حقهم في المشاركة في إدارة البلاد.

وفعلاً حاول تنظيم العربية الفتاة تجنيد العديد منهم، كما حدث مع طلبة مدرسة ضباط الاحتياط، وتسبب حماسهم دون الأخذ بالحذر إلى إلغاء دورتهم، وإغلاق مدرسة الضباط الاحتياط التي كان فيها ما يزيد على مئة وخمسون صف ضابط عربي (56).

منيت حملة جمال باشا بفتح مصر بهزيمة منكرة في قناة السويس في 2 شباط 1915 على الرغم من التهويل الكبير الذي رافق الحملة منذ خروجه من العاصمة الآستانة، وكان معه ضباط ألمان يرافقون جيشه، إلا أن الغالبية كانوا من العرب ضباطاً وجنوداً، وقد استبسل بها الجنود العرب غاية الاستبسال لهذا اكن أغلب ضحاياها من الجنود العرب، لأن معظم الذين أرسلهم إلى عبور القناة كانوا من الجنود العرب في الوجبة الأولى من الاقتحام، لهذا قتل أغلبهم وأسر الباقي لدى الجيش البريطاني الذي كان قد نصب كميناً لجيش جمال باشا، وكانت الفرقة الخامسة والعشرون تضم في غالبيتها الجنود العرب رأس الحربة في المعركة، وقد قاتل العرب فيه قتالاً ضارياً شهد له جمال باشا ودون ذلك الاستبسال في مذكراته فقال: (وقد ساد بين رجال الحملة - لا فرق بين الأتراك

والعرب ـ شعور العطف الأخوي، ولم يكن بينهم من يضمن بحياته دفاعاً عن إخوانه. الواقع أن الحملة الأولى على القناة برهان ساطع أن غالبية العرب الساحقة انضموا إلى الخلافة بقلوبهم وجوارحهم. أما العرب الذين تألفت منهم الفرقة الخامسة والعشرون، فقد أدوا واجبهم بمنتهى الاهتمام والإخلاص)(57).

وكان جزاء العرب على يدي جمال أبشع ما كتب التاريخ من المجازر والتنكيل عرفاناً وإحساناً لما قدموه من تضحيات لتلك الحملة، التي استبسلوا فيها بشهادته.

بعد الهزيمة نقل جمال قيادة الجيش الرابع إلى القدس بدلاً من دمشق، وحل في دمشق بدلاً عنه قائد الفيلق الثالث عشر وهو من عرب الموصل فخري باشا، وكان رئيس الأركان لهذا الفيلق ياسين باشا الهاشمي (1880 ـ 1937) وهو من أبرز قادة جمعية العهد آنذاك، وكان غالبية ضباط وجنود الفيلق من العرب(58). وقد يكون تولى قيادة جمعية العهد بعد ترحيل عزيز المصري إلى مصر بعد الإفراج عنه، كونه أكبر الأعضاء رتبة وتأثيراً في الجيش العثماني.

الهاشمي صلة الوصل بين العهد والعربية الفتاة

شعرت العربية الفتاة أن عليها استغلال هذا الظرف الزمني، وأن تقوم باتصالات مع الضباط العرب في الفيلق من أجل إدخال بعض الضباط العرب إلى صفوفها، وقد تمكن عبد الغني العريسي من خلال صديقه الضابط مجيد بك أن يتصل بالفريق ياسين باشا الهاشمي (1882 ـ 1937)، ولد في بغداد، وتعلم في الكلية العسكرية في الآستانة، تخرج ضابط أركان حرب عام 1905، وانتسب إلى جمعية العهد، استطاع عبد الغني العريسي ضمه إلى صفوف العربية الفتاة، فأصبح همزة الوصل بين جمعيتي العهد والعربية الفتاة، كما تم ضم الفريق رضا باشا الركابي إلى صفوف العربية الفتاة.(59)، وبذلك أدخلت العربية الفتاة إلى صفوفها العسكريين العرب، لتكون لديها أداة ضغط قوية تستخدمها في الوقت المناسب.

بدأت تختمر الثورة ضد الاتحاديين لدى ياسين الهاشمي في دمشق حين كان رئيساً لأركان حرب الفيلق الثالث عشر خاصة مع بداية جرائم جمال باشا العلنية ضد القوى العربية النهضوية وقياداتها التي بلغت مداها إلى التصفيات الجسدية، وسحق المعارضين والموالين من العرب، وقد تم بحث الثورة على الترك ما بين ياسين الهاشمي ورضا الركابي ثم توسع البحث ليشمل الضباط العرب الآخرين، فكان يجري الاتصال والبحث مع ضباط جمعية العهد عن طريق الهاشمي، أما ضباط العربية الفتاة تتم عن طريق الركابي.

الاتصالات الأولى للضباط مع الشريف حسين.

بعد أن تم اختمار الثورة كحل أخيراً في مواجهة العنف العنصري ضد العرب، الذي يمارسه الاتحاديون ضد النخبة العربية عن طريق جمال باشا، أرادت قادة الجمعيتين العهد والفتاة العربية جس نبض الشريف حسين في هذا المشروع، لمركزه الديني والعائلي كونه من سلالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ويتحدث عن هذا الاتصال فوزي البكري الذي كان يؤدي الخدمة العسكرية في مكة المكرمة أن الزعماء الوطنيين في دمشق حملوه رسالة شفوية إلى الشريف حسين، تتضمن أن الزعماء الوطنيين في سورية والعراق من بينهم ضبط كبار في الجيش العثماني يسعون لإنهاض العرب من كبوتهم، ولاستعادة مجدهم الغابر، ولنيل الاستقلال، فيما إذا لم تتمكن الدولة العثمانية من إصلاح الإدارة إصلاحاً حقيقياً، يجعل البلاد بمأمن من استيلاء الأجانب الذين يتحينون الفرص لاحتلال هذه الديار واستعمارها.

إذ أن كل عربي أصبح مدركاً غايات الاتحاديين السيئة، وقصدهم الجنوبي تتريك العناصر غير التركية.

- فهل يوافق الشريف على التعاون معهم؟
- هل يوافق بالتالي على أن يتولى قيادتهم؟.

- وإذا وافق على التعاون، فهل يستقبل وفداً منهم في مكة؟أو يرسل إلى دمشق مندوبيين عنه يثق فيهم للاتفاق على الخطوات التالية؟

ويذكر البكري عندما أخبره بمضمون الرسالة الشفوية كان الشريف صامتاً، ولم ينبس بأية كلمة، بل ظل صامتاً ينظر إلى النافذة، ويرجع البكري السبب لحذر الشريف الشديد الذي كان يتصف به(60). ويؤيد فائز الغصين الرواية التي أوردها فوزي البكري ولكنه لم يكشف الأسماء الشخصية للذين أرسلا الرسالة الشفوية للشريف حسين، علماً أنهما الفريق ياسين الهاشمي زعيم جمعية العهد، والفريق رضا الركابي أحد قادة العربية الفتاة، وكانت لديهما القدرة العسكرية على تنفيذ الثورة ضد الترك(61).

فيصل والهاشمي

جرى أول لقاء بين الفريق ياسين الهاشمي ممثل العهد والأمير فيصل بن الشريف حسين بعد عودة الأخير من اسطنبول إلى دمشق في أيلول 1915. وهناك تاريخ أورده سليمان الموسى يذكر فيه أن اللقاء في أيار 1915، (62) ونرجح أن اللقاء في أيلول 1915 أكثر صوابية من أيار 1915، لأن إعدام عبد الكريم الخليل ورفاقه تم بعد شهر أيار 1916، ومن بعد الإعلام اشتد التضييق والخناق على الحركة العربية في سورية بشكل واضح.

وكانت قيادة العربية الفتاة التقت بالأمير فيصل في بيت نسيب البكري قبل اجتماعه مع ياسين الهاشمي، ووضعته بصورة الوضع العربي في سورية، الذي وصل إلى الانهيار والاحتقان بعد أن تم اعتقال بعض قادة العرب وإعدام الوجبة الأولى عبد الكريم الخليل وعدد من قادة النهضة العربية، ويذكر أحمد قدري في مذكراته أن الأمير فيصل تأثر جداً بهذا الوضع وأنه وافق على الانتماء إلى العربية الفتاة. كما أن العربية الفتاة طلبت منه التوسط لدى السلطات الاتحادية للإفراج عن المعتقلين أثناء زيارته للآستانة.(63).

واجتمع فيصل مع الفريق ياسين الهاشمي الذي كان رئيساً لأركان حرب

وكالـة قـيادة الجيش الـرابع والفـريق رضا الركابي مستطلعاً عما يمكن العمل به لوقـف هـذه المذبحـة، وحـين سـأل فيصل عن المساعدة التي يمكن أن تحتاجها سـورية مـن الـشريف حسين رجالاً وعدة إن نشبت ثورة عربية فيها، أجابه ياسين الهاشمي بأنهم لا يحتاجون إلى الجيوش والقوات من الحجاز، وكل ما يحتاجونه فقط إلى قائد للثورة، وإن الشريف حسين مرشحهم لقيادة الثورة، فالقوات العربية التي تحت قيادة ياسين من جنود وضباط العرب كافية لمواجهة القوات التركية.

قـال فيـصل: (إنـنا مـتفقون مع رؤساء القبائل الحجازية، وهم مخلصون لنا، ومـستعدون للعمـل معـنا) وكـان جـواب الهاشمي: (لا حاجة لنا بهم، فعندنا كل شيء)، فقد كان ياسين يملك الشخصية القوية، ويوحي لمحدثه بالثقة التامة، تأثر فيـصل بمـا قالـه ياسـين الهاشمـي، ورأى فـيه الحزم والجدية، وأنه يتحدث باسم الجيش المرابط في دمشق، والذي تتألف غالبيته من العرب.(64)

وقـد كانـت قيادة الجمعية العربية الفتاة قد درست الوضع العربي، وخلصت أن استمرار عملـيات الاعـتقال والنفـي تضر بالحركة العربية بمجملها، فتوصلوا إلى ميـثاق بـين العـرب وإنكلـترا في حـال سـاءت الأمـور، وضعوه ضمن مذكرة سـلمت إلى الأمـير فيصل تتضمن مطالبها ومطالب النهضويين العرب مع خرائط تـبين الحـدود للدولـة العـربية المحـتملة في المـشرق، والتي يمكن أن تنال على أساسـها الاستقلال.(65) وهذه المذكرة ستكون شرطاً أساسياً في حال تم الاتفاق مع بريطانيا والانضمام إلى جانبها في الحرب، وتفجير الثورة ضد الأتراك.

وتضمنت المذكرة التالي:

1 ـ اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية:

شمـالاً « خـط مرسـين ـ أضـنة إلى ما يوازي خط العرض 37 شمالاً. على امـتداد خـط بيرجيك ـ أورفه ـ ماردين ـ مديات ـ جزيرة ابن عمر ـ العمادية إلى حدود إيران.

شرقاً « على امتداد حدود إيران إلى خليج العرب جنوباً.

جنوباً « المحيط الهندي (باستثناء عدن التي يبقى وضعها الحالي كما هو).

غرباً « على امتداد البحر الأحمر ثم البحر الأبيض المتوسط إلى مرسين.

2 ـ إلغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الأجنبية.

3 ـ عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا العظمة وهذه الدولة العربية المستقلة.

4 ـ تقديم بريطانيا العظمى وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية.(66)

إن هذه المذكرة أول قرار لجماعة عربية سياسية مسؤولة تطالب بإقامة دولة عربية مستقلة بحدود معروفة، ووضعت شروط التحالف من بريطانيا العظمى. وتدعوها لعقد معاهدة دفاع مشتركة بين الدولة العربية الناشئة ودولة عظمى، ولترغيب الدولة العظمى بالمساندة قدمت لها التحالف، وخدمة المصالح بالتفصيل في تنفيذ المشروعات الاقتصادية، وتظهر بنود الاتفاق المعروض مدى علم واضعوها في الأهداف الاستراتيجية للدول العظمى، فهم يقدمون لبريطانيا ما ترغب، من تأمين مصالحها في المنطقة، وبالسيطرة على طرق المواصلات لمستعمراتها في الشرق، ومن المؤسف أن المذكرة لم تضم عدن أو تضعها ضمن إطار اتفاق مع بريطانيا.

وقد علق على المذكرة الجنرال غلوب باشا من قادة الجيش البريطاني، والذي كان يقود الجيش الأردني من 1922 إلى 1956، بقوله: (لا يستطيع أي مواطن بريطاني أن يقرأ هذه الشروط في يومنا هذا، دون أن يتألم قلبياً، لأن الشروط هي أول عرض يتقدم به القوميون العرب في المفاوضات، أعطت بريطانيا العظمى كل شيء يمكن أن ترغب فيه)(67)

الفصل الخامس

الاتحاديون يشتتون العسكريين العرب

كـان جمال باشا قلقاً من وجود أعداد كبيرة من الجنود والضباط العرب في الفـرق العـسكرية في سـورية، وخـشي مـنها خاصـة بمـا خطـط لـه مَن تصفيات جـسدية للـنخب العـربية، وفـق استراتيجية اتحادية لإخماد كل الحركات القومية التركـية، وأكـيد أن لديـه العـدد الكـبير مـن المخـبرين إضافة إلى الأجهزة الأمنية للدولة، وأن كثيراً من تقارير هؤلاء المخبرين تثير لديه الشك والقلق من عمل قد يقـدم علـيه العسكريون العرب، لهذا عمل على تشتيت هؤلاء العسكريين العرب بغـية تجـريد تلك القوة من يد الحركة العربية. فأرسل الفرقة الخامسة والعشرين إلى جـبهة غاليبولـي، والتي تضم أعداداً كبيرة من الضباط العرب والبعض ينتمي إلى جمعية العهد، وأحل بدلاً عنهم جنوداً أتراكاً(68).

نقلـت الفـرقة الخامـسة والعـشرون في حزيـران 1915 بطلـب مـن جمـال ومـوافقة مـن ناظـر الحـربية أنور باشا. وحين وصلت الفرقة إلى حلب قادمة من دمـشق، ألقـى ضـابط عربـي (سروجي) كلمة في الجنود والضباط العرب بعد أن جمعهم في الشارع العام؛ بين ظلم الترك واستبدادهم ونواياهم ضد العرب، وختم كلمته بالطلب منهم بعدم القتال مع الترك، وأن يعودوا إلى منازلهم.

فعـاد مـن عاد وبقي من بقي في الفرقة، وقد قامت السلطات التركية باعتقال عـدد كـبير مـن الجـنود والضباط من تلك الفرقة وحققت معهم. أما الضباط فقد اتفقـوا فـيما بيـنهم علـى الهرب إلى الحجاز حسب ما تتوفر الفرصة لكل ضابط، ويلتحق هناك بجيش الشريف حسين.(69)

وبعد ذلك بدأ جمال بإبعاد الفرق التي فيها أغلبية عربية بإبعادها من سورية

إلى جبهات الأناضول، فخلال 1915 ـ 1916 أبعد ثلاث فرق عسكرية هي الثامنة والعاشرة والخامسة والعشرين، لتحقيق هدفين الأول التخلص من إمكانية تمرد عسكري يقوده ضباط عرب في تلك الفرق، والثانية لصد هجمات الأسطولين الفرنسي والإنكليزي على اسطنبول، وجبهة غاليبولي الملتهبة مع قوات الحلفاء، ولا فرق لديه قتل العرب أم أسروا.

في إبعاد تلك الفرق العسكرية شدد جمال خناقه على النخب العربية وقادة الحركة القومية الاستقلالية، لمنع أي ثورة عربية محتملة يقودها هؤلاء خاصة مع الفراغ العسكري الذي تركته الفرق العسكرية المنقولة.

وقد قالها صراحة جمال باشا في مذكراته: (كانت الحالة خطرة في سورية أثناء محاكمات عاليه، لأن القوات قليلة، وكلها عربية)، ولو قامت ثورة لما استطاع هو أن يوقفها، ولا يمكنه أن يأتي بقوات من تركيا، لأن معركة الدردنيل على أشدها(70). وقد شدد جمال الخناق أكثر على القادة العرب واتخذ قرارات التصفية للقادة العرب في ساحتي دمشق وبيروت.

وهذا لا يعني أن جمال باشا كان يتصرف وفق مزاجيته الخاصة فيعدم ما يريد من قادة العرب، فقد كان طلعت وأنور وبقية قيادة الاتحاديين على علم ودراية، ومن أشد المحرضين لدفع جمال باشا إلى اتخاذ القرارات القاسية والدموية بحقهم. فجرى استغلال الحرب أفضل استغلال بتصفية القياديين والضباط العرب، وتذكر المعلومات أن برقية وردت من الآستانة لقيادة الجيش الرابع في سورية، تقضي باتخاذ جميع الوسائل لتشتيت أنصار التيار العربي القومي وتمزيق شمل تنظيماتهم وحركاتهم(71). وقد نقل أحد ضباط أركان حرب الجيش هذا الخبر إلى بعض الضباط، مما جعلهم يهربون قبل أن يفتك بهم جمال باشا. وقد حذر ضابط الاحتياط خالد الحكيم كلاً من عبد الوهاب الإنكليزي وشكري العسلي وعبد الرحمن الشهبندر، وأشار إليهم بالهروب من دمشق، فهرب الحكيم والعصين والشهبندر ونجوا من الموت، في حين رفض عبد الوهاب الإنكليزي وشكري العسلي الفرار من دمشق فأعدما.(72)

ويذكر محمد كرد علي الذي كان مقرباً من الاتحاديين أن أنور باشا أثناء

زيارته لسورية مر بعاليه وهو في طريقه إلى المدينة المنورة قال باستنكار: (أما قتلتم بعد هؤلاء الخونة؟)(73) وكان كرد علي قد ألف كتاباً عن رحلة أنور باشا أسماه (الرحلة الأنورية).

وقد ذهب ضحية الاتحاديين المئات من الضباط وآلاف الجنود العرب في المعسكرات وفي ساحات القتال، وكان نصيبهم في إعدامهم السادس من أيار 1916 العقيد سليم الجزائري، والعقيد أمين لطفي الحافظ الذي بقي صامداً أمام أشد أنواع العذاب والتنكيل في المعتقل قبل إعدامه ليكشف للسلطات الاتحادية تنظيم العهد، واستشهد ولم تفلح تلك السلطات أن تحصل منه على شيء. كما أعدم ضابطي الاحتياط جلال البخاري ورفيق رزق سلوم. وتم اعتقال ضابطين كبيرين مسرحين أمير اللواء شكري الأيوبي وأمير اللواء عبد الحميد القطقجي بذريعة مؤامرة تهدف اغتياله(74) وقد تعرض شكري الأيوبي لتعذيب شديد واعترف على شكري القوتلي (75) وقد حكم بالإعدام على شكري الأيوبي ولكن تم نقض الحكم من بعد ذلك(76).

وعلى الرغم من كل أشكال التعذيب والقمع للضباط العرب لم تستطع أجهزة جمال باشا الأمنية أن تصل إلى تنظيم العهد في سورية أو غيرها لهذا نرى أن بعض من قادة تنظيم العهد بقوا في مناصبهم العسكرية والحساسة أمثال ياسين الهاشمي ورستم حيدر، وعلي رضا الركاب دلالة عدم قدرة تلك الأجهزة في كشف التنظيم وبقي عصياً عليها.

تنظيم العهد والحرب العالمية الأولى

على الرغم من ممارسات الاتحاديين القمعية بحق ضباط العهد من سجن وتشريد وإعدام، فإنهم أدركوا خطورة المخططات الفرنسية والبريطانية على بلادهم هي أشد بلاء من الاتحاديين، وأن خطورة تلك المخططات ترجح على ممارسات القمع التركي، وأن التخلص من الاتحاديين أهون من التخلص من الفخ الفرنسي البريطاني، الذي سيقسم البلاد العربية، في حين أن البلاد ستبقى موحدة في ظل الدولة العثمانية، وأن ا لتجزئة والاحتلال الأوروبي يؤدي إلى

تدمير أهداف العهد في تحقيق الاستقلال.

وقد وجه عزيز المصري زعيم العهد بعد دخول تركيا الحرب من مكان إقامته مصر برسالة إلى زعماء العهد يخبرهم فيها بألا يقوموا (مهما تكن الدوافع) بأي عمل عدائي ضد تركيا، شارحاً لهم أن اشتراك تركيا في الحرب الدولية وضع ولاياتها العربية في دائرة الخطر أي للغزو الأجنبي وتحقيق مخططاتهم الاستعمارية، وفي ذلك الخطر الأكبر طبعاً على الأماني في الاستقلال.

ودعاهم إلى الوقوف مؤقتاً إلى جانب تركيا في الحرب إلى أن يأخذوا الضمانات القاطعة من قبل الحلفاء على استقلال بلادهم، وحمايتها من الأطماع الأوروبية.

كما وجهت العربية الفتاة ضباطها بما يتوافق ومضمون رسالة عزيز المصري.(77) وفي ذلك دليل على وعي الجمعيتين لخطورة الأمور التي تجري في بلادهم وفي العالم، لهذا أصبح هدف الجمعيتين متقارباً على البقاء مؤقتاً في صفوف القوات التركية، ريثما تتهيأ الفرصة المناسبة في الحرب لينالوا استقلالهم بعد أخذ الضمانات الكافية من دول الحلفاء على الاعتراف بهذا الاستقلال. علماً بأن الجمعيتين كانتا توجهان أعضائهما في هذا الاتجاه، وهما لا يعلمان شيئاً ما يجري من مراسلات بين الشريف حسين والمندوب البريطاني في مصر كتشنر(78).

الضباط العرب والثورة

مع استمرار تدهور الأوضاع في سورية نتيجة القمع غير المبرر الذي يمارسه جمال باشا وفق برنامج سياسي وأمني هو القضاء على الحركة العربية المتنامية في الشارع العربي بأسلوب البطش والسحق والإرهاب والترويع لقادة النهضة العربية وتنظيمات تلك الحركة، شعر الضباط العرب وخاصة ضباط العهد أن الأمر متتابع ومستمر ضد النخبة القومية، وليس تصرفاً شخصياً من قبل جمال باشا، لذلك لابد من عمل سريع لمواجهة لتلك السياسة العنصرية الخطيرة على الوجود العربي ككل، والوثائق التاريخية لتلك المرحلة تشير أن مخططاً اتحادياً لإنهاء الحركة العربية وتتريك العرب تم وفق اتفاق تام بين الثلاثي

طلعت وأنور وجمال القادة الفاعلين في الدولة الاتحادية، وهذا ما أشار إليه الدكتور بهاء الدين شاكر أحد زعماء الاتحاد والترقي في مذكراته عن اجتماع تم في القيادة حول تعيين جمال باشا لإخماد النهوض العربي، وفرض سياسة التتريك.

يذكر بهاء الدين عن اجتماعات سرية عقدها مع أنور وطلعت وجمال نشرت في جريدة (مليت) قال فيها: (وقد كانت هذه الاجتماعات تنحصر كلها في تأمين بسط نفوذ الإدارة المركزية، والقضاء على الحركة العربية، وتشتيت شمل دعاة اللامركزية في سورية وبلاد العرب، ثم العمل بعد أن يتم هذا الأمر إلى تتريك العناصر العربية بصورة تدريجية، ومقاومة كل نفوذ أجنبي في البلاد، وإلغاء امتيازات جبل لبنان، التي كانت من الأسباب الرئيسية في تدخل العناصر الأجنبية في شؤون البلاد الداخلية)(79) (انظر إلى باب الوثائق)

أمام هذا التحدي الكبير لضباط العهد، على ضرورات القيام بعمل قبل أن يدمر جمال باشا كل ما بنته الحركة، وهو مصمم على سحقها، وتنفيذ خطة التتريك، لهذا بدأ البحث عن كيفية القيام بالتحريك المضاد من أجل تفجير الثورة باستغلال الظرف التاريخي وهو انشغال القادة الترك وجيوشهم في معارك الحرب العالمية، وكانت الحلول المتوفرة ما بين أيديهم ضيقة وهي:

ـ استغلال وجود الجيوش المرابطة في دمشق لتوفر غالبية عربية من حيث الجند والضباط.

ـ ضرورة توفر قائد للثورة يجمع عليه العرب ذا مركز إداري وديني مهم، وهذا يتوفر في الشريف حسين لمركزه الديني ولنسبه الشريف، فالثورة في وجود خليفة للمسلمين ولو شكلياً يعني عدم توفر غالبية مؤيده لها من العرب والمسلمين.

ـ الخوف من استغلال الحلفاء قيام الثورة، بتنفيذ مخططاتهم الاستعمارية من تجزئة واحتلال، مما يضيع كل جهود ونضال الحركة عبر ما يزيد على نصف قرن من التضحيات..

الفصل السادس

الدول الكبرى والمشروع القومي العربي

تـشير المـصادر التاريخـية أن اتـصالات تمت بين البريطانيين وضباط العهد حـول التحـرك بـثورة ضـد الاتحـاديين، وأهم هذه الاتصالات تمت ما بين عزيز المـصري زعـيم حـزب العهـد والقـيادة الـبريطانية في القاهرة، والآخر بين محمد شريف الفاروقي والقيادة البريطانية بعد فراره من جبهة القتال معهم، ولا يعني أن هذا عن تلاقي عزيز والفاروقي على رأي واحد في الاتفاق مع بريطانيا، فقد كان لكـل واحـد مـنهما رأيـه في كيفـية الـتعاون مع بريطانيا ومساندة الثورة، واختلافاً كبيراً في التفويض والأهداف والطريقة.

1 ـ بريطانيا:

منذ تفجر الصراع القومي داخل الدولة العثمانية بعد وصول الاتحاديين إلى الـسلطة، واتـباعهم سياسـة تتريـك العناصـر غـير التركـية، الـذي أدى إلى نـشوء حـركات وأحزاب وانتفاضات ضد هذه السياسة من قبل العرب والأرمن وغيرهم من الشعوب. تنبهت السياسة البريطانية لهذا التطور الخطير داخل الدولة العثمانية، ورأت فـيها الفرصـة التاريخـية للانقـضاض علـى أجـزاء تلـك الدولـة، وتحقـيق مخططاتها في استعمار أجزاء من المشرق العربي سواء في فلسطين والحجاز مما يـؤمن لهـا الـسيطرة الـتامة علـى طـريق الهند عبر البحـر الأحمر، والسيطرة على العراق فيتم استكمال سيطرتها على الخليج بوابة الهند، والهيمنة على أرض واعدة بالبترول، وهو ترياق النهضة الصناعية الحديثة.

أرسـلت بـريطانيا جواسيـسها قـبل بداية القرن العشرين ليقوموا بمسح كامل

للأراضي العربية من حيث طبيعة السكان والأرض والجغرافية وإعداد الخطط والمشاريع الممكن تنفيذها من قبل بريطانيا للهيمنة والسيطرة على تلك المنطقة، وكان جواسيسها يأتون أفواجاً إلى بلاد الشام والجزيرة العربية والخليج بصفة باحثي تاريخ، أو مستكشفين للآثار، أو طلاب دراسات، أو أصحاب مشاريع صناعية أو تجارية، أو سياح، وحتى البعض منهم من كان يلبس لبوس دراويش المسلمين، وينام في المساجد، وقد عرفت محافظتنا دير الزور درويشاً في بداية القرن العشرين يرتدي أسمالاً ممزقة، ويضع على صدره النجوم المصنوعة من التنك، وينام في مساجد دير الزور والميادين والبوكمال، ويصنع الفرارات الورقية للأطفال، وأطلق عليه الأهالي في المحافظة اسم (انجيمان) لوضعه تلك النجوم، وفي عام 1920 إذ به يعين قائداً لمنطقة الدليم في العراق بعد احتلاله من قبل بريطانيا، واسمه (الجنرال ليجمن). وأمثاله كثر في المنطقة العربية آنذاك.

شكل البريطانيون مكتبين هامين للاستخبارات الأول في القاهرة والثاني في دلهي، ولكل مكتب استراتيجية وارتباطاته بوزارة في الحكومة البريطانية، ومجال تحرك، وقد يتداخلان في مجال العمل الواحد كما في الجزيرة العربية، ونجد تضارباً في الآراء بين المكتبين، والوسائل قد تتباين لكن الهدف واحد ومشترك هو تحقيق مخططات بريطانيا الاستعمارية. وقد لعب المكتبان أدواراً هامة في صناعة التاريخ العربي في العقود الأولى من القرن العشرين، ولهذا لابد من المرور بهما لأي دارس لتاريخ العرب الحديث من تلك الحقبة الزمنية من ذلك التاريخ.

مكتب القاهرة (الأفريقي)

سنجد في كتب التاريخ والوثائق والمصادر لهذا المكتب عدة تسميات منها، مكتب القاهرة أو المكتب العربي، أو المكتب الأفريقي، أنشئ باقتراح من مارك سايكس أثناء جولته على الشرق الأوسط(80) وجاء في الاقتراح الذي قدمه سايكس أن الهدف من إنشاء المكتب، هو تنسيق سياسة بريطانيا في المنطقة،

وجمع المعلومات عنها، وقد تمت موافقة الحكومة البريطانية على اقتراح سايكس والمصادقة عليه في 7 كانون الثاني/ يناير 1916، ووفق ما جاء في إعلان إنشاء المكتب في شباط 1916 أن الهدف من إحداثه: هو دراسة وتطوير السياسة البريطانية فيما يختص بالشؤون العربية، وجمع المعلومات السياسية والعسكرية والاجتماعية وغيرها في منطقة الشرق الأوسط وأفريقيا، أما أهدافه التي لم يعلن عنها: العمل على أتباع أساليب جديدة لتعميق السيطرة لإشعال ثورة عربية ضد الترك(81).

ترأس المكتب الذي كان تابعاً لوزارة الخارجية البريطانية في البدايات الأولى من شباط عام 1916 السير مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر، وأهم الذين عملوا فيه:

الجنرال كلبرت كلايتون (1875 ـ 1929) رئيس الاستخبارات البريطانية في القاهرة، ثم أوكلت مهمة إدارته، وهو من الضباط البريطانيين اللامعين في تلك المرحلة، وكان ختام حياته في العراق حين أصبح مندوباً سامياً فيه ما بين آذار وأيلول 1929. وقد وصفته المصادر التاريخية بأنه كان رجلاً هادئاً، بعيد النظر، يتحمل مسؤولياته العديدة دون خوف أو وجل، ويترك لمعاونيه حرية الرأي في تسيير الأمور.

ـ ديفيد هوكارث (1862 ـ 1927) يعتبر المدير الفعلي للمكتب، هو عالم أثار تلقى علومه في مانشستر وفي معهد مادولين كولدج في أكسفورد، وأصبح مشرفاً على متحف اشموليان ثم مديراً للمكتب العربي في القاهرة، وكان من رجال الاستخبارات البريطانيين الهامين وهو الذي جند لورنس في صفوف الاستخبارات البريطانية.

ـ الكولونيل رونالد ستورس من ضباط المخابرات وصفته إدارته بأنه كان أذكى إنكليزي في الشرق الأدنى وأنه الرجل الذي استثمر كل ما عمله سواه، لديه مواهب أدبية وفنية.

ـ الكابتن جورج لويد أصبح مندوباً سامياً في مصر بعد الحرب العالمية، وصف بكثرة الحركة والنشاط.

ـ مارك سايكس وصف بأنه من أصحاب الأفكار العالمية، قليل الصبر في امتحان أعماله ونظرياته، وهو الذي قسم البلاد العربية في اتفاقيته الشهيرة مع الفرنسي بيكو.

ـ توماس إدوارد لورنس (1888 ـ 1935) تلميذ هوكارث، عمل لصالح المخابرات البريطانية قبل الحرب، زار العراق عام 1910 بجولة تجسسية بحجة التنقيب عن الآثار، والهدف جمع معلومات عن البترول وعلى الألمان، سافر إلى سورية وتعرف على رجالاتها العرب الثوريين، واتصل بجمعياتهم السرية، وفي عام 1913 رافق الهيئة التي قامت بالمسح الطغرا في فلسطين وسيناء، كان قبل الحرب يحضر الخرائط للجيش البريطاني، كلف من اللورد كتشنر في القسم الجغرافي في القاهرة، وجمع الوثائق عن الجمعيات السرية المعادية لبريطانيا في مصر. رغم شك معظم المؤرخين بأنه صديقاً للعرب، ولكن يشهد له أنه رد كل الأوسمة للملك البريطاني من أجل القضية العربية وقال للملك جورج الخامس في رده أنه يخاف من استلام الجيش العربي ومحاربة الجيش الإنكليزي وفي مثل هذه الحالة لا يسعه الاحتفاظ بتلك الأوسمة.(82) وعمل في جيش فيصل أثناء زحفه على دمشق 1916/ 1918، ولعب دوراً هاماً وقيادياً وعسكرياً وسياسياً فيها، كان متعدد المواهب، مات في ظروف غامضة عام 1935.

كما عمل في المكتب المذكور نخبة من الضباط والسياسيين البريطانيين الذين لعبوا أدواراً هامة في مجريات الثورة العربية، والتطورات السياسية في الأقطار العربية وتداعياتها بعد انتهاء الثورة على الساحة العربية: أمثال، كورنواليس، نيوكومب، باركر، هربرت يونغ، كان مقر المكتب بالقاهرة في فندق سافوي حيث له جناح مؤلف من ثلاث غرف(83).

أدى المكتب دوراً هاماً في إقناع الحكومة البريطانية للاتفاق مع الشريف

حسين في دعم ثورته، وتبني ودعم تطلعات الحركة العربية في القيام بالثورة الاستقلالية عن الترك لما يحقق الأهداف الاستراتيجية للدولة البريطانية باستعمار المنطقة العربية، وكان يرى المكتب في الشريف حسين وأولاده الحليف الذي يمكن للدولة البريطانية الاعتماد عليهم لقيادة الثورة ضد الترك وجمع القادة القوميين العرب في بلاد الشام والعراق تحت قيادتهم، واستغلال مركزهم الديني في محاربة الترك وفصل البلاد العربية عن الدولة العثمانية.

ورأوا أن تفجير الثورة في الحجاز سيضعف الجبهة التركية الألمانية على الضفة الشرقية من قناة السويس والبحر الأحمر والساحل السوري وبلاد الشام، ويؤدي إلى هزيمة الترك والألمان في الجبهة الشامية، ويقدم لهم بلاد الشام والعراق على طبق من فضة.

وقد ساند أعضاء المكتب بعد انتهاء الحرب الأمير فيصل الأول في توليه عرش سورية أو عرش العراق، وكان من أشد أنصاره في قيادته للجيش العربي الزاحف إلى سورية أثناء قيام الثورة العربية، فكانوا معه في قيادة الجيش وتنفيذ الخطط العسكرية وفي المعارك التي خاضها الجيش.

مكتب دلهي

كان هذا المكتب منافساً قوياً لمكتب القاهرة في المنطقة العربية، ويتبع وزارة الهند التي لها توجهات سياسية في تحقيق المصالح البريطانية منافسة لسياسة وزارة الخارجية البريطانية. ترأس مكتب الهند وأشرف عليه نائب الملك اللورد (هاردنغ) ورئيس حكومة الهند. كان لهذا المكتب توجهات متباينة عن مكتب القاهرة كما أشرنا فهو يعارض بشدة فكرة القومية العربية، ويحاربها ويرى أنها تشكل خطراً على المصالح البريطانية في الخليج والجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام، ورفض فكرة قيام دولة عربية كما تم الاتفاق بين مكماهون والشريف حسين، وكان رافضاً بالأساس أي اتصال مع الشريف، وأراد ربط منطقة الخليج والعراق بالهند ربطاً سياسياً ومالياً.

بنى شبكة علاقات واسعة مع شيوخ القبائل وأمراء الخليج والعراق، وشكل منها مثلثاً رأسه بغداد وقاعدته مسقط وعدن، شارك العاملون في هذا المكتب في صناعة معظم الأحداث التي جرت في المراحل التي سبقت الحرب العالمية الأولى وما بعدها من منطقة الخليج والعراق. أشهر من عمل في هذا المكتب هم:

ـ برسي كوكس: من ألمع الضباط البريطانيين في إنشاء العراق الحديث، وكان من بين صفوف الحملة البريطانية على العراق في عام 1916، وعمل في الخليج بمهمة رئيس المقيمين السياسيين، وشغل منصب المندوب السامي في العراق 1920 أثناء الثورة بعد فشل أرونلد ولسن وكيل الحاكم المدني العام في العراق(84).

ـ جرترود بل (1868 ـ 1926) مستشرقة وآثارية ومن أهم الجواسيس البريطانيين، عملت بمنصب السكرتيرة الشرقية لدار الاعتماد البريطاني في العراق، قامت بتأسيس المتحف، ماتت في العراق ودفنت فيه.

ـ سنت جون فلبيي (1884 ـ 1940) عمل في حكومة الهند، ثم مع برسي كوكس في العراق، وكان مساعده الشخصي، وحاكماً سياسياً في العمارة، ثم مندوباً سامياً في الأردن، وعمل مستشاراً للملك عبد العزيز آل سعود.

ـ السير أرونالد تاليوت ولسن (1882 ـ 1940) أحد الضباط الذين شاركوا في الحملة على العراق، تولى منصب وكيل الحاكم المدني في العراق خلفاً للسير بريسي كوكس، وفي زمنه حدثت ثورة دير الزور التي أخرجت القوات البريطانية من محافظة دير الزور، وتسببت في ثورة العشرين، حيث في فشل في إخمادها، مما أدى إلى عزله وإعادة تعيين كوكس بدلاً عنه حاكماً على العراق.

كان لكل من المكتبين رؤيته في تحقيق مصالح بريطانيا في المنطقة العربية، وحتى داخل المكتب الواحد لم تكن الرؤيا واحدة، فنجد تبايناً داخل مكتب القاهرة بين لورنس من جانب ومعظم العاملين في المكتب، كما نجد لهذا الاختلاف مماثل له في مكتب الهند ما بين مس بل ومعظم العاملين في المكتب،

وأساس التباين هو في تعاون بريطانيا مع الحركة القومية العربية الناهضة والطامحة إلى الاستقلال عن الترك وبناء دولة عربية في المشرق.

ففي مكتب الهند ترينا المصادر أن لورنس عندما تشكل المكتب كان في العراق، وبعد عودته منها، اختلف مع ضباط المكتب الذين هم أعلى منه مرتبة على أسلوب العمل، وكان ينتقد الأخطاء التي ارتكبوها في المنطقة باستمرار، مما أدى إلى نفور هؤلاء الضباط منه، وسعوا إلى نقله من المكتب إلى جبهات القتال للتخلص منه، حتى أن ديفيد هارت ذكر أنهم عملوا على حياكة مؤامرة من أجل اعتقاله(85). والسبب الرئيسي موقف لورنس من القضية العربية، حيث كان يشجع القيادة البريطانية بضرورة مساعدة العرب في القيام بثورة ضد الترك، لما فيه مصلحة بريطانيا في تحقيق مخططاتها في المنطقة، وكانت تلك الآراء تجد آذاناً صاغية لدى القيادة البريطانية، مما أغاظ هؤلاء الضباط ودفعهم إلى التخلص منه، ورغم عداء هؤلاء للورنس وما يطرح لدعم الحركة العربية، كان هناك في المكتب من كان يسانده ويتبنى هذا الرأي من المؤثرين أمثال كلايتون وهارت وستورس الذين حموه منهم، بل عملوا على نقله من ملاك مكتب الاستخبارات التابع لوزارة الحربية إلى ملاك مكتب القاهرة لوزارة الخارجية(86).

وقد أصدر المكتب نشره سرية أسماها (النشرة العربية) تقدم دراسات وآراء حول الوضع في البلاد العربية أشرف عليها لورنس في البدايات، وكانت ترسل تلك النشرة إلى الموظفين السياسيين البريطانيين في مصر والسودان والعراق والهند لتوجيه عملهم من خلال إطلاعهم على ما يجري في الساحة العربية مفصلاً. وبعد التحاق لورنس بالثورة العربية في الحجاز، أوكلت النشرة إلى كورنواليس(87).

أما مكتب الهند فكان يعارض معارضة شديدة أن تقدم الحكومة البريطانية أية مساعدة للعرب من أجل تحقيق أمانيهم القومية في دولة عربية مستقلة وتراه ضرراً لمصالح بريطانيا الاستراتيجي(88). وكانت حكومة الهند ترفض فكرة العروبة، وترى في تشكيل محميات بريطانية في الخليج، ومن ثم ربط العراق

الـذي كانـت تطلق عليه (بلاد ما بين النهرين) بغية عدم الاعتراف بالعراق الواحد، وهـذا مـا سنراه في الفـصول القادمـة عـن محاولات ربط العراق بالهند وحتى ما سمـي آنذاك (بتنهيد) العراق، وجلب عشرات الألوف من الهنود كموظفين لإدارة العـراق، ورفـض تـشكيل حكـومة عـربية في العـراق أسـوة بما حدث في سورية وذلـك من باب عدم الاعتراف بعروبته، مما أدى إلى قيام ثورة دير الزور ثم ثورة العشرين التي فجرها ضباط العهد في 11 كانون الأول 1919.

ومـن الأمـثلة لـسياسة مكـتب الهـند في رفـض أي مشروع عربي قومي، أنه رفـض أي تعاون مع القوى القومية، وأنه عارض سياسة مكتب القاهرة في تعاونه مع الشريف حسين وأنجاله، والاتصال بمجموعة من حزب العهد وبقية الأحزاب العـربية كالعـربية الفـتاة واللامركزية. ووقف ضد قيام الثورة العربية التي تفجرت في الحجـاز وبقـيت من عام 1916 تعارض إلى عام 1921 حين تم عزل ولسن عـن إدارة العراق ومن ثم تكليف فيصل رفض التعاون مع زعيم عربي قومي مثل طالـب النقـيب الـذي كـان زعـيماً على ولاية البصرة آنذاك، وسعى لإحداث ثورة عـربية في البـصرة وفي العـراق كلـه. ففـي 15 آب 1916 أرسـل طالـب النقـيب رسـالة إلى اللـورد غلـسفورد (نائـب الملك في الهند)، اقترح فيها وضع إمكانياته تحت تصرف البريطانيين، ورغم ما فيها من تنازلات لكرامته الشخصية، والمبادئ القومـية، كان الرد عليها سيئاً له ولنضاله، فقد كتب في تلك الرسالة: (أني مستعد تماماً لوضع نفسي تحت تصرف الحكومة البريطانية ومساعدتها بكل إمكانياتي.. أنـني لست صديقاً فحسب، بل حليفاً، وأرغب في تكريس نفسي وإمكانياتي لأية خدمة لقضية بريطانيا)(89).

وتمت إحالة رسالة طالب إلى نائب الملك في الهند الذي أحال الرسالة إلى المـندوب الـسامي في مـصر الـذي رفـض الـتعاون مـع طالـب، فأجاب المندوب الـسامي في مـصر علـى رسـالته بالقـول: (نأسـف لعدم التمكن من الاستفادة من خدمات السيد طالب)(90).

السياسة البريطانية قبيل انطلاق الثورة العربية

كانت السياسة البريطانية ما بين 1913 و 1916 تعمل على تعزيز وجودها في الخليج العربي من خلال فرض معاهدات الحماية على زعماء وأمراء ومشايخ الخليج، وقبول تواجد قواتها العسكرية هناك، مقابل مساعدات مالية، وحماية تلك الإمارات من الترك أو أية دولة خارجية، واستغلت عدة عوامل لفرض هيمنتها على الخليج واحتلاله وأهمها الانقسام والتناحر بين أمراء الجزيرة العربية، حول مناطق النفوذ وإلغاء الأخر، ماذا نجد رغم التصالح والوحدة؟ حتى الدعوة إلى تكوين كيان أو كيانات عربية سرعان ما تنهار، ويبدأ صراع عنيف بين أمراء وحكام الجزيرة العربية، فمثلاً في عام 1912، دعا عبد العزيز آل سعود إلى عقد مؤتمر للزعماء العرب في مدينة محايدة من أجل توطيد الأمن وبحث شؤون الجزيرة العربية، واقتراح أمير الرياض بأن توجد في إطار الدولة العثمانية عدة دول عربية، أو دولة عربية موحدة بزعامة أحد الحكام أو وحدات سياسية منفردة بزعامة حكام محليين، نجد أن قوات الشريف تهاجم نجد، وشقيق أمير الرياض بجيوشه يهاجم أتباع الشريف(91).

ألاعيب السياسة البريطانية

ومن هذا نجد أن السياسة البريطانية تتبع عدة أشكال من السياسات ظاهرها التباين والصراع بين مكتبي الهند ومكتب القاهرة ولكن في الحقيقة كلا المكتبين يسعيان لتنفيذ مصالح بريطانيا من أجل تحقيق الهيمنة على المنطقة لتأمين السيطرة على النفط وطرق التجارة الدولية بين الهند والصين وشرق آسيا وبين أوروبا، وإقامة القواعد العسكرية على طول البحر الأحمر والبحر العربي والخليج.

ففي عام 1911 زار عبد العزيز آل سعود الكويت وأجرى مباحثات مع المعتمد البريطاني فيها، واتفقا على التعاون، والاتفاق معه على أن يسيطر على

الإحساء والقطيف وجزيرة دارين ومرفأ العقير على أن يمنع البريطانيون تدخل أية جهة من البحر، مقابل الاعتراف بالحماية البريطانية، واتفقت مع عدوه أمير الرياض على التخلي عن ادعائه في مسقط وعمان على أن تصبح إمارته في المستقبل محمية من قبلهم(92).

ونجد المندوب البريطاني في البحرين يلتقي الملك عبد العزيز في أواخر عام 1913 في ميناء العقير فيتفقان على طرد الحامية التركية من الإحساء، في الوقت الذي قد وقعت فيه مع الدولة العثمانية في حزيران 1913 اتفاقية رسم الحدود بين ممتلكات الإمبراطورية العثمانية والمحميات البريطانية على الساحل العربي من الخليج إلى الكويت، وإمارات الصلح البحري، وكانت هذه الأراضي تتبع الإحساء، وقد وقعها السفير العثماني في لندن إبراهيم حقي باشا مع وزير الخارجية البريطاني إدوارد غراي.

ومن لعب بريطانيا على كل الحبال تتفق مع الملك عبد العزيز ومع الشريف حسين ومع أمير الرياض المختلفين فيما بينهم كل على حده، وتوحي لكل واحد منهم أنها مخلصة له، وثم تفتنهم مع بعضهم، وترسل لكل حاكم خبيراً عسكرياً يقاتل معه، فمع عبد العزيز الكابتن شكسبير، ومع الشريف حسين الكابتن لورنس وغيره، ومن وراء الستار تتفق مع السلطة العثمانية في آذار 1914 على اقتسام شبه الجزيرة العربية، ونصت شروط المعاهدة على أن تمتد الحدود بين ممتلكات كلتا الدولتين بشكل مستقيم من شبه جزيرة قطر عبر بوادي أواسط الجزيرة العربية حتى الحدود بين محمية عدن واليمن. وكان كل ما يقع شمالي هذا الخط ملكاً للعثمانيين، بما فيها نجد فضلاً على الإحساء، وكل ما يقع جنوبيه يعتبر من الأراضي البريطانية(93).

هذه كانت السياسة البريطانية تتلاعب على الجميع، فالإحساء وحدها كما بينها دليل على هذه السياسة فتعترف في آن واحد للعثمانيين وللملك عبد العزيز وتوحي بها إلى أمير الرياض، ولكن تصميم عبد العزيز على الاستيلاء عليها بالقوة أجبر بريطانيا والعثمانيين على الاعتراف بها تحت سلطته.

الهامش والمصادر

1 ـ د. أحمد قدري ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ـ مصدر سابق ص 38.

2 ـ حسن كيالي ـ ترجمة عبد اللطيف الحارس ـ جمال باشا في سورية ـ مجلة الاجتهاد ـ بيروت ـ العدد 45 و 46 ـ 2000 ـ ص 191.

3 ـ د. أحمد قدري ـ مذكراتي ـ المصدر السابق ـ ص 34.

4- Papers relating to the foreion of the united States, the Lansing Papers 1914- 1920.

5 ـ مجلة المقتطف ـ مجلد 49 ـ ج5 ، نوفمبر /تشرين الثاني 1916.

6 ـ شكيب أرسلان ـ سيرة ذاتية ـ بيروت ـ دار الطليعة ـ ص 176.

7 ـ عزيز بك ـ الاستخبارات والجاسوسية في الدولة العثمانية ـ ترجمة فؤاد ميداني ـ بيروت ص 65.

8- Papers relating to the foreion of the united States, the Lansing Papers 1914- 1920.

9 ـ هنري مورغتنو ـ مذكرات سفير أمريكا في الآستانة ـ ترجمة فؤاد صروف ـ القاهرة ـ 1922 ـ ص 63.

10 ـ هنري مورغيتو ـ مذكرات ـ المصدر السابق ـ ص 65 ـ 8.

11 ـ محمد كرد علي ـ المذكرات ـ دمشق ـ مطبعة الترقي ـ 1948 ـ ج1 ـ ص 110.

12 ـ الجنرال علي فؤاد باشا ـ الترجمة العربية ـ كيف غزونا مصر ـ بيروت 1962 ص 31.

13 ـ د. أحمد قدري ـ مذكراتي ـ مصدر سابق ـ ص 39 « سليمان موسى ـ مصدر سابق ص 103. 14 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 162.

15 ـ جمال باشا ـ مذكرات ـ مصدر سابق ـ ص 238.

16 ـ جمال باشا ـ المذكرات ـ ص 355/ 356.

17 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد السابع ـ 17 أيار ـ 1938.

18 ـ فائز الغصين ـ مذكراتي عن الثورة العربية ـ دمشق ـ مطبعة الترقي ـ 1939 ـ ص 19.

19 ـ أحمد قدري ـ مذكراتي مصدر سابق ـ ص 43.

20 ـ سليمان موسى ـ الحركة العربية 1908 ـ 1924 ـ بيروت دار النهار ـ 1977 ـ ص 113.

21 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ص 189 » د. أحمد قدري ـ مذكراتي ـ مصدر سابق ـ ص 21.

22 ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصر سابق ـ ص 109.

23 ـ د علي سلطان ـ تاريخ سورية 1908 ـ 1918 ـ دمشق ـ دار طلاس ـ 1987 ـ ص 295.

24 ـ مجلة الأسبوع العربي ـ بيروت ـ عدد 621 ـ 3 أيار 1971 ـ ص 36 ـ 39.

25 ـ أحمد جمال باشا القائد العام للجيش الرابع ـ إيضاحات عن المسائل الأساسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه ـ مطبعة طنين ـ استنبول ـ 1334 ـ ص 60.

26 ـ د. علي سلطان ـ تاريخ سورية ـ مصدر سابق ص 326/ 327.

27 ـ D.F Aff. Etr, vol, xx. 19 Sep 1913, pp 87- 96.

28 ـ أحمد جمال باشا ـ إيضاحات ـ ص 38 ـ 41.

29 ـ د. علي سلطان ـ المصدر السابق ص 295.

30 ـ د. علي سلطان ـ المصدر السابق ـ ص 294.

31 ـ فائز الغصين ـ مذكراتي ـ مصدر سابق ـ ص 80.

32 ـ محمد الفرجاني ـ فارس الخوري وأيام لا تنسى ـ بيروت ـ دار الغد ـ 1965 ـ ص 51.

33 ـ عبد اللطيف يونس ـ شكري القوتلي. حياة أمة في رجال ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ 1959 ـ ص 12.

34 ـ أحمد قدري ـ مذكراتي ـ مصدر سابق ـ ص 54.

35 ـ المصدر السابق ـ ص 55.

36 ـ أمين سعيد ـ الثورة العربية الكبرى ـ القاهرة ـ ج1 ـ ص 75.

37 ـ مجلة المنار ـ القاهرة ـ 1922 ـ مجلد 23 ـ ج2 ـ ص 132.

38 ـ أحمد قدري ـ مذكراتي ـ مصدر سابق ـ ص 55/ 56.

39- Cemal pasa- Hatiralar- I stambul- 1977- idid, 55- 39.

40- Zeine Zeine, The Struggle for Arab Indendependence (New York 1977), 113.

41- Sectet. Buchanan to Grey. Petrograd, January 2 1916; PRO. Fo 361/ 2492. PRO. Fo, 371/ 2767. File no 34, no. 17) File no, 200744, December 29, 1915. 867)

42- PRO, FO, 371/ 2492.

43- Fo 361/ 2767. No, 3824 January, 10, 1916.

44- PR, FO, 371/ 2492. Buchanan to Grey, no. 3124, Confidential. December 31, 1915.

45 ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص 113.

46 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ص ـ 182/ 183.

64 ف ـ د. أحمد قدري ـ مذكراتي ـ مصدر سابق ـ ص 63.

47 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 146.

47 ف ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 128.

47 ق ـ المصدر السابق ـ ص 190/ 191.

48 ـ د. مجدي حمدي ـ العسكريون وقضية الوحدة ـ مصدر سابق ـ ص 74 ، مصطفى طلاس ـ الثورة العربية الكبرى ـ مصدر سابق ـ ص 119.

49 ـ وميض جمال عمر نظمي ـ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية في العراق مصدر سابق ـ 145.

50 ـ سعيد العاص ـ فايز ساره ـ مصدر سابق ـ ص 38.

51 ـ المصدر السابق ـ ص 38.

52 ـ وميض جمال عمر نظمي ـ الجذور السياسية.. المصدر السابق ـ ص 145.

53 ـ د. علي سلطان ـ تاريخ سورية 1908 ـ 1918 ـ دمشق ـ دار طلاس ـ 1987 ـ ص 284.

54 ـ علي سلطان المصدر السابق ـ ص 285.

55 ـ د. أحمد قدري ـ مذكراتي ـ مصدر سابق ـ ص 37.

56 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 163.

57 ـ أحمد جمال باشا ـ مذكرات ـ ترجمة علي أحمد شكري ـ مصر ـ 1923 ـ ص 264.

58 ـ أحمد قدري ـ مذكراتي ـ مصدر سابق ـ ص 40.

59 ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص 127.

60 ـ فائز الغصين ـ مذكراتي عن الثورة العربية ـ مصدر سابق ص 202 ـ 203.

61 ـ أحمد قدري ـ مذكراتي ـ مصدر سابق ـ ص 46.

62 ـ أحمد قدري ـ المصدر السابق ـ ص 40.

63 ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ص 127.

64 ـ سليمان الموسى ـ المصدر السابق ـ ص 132.

65 ـ أحمد قدري ـ مصدر سابق ـ ص 46.

66 ـ سليمان الموسى ـ المصدر السابق ـ ص 130 ـ 131.

67 ـ الجنرال غلوب ـ بريطانيا والعرب ـ لندن ـ 1959 ـ ص 60.

68 ـ د. عبد الكريم رافق ـ المشرق العربي في العهد العثماني ـ مصدر سابق ـ ص 398/ 399.

69 ـ جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 279 « سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص 215.

70 ـ أحمد جمال باشا ـ المذكرات ـ مصدر سابق ـ ص 369 ـ 347.

71 ـ د. علي سلطان ـ تاريخ سورية ـ مصدر سابق ـ ص 299.

72 ـ فائز الغصين ـ مذكرات ـ مصدر سابق ـ ص 9.

73 ـ محمد كرد علي ـ خطط الشام ـ دمشق 1925 ـ مطبعة الترقي ـ ج3 ـ ص 141.

74 ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص 117.

75 ـ أحمد قدري ـ مذكراتي ـ مصدر سابق ـ ص 57.

76 ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص 116/ 117.

77 ـ جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 240.

78 ـ جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ـ المصدر السابق ـ ص 240.

79 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العد 37 ـ 12 كانون الأول 1938 ـ ص 5.

80 ـ محمد يوسف إبراهيم القريش ـ المس بل وأثرها في السياسة العراقية ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ جامعة بغداد ـ كلية الآداب ـ 1993 ـ ص 44.

81 ـ حسام علي محسن المدامغة ـ لورنس والقضية العربية 1888 ـ 1935 ـ دمشق ـ طبعة ثانية 2005 ـ الأوائل ـ ص 57.

82 ـ عمر أبو النصر ـ مجلة الحرب العظمى ـ المجلد الثالث ـ الجزء 31 ـ ص 7.

83- Briton Cooper Busch, Britain, India, and the Arab, 1914- 1921, Califorrnia, University of California pres, 1971, pp 102- 105.

84 ـ انظر التفاصيل في Phllipe Graves, the Life Of Sir Bercy Cox, London, h Hutchinson.

85 ـ ريتشارد الدنكتون ـ لورنس في البلاد العربية ـ ترجمة محمود عزت موسى ـ لا توجد مطبعة أو تاريخ ـ ص 154.

86 ـ عبد المنعم مصطفى ـ لورنس قصة حياته وحقيقة موقعه من الثورة العربية الكبرى ـ بغداد ـ دار الشؤون الثقافية ـ 1990 ـ ص 28.

87 ـ سليمان موسى ـ لورنس والعرب وجهة نظر عربية ـ عمان ـ 1963 ـ ص 27.

88- Graves Robert, Lawrence and the Arabs, Edited by Eris Kennington, London Cape, 1927, pp 58- 60.

89- F.O 371/ 2144, Tle. Form Secretary of the Govemment of India in the Foreign Political. Departiment Simila, 24 August 1916.

90- Moberly, The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918: History of the Great War Based on Official Documents, vol, 4, p 21.

91 ـ ألكسي فاسيليف ـ تاريخ العربية السعودية ـ موسكو ـ دار التقدم ـ 1986 ـ ص 269.

92 ـ فاسليف ـ تاريخ العربية السعودية ـ المصدر السابق ـ ص 268.

93 ـ فاسليف ـ تاريخ العربية السعودية ـ المصدر السابق ـ ص 276.

الباب الثالث

الضباط العرب والاتصال مع بريطانيا

الفصل الأول

الضباط العرب والثورة

مع استمرار تدهور الأوضاع في سورية نتيجة القمع غير المبرر الذي يمارسه جمال باشا وفق برنامج سياسي وأمني منظم، شعر الضباط العرب القوميون في الجيش العثماني وخاصة ضباط حزب العهد، أن ما يقوم به جمال باشا تطبيقاً لقرار سياسي اتخذته القيادة الاتحادية، وأظهرت الوثائق صحة ذلك الشعور، فقد نشرت صحيفة (مليت) التركية حديثاً لأحد قادة حزب الاتحاد والترقي الدكتور بهاء الدين شاكر عن اجتماعات كانت تتم بين أنور وطلعت وجمال لسحق الحركة العربية:

(..وقد كانت هذه الاجتماعات تنحصر كلها في تأمين بسط نفوذ الإدارة المركزية والقضاء على الحركة العربية، وتشتيت شمل دعاة اللامركزية في سوريا وبلاد العرب، ثم العمل بعد أن يتم هذا الأمر على تتريك العناصر العربية بصورة تدريجية، ومقاومة كل نفوذ أجنبي في البلاد، وإلغاء امتيازات جبل لبنان التي كانت من الأسباب الرئيسية في تدخل العناصر الأجنبية في شؤون البلاد الداخلية)(1) (انظر إلى باب الوثائق).

أمام هذا الخطر رأى الضباط العرب بضرورة القيام بعمل سريع لمواجهة لتلك السياسة العنصرية الخطيرة على الوجود العربي ككل، وقبل أن يدمر جمال باشا كل ما بنته الحركة، فتم الاتصال بالشريف حسين في مكة، لإعادة الثورة ضد الترك، استكمالاً لاتصالات الفريق ياسين الهاشمي والفريق رضا الركابي مع الأمير فيصل التي تمت دمشق ومنها الرسالة التي أرسلها الهاشمي والركابي إلى

الشريف حسين مع فوزي البكري، التي أشرنا إليها. حيث طلب زعماء الفتاة ذلك من فيصل قبل سفره إلى القدس لمقابلة جمال باشا، وفشلت محاولات فيصل في إقناع جمال بإطلاق سراح المعتقلين(2). (انظر إلى الوثائق)

رجع فيصل من عنده خائباً وأدرك لا سبيل في مواجهة طغيان جمال وزملائه من قادة الاتحاديين إلا بالثورة، وعلى ضرورتها بعد فشل وساطته مع جمال، وحين تم إعدام الوجبة الثانية من قادة العرب في 6 أيار 1916 وهو في دمشق لا حول له ولا قوة في منع هذه المجزرة. التي كان صدها كبيراً في الوطن العربي، وما أن علم الشريف حسين بإعدام القادة في دمشق وبيروت حتى هدد بأنه سيعدم مقابل كل عربي عشرة من الأتراك الأسرى لديه، ويذكر محمد كرد علي أن هذا التهديد كان سبباً في وقف حمام الدم الذي قام به جمال ضد القادة العرب(3).

وبإعدام القادة العرب بدأ التحضير الجدي لإعلان الثورة ضد الاتحاديين وتحقيق الاستقلال العربي عن الدولة العثمانية، وبهذه الإعدامات وقع الطلاق النهائي بين العرب والترك في دولة واحدة، وكانت الحرب العالمية الأولى الفرصة الثمينة التي رأى العرب استغلالها لتحقيق الاستغلال. إلا أن الإمكانات الذاتية لتفجيرها غير متوفرة لا عند الضباط العرب بعد إرسال معظم الفرق العسكرية العربية إلى جبهة الدردنيل أو إلى أماكن بعيدة في الأناضول وشمال تركيا.

ولضرورة عدم تضييع الفرصة التاريخية للخلاص من التبعية للعثمانيين، رأى الضباط والشريف كلاً على حده لابد من الاتصال بالحلفاء وخاصة بريطانيا واستكشاف موقفها من الثورة العربية، وإمكانية مساندتها، وشروط التحالف معها، وتحديد تلك الشروط التعاون على لا أن يفقد العرب استقلالهم، في الوقت رفض عدد من الضباط كياسين الهاشمي ومجموعته التعاون مع الحلفاء خوفاً من مخططاتهم الاستعمارية، إلا أن الأكثرية كانت ترى فرصة الحرب عدم تضيعها، ولابد من التعاون مع الحلفاء.

كما أن بريطانيا منذ بداية الحرب عرضت صداقتها واحترامها للعرب ودعتهم إلى التعاون، وقد أشار إدوارد غراي وزير خارجية بريطانيا مع بداية الحرب أن بريطانيا لن تهاجم الأراضي العربية المقدسة في الجزيرة العربية في رسالة له إلى حكومة الهند، وأمل أن تحذو فرنسا وروسيا حذو بريطانيا(4). لهذا جرت اتصالات بين بريطانيا وكل من عزيز المصري ومحمد شريف الفاروقي وهما ضابطان من حزب العهد، كما جرت اتصالات بين السفير البريطاني في القاهرة والشريف حسين وولده عبد الله من أجل قيام الثورة والتحالف وهذا ما سنستعرضه في الفصول التالية، وأثر هذه الاتصالات على المشروع القومي العربي التحرري.

الاتصالات البريطانية مع زعيم العهد الفريق عزيز المصري من أجل الثورة والمشروع القومي.

لاحظنا كيف شاركت بريطانيا بقوة في عملية إطلاق سراح عزيز المصري من المعتقل الاتحادي بعد أن حكم عليه بالإعدام، والعفو عنه، وإعادته إلى القاهرة، وبعد الحرب تذكر وثيقة بريطانية أن عزيز المصري قام بزيارة للسفارة البريطانية في القاهرة في 16 آب 1914 لاكتشاف رؤية بريطانيا في الأماني العربية التي يطالب بها القوميون العرب من عسكريين ومدنيين، وعن توافق بريطاني /عربي في تحقيق تلك الأماني. ولأهمية المحضر الذي دون تلك الزيارة وما طرح فيها من آراء من طرف عزيز المصري الذي يمثل ضباط العهد، والطرف البريطاني نستعرض ما جاء في المحضر رقم (6261/ 21، 731) تاريخ 16 أغسطس آب 1914. وبعنوان (حديث بين الكولونيل عزيز المصري والمستر أ. م. راسل) التالي:

(اليوم 16 أغسطس جاء إلى مقابلتي الكولونيل عزيز المصري. وهو شخصية لها مكانتها في العالم العربي. ويجب أن تؤخذ أقوالها باهتمام، وتوضيح للدراسة بعناية. لأن عزيز المصري أحد القادة البارزين لثورة تركيا الفتاة. وقد

خدم بامتياز بالجيش التركي. وهو أيضاً ضابط عربي قومي شديد الإيمان بأفكاره، وقد ألف في بداية عام 1914 جمعية سرية أسماها جمعية "العهد"، اشترك فيها عدد من زملائه الضباط العرب في الجيش التركي، هدفهم استقلال العرب، والكفاح من أجل تحقيقه. وإننا ـ لا نحن ولا الأتراك ـ كنا نعرف كثيراً عن هذه الجمعية، كنا نعرف اسمها من خلال معلومات غير مؤكدة، ترددت في ـ أوساط استنبول ودمشق ـ كلا منذ فبراير هذا العام تابعنا اهتمام الحكومة التركية بهذه الجمعية، مما أدى إلى القبض على عزيز المصري، ثم علمنا أن مجلساً عسكرياً شكل لمحاكمته في إبريل. وحكم عليه بالإعدام. ونظراً لنفوذه بين الضباط النشيطين، ونظراً لحقيقة أنه مصري، فإن الحكم لم ينفذ. واكتفي بترحيله إلى وطنه الأصلي مصر، منفياً في حقيقة الأمر.

وبهذه الذهنية استقبلت عزيز المصري اليوم، وقد أراد أن يحدثني عن أهداف جماعته، ولكنه لم يعطني تفاصيل كافية عن جمعية العهد. بقصد استكشاف نوايا الحكومة البريطانية تجاه احتمال قيام دولة عربية مستقلة عن تركيا، وعن كل القوى الأجنبية مع رغبته في إيجاد علاقة خاصة بينهم وبين الحكومة البريطانية في مجال السياسة الخارجية.

إن عزيز المصري عرض أمامي تصوره لحدود الدولة العربية المستقلة، التي يفكر فيها هو ورفاقه. وقد حددها بخط يمتد شمالاً ما بين ميناء الإسكندرونة (جنوب تركيا شمال البحر الأبيض المتوسط) وولاية الموصل، امتداد إلى حدود فارس. هو ورفاقه يعتبرون أن قلب الدولة، وقوتها سوف يكون المثلث ما بين بغداد والحجاز ونجد وسورية.

وهم لا يفكرون الآن في جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن وعسير) لأن هذه المنطقة ممزقة بالصراعات في الوقت الحالي. وغير قادرة على الإسهام في المشروع العربي، كما يفكر عزيز المصري ورفاقه. سألت إن عزيز المصري عمن يكون قائد هذه المجموعة؟. ولم يفصح عن أي جواب.

إن عزيـز المـصري مـتحمس إلى أقـصى حـد لمـشروع الدولـة العـربية المستقلة. وهـو يعتقد أن العرب جميعاً جاهزون للثورة. ويعتقد أيضاً أن غالبية المسيحيين السوريين (في لبـنان) وكـذلك الدروز يؤيدون حركتهم. ولعل عزيز يبالغ في هذه النقطة.

إن عزيـز المـصري تحـدث معـي بـصراحة أن كـل مـا يـريدونه؛ هـو بـيان بريطاني بإعلان حسن النية تجاه الأمة العربية. وبالحياد في تحريكهم للعمل فعلاً في طلـب الحـرية والاسـتقلال. وقد سألته عما إذا كان يريد منا مساعدات عملية إلى جانب التأييد المعنوي.

وكـان تقديـره أن أي مـساعدة نستطيع تقديمها على شكل مساعدات مادية خـصوصاً الـسلاح والـذخيرة سـوف يكـون موضـوع تقديـرهم، وفي هذه الحالة يطلـب توصـيل الأسـلحة وأيـة مساعدات أخرى سراً إلى مكان معين موجود في العـراق، أو أي مكـان آخـر نـتفق علـيه. وفي مقابل ذلك فإن عزيز المصري كان مخـولاً أن يقـول لـي بـأن الدولة العربية المستقلة بعد تأسيسها تتعهد لنا باحترام مـصالحنا في الهـند، وأيـضاً في فـارس، وأن توفر لنا معاملة تجارية تفضيلية من خلال معاهدة مع دولة عربية مستقلة قادرة على النمو بسرعة).(5)

المشروع القومي الذي عرضه عزيز المصري على بريطانيا

مـن خـلال هـذه الوثـيقة الهامـة الـتي عرضـها زعـيم العهـد عزيز المصري للحكـومة الـبريطانية، وهـو المخـول مـن قـبل ضـباط العهد بالتفاوض عنهم مع بريطانيا أن هناك مجموعة من الثوابت لديهم ومنها:

ـ إن قضية الثورة أصبحت هدفاً نهائياً ضد الدولة العثمانية منذ منتصف عام 1914 بعـد فشل كل الأهداف التي طرحتها جمعية العهد وبقية الأحزاب قبل عام أو أشـهر مـنذ مؤتمـر بـاريس، والاتفاق مع الحكومة الاتحادية على تنفيذ بعض بـنوده. والـذي لم يطـرح الانفصال بل المشاركة الحقيقة والإصلاح، وحتى ضباط العهـد طـرحوا في حيـنها مملكـة بـتاجين للترك والعرب على غرار الإمبراطورية

النمساوية.

فقد لمست القوى التحريرية من النخب العربية أن الحكومة غير جادة بما تم الاتفاق عليه، بل اتبعت سياسة التتريك والاضطهاد والسحق القومي العرقي. قرر ضباط العهد من تلك الفترة أن الحل في إقامة دولة عربية مستقلة عن طريق الثورة.

ـ تم تحديد حدود الدولة العربية المنشودة في القسم الآسيوي من الوطن العربي، وفق ما اتفق عليه في الحدود التي سلمها ياسين الهاشمي ورضا الركابي وقادة حزب الفتاة العربية إلى الأمير فيصل في أيار 1915 ليعرضها على والده. ولكن نرى أن تنازلاً جديداً قد طرأ على تلك الحدود بين الحدود الأولى التي سلمت لفيصل وبين ما طرحه عزيز على الدبلوماسي البريطاني راسل، ففي الأولى تنازل عن اليمن وعدن إرضاء لبريطانيا، وفي الثانية تنازل عن اليمن وعسير إرضاء لبريطانيا أيضاً تحت ذريعة أن المنطقة ممزقة بالصراعات.

ـ تأكيد آخر من عزيز المصري إضافة لما حملته مذكرة ضباط العهد والفتاة إلى الشريف حسين عام 1915. بأن الدولة العربية ستكون مستقلة، وما التعاون مع بريطانيا في الجانب السياسي في حال المساندة. وهذا ما يتضمن رفض إعطاء بريطانيا أية امتيازات تؤدي إلى نقص السيادة والاستقلال.

الاتصال الثاني مع بريطانيا

لم يتلق عزيز المصري من الحكومة البريطانية جواباً على ما قدمه لها عن طريق السفارة البريطانية في القاهرة على اقتراح إعلان حسن النوايا للحكومة البريطانية تجاه أماني الأمة العربية في مشروعها القومي بإقامة دولة عربية مستقلة في الجزء الآسيوي من الوطن العربي وحسب ما يتضح لنا:

ـ إن طلب عزيز المصري وضباط العهد من بريطانيا تم في الوقت كانت بريطانيا وحليفتيها روسيا وفرنسا يأملون من ضم تركيا إليهم في الحرب أو

الوقوف على الحياد، فتركيا لم تعلن في ذلك انضمامها إلى جانب ألمانيا والنمسا في الحرب العالمية الأولى.

إن بريطانيا كانت تخشى غضب تركيا عن هذا الإعلان قبل معرفة موقفها النهائي من الحرب، لأن لديها جالية إسلامية كبرى في مستعمراتها في الهند وشرق آسيا متعاطفةً مع الخليفة في تركيا لهذا فهي لا تريد إغضابهم، وهي في حالة حرب بحاجة ماسة لهم فيها.

ـ كما أن بريطانيا في يوم 16 آب 1914 لم تكن تملك المعلومات الكافية عن جمعية العهد وقدرتها العسكرية والتنظيمية، كما أشار راسل في مذكرته لوزارة الخارجية.

ـ إن لبريطانيا وحليفتيها فرنسا وروسيا مخططات استعمارية في الدولة العثمانية وخاصة في المنطقة العربية، والتصريح المطلوب كما اقترحه عزيز المصري بإعلان حسن النوايا والذي يتضمن اعترافاً بدولة عربية مستقلة؛ يتصادم مع تلك المخططات ويتعارض معها، بل قد يتفكك التحالف أو تسود الشكوك بين أطرافه، وهذا ليس من صالحها في بداية الحرب.

رغم عدم الإجابة على الطلب لم ييأس عزيز المصري من كسب بريطانيا إلى جانب المشروع القومي العربي فعاود الاتصال مع السلطات البريطانية في القاهرة، فاتصل بالكولونيل "جلببرت كلايتون رئيس الاستخبارات البريطانية في القاهرة، ورئيس مكتب القاهرة في 24 تشرين الثاني 1914، ووافق كلايتون على مقابلته في نفس اليوم، وبعد انتهاء المقابلة أعد كلايتون مذكرة لحكومته عنها، وأرسلها لها، وقد جاء في تلك المذكرة التالي:

(...بادرت عزيز المصري بك على الفور بسؤال قلت له فيه: هل ينوي العرب تأييد تركيا عندما تدخل الحرب؟. وأضفت "إن ذلك إذا حدث سوف يكون شيئاً تأسف له بريطانيا العظمى، التي تحتفظ بعلاقات ودية مع العرب. وهي لا تريد أن تتأثر هذه العلاقات بأي خطوات عدوانية تقوم بها تركيا". ثم

سـألته مباشـرة أن يقـول لـي رأيه في كيف تستطيع الحكومة البريطانية، أن تؤكد للقادة العرب نواياها الطيبة تجاههم.

إن عزيـز بـك كـان صـريحاً إلى أبعـد الحـدود، وقـال لي: "أنه بدون تنظيم عربـي قادر، فإن الاتجاه العربي العام سوف يكون يميل مع الأقوى أي كان، ولما كانـت تـركيا باحـتلالها لأجـزاء كثيرة من العالم العربي هي الأقوى بالأمر الواقع الناشـئ عـن حكمهـا لمعظـم الـبلاد العـربية، فـإن الميل للأتراك قد يفرض نفسه بالضرورة، خصوصاً إذا ما ساعدت تركيا بإبراز العامل الإسلامي والضغط عليه".

ثـم قـال عزيز بك: "إن الصورة يمكن أن تختلف إذا كان هناك برنامج كامل بتنظـيم ثـورة عـربية عامـة، تـثير همـة وخيال العرب، وتكتل عملهم نحو تحقيق استقلال بلادهم".

وكان رأي عزيز بك "إن العرب يستطيعون تكوين قوة عسكرية لا بأس بها. وأن نـواة هذه القوة يمكن توفرها من الجنود العرب في الجيش التركي، وبالذات الجيش التركي في العراق. ففي أوساط هذا الجيش تسري أفكار الثورة العربية".

وفي تقديـر عزيـز بـك أنـه في شـهور قلـيلة يمكن جمع خمسة عشر ألف جـندي، وتدريـبهم لـيكونوا نـواة جـيش الـثورة العربية، ثم أن هذا الجيش العربي عـندما يقـوم سوف يصبح الركيزة التي تتجمع حولها كل القيادات العربية الدينية أو القبلـية، ثم أضاف عزيز بك "أنهم لا يريدون قوات من الإمبراطورية البريطانية تـدخل بلادهـم للمـساعدة علـى الـثورة ضـد الأتـراك، لأن ذلـك يمكن أن يعطي الانطـباع بـأن بـريطانيا تـسعى إلى ضـم العالم العربي إلى ممتلكاتها، وليس إلى مساعدتهم إلى الاستقلال".

وخـتم كلايتون تقريره عن المقابلة بقوله: "إنني استمعت إلى عزيز بك بكل اهتمام الذي يستحقه رجل في مكانته، ولكنني لم أعده بشيء، لأن تركيا لم تدخل الحـرب بعد. وأي خطوة من جانبنا الآن يمكن أن تتسرب، وتحدث من المشاكل مـا لا نـستطيع تـوقعه. وكـل مـا وعدتـه بـه هـو أن نظل على اتصال حتى تتضح

الأمور).(6)

ويذكر محمد حسنين هيكل أن مكتب الهند علم بالاتصالين الذي أجراهما عزيز المصري مع مكتب القاهرة، وهذا المكتب يرفض رفضاً مطلقاً إقامة دولة عربية مستقلة، بل يرفض أي تعاون أو تشجيع الحركة القومية العربية، لهذا أرسل (بيرسي كوكس) أبرز ضباط مكتب الهند تقريراً استباقياً لمنع التعاون مع القوميين العرب التحرريين، أو أي تشجيع بريطاني للحركة العربية في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر 1914 إلى نائب الملك (هاردنج)، الذي قام بإرساله إلى الحكومة البريطانية في لندن وقد جاء فيه:

(إننا في حكومة الهند لا نرى تشجيع القوميين العرب، أن القوات البريطانية الآن احتلت البصرة، ورفعت العلم البريطاني عليها. ودون مقاومة أو شعور بالعداء من قبل السكان المحليين. بل على العكس فإن هؤلاء السكان نظروا إلينا كأصدقاء وحماة، ولم يعد هناك في إقليم البصرة الآن أي أثر للإدارة التركية.

ولابد أن يكون واضحاً أن الجمعيات السرية العربية لها مثيلات هنا في الهند، وقد قامت الجمعيات الوطنية في الهند بإضرابات إجرامية كما تذكرون في الفترة ما بين 1907 ـ 1909. وكان ردنا عليهم هو إغلاق مقارهم، وحظر العمل المسلح، وقاموا بعدوان على حياة نائب الملك اللورد هاردنج).

وقد رد مكتب القاهرة على تقرير كوكس، وأرسل تقريراً إلى لندن جاء فيه:
"إن قادة الحركة القومية العربية هنا من رأيهم أن نزول القوات البريطانية في البصرة إلى جانب تحركات عسكرية ظاهرة في البحر الأحمر تعطي الانطباع بأن الحكومة البريطانية تطمح لضم أراضيهم إلى ممتلكاتها. وهذا لا يساعد على حشد الرأي العام العربي في الثورة على تركيا)(7).

كان كلا المكتبين الهندي والعربي كما أشرنا سابقاً يملك تكتيكاً خاصاً به لتحقيق الاستراتيجية البريطانية في المنطقة العربية يتباين عن الآخر، وقد بدا يأخذ الرأي والرأي المضاد ما بعد دخول بريطانيا الحرب، ومن ثم انضمام تركيا

إلى الجانب المعادي لها في الحرب، ففي الوقت الذي يرى المكتب العربي أو الأفريقي في القاهرة أن الحركة العربية يمكن استخدامها لخدمة مصالح بريطانيا في الحرب، وضرورة التحالف معها خاصة بعد أن درست إمكانياتها وقدراتها، وتعرفت عن طريق جواسيسها على التذمر العربي من السياسة التركية العنصرية، فإن هذا التحالف يساعد بريطانيا في هزيمة ميسرة لتركيا، ويمكن من خلال تحقيق بعض الأماني القومية للعرب تحقيق استراتيجية بريطانيا في ربط المنطقة بها.

في حين مكتب الهند يجد في القوة العسكرية البريطانية القدرة على تحقيق استراتيجية بريطانيا ومخططاتها الاستعمارية دون الحاجة للتحالف مع الحركة العربية أو تقديم أية تنازلات لها. واستمر المكتب في العمل على إفشال أي تحالف قد جرى بعد ذلك بين مكماهون سفير بريطانيا في القاهرة والشريف حسين.

في حين تمسك مكتب القاهرة بضرورة التعاون مع الحركة العربية، وقد أبرق كلايتون العديد من البرقيات لحكومته يدعوها للتعاون مع الحركة العربية ففي إحدى تلك البرقيات نجده يقول لحكومته: (إذا كان هناك جهد مطلوب ومرغوب منه هنا من جانب الحركة القومية العربية، فإننا نرجو توضيحه، وتزويدنا بالتوجهات محددة بشأنه، إن عزيز بك عنصر مهم جداً، لكنه غير قادر على العمل إذا كنا سنعرقل جهوده وجهود زملائه).

وأمام هذا الإلحاح المستمر تبنت وزارة الخارجية البريطانية وجهة نظر مكتب القاهرة، فأرسل السير (إدوارد جراي) وزير الخارجية البريطانية آنذاك برقية إلى المعتمد البريطاني في مصر السير (هنري مكماهون) جاء فيها: (تستطيع أن تقدم أية تأكيدات تقترحها لعزيز المصري باسم الحكومة البريطانية. إن الحركة العربية لابد من تشجيعها بكل وسيلة ممكنة. ويمكن لعزيز المصري أن يبدأ في تنظيم القوة التي يريدها. وتستطيع أن تضع تحت تصرفه /2000/ جنيه استرليني إذا كنت ترى ذلك مفيداً. ولك أن تطلب منه أن

يظل على اتصال بمكتب القاهرة وبالمعتمد البريطاني. وأن تتعهد له بأننا سوف نساعد الحركة القومية العربية بمقدار ما يبدو تأثيرها)(8).

وبعد هذه الموافقة من قبل الحكومة البريطانية بالتعاون مع الحركة القومية العربية، أخبر كلايتون عزيز المصري بما جاء في برقية وزير الخارجية في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 12914، والتي تضمنت الموافقة، وطلب منه الشروع بالعمل وفق ما دار بينهما من لقاءات سابقة والتي أسفرت عن قبول التعاون، وأبلغه كلايتون ما هي المساعدة التي يمكن أن تقوم بها الحكومة البريطانية له "فكان أول ما طلبه عزيز المصري هو مساعدته في الاتصال بالضباط العرب العاملين في الجيش التركي في العراق، وبواحد منهم بالذات هو في نظره أنشطهم، وهو ضابط شاب اسمه "نوري السعيد")(9).

الفصل الثاني

لماذا نوري السعيد وليس ياسين الهاشمي؟

قد يتبادر إلى ذهن القارئ هذا السؤال، وخاصة أننا أشرنا في الفصول السابقة عن هرب نوري السعيد من الجيش العثماني مع زميله في جمعية العهد عبد الله الدملوجي، وأنهما استطاعا الوصول إلى البصرة، والالتجاء لدى السيد طالب النقيب الذي كان من أكبر زعماء البصرة آنذاك ومتنفذيها وأميرها غير المتوج، كما أنه من أنصار الحركة القومية العربية، أي أن نوري السعيد عندما طلب عزيز المصري الاتصال به لم يكن يملك القوة العسكرية القادرة على القيام بالثورة ضد الترك.

في حين كان الفريق ياسين الهاشمي في وقتها رئيساً لأركان الفرقة الرابعة عشرة في الجيش العثماني المرابطة في دمشق، ولديه علاقات واسعة ومحترمة مع جميع الضباط العرب في الفرق العسكرية سواء من كان منهم في تنظيم العهد أو من خارج تنظيم العهد، كما أن العربية الفتاة قد ضمته كما أشرنا إلى صفوفها ليكون همزة الوصل بين العهد والفتاة، وكان متحمساً للثورة كما بينا في لقاءه مع الأمير فيصل أو في الرسالة التي أرسلها مع رضا الركابي للشريف حسين. كما أن رتبة ياسين تخوله قيادة الثورة والتأثير أكثر من نوري السعيد الذي كان وقتها في رتبة ملازم أول في الجيش العثماني.

والسبب كما يظهر لنا من الوثائق أن عزيز المصري كان أعلم بما يحمل كلاً منهما من توجهات وأفكار وأسلوب عمل متباينة ومتضاربة. فياسين الهاشمي قومي عربي يرفض أية علاقة تعاون مع الدول الأوروبية الاستعمارية، ويتوجس

منها خيفة، لما لديها من مخططات استعمارية للوطن العربي، وهو قارئ جيد لتلك المخططات التي أصبحت فعلاً تشكل مأساة العرب إلى قرون طويلة، وقد كان يرغب أن تقوم ثورة يقودها الشريف حسين أو أحد أنجاله تؤدي إلى إنشاء دولة عربية مستقلة، ولا مانع أن يقوم تعاون بينها وبين بريطانيا على أن تحافظ هذه على استقلالها. وقد بقي ياسين الهاشمي من دعاة الوحدة العربية والاستقلال ويعارض الاتصال مع البريطانيين والفرنسيين بشدة إلى أن توفي عام 1937 في دمشق، على الرغم من أنه تولى عدة مرات رئاسة الوزراء في عهد الملك فيصل في العراق.

من هو نوري السعيد؟

ولد نوري السعيد عام 1888 في بغداد وكان والده سعيد أفندي كاتب المحاسبة في بغداد، تلقى علومه الابتدائية والإعدادية في بغداد، ثم دخل المدرسة الحربية في استنبول في كانون الثاني 1903، وتخرج منها برتبة ملازم ثان سنة 1906، والتحق بالجيش السادس التركي في العراق إلى أن فاز بالامتحان فدخل مدرسة الأركان الحربية في استنبول عام 1911، وهناك تعرف بعزيز المصري، واشترك في حرب البلقان في عامي 1912 و1913 بصفة أركان حرب في إحدى الفيالق التركية، وبعد انتهاء الحرب واصل دروسه في مدرسة الأركان الحربية، وكان من أوائل الذين انضموا إلى جمعية العهد، وتشير بعض المصادر التاريخية أن أسرار ووثائق جمعية العهد سلمت له بعد اعتقال عزيز المصري، لهذا هرب من الجيش بعد اعتقال المصري، وبعد إطلاق سراح المصري ونفيه إلى مصر، هرب مع زميله الدكتور عبد الله الدملوجي إلى مصر لمقابلة عزيز المصري، ومن ثم عادا متخفيان إلى البصرة واحتميا بسيدها آنذاك طالب النقيب، وبقي فيها إلى أن غادرها إلى الحجاز.

لهذا كان عزيز المصري يعرف أن نوري السعيد سيكون ليناً في قضية التعامل مع بريطانيا، فاتفق معه على الاتصال بالبريطانيين خلال تواجد نوري السعيد في مصر، ومن المعروف لدى كل الباحثين أن نوري السعيد من أشد دعاة

التعاون مع بريطانيا والغرب حتى آخر يوم في حياته. حيث قتل على أيدي الجماهير العراقية الغاضبة من هذه العلاقات في اليوم الثالث لقيام ثورة 14 تموز 1958 وسحلته في شوارع بغداد غضباً من هذا الولاء لبريطانيا والحب الشديد لها، مع العلم أن بعض الوثائق لم تؤكد عمالته لها، قالت أنه كان مخلصاً لفكرة القومية العربية والوحدة العربية ولكن وفق منظور مختلف مع القوميين الآخرين وهذا ما سوف نبينه في الفصول القادمة أو الجزء الثاني من هذا الكتاب.

نوري السعيد وبيرسي كوكس

بعد أن وافقت الحكومة البريطانية على التعاون مع عزيز المصري بتهيئة مناخ للثورة ضد الدولة العثمانية، وبعد أن طلب عزيز من البريطانيين الاتصال مع نوري السعيد الذي كان مختفياً في البصرة كما أشرنا، ومع احتلال البصرة أصبح الحاكم عليها السير بيرسي كوكس وهو من الضباط الأكثر تأثيراً في مكتب الهند، وبناء على طلب عزيز المصري طلبت الحكومة البريطانية من بيرسي كوكس وهو المعروف بعدائه للحركة العربية، أو فكرة دعم ثورة عربية الاتصال بنوري السعيد المختفي لدى طالب النقيب في البصرة، وفعلاً أرسل كوكس إلى طالب النقيب يطلب منه إمكانية اللقاء مع نوري السعيد لإجراء محادثات معه وفعلاً تم اللقاء بين كوكس ونوري السعيد في البصرة، وبعد هذا اللقاء رفع كوكس تقريراً جاء فيه:

(قابلت نوري السعيد.. وكان ضابطاً حالماً. له مليون اشتراكية. إنه شاب في حوالي الخامسة والعشرين عاماً من العمر. وهو يعاني من مرض في الصدر. وبدا لي أوربياً في مظهره. وقد حدثني عن المشروع العربي، الذي يشارك فيه هو ورفاق له أبرزهم عزيز المصري الذي تعرفونه من القاهرة. وقال أن هدفهم هو تحقيق أهداف الأمة العربية بصفة عامة. وأبدى لي موافقته على قيامنا باحتلال البصرة، إذا كان بداية لتشجيع عمل عربي يحقق تحرير العرب، الذين يريدون أن يحتفظوا بعلاقات ودية معنا.

وقـال لـي: أنـه يستطيع أن يساعد في سحب الضباط العرب الذين يخدمون في جـيش جاويـد باشـا" والـي بغداد". كما أنه يستطيع مع عدد منهم أن يحصلوا علـى ولاء كـثيرين من قادة القبائل في وادي الفرات للتعاون معهم. وأنه بالتنسيق بـين ضـباط وشـيوخ القبائل فإن قيادة الثورة العربية سوف تستطيع أن تشد أحلام الشعوب العربية الراغبة في الاستقلال.

ومـن جـانبي فـإنني أنظـر إلى هذه الأفكار والمشروعات بشك كبير، وأراها خيالـية وغـير عملـية. ولـست أعتقد أنه سيكون في استطاعة الضباط والشيوخ أن يتعاونوا معنا. إن احتلالنا للبصرة هو مقدمة لتحرير العرب جموح خيال سقيم، فـنحن نـزلنا هـناك لـتأمين الهـند، وهـذا يتأتـى بـضم العراق إلى ممتلكات التاج البريطاني.

وبـصفة عامة فإنني أخشى من كل هذا المشروع العربي. أقترح عليكم حتى تتجلـى الأمـور تجمـيد مـشروعات عزيـز المـصري ورفاقه. ومنعه إذا أمكن من مغادرة مصر).(10)

واستطاع مكـتب الهـند أن يفـشل محاولة ثورة يقوم بها العسكريون العرب في الجـيش العثمانـي ضـد الاسـتبداد القومـي التركـي، ويحققـوا المـشروع القومـي في اسـتقلال ووحـدة المـشرق العربي. فكان رد وزير الخارجية البريطاني على اقتراحات رئـيس مكـتب القاهـرة كلايـتون بالـتعاون مـع عزيـز المـصري بتفجير ثورة يقودها الـضباط العـرب ببرقية جاء فيها: (في الوقت الحاضر، وحتى صدور تعليمات أخرى، يجب الامتناع عن إعطاء أي تشجيع محدد لعزيز المصري)(11).

عـندما تم إبلاغ عزيز المصري مضمون برقية وزير الخارجية البريطاني من قـبل رئـيس مكـتب القاهـرة، أدرك أن بـريطانيا بعـيدة عن الوصول إلى اتفاق مع الحـركة العـربية في مشروعها القومي لإقامة دولة عربية في المشرق العربي، وإن لهـا مخططاتها الاستعمارية للمنطقة أشد خطورة من الاتحاديين، لهذا وجه رسالة إلى ضـباط جمعـية العهـد بعـد دخـول تركيا الحرب، دعاهم إلى عدم القيام بأي

عمل يضر الجيش التركي في الحرب، بل ذهب إلى دعوتهم إلى اتخاذ الحذر من المخططات الأجنبية ضد العرب والترك معاً. ونبه قادة العهد في حال تم الاتفاق مع بريطانيا عليهم أخذ المواثيق الملزمة التي تقر وتعترف باستقلال العرب، وتكون الدولة العربية مبنية على أسس المشروع القومي الذي يتبناه العهد.

أما لماذا أفشل مكتب الهند ثورة الضباط؟

ـ شعر مكتب الهند مدى خطورة ما طرحه نوري السعيد من أفكار لم يسمعوها من قبل زعماء وأمراء المنطقة، على مخططاتهم الاستعمارية في الخليج والعراق وبلاد الشام، فهم يسمعون لأول مرة رأي مثقف عربي يفهم ما يريد ولديه مشروع قومي يتبناه تنظيم كبير في صفوف الجيش العثماني.

ـ التباين بين أهداف وزارة الهند التي يتبع لها المكتب وبين الأهداف التي يطرحها نوري السعيد، فهي تريد أن تمد هيمنتها على الخليج والعراق، والعمل على ما سمي آنذاك سياسة (تهنيد) الخليج والعراق إدارياً ومالياً وتشريعاً، وهذا ما أشار به كوكس أن الهدف الاستراتيجي هو تأمين الهند، ولأجل هذا التأمين تم ضم العراق إلى ممتلكات الإمبراطورية البريطانية إضافة إلى الخليج، وعزلوهما عن محيطيهما العربي، وهذا ما قامت به ما بين 1914 ـ 1921 حين كان العراق يتبع نائب الملك في الهند، وسوف نستعرضه في الفصول القادمة.

ـ محاولة الإيحاء للحكومة البريطانية أن هؤلاء الضباط يحملون أفكاراً اشتراكية تتنافى وتتعارض مع السياسة البريطانية، بل تعتبر تلك الأفكار في ذلك الوقت من المحرمات. وهذا طبعاً كذب، فلم يحارب أحد زعماء العرب الاشتراكيين والفكر الاشتراكي مدة ستة وأربعين عاماً من 1922 ـ 1958 مثل نوري السعيد وهو على رأس السلطة في العراق وسياسيها الأول.

ـ كانت الخطورة التي شعرها كوكس وسجلها في كتابه للحكومة البريطانية ما قاله نوري السعيد له الهدف تحقيق مشروع قومي وبناء دولة عربية مستقلة أي أن هؤلاء لديهم مشروع حضاري تقدمي للمنطقة يتصادم ويعادي المشروع

البريطاني الاستعماري.

ـ استخفاف مكتب الهند بالمشروع القومي العربي وأداته من العسكريين العرب، وقد وصفه كوكس بأنه خيالي مريض (جماح خيال سقيم)، وهذا التصور الذي كان يراه ضباط مكتب الهند في حملة المشروع القومي بالحالمين، ولم يكن كوكس وحده في هذه الرؤيا فهي بقيت لدى كل المتضررين من مشروع الدولة العربية داخلياً وخارجياً وحتى يومنا من يتبنى ما قاله كوكس في بداية عام 1915.

ـ من الملاحظ أن بريطانيا رفضت التعاون من أجل الثورة والتغيير مع النخب العربية المثقفة الواعية والمدنية، ولكن راهنت واستمرت في تبني زعماء وأوامر العشائر والمؤسسات الدينية في صراعها مع الدولة العثمانية، ولم تعر أي اهتمام بالأحزاب والجمعيات العربية التي كانت وحدها تصارع الاستبداد والقهر الاتحادي، وكان لها من التشكيلات الحزبية الكبيرة والقادرة على التغيير في حال وجدت المساندة البريطانية. فلم نلحظ مساندة فعلية أو إجراء مباحثات جدية مع زعماء الفتاة العربية أو اللامركزية والتي كان قادتها في القاهرة. والوثائق والمصادر تشير إلى دعم مالي وعسكري كبير تم لزعماء وأمراء القبائل لتحريضهم على الثورة ضد الترك، وحُيدت وأبعدت القوى الواعية من الحركة العربية عن أي مساندة أو مساعدة، والسبب أن هذه القوى النخبوية كانت حينها أكثر وعياً لخطورة مخططات بريطانيا أو فرنسا أو غيرها من الدول الاستعمارية الأوروبية على الأرض العربية، لهذا ستكون أية مفاوضات مع تلك النخب التي قدمت قادتها على مذبح الحرية على يد جمال السفاح لا تقدم فيها تنازلاً عن الاستقلال أو السيادة، إنما تعاون يقوم على احترام مصالح الطرفين، ومن هنا كانت تجري بريطانيا مع قوى لا ترى سوى مصالحها الضيقة، وتتغافل عن مشروع الأمة العربية الواحدة والاستقلال الحقيقي.

ـ والدليل على خشية كوكس ومكتب الهند ووزارة الهند من النخبة المثقفة، رفض كوكس في لقاء له مع لورنس اقتراحاً لفكرة طرحها لورنس بأن يرسل إلى

البصرة عزيز المصري ومحمد شريف الفاروقي للقيام بمهمة التأثير على العسكريين العرب في الجيش العثماني وتحريضهم على الثورة ضد الترك.

وكان الرفض بحجة (أن لديهم أفكاراً تقدمية كبيرة)(12) ويتبين للقارئ أن مجموعة مكتب الهند كانت ترفض وتتخوف من النخبة العربية المثقفة كما أشرنا.

بريطانيا تتصل بالزعماء العرب للثورة

تشير بعض المصادر التاريخية إلى أن بريطانيا كانت تسعى منذ منتصف عام 1915 للاتصال بكل جهة عربية على حدة وتحاول إغراءها بالثورة والمساندة، بحيث تضع الجميع في كفها، ولكن بصفة فرادى مع إبقاء حالة التناحر والتنافس على الزعامة والرئاسة بين المجموعات العربية، فهي أولاً تستطيع أن تفرض ما تريد من شروط دون أن تفرض عليها شروطاً تؤدي إلى التنازل عن بعض مخططاتها ومصالحها أو حلفائها وخاصة فرنسا، والتي لم تعد خافية على مراقب سياسي في تلك المرحلة الهامة من تاريخ المشرق العربي.

في هذه المرحلة التاريخية الهامة تظهر الوثائق التاريخية أن ترددأً وحذراً شديداً من قبل بريطانيا في الاتصال بالعسكريين العرب من أعضاء جمعيتي العهد والفتاة، ولكنها تجري اتصالات مع الشريف حسين من أجل الثورة، كما إنها تتصل بالإمام يحيى حميد الدين في اليمن في نفس الهدف، ومع الملك عبد العزيز آل سعود في نجد للقيام بالثورة.

أما الاتصال بالشريف كانت هناك مباحثات تمت في القاهرة وهذا ما سوف نستطلعه في الفصول القادمة. أما مع الإمام يحيى حميد الدين وعبد العزيز آل سعود فكان على الشكل التالي:

كشف تقرير ورد إلى وكالة القيادة العامة من شعبة (التشكيلات الخاصة) الموكلة بشؤون الجاسوسية في القاهرة مؤرخ في 7/ 6/ 1915 حول خطه

لتفجير ثورة في اليمن، وذلك من خلال اتصال قام به المأجور ج. س. جاكوب مع الإمام يحيى لإعلان الثورة على تركيان، ويسلم المندوب التركي وجنوده إلى البريطانيين، مقابل الاعتراف البريطاني باستقلال اليمن. فكان أن رد الإمام يحيى بكتاب بالغ الأهمية ليس فقط بما تضمنه من الرفض على المقترحات البريطانية، بل على ما جاء فيه من القيم والأمانة والوعي السياسي لدى الإمام. وهذا نص الكتاب الذي أرسله إلى الإمام الضابط البريطاني جاكوب:

بسم الله الرحمن الرحيم

من الإمام يحيى حميد الدين إلى الضابط جاكوب

سلام الله عليك وعلى المؤمنين جميعاً. وبعد

فقد تلقينا كتابكم الذي تعرضون علينا فيه رغبة حكومة جلالة ملك الإنكليز بالاعتراف باستقلال بلادنا التام، على شرط أن نسلمها المندوب التركي وجنوده.

فجواباً عيه أقول أن البلاد اليمانية بحمد الله تعالى حائزة على استقلالها التام، وهي ليست بحاجة في الوقت الحاضر على اعتراف حكومة جلالة ملك بريطانيا باستقلالها، ما دامت هذه الحكومة معلنة العداء على حكومة صاب الجلالة الخليفة المعظم، فعلى مثل هذا لا يمكن أن تقدم عليه حكومتنا، ووالي اليمن محمود نديم بك وقائدها محي الدين باشا اللذان يمثلان صاحب جلالة الخليفة، هما صاحبا الكلمة العليا في البلاد، وقد استشرتهما بالأمر، فأشارا بوجوب عدم الرد على مذكرتكم، إلا أنه عملاً بالقواعد التي سرنا عليها رأينا أن نجيبكم بأن الله أمرنا بالجهاد في سبيل نصرة الخليفة والدين الإسلامي، فمن كان عدواً لهما عاديناه، ومن سالمهما سالمناه والسلام. الإمام يحيى حميد الدين(13)

كان رد الإمام مزعجاً للقيادة البريطانية، فقررت الرد بتحريض القبائل عليه وإرسال العتاد الحربي لهم، ووضعت على باب المندب قاعدة عسكرية بحرية

مـزودة بـثلاث قطع بحرية لتشديد الحصار عليه من جهة البحر الأحمر، وعززت تـواجدها الحربـي في عـدن، ودعم المشايخ التسعة الذين أعلنوا عن عقد معاهدة حمايـة مع بريطانيا في عدن وحضرموت، وجهزتهم بالعتاد والسلاح، وخصصت لهم مبلغ 25 ألف ليرة إنكليزية مشاهرة.

كمـا تم اتـصال بريطانـي مـع الملك عبد العزيز آل سعود بواسطة وفد ضم ضـابطين بريطانيين فيلبي وأدمس يرافقهم طالب باشا النقيب زعيم البصرة والتقوا الملـك في الـرياض، وتـشير الوثائـق أن الـوفد عـرض علـى الملـك عـبد العزيز العروض التالية:

- بأن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد النجدية استقلالاً تاماً.

- إن تقـدم بـريطانيا لـه مـساعدة مالـية مقدارها مائة ألف ليرة إنكليزية في بادئ الأمر.

- تقدم بريطانيا عشرة آلاف بندقية والعتاد الحربي اللازم له، ومساعدته عند الحاجة بما يلزمه من عتاد للقضاء على سلطة أعدائه آل الرشيد.

- الاعتراف بحقوقه في ميناء الكويت كمرفأ لبلاد نجد دون أن يدفع رسماً.

- أن تجهز الحكومة البريطانية البلاد النجدية بما يلزمها من مأكول وغيره.

وقـد قـبل الملـك عـبد العزيـز مبدئياً بالمفاوضات مع الإنكليز، بعد اشترط عليهم ما يلي:

أولاً- الاعتراف بأن الكويت تظل ميناء حراً للبلاد النجدية.

ثانياً- الاعتراف باستقلال نجد التام.

ثالثاً- أن لا يطلـب مـن نجـد الاشتراك في الحرب الحاضرة فعلياً ضد الحكومة العثمانية.

رابعاً- عدم تدخل بريطانيا في شؤون نجد الداخلية.

خامساً- في حـال وقـوع خـلاف بـين حكـومة نجـد وإحـدى الإمـارات العـربية

المجاورة لها أو الكائنة داخل منطقة نفوذها، لا تتدخل الحكومة البريطانية بينها ولا تناصر عدوها عليها.

سادساً- أن تتعهد الحكومة البريطانية بأن لا تطالب نجد بالسلفات التي تقدمها لها وبثمن البنادق والعتاد الحربي

سابعاً- مقابل ذلك يتعهد عبد العزيز آل سعود:

(أ) بأن يعقد معاهدة مع الحكومة البريطانية يعتبر بموجبها الدولة البريطانية حليفة وصديقة له.

(ب) أن لا يقدم على عرقلة مساعيها في جزيرة العرب التي لا تتنافى مع حريته واستقلال بلاده.

(ت) أن يساعد الحكومة البريطانية بما يلزمها من المواد الغذائية وبالثمن الدارج شرط أن لا يتعدى الأمر الحد الذي يلزم البلاد من هذه المواد.

(ث) أن تقدم الحكومة النجدية إلى بريطانيا حق الاستفادة من موانيها طوال الحرب الحاضرة على شرط أن لا يؤدي هذا الأمر إلى الإضرار بمصالح نجد أو يؤدي فعلاً لإجبارها على خوض الحرب الحاضرة.

وقد قبلت هذه الشروط وتم إرسال تعليمات إلى الجنرال كلايتون بالذهاب إلى أبعد مدى لمفاوضات ابن سعود وعقد المعاهدة معه، وإبرام الاتفاق السري على هذا الأساس(14).

كما عملت القيادة البريطانية المحتلة للبصرة على تحريض الشعب العراقي في بلاد الرافدين على النهوض والثورة ضد الترك، وذلك بالاتفاق والتعاون مع طالب باشا النقيب، فقد حملت الطائرات البريطانية منشوراً موقعاً من طالب النقيب بتاريخ 8 آذار 1915 يدعوا ما أسماه الأمة العراقية على الثورة ضد القوات التركية التي تسومهم العسف والجور كما جاء في المنشور، ووعدهم أن الإنكليز سيدعمونهم مباشرة بعد قيامهم بالثورة(15).

الفصل الثالث

الضابط محمد شريف الفاروقي والاتصال بالبريطانيين

ترافق مع بداية الاتصالات بين الشريف حسين والحكومة البريطانية في أيلول من عام 1915 ظهور الضابط محمد شريف الفاروقي وهو من ضباط جمعية العهد في القاهرة، وقيامه بمباحثات مكتب القاهرة من أجل قيام ثورة عربية ضد الدولة العثمانية، وقد لعبت محادثاته أثراً كبيراً في تحول الحكومة البريطانية في تعاونها ومساندتها لمشروع الثورة ولكن ليس مع العسكريين العرب، إنما مع الشريف حسين وإبقاء الرهان على أمراء وزعماء ورجال القبائل والمؤسسات الدينية.

كانت السنوات الثلاث من 1914 إلى عام 1916 سنوات المخاض للأمة العربية الباحثة عن الخلاص من الاستبداد والتخلف الذي كانت تعيشه في ظل الحكم العثماني الذي بلغ أوجه في التطهير العرقي للاتحادين، وتناضل من أجل وجودها وتحقيق مشروعها القومي بإقامة دولة عربية مستقلة، ولهذا تم الاتصال ببريطانيا لتستفيد الحركة من مساندتها وخاصة أن العدو أصبح مشتركاً في الحرب العالمية، لهذا وجدنا محاولات عزيز المصري ونوري السعيد ومن ثم الشريف حسين لبناء تحالف عربي بريطاني يحقق هذا المشروع ومن هنا جاءت المحاولة الأخرى من الضابط محمد شريف الفاروقي التي كان لها الأثر في إنجاز التحالف بين الشريف حسين وبريطانيا.

أثناء المعارك الدائرة على جبهة الدردنيل فر الملازم الأول محمد شريف الفاروقي من الجبهة التركية في منطقة غاليبولي في 3 أيلول 1915 إلى الجبهة

البريطانية مخترقاً خطوط القتال، وسلم نفسه إلى القوات البريطانية مدعياً أنه جاء ضيفاً عليهم لا أسيراً، وأنه يحمل معلومات هامة، يريد أن يدلي بها إلى مكتب الاستخبارات في القاهرة. وتم نقله إلى القاهرة بعد ذلك.

ومحمد شريف الفاروقي ولد في الموصل عام 1981 من أسرة عربية غنية، درس في الكلية العسكرية في استنبول، وانتمي إلى جمعية العهد السرية، وكان قومياً عربياً متحمساً لأهداف العهد، وقد تعرض للاعتقال من قبل الاستخبارات التركية أثناء وجود وحدته العسكرية في حلب، وخضع للاستجواب والتحقيق في إحدى مراكزها حول أفكاره القومية التي كان يحدث بها زملائه، وعن التنظيمات العربية السرية، وعندما لم تحصل منه على شيء؛ تم نقله إلى من حلب إلى جبهة القتال في غاليبولي.

وحين وصل إلى القاهرة في 12 أيلول 1915 تم التحقيق معه من قبل ضباط المخابرات البريطانية برئاسة الكولونيل كلايتون رئيس جهاز الاستخبارات البريطانية ورئيس مكتب القاهرة، وقدم نفسه لكلايتون بأنه مبعوث من ضباط العهد للتفاوض مع بريطانيا حول المشروع القومي الذي يناضل من أجله الضباط العرب في العهد.

اختلف المؤرخون حول ما ادعاه الفاروقي على الحركة العربية، وعلى مفاوضات الشريف حسين مع بريطانيا، فمنهم من اعتبر تلك الادعاءات ذات أثر إيجابي في دفع بريطانيا لاتخاذ القرار الحاسم في مساندة الثورة العربية والتعاون مع الشريف حسين، وإنهاء حالة التردد والشك التي رأيناها في مواقف الحكومة البريطانية لما كان يصلها من تضارب في الآراء بين مكتبي القاهرة والهند.

ومنهم من رأى أنها كان لها الأثر السلبي على المحادثات مع الشريف حسين، وأعطت بريطانيا فرصة في عدم إلزامها بشكل واضح بالاعتراف بالدولة العربية المقترحة وحدودها واستقلالها وشكل نظامها السياسي، وأنها كانت سبباً في خسارة القوميين العرب والشريف حسين أيضاً من الضغط على بريطانيا في

تقديم تنازلات لصالح العرب في ظرف كانت بأمس الحاجة إليهم في حربها مع تركيا والقوات الألمانية المتواجدة في بلاد الشام.

ورأى آخرون أن الفاروقي والشريف معاً قدما تنازلات خطيرة بحق القضية العربية لصالح البريطانيين، وأنهما أضاعا فرصة الحرب التي كانت فيها بريطانيا تبحث عن عنصر داخلي في الدولة العثمانية يتحالف معها ضد الترك، وكانا قادرين على أن يحصلا على تنازلات ملزمة من بريطانيا لصالح القضية العربية ومشروعها في دولة واحدة مستقلة.

آراء منها ما قد يكون مصيباً أو فيه الكثير من الخطأ. فلا يمكن أن تسقط الزمن الحالي وظروفه السياسية والاجتماعية الداخلية والخارجية على حدث زمني زاد على عمره على تسعين عاماً. فلكل زمن معطياته وظروفه، وقد قدمنا في الفصول السابقة حالة الأمة العربية ونخبها السياسية وقدراتهم، وما كانت عليه السياسة البريطانية آنذاك وما كانت تحمل من مكر ودهاء من أجل تحقيق مصالحها، وهي دخلت الحرب من أجل مصالحها وضحت بجنودها من أجلها، لهذا لم تبت بالقضية العربية واستخدامها كورقة إلا وفق منظور المصالح، والمصالح فقط، لهذا نأت بنفسها عن التعاون مع النخب العسكرية والمدنية العربية الواعية وحاولت إضعافها وتهميشها بإلحاقها تابعة لزعماء العشائر وأمرائها، وإن تبقى ذيليه لتلك الزعامات، لعلمها الأكيد أن هذه النخب الواعية أشد إدراكاً لقضايا أمتها ومستقبلها؛ من تلك الزعامات يجهل معظمها القراءة والكتابة، بل كرست السياسة البريطانية منذ بداية القرن لتلك الزعامات القيادة من خلال الدعم المادي ما بلغ مئات الألوف من الجنيهات الذهبية، وأسلحة متطورة بقيادة ضباط بريطانيين مستشارين لتلك الزعامات، في الوقت الذي ضربت جانباً وبعرض الحائط مد يد العون إلى النخب العربية المثقفة والواعية، وإلى تنظيماتها السياسية السرية منها أو العلنية.

لهذا لا يمكن لتلك القيادات العشائرية والدينية في تلك المرحلة أن تصل إلى أحسن بما توصلت إليه مع الحكومة البريطانية وخاصة فيما عرف من بعد

مراسلات حسين ـ مكماهون التي أجري عليها الكثير من النقد والتجريح وكأن الشريف حسين وفيصل وعبد الله كانوا قادرين أن يحصلوا من بريطانيا على أكثر مما حصلوا عليه ولم يقدموا عليه. فالتقييم الموضوعي يجري في قراءة الحدث وفق معطيات زمنه وظروفه وتكوناته الداخلية والخارجية.

نعود إلى قضية الملازم الأول محمد شريف الفاروقي الذي كانت حواراته ومناقشاته لها الأثر الأكبر في قرار الحكومة البريطانية بالاتفاق مع الشريف حسين على الثورة ومساعدتها، علماً أن الفاروقي أصبح مندوباً للشريف حسين في القاهرة، ثم أعفاه الشريف عام 1917، وعاد إلى بغداد حيث اغتيل هناك عام 1920.

مذكرة كلايتون عن إفادة محمد شريف الفاروقي

أهم الوثائق التي تطلعناعما دار من تحقيق وحوار ومباحثات مع محمد شريف الفاروقي ومكتب القاهرة الاستخباراتي البريطاني، نجدها في المذكرة التي رفعها كلايتون إلى الحكومة البريطانية التي تضمنت إفادة الفاروقي، ولخطورة ما جاء في المذكرة من معلومات وحتى نصل نحن والقارئ إلى حقيقة ما دار بين الفاروقي وكلايتون، لابد من مقارنتها مع الملاحظات المكتوبة للسيد نعوم شقير أحد كبار موظفي الحكومة المصرية، والذي وضعت الحكومة البريطانية الفاروقي تحت إشرافه حتى تتضح الصورة وحقيقة ما دار من مباحثات.

حيث سيجد القارئ تبايناً في نصوص المعلومات التي قيل أن الفاروقي أدلى بها بين ما كتبه كلايتون وما دونه نعوم شقير عن المعلومات. فكلايتون يتحدث عن تنازلات خطيرة قدمها محمد شريف الفاروقي للبريطانيين، وأبرزها التنازل عن السيادة والاستقلال التي هي محور نضال الحركة العربية منذ صراعها مع الاتحاديين، وقدمت من أجلها خيرة مناضليها على مشانق جمال باشا في ساحات دمشق وبيروت وفي ميادين القتال على الجبهات التركية حيث أعدم

العشرات أو المئات من الضباط والجنود العرب من أجلها.

تضمنت المذكرة التي رفعها الجنرال كلايتون إلى وزير الحربية البريطاني والمؤرخة في 11 تشرين الأول / أكتوبر 1915 محادثاته مع الفاروقي وقال فيها: إن الفاروقي حدثه عن جمعيتي العهد والفتاة، وإن أعضاء الجمعيتين أقسموا على أنهم سوف يحققون هدفهم، وينشئوا خلافة عربية في شبه الجزيرة العربية وسورية والعراق مهما كلف الثمن، وتحت أية ظروف.

وأنهم سيضحون من أجل هذا المشروع الأنفس والمال وكل ما يملكون.. وأن الفاروقي بين له أن الجمعية العربية الفتاة ذات قوة كبيرة، ونفوذ عظيم في جميع أنحاء الأقطار العثمانية. وأن الأتراك والألمان لم يستطيعوا أن يوقفوا نشاط الجناح العسكري (العهد) رغم عداء العهد لهما.

وذكر أن الفاروقي قال أن أعضاء الجمعية قرروا أنهم لا يستطيعون التريث أكثر مما تريثوا، ولذلك عقدوا العزم على أن يعرضوا على إنكلترا تعاونهم الفعال؛ مقابل أن تتعهد إنكلترا بمعاضدتهم في مسعاهم لتحقيق الاستقلال.

ولكن الفاروقي لم يلتزم بطلب الاستقلال التام. فقال: إن أعضاء الجمعية يطلبون أن تساعدهم إنكلترا كي يحصلوا على قدر معقول من الاستقلال، والحكم الذاتي في تلك الأقطار العربية، التي تستطيع إنكلترا الادعاء بأن مصالحها فيها أعظم من مصالح حلفائها.

ولن يرضيهم استقلال شبه الجزيرة العربية وحدها، ولكن من المحتمل أن ينال رضاهم أن يحصل العراق وفلسطين على الحكم الذاتي تحت إرشاد وسيطرة إنكلترا، أما بشأن سورية فإن أعضاء الجمعية يعرفون مطامع فرنسا فيها. ولكن السكان المسلمين سيقاومون بشدة احتلالاً فرنسياً، وأنهم سيطلبون وساطة إنكلترا في الحصول على أفضل الشروط، ومن المؤكد أن يتشددوا في أن تكون دمشق وحلب وحماه وحمص داخلة في الاتحاد العربي.

وأن الفاروقي قال: "إن مشروعنا يضم الأقطار العربية ومن جملتها سورية

والعراق، ولكن إذا لم نستطيع الحصول على الكل. فإننا نريد الحصول على أكثر ما يمكننا الحصول عليه".

وبين الفاروقي ميل العرب للإنكليز، وثقتهم بهم أكثر من ثقتهم بالألمان والأتراك. وقال الفاروقي: "إن تركيا وألمانيا تدركان الوضع تماماً، وقد فاتحتا فعلاً زعماء الجمعية العربية الفتاة، بل ذهبتا إلى حد إعطائهم وعداً بتلبية كافة مطالبهم". وقال: إلا أن الجمعية تميل ميلاً قوياً إلى إنكلترا. التي تعتبرها الدولة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها.. إننا نفضل أن نحصل على وعد من إنكلترا بنصف ما تعدنا به تركيا وألمانيا.. إننا سوف نقبل شروطاً معقولة من إنكلترا، ولكننا لن نرضى من أية دولة أخرى إلا القبول ببرنامجنا كاملاً.

أما إذا أصمت إنكلترا أسماعها عن المطالب العربية، فإن العرب لا يستطيعون البقاء على الحياد، وسيرمون بثقلهم إلى جانب تركيا وألمانيا؛ ليؤمنوا أفضل الشروط التي يمكن تأمينها".

وحول ما اقترح وطرح الفاروقي رأى كلايتون على وزير الحربية البريطاني: "إن جواباً مرضياً على المقترحات العربية، حتى ولو لم تلب كافة مطامحهم، سيؤدي إلى الأرجح إلى كسب صداقتهم. إن القادة ذوي النفوذ متعلقون ومستعدون لقبول مشروع أقل طموحاً بكثير من ذلك الذي وضعوه.

ومن جهة أخرى فإن رفض المطالب العربية برمتها، أو حتى السعي للتهرب من الموضوع، سيؤدي إلى ارتماء حزب العربية الفتاة في أحضان العدو، وسوف تستخدم أجهزتهم على الفور ضدنا في جميع الأقطار العربية.. مما سيؤدي حتماً إلى نتائج بعيدة الأثر.. وفي ظل الأزمة الراهنة. سيكون بمثابة كارثة".

وأكد كلايتون لوزير الحربية أيضاً ضرورة حصول بريطانيا على صداقة الرأي العام الإسلامي. وأكد أن الجهاد "الذي أعلنته الحكومة التركية في بداية الحرب للعالم الإسلامي للوقوف ضد الحلفاء". فشل نتيجة موقف العرب السلبي منه.

وقـال إن مقترحـات الـشريف تـشبه مقترحات الفاروقي، وإن الجواب التملصي الـذي وصـله أثـار الـشكوك في ذهـنه. فـرد علـيه بسرعة غير عادية معبراً عن دهشته لـتردد الـسلطات الـبريطانية في بحـث مـسألة الحـدود: "لـيس من شك في أن موقف الـشريف هـو موقف أكثرية الشعوب العربية". وأكد على ضرورة إعطاء جواب ملائم للأمانـي العربية، والمقترحات المقدمة لأنه يضمن الصداقة على الأقل مع العرب. وأن جمعيته العـربية الفـتاة سـوف تعمل على توسيع عمليات الشريف في الحجاز، حتى تمتد على سورية وفلسطين وإلى بغداد والموصل)(16).

إفادة محمد شريف الفاورقي لرئيس الاستخبارات البريطانية في القاهرة كلايتون

كـان ذلـك مـا جاء في مذكرة كلايتون لوزير الحربية البريطاني وفق الرواية البريطانية، أما إفادته كما نقلت عن نعوم شقير في 12 أيلول/ سبتمبر 1915 فهي كالتالي:

تـبدأ الإفـادة في مقدمـة تـتحدث عـن سـيرة حـياة المـلازم محمـد شـريف الفاروقـي، وانـضمامه لجمعـية العهد، ثم إلى الجمعية العربية الفتاة في دمشق في أوائـل عـام 1915، واعـتقاله في حلب من قبل المخابرات التركية، والتحقيق معه بـشأن التنظـيمات العـربية الـسرية، ومـن ثـم فـراره من الجبهة التركية إلى الجبهة الـبريطانية مدعـياً تمثـيله لجمعـيتي العهـد والفـتاة، وأشار إلى تأثير التصريحات البريطانية حول مساندة العرب ضد الترك.

وأن رفاقـه أشـاعوا في الوسـط العربـي "إن الإنكليـز أصـدقاؤنا وعـضدنا للحـصول علـى استقلالنا. وإنـنا علـى استعداد أن نعطيهم مقابل مساعدتهم كل الامتـيازات التي لا تمس موارد بلادنا الأساسية واستقلالنا". وأن هدفهم "الاستقلال الكامـل"، وأنـه عند انضمام (العهد إلى الفتاة) تبين "أن الجمعية العربية الفتاة سبق وأن قـدمت الـولاء لـشريف مكـة، واعتـبروه خلـيفة، نابـذين الولاء لرشاد سلطان تـركيا. لـذلك كـان أول عمـل لـنا بعـد الانـضمام إلى تلـك الجمعية، أننا أرسلنا

ضابطاً إلى شريف مكة، وقدم له الولاء نيابة عن جميع ضباط جمعيتنا. ونبذنا الولاء لرشاد".

وقال إنهم علموا عندئذ أن الإنكليز وافقوا على أن يؤسس الشريف إمبراطورية عربية دون تعيين حدودها، فاقترح أعضاء الجمعيتين في دمشق أن يكون خط مرسين ـ ديار بكر الحد الشمالي للإمبراطورية الشريف.

وإن سبب فراره هو نقل الفرقة الخامسة والعشرين ذات الأكثرية العربية إلى استنبول بعد فشل جمال باشا في قتاله في قناة السويس. وعند وصولها حلب خطب الضابط عز الدين السروجي في الشارع العام أمام الجنود طالباً إليهم أن يعودوا إلى بيوتهم، وأن لا يحاربوا من أجل الترك الظالمين. وأن الترك قاموا باعتقالات واسعة للضباط العرب وإجراء التحقيقات معهم. فاتفق الضباط فيما بينهم أن يحاول كل واحد منهم الفرار إلى شريف مكة في أول فرصة.

وحول مستقبل العلاقات بين الدولة العربية المستقبلية وبريطانيا. قال الفاروقي: (إن الحكومة العربية المقبلة، تقوم على أسس قومية، وليس على أساس الدين... وأننا نعتمد أيضاً على كلمة الشرف التي أعطتها بريطانيا العظمى للعالم، بأنها تحب العرب وسوف تساعدهم لنزع نير الأتراك).

وقال (.. إن 90٪ من الضباط العرب في الجيش العثماني هم أعضاء الجمعية "العهد").. وبين للإنكليز قائلاً: (إنني لست مخولاً أن أبحث معكم رسمياً برنامجنا السياسي). ووعد رغم عدم وجود تفويض له بإجراء حوارات مع الإنكليز باسم العهد. فإنه على استعداد لمباحثات معهم، إذا أرادوا، وسيقنع رفاقه على ما توصل إليه معهم، وعلى الشروط المتفق عليها بينه وبين البريطانيين.

أسس الدولة العربية المنشودة التي طرحها الفاروقي

قال الفاروقي في إفادته: (... تتألف دولة واحدة في شبه الجزيرة العربية والعراق وسورية، تقوم على الأسس التالية:

1ـ عقد معاهدة صداقة مع الإنكليز تقوم إذا أمكن على أساس تبادل المنافع.

2ـ تخضع الأقطار العربية لمبدأ اللامركزية. وكل قطر تديره الحكومة الأكثر ملاءمة له. على أن يكون خاضعاً للحكومة المركزية أي مقام الخلافة.

3ـ بالرغم من أن الإمبراطورية الجديدة التي نرغب في تأسيسها ستكون مرؤوسة بخليفة إلا أن أساسها سيكون قومياً وليس دينياً. وستكون إمبراطورية عربية ـ ليست إسلامية.

4ـ سيكون للعرب المسيحيين والدروز والنصيرية نفس الحقوق التي للمسلمين، إلا أن اليهود سيخضعون لقانون خاص)(17).

وتؤكد بعض الوثائق أن محمد شريف الفاروقي كان يحمل مشروعاً تحريرياً عربياً لدولة عربية تقدمية مستقلة ومتحررة، فقد قال في طرحه لهذا المشروع في أيلول 1915 لسايكس: (إن الدولة العربية المقبلة ستقوم على أساس القومية، وليس على أساس الدين، وستكون عبارة عن اتحاد أقطار، تدير كل قطر حكومة تتمتع بالاستقلال الذاتي.. وأن خطة العرب هي تأسيس دولة عربية مستقلة، أو اتحاد دول، أو تؤسس دولة تقدمية تحت سيادة الشريف من ولايات دمشق وبيروت وحلب والموصل وبغداد، وسناجق أورفه ودير الزور والقدس، وأن يكون تشكيل الحكومة على أساس مبدأ اللامركزية، مع مجلس نواب مقره دمشق)(18).

رأي نعوم شقير في إفادة الفاروقي

من الإنصاف للدور الهام الذي لعبه الضابط محمد شريف الفاروقي أن نورد شهادة لرجل حيادي، كانت القيادة البريطانية قد أنزلت الفاروقي في بيته في القاهرة، أثناء التحقيق معه، ومباحثاته مع الكولونيل كلايتون، وهذا الرجل هو أقرب إلى بريطانيا منه إلى الفاروقي فشاهدته مهمة في موضوع الفاروقي، فهو

يتحدث عنه بأنه لم يكن إلا قومياً عربياً يسعى لحرية وطنه العربي، وأنه صادقاً في أهدافه، فهمه الوحيد حرية العرب واستقلالهم، وتشكيل حكومة عربية مستقلة للشرق العربي، وقد دافع عن هذه الفكرة في محادثاته مع كلايتون دفاعاً مستميتاً، وبين نعوم أن الفاروقي كان يرى بضرورة التحالف مع بريطانيا، لمعرفته أن الثورة وطرد الأتراك من المشرق العربي لا يتم بدون دعم دولة عظمى، ووجدوا في بريطانيا تلك الدولة، كما رأوا أن حاجته لهم ماسة وهي تخوض حرباً مع تركيا، ولم نجد هذا التنازل من قبل الفاروقي الذي أشارت له بعض المصادر التاريخية.

فقال نعوم شقير: (إن الفاروقي واقع تحت سيطرة موضوع الاستقلال العربي، وتأسيس إمبراطورية عربية، وله ثقة وطيدة بالجمعية التي ينتمي إليها. ويعتقد اعتقاداً جازماً أنهم يستطيعون أن يؤسسوا حكومة توطد السلم والهدوء في شبه الجزيرة العربية وسورية والعراق.

وهو يعترف بأنهم في بادئ الأمر سيحتاجون إلى مساعدة دولة أوروبية تزودهم بالأسلحة والذخائر والمستشارين والمفتشين في النواحي المالية والإدارية. وأنهم سوف يطلبون المساعدة من إنكلترا وحدها، مقابل هذا سيعقدون معاهدة صداقة مع إنكلترا بمضمونها، وبموجبها الامتيازات التي لا تؤثر في استقلالهم التام أو الموارد الأساسية في بلادهم. وعندما سئل عن سبب إدخال العراق وسوريا مع شبه الجزيرة العربية، أجاب بأن هذه الأقطار تؤلف بلاداً واحدة وجميعها مأهولة بالعرب)(19).

الفصل الرابع

أثر إفادة الفاروقي في سياسة الحكومة البريطانية.

تركت أقوال الفاروقي وإفاداته أثرها في سياسة الحكومة البريطانية في المنطقة العربية، وشكلت ردة فعل متباينة في توجهات وأراء مكتبي الهند والقاهرة، اللذان كانا يتجاذبان رؤى مختلفة في التعامل مع العرب، وكيفية الاستفادة من طاقاتهم وتوظيفها في حربها ضد الترك والألمان على جبهة السويس والدردنيل والبصرة وغيرها من مناطق المواجهات.

وكان الزمن يفرض على الحكومة البريطانية اتخاذ القرار السياسي في مساندة الحركة العربية ضد الترك، أو الاحتواء دون تقديم تنازلات تتنافى والخطط الاستعمارية لبريطانيا للمنطقة الآسيوية من الوطن العربي، وكانت تستشير كلا المكتبين وتسمع من خلال البرقيات الواردة منهما التباين في كيفية التعامل مع الحركة العربية.

في 12 تشرين الأول/ أكتوبر 1915 بعد إطلاع المعتمد البريطاني السير مكماهون على إفادة محمد شريف الفاروقي، أرسل نسخة منها إلى وزارة الخارجية البريطانية. وإن الجنرال ماكسويل أرسل مذكرة الكولونيل كلايتون حول إفادة محمد شريف الفاروقي إلى اللورد كتشنر قائلاً له: (إن المسألة ذات أهمية كبيرة)(20).

أبرق السير مكماهون في 18 تشرين الأول/ أكتوبر 1915 للسير إدوارد جراي وزير الخارجية البريطاني حول المعلومات التي أدلى بها الفاروقي جاء فيها:

(إن الفاروقي أفاد في محادثات أخرى معه أن القوميين العرب يقفون على مفترق طرق. وأن ألمانيا وعدتهم بتحقيق مطالبهم وأنهم سوف يلقون بثقلهم إلى جانب ألمانيا إذا لم نعطهم نحن في الحال تأكيداً مرضياً لهم).

وأكد على ما جاء في برقية الجنرال ماكسويل على خطورة انحياز العرب إلى جانب ألمانيا في الحرب، فمن المحتمل أن يقف جميع مسلمي الشرق ضد الحلفاء، في حين سيؤدي تعاونهم الفعال إلى جانب بريطانيا إلى تسهيل الحملة العسكرية في العراق وسورية.

وذكر أن الفاروقي الشروط التي يقبل بها العرب على النحو التالي: (حيثما تستطيع بريطانيا تعمل دون إلحاق الضرر بمصالح حلفائها الحاليين. فإنها تقبل بمبدأ استقلال العرب ضمن الحدود التي عرضها شريف مكة تحت إرشاد بريطاني وسيطرتها. وعندما يحين القوت الملائم فإن بريطانيا سوف تعطي العرب مشورتها، وتساعدهم على أن يؤسسوا في المناطق إياها؛ أشكال الحكومات الأكثر ملائمة لها. ولسوف يفترض العرب في هذه المنطقة بنفوذ بريطانيا العظمى وحدها. وسوف يعملون تحت إرشاد وسيطرة بريطانيا. وسوف يعترفون بأولوية المصالح البريطانية.

ولتحقيق هذه الغاية يعترف العرب بالموظفين البريطانيين من ممثلين ومستشارين، ممن تدعو الحاجة إلى توظيفهم لضمان حسن سيرة الإدارة، ولكن سوف يستمر الزعماء العرب في تولي شؤون الحكم في الجزيرة العربية ذاتها، وتتعهد إنكلترا بضمان سلامة الأماكن المقدسة ضد كل اعتداء خارجي. وتعترف بأنها مصونة ولا يجوز انتهاك حرمتها.

إن احتلال فرنسا لمناطق (Jistricts) حلب وحماه وحمص ودمشق ذات العروبة المحضة، سيجد مقاومة من قبل العرب بقوة السلاح. ولكن إذا استثنيت هذه المناطق، فالفاروقي يظن أن العرب سيقبلون بعض التعديل على الحدود الشمالية ـ الغربية التي اقترحها شريف مكة. أما بشأن ولاية البصرة، فالفاروقي

يوافق على ضرورة وجود ترتيبات خاصة لنوع من السيطرة البريطانية بالنظر لمصلحة بريطانيا العظمى هناك. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار رسالة الشريف على ضوء الآراء التي أبداها الفاروقي فمن رأيي أن الشريف والقوميين العرب لن يحتمل أن يقبلوا أقل من الخطوط العريضة لهذه التأكيدات)(21).

وحول الموضوع أرسل الجنرال ماكسويل برقية إلى اللورد كتشنر في 16 تشرين 1916 قال فيها: (إن السير مكماهون بعث إلى وزارة الخارجية مقترحات العرب المقدمة بواسطة شريف مكة، ولكنه لم يؤكد وجود جمعية عربية ذات نفوذ تعمل في الجيش التركي). وحث وزير الحربية على ضرورة التوصل إلى اتفاق العرب حتى تضم الجمعية العربية جهودها ضد الترك الاتحاديين. ثم حذر من عدم الاتفاق مع العرب لأنه سوف يؤدي إلى انضمامهم إلى جانب الترك. وهذا ما يراه (سوف يزيد زيادة مادية في العراق والجزيرة العربية ومع السنوسي أيضاً. ويجعل غزو مصر أكثر يسراً). وأكد ماكسويل على وزارة الحربية على ضرورة الابتعاد عن التعميمات الغامضة التي أصبحت من الماضي، ولابد من وضوح التعليمات واتخاذ القرار السياسي (خاصة بعد ما دار بين مكتب القاهرة والحسين والفاروقي وعزيز خلال السنتين من الاستكشاف)(22).

ونصح وزارة الحربية بالإقتراب من وجهة النظر العربية والضغط على الفرنسيين كي يتساهلوا في شروطهم وتحفظاتهم التي تعرقل الاتفاق مع الحركة العربية، وحذر الوزارة والحكومة البريطانية من إضاعة الوقت والتردد بعدم الاتفاق مع العرب: (إذ من المحتمل أن يتحد الإسلام ضدنا، إلا إذا قدمنا اقتراحاً محدداً ومقبولاً لشريف مكة في الحال). حيث كان ماكسويل يشعر أن التردد في اتخاذ قرار بالتعاون قد يلحق الكثير من الخسائر في بريطانيا مادياً ومعنوياً خاصة في فقدان الثقة بها من قبل العرب(23).

لم يتأخر رد اللورد كتشنر على الجنرال ماكسويل ففي اليوم التالي في 17 تشرين الأول 1915 لوصول البرقية جاء الرد يؤكد فيها على اهتمام الحكومة بما طرح، ويدعوه لمعالجة الموضوع العربي مع السير مكماهون، وتبين حاجة

بريطانيا للعرب في الحرب. قال فيها:

(إن الحكومة مهتمة إلى أقصى حد بمعالجة المسألة العربية بصورة تكون مرضية للعرب. أرجو أن تخبرني برقياً. ماذا يريدون؟. وابحث الموضوع مع مكماهون. ويجب أن تفعل ما بوسعك لمنع أي تحول في ولاء العرب التقليدي لإنكلترا)(24).

فنقرأ في مضمون تبادل المعلومات بين المكتبين رسالة مرسلة من مارك سايكس إلى برسي كوكس في مكتبة الهند، وهما من أشد المعارضين لمساندة الحركة العربية وفق شروطها في الاستقلال ووحدة الأراضي العربية في المشرق العربي. يشرح له أفكار وأهداف أهم الحركات العربية التنظيمية العاملة نحو الاستقلال الجمعية العربية الفتاة، انظر إلى ما جاء في تلك الرسالة ستجد الحقد على الأماني العربية وتطلعاتها، قال فيها: (.. إنهم - يقصد العربية الفتاة - مضطرون لأسباب سياسية إلى المطالبة بالاستقلال المطلق. وهذا ما يفسر إلى حد ما عدم صراحة أعضاء الجمعية من الأسرى حول الموضوع.. إن طموحهم الحقيقي استقلال سوريا والحجاز. وتأليف دولة تقدمية من ولايات دمشق وبيروت وحلب والموصل وبغداد وسناجق أورفة ودير الزور والقدس تحت حكم الشريف.

إلا أن هذا مشروط بالاتفاق مع فرنسا وبريطانيا العظمى. وتكون لفرنسا سيطرة تامة على كافة المشاريع والمرافق التعليمية الخاصة من منطقة غربي الفرات وحتى دير الزور. وفي فلسطين (كذا)، ولا يستخدم أي أوربيين ما عدا الفرنسيين من قبل الدولة العربية في تلك المنطقة. إلا أن الدول العربية غير ملزمة باستخدام المستشارين الأوربيين إلا بمحض إرادتها.. وتكون لبريطانيا العظمى بعض الحقوق في العراق والجزيرة العربية. وتكون مدينة البصرة والأراضي الواقعة جنوب الكويت وحتى الفاو تحت السيطرة البريطانية بشكل مطلق. أما الأراضي الواقعة شمالي خط الإسكندرية وعينتاب وأورفة فتكون فرنسية بشكل مطلق).

ويسخر سايكس من الحركة العربية ومشروعها القومي في رسالته بقوله: (..إذا أصبح لنا احتكار دائمي للمشاريع وللمساعدات الأوروبية العسكرية والمدنية في مقاطعات الموصل وبغداد والبصرة. وإذا أصبحنا ندير مقاطعتي بغداد والبصرة طيلة الحرب، فاعتقد أننا لا يجب أن نخشى المستقبل. وسواء نجحت العروبة أم لا تنجح!!. فلن نكون خسرنا شيئاً!!)(25).

هكذا كانت تفكر القيادة البريطانية في تلك المرحلة وفي الحاضر والمستقبل، وأوردنا هذه الرسالة لعلها تكون تذكرة لمن لا يزال يراهن على الخارج وخاصة على أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية في التنمية والتطور أو في الديمقراطية والشفافية، فما يبحث ويسعى له الغرب إلا تحقيق مصالحه في الثروة والأرض العربية أولاً وأخيراً. وكل شيء معروض عندهم للبيع من أجل تلك المصالح.

بريطانيا وحدود الدولة العربية

أحدثت إفادة الملازم الأول محمد شريف الفاروقي تغيراً في السياسة البريطانية تجاه التعاون مع حركة العربية وتطلعاتها في ثورة عربية ضد الترك والاستقلال والدولة، فانتقلت السياسة البريطانية من حالة التردد والشك إلى حالة اتخاذ القرار بمساندة الثورة العربية ولكن بقيادة الشريف حسين وليس بقيادة الجمعيات العربية وخاصة العهد والعربية الفتاة، والسبب كما بيناه سابقاً دهاء ومكر السياسة البريطانية، فهي لا تريد قوى نخبوية عربية واعية، تملك رؤية لتحقيق أهدافها، وقادرة من خلال وعيها أن تثبت حقوق أمتها العربية عبر معاهدة موثقة، وتجسد فعلاً أمانيها القومية التي قدمت لها فلذة أكبادها من المناضلين على مذبح حريتها. بل تريد قوى قومية ولكن غير مجربة للسياسة البريطانية والدولية. ويمكن خدعها واستثمارها من أجل مصالحها، وهكذا كان التوجه السياسي بحث التعاون مع الشريف حسين لا مع عزيز المصري.

وبعد أخذ القرار بالتعاون مع الشريف حسين، بدأت السياسة البريطانية

بالعمل لإفراغ أية معاهدة أو وثيقة من إلزامية لبريطانيا لإقرار دولة عربية وفق حدود سياسية رسمتها الحركة العربية، ووضع مجموعة من الألغام القانونية والسياسة، يمكن تفجيرها بعد انتهاء الفائدة من استخدام العرب في الحرب لصالحها وصالح حليفتها فرنسا.

وفي العودة إلى الوثائق التاريخية لمرحلة هامة من تاريخ العرب نجد أن السير جراي وزير الخارجية البريطاني يرسل برقية هامة للمعتمد البريطاني السير مكماهون في 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1915 فيها تفويض له بإجراء مباحثات مع الشريف حسين، وذلك بعد يومين من إرسال مكماهون رسالته لوزير الخارجية إفادة محمد شريف الفاروقي والتي ذكرناه أعلاه، جاء فيها:

(إنك مخول بإعطاء تأكيدات ودية ضمن الخطوط التي اقترحتها في برقيتك الشخصية بتاريخ 18 أكتوبر (تشرين الأول). مع التحفظ على المقترح فيما يتعلق بحلفائنا. ولكي نحصل على موافقة العرب فيجب ـ إلا إذا كان ذلك ضرورياً ـ أن لا تشتمل التأكيدات على الشرط القائل أن يعملوا تحت بريطانيا.. الخ.

إن شرطاً كهذا يمكن أن يعطي فرنسا انطباعاً بأننا لا نرمي إلى تأمين المصالح العربية فحسب، بل أيضاً لتوطيد مصالحنا ذاتها في سورية على حساب الفرنسيين.

أما بشأن الأماكن المقدسة في الحجاز والعراق فلا توجد أية مصاعب من هذه الناحية، ويمكنك أن تتكلم حولها دون تحفظ.

ولكن التحفظ العام الذي نقترحه إلى أقصى حد. وخاصة فيما يتعلق بالحدود الشمالية ـ الغربية والعراق. وبالنظر إلى المصالح الخاصة في منطقة بغداد، والمنطقة التي استولينا عليها فعلاً. فإن المنطقة المقترح إخضاعها للنفوذ البريطاني ـ أي ولاية البصرة بالذات ـ بحاجة إلى توسيع. إن هذا دون شك لن يضر مصالحنا مع الزعماء العرب.

إن إعطاء تأكيد يؤدي إلى الحيلولة دون انحياز العرب على صفوف أعدائنا، هـو الأمـر الأكثـر أهمـية، فـإنني يجـب أن أتـرك المجال لحسن تقديرك في هذا الموضوع.

وإذا لم يكـن التأكـيد المطلـوب أكثر دقة وتحديداً، وفي هذه الحال يمكنك إعطـاؤه. فـإن أبسط خطة يمكن إتباعها هي إعطاء تأكيد باستقلال العرب، يمكن أن تـضيف إلـيه أنهـم إذا أرسـلوا مندوبـيهم، فإننا سنباشر في الحال لبحث مسألة الحدود. وعليك أن تحيط السردار علماً بكل ما يجري(26).

الفصل الخامس

الفاروقي ومحادثات حسين/ مكماهون

من خلال الوثائق يتضح لنا الأثر الكبير لمحمد شريف الفاروقي في دفع بريطانيا للإسراع في عقد محادثات مع الشريف حسين لتفجير ثورة عربية في الحجاز، فمع العلم أن الشريف حسين منذ شباط عام 1914 أرسل الأمير عبد الله إلى القاهرة لاستطلاع رأي الحكومة البريطانية في قيام حركة عربية في الحجاز ضد العثمانيين، وعقد عدة مباحثات مع رونالد ستورس حول هذا الموضوع، ومع اللورد كتشنر الذي كان معتمداً بريطانياً في القاهرة قبل توليه وزارة الحربية، إلا أن تلك المباحثات كان نصيبها الفشل من الناحية العملية، ولكنها أشعرت الحكومة البريطانية وخاصة اللورد كتشنر أن العرب ينوون القيام بثورة ضد الترك(27).

لم تتحرك بريطانيا جدياً لدعم الثورة العربية إلا بعد محادثات الملازم الأول محمد شريف الفاروقي، حيث كما أشرنا إلى ما أحدثته مفاوضاته مع كلايتون من قناعة أن العرب جادون في الثورة سواء بهم أو بغيرهم، وقد وصف الفاروقي بالقدرة المذهلة على الإقناع لمن يحاوره، وكانت النتيجة التي أشرنا إلينا في البرقية التي أرسلها وزير الخارجية البريطاني السير جراي في 20 تشرين الأول 1915 بتفويض السير مكماهون بإجراء مباحثات مع الشريف حسين وقال له: (إنك مخول في إعطاء تأكيدات ودية ضمن الخطوط التي اقترحتها في برقيتك الشخصية بتاريخ 18 تشرين الأول). رداً على تلك البرقية التي أرسلها مكماهون لوزير الخارجية البريطاني، وأشار بها إلى محادثاته مع الفاروقي بقوله: (إن

الفاروقي أفاد في محادثات أخرى معه أن القوميين على مفترق طرق...) وقد ذكرناها مسبقاً أعلاه، بدأت جدية الردود الفعل البريطانية على رسائل الشريف حسين، فكانت رسالة السير مكماهون في 24 تشرين الأول 1915 التي تضمنت مناقشة الدولة العربية المستقلة وحدودها وهذا ما سنبينه في الفصول القادمة، ولكن ما نري أن نشير إليه الدور الهام الذي لعبه الضابط الفاروقي في دفع هذه المباحثات إلى ما وصلت إليه، وبذلك يكون العسكريون العرب قد ساهموا مساهمة جدية في صناعة الحاضر العربي الجديد الذي أعقب الثورة العربية.

رسالة الفاروقي إلى الشريف حسين

بعد انتهاء التحقيقات والمحادثات مع محمد شريف الفاروقي وما أسفرت عنه من تشكيل رؤية جديدة لبريطانيا في مساعدة الحركة العربية في تفجير ثورة عربية، وظهور ما يشبه الاتفاق غير المعلن من التنظيمات والشخصيات العربية والحكومة البريطانية أن الثورة يجب أن تطلق من الحجاز لموقعها الملائم عسكرياً ودينياً، وأن يقود هذه الثورة الشريف حسين، وما قدمناه سابقاً من موافقة مبدئية من قبل الحكومة البريطانية على أن يقوم السير مكماهون باتصالات مع الشريف حسين للاتفاق معه حول الدولة العربية وحدودها والأخذ بعين الاعتبار مصالح كل من بريطانيا وفرنسا في تلك الدولة العربية.

أرسل محمد شريف الفاروقي رسالة هامة إلى الشريف حسين في 27 محرم 1334 حدثه فيها عن أسباب هروبه إلى مصر ودوافعها وعن تكليفه بها من قبل قادة الحركة وخاصة زعيم العهد في سورية والعراق الفريق ياسين الهاشمي، وأكد على مبايعة ضباط العهد والعربية الفتاة له قائداً للثورة وزعيماً للعرب. ولأهمية الرسالة التاريخية نورد بعضها:

(أنا شريف بن محمد الفاروقي من الموصل ضابط في الجيش العثماني، ومعلم الفيلق الثاني عشر في فن الرماية، وضابط الأمر أو ياور لدى فخري باشا قائد الفيلق الثاني عشر وكيل جمال باشا في سورية، والعضو الأول بجمعية العهد

المتشكلة من الضباط، ومؤخراً بجمعية الفتاة العربية، وزميل ياسين بك البغدادي (الهاشمي) الذي كان رئيساً لأركان الفيلق الثاني عشر، وإذا أراد مولاي أن يزيد هذا التعارف تعارفاً، فليتفضل ويلقي بنظره الكريم على قائمة أسماء الضباط الذين بايعوا عظمتكم، وجاءكم من دمشق خصيصاً من دمشق الملازم الأول عبد الحميد أفندي البغدادي خصيصاً لهذه المسألة، فكتب أسماءهم، ولابد أن سيادة نجلكم حضرة الأمير فيصل يذكرني حين تشرفت بمقابلته مع سامي الصلح والمرحوم محمد المحمصاني في حلب الشهباء في بيت المدرس عند عودته من الآستانة، وهنا أبلغني السيد محمد رشيد رضا بأن صاحب السيادة نجلكم الكريم الأمير عبد الله مشترك معنا في مبادئنا وأمانينا، وتجمعنا عين الجامعة، وأظن أن هذه الإشارة كافية لسيدتكم: 2 ـ 6« 12 »

إذا كان مولاي قد وثق من معرفتي أبادر إلى إخباره، بأنه في أثناء تفاهم ياسين بك البغدادي مع جمعية الفتاة بسوريا، بلغني هذا الخبر وأنا في حلب، واطلعت على خطتهم، ومناسبتهم وإطاعتهم لسيادتكم، ووحدنا مساعينا معهم، وأحس جمال باشا يومئذ بسريان روح الحركة العربية، فكان ما كان منه من حبس بعض أخوتنا.

أما نحن الضباط فبعد أن حبسنا في حلب مقدار 15 يوماً، أصدر أمره بإرسالنا أنا وياسين بك وأمين لطفي بك وعبد القادر أفندي إلى الآستانة، وعقب وصولنا اجتمعنا أنا وياسين بك، وقررنا المواد التالية:

1ـ أن يكتب ياسين بك كتاباً لمركز الشام بالشيفرة المعلومة، بأننا عزمنا على الفرار من الترك إلى الإنكليز، لنجعلهم طريقاً للوصول إلى سيادتكم، لأننا كنا عارفين بالمخابرات الجارية بين عظمتكم ودولة بريطانيا العظمى.

2ـ أن يطلب أوراق الاعتماد والدراهم التي يتمكن من الحصول عليها من رضا باشا الركابي خوفاً من أن يفتش.

3ـ أن يعرف المركز بعائلتي بالموصل لكي يعاونوها عند الحاجة).

ثم شرح الفاروقي كيفية هروبه من جبهة القتال ووصوله إلى مصر ولقاؤه مع القادة البريطانيين ومناقشته لهم حول الحدود الشمالية مرسين ـ مديات، وأنهم استثنوا من الدولة العربية غربي خط الشام وحمص وحماه وحلب ومرسين والإسكندرونة بسبب مصالح حليفته فرنسا، وأنهم بعد ذلك يعترفون باستقلال البقية تحت رئاسة الشريف حسين، مع الأخذ بعين الاعتبار المعاهدات التي تمت بينهم وبين مشايخ ورؤساء العرب. ومساعدتهم في ولايتي البصرة وبغداد وأن تحفظ مصالحهم في الدولة العربية المقبلة.

وذكر في الرسالة ما تم الاتفاق عليه بينه وبين ياسين وأعضاء الجمعيتين: (وبعد أطلعوني (البريطانيين) على هذه المواد طلبوا رأيي الشخصي، فأجبتهم بصفة شخصية حسب معرفتي السابقة، والمحاورات التي دارت بيني وبين ياسين وبعض الأخوان أنه لا يمكن بوجه من الوجوه التنازل عن شبر أرض في سوريا، وإني لست أعرف في غربي خط الشام وحلب بلداً غير عربي كما يدعون. وقلت لهم أنه لابد من الاعتراف بذلك، ووضع معاهدة تحالف، وأن لا يبرم صلح إلا باشتراك سيادتكم، وأن يعترف بهذا الاستقلال جميع الدول المتفقة مع أمريكا، وهو يشمل سوريا والعراق، وأن يمدونا بالأموال والذخائر الحربية، ويمكن الاعتراف للإنكليز بالمنافع الاقتصادية بالعراق، وللفرنسيين في سوريا، وجلب المفتشين منهم، جرت هذه المذاكرة مع أصحاب السلطة هنا)(28). (انظر إلى نص الرسالة في باب الوثائق).

ــ بعد أن وصلت رسالة الفاروقي إلى الشريف حسين، طلب منه الشريف البقاء في القاهرة إلى حين يطلبه إلى الحجاز، وعينه معتمداً عنه في القاهرة، ويكون صلة الشريف الرسمية مع القيادة البريطانية، ويظهر أن البريطانيين وخاصة مكتب القاهرة وافق على هذا الاعتماد، بل أصبحت صلته مباشرة مع الجنرال جلبرت كلايتون، وبذلك يعتبر الملازم الأول محمد شريف الفاروقي أول ضابط عربي يشارك فعلياً في الثورة، وأول ضابط من العهد والفتاة يحتل مركزاً في نشوء الثورة العربية، ويكون له مركز رسمي فيها.

الفاروقي ودوره في التهيئة للثورة.

فقد الضباط العرب الأمل في تفجير الثورة العربية من خلال القطعات العسكرية التي كانت في سورية والي بينا أعلاه ذلك، لهذا راودت البعض منهم بتفجير الثورة من الحجاز بقيادة الشريف حسين، ومن ثم الالتحاق بها والعمل من داخلها تحت قيادة الحسين، ومن هؤلاء كان محمد شريف الفاروقي قائماً، وهذا ما ظهر من هربه إلى القوات البريطانية من الدردنيل ودعائه بأنه يحمل رسالة بالغة الأهمية للجنرال كلايتون رئيس الاستخبارات وهذه المعطية التاريخية تبين أن فرار الفاروقي لم يكن قراراً شخصياً كما كتب البعض واحتمال أنه جاء بناءً على أمر من العهد والفتاة قد يكون احتمالاً وارداً للمعطيات التالية:

ـ إن الدائرة بدأت تضيق على الضباط العرب، وأن جمال باشا تغذى بهم قبل أن يتعشوا به، فنقل معظم القوات خارج سوريا، واعتقل البعض لدى المخابرات العسكرية الاتحادية بحلب ومنهم محمد شريف الفاروقي بعد أن ألقى الضابط عبد الله السروجي كلمة في الجنود والضباط من العرب في الفرقة الثانية عشرة، وطلب منهم أن يذهبوا إلى بيوتهم لأن الترك لا يبطنون لهم إلا السوء.

ـ قيام جمال باشا باعتقال عدد من الضباط العرب المعروفين وخاصة العقيد محمد أمين لطفي وهو من ضباط العهد، ومورست عليه أشد أشكال التعذيب من أجل كشف أسماء الضباط المنتسبين لجمعية العهد، وتدل كل الروايات والوثائق أنه تحمل التعذيب الشديد والإغراء له من قبل محققي الأمن، إلا أنه بقي صامداً ولم تستطع السلطات الأمنية أن تحصل على أي شيء منه، وتم إعدامه لهذا السبب في 6 أيار 1916.

ـ ملاحقة أي ضابط عربي من قبل السلطات الأمنية لمجرد الشكوى حتى وأن لم يكن منظماً في حزب أو جمعية، ولهذا تم إعدام العقيد سليم الجزائري كونه فقط طالب بحقوق العرب داخل الدولة العثمانية، وذكرت المحكمة أن سبب إعدامه وفق نشرة جمال باشا (داعي استقلال عربي)(29) على الرغم من

اعتراف الترك باستبساله في حروب البلقان الأولى والثانية التي خاضوها.

ـ أوضح الفاروقي في رسالته للشريف في 27 محرم 1334 أن فراره لم يكن قرار فردي والدليل أنه فر قبل إعدام العقيد أمين لطفي الذي اجتمع معه وياسين وعبد القادر وقرروا الفرار وفق ما جاء في نص الرسالة: (أما نحن الضباط فبعد أن حبسنا بحلب 15 يوماً، أصدر أمره بإرسالنا أنا وياسين بك وأمين لطفي بك وعبد القادر أفندي إلى الآستانة، وعقيب وصولنا اجتمعنا أنا وياسين بك، وقررنا المواد الآتية: 1ـ أن يكتب ياسين بك كتاباً لمركز الشام بالشيفرة المعلومة بأننا عزمنا على الفرار من الترك إلى الإنكليز لنجعلهم طريقاً للوصول إلى سيادتكم، لأننا كنا عارفين بالمخابرات الجارية بين عظمتكم ودولة بريطانيا العظمى)(30).

ومن الأدلة على مصداقية محمد شريف الفاروقي ما تضمنته تلك الرسالة من الشيفرة التي وضعها الفاروقي في رسالته للشريف حسين (2×6=12+)، وقبلها الشريف لو كانت فيها ما هو ما ينافي الحقيقة، لما صدقه الشريف المعروف بالحذر الشديد، ولما اعتمده مندوباً عنه في القاهرة لدى البريطانيين، وقد أدى الفاروقي دوره الهام في نجاح الثورة، وتعزيزها بالضباط والجنود العرب، واستخدامه لبراعته الدبلوماسية مع القيادة البريطانية لتأمين مستلزمات إنجاح الثورة، ونظرته المستقبلية في تكوين الدولة العربية المستقلة. وهذا لا يعني أنه كان كاملاً ونبياً، بل كانت له أخطاء لأنه بشر يخطئ ويصيب. وهذا ما سوف نستعرضه عن دور الفاروقي في الثورة العربية.

ومن الأدلة التاريخية على أن الفاروقي قد كان العامل الهام في دفع بريطانيا إلى التعاون مع الشريف حسين في انطلاقة الثورة هو ما جاء في رسالة الشريف حسني إلى السير هنري مكماهون المؤرخة في 25 صفر 1334 الموافق للأول من كانون الثاني 1916 والذي يستشهد فيها على صدق نيته على الثورة، بأن دافعها كان تلبية لإرادة الشعب العربي من التحرر من الاضطهاد والاستبداد، والسعي نحو الاستقلال، هو شهادة الفاروقي للقيادة البريطانية، بأن التنظيمات

العـربية وعلـى رأسها العهد والفتاة وافقتا على الثورة، وعلى قيادة الشريف حسين لهـا، وعلـى الـتعاون مع بريطانيا من أجل قيامها ومدها بالعتاد والمال والمساندة السياسية والعسكرية والفنية. فقال الشريف حسين في تلك الرسالة:

(تلقيـنا كتابيكم المؤرخين في 9 صفر فسرني ما جاء فيهما، وذهب ما كان يقلقـني. وأظـن أن فخامـتكم قـد أدركـتم بعـد وصـول الـشريف محمـد فـاروق، واجـتماعه إلـيكم بـأن أعمالـنا لم تكـن لغايات وميول شخصية؛ بل أن كل شيء كـان نتـيجة مطالـب ورغائـب شـعبنا، وأنـنا لـسنا سوى ناقلين ومنفذين لرغائب الشعب وإلحاحه)(31).

الضابط الفاروقي معتمد الشريف حسين لدى البريطانيين في القاهرة.

قبـيل إعـلان الـثورة اعـتمد الـشريف حـسين المـلازم الأول محمـد شـريف الفاروقـي معتمداً له في القاهرة، وصلة الوصل بينه وبني القيادة البريطانية، وبذلك يكـون أول ضـابط يعـين مـن قبل قائد الثورة العربية، كما أنه حظي بموافقة وثقة الجنرال كلايتون رئيس الاستخبارات العسكرية في مصر ورئيس مكتب القاهرة.

وبعـد هـذا الاعـتماد تـتوالى رسـائل الفاروقـي للـشريف حـسين يـزوده بمعلـومات عامـة وخاصـة، ويتلقـى مـن الـشريف حسين رسائل تتضمن طلبات وتوجيهات، فنجد في رسالة للفاروقي مؤرخة في 26 ربيع الآخر 1334 قبل قيام الـثورة بـثلاثة أشـهر ونـصف يتحدث فيها عن سقوط مدينة (زونغولداق) التركية علـى البحـر الأسـود بـيد الـروس، وعـن وصـول عـبد الرحمن الشهبندر وتوفيق الحلبي إلى القاهرة في طريقهم إلى الهند لمعاينة الأسرى العثمانيين لدى الإنكليز هناك، وعن تعاطف الإدريسي للقضية العربية وغيرها.

ويجيبه الشريف برسالة يطلب منه أن يركز اهتمامه باستمالة الضباط العرب الأسـرى لـدى الإنكليـز من أجل العمل معه للقيام بالثورة، ويكلفه بأمور سياسية وعـسكرية وإعلامـية، وتـبين لـنا من تلك الرسالة أن الشريف قد اعتمد الفاروقي مندوباً عنه في القاهرة لدى القيادة البريطانية فيها بشكل رسمي.

الفصل السادس

دور الضابط الفاروقي في انطلاقة الثورة

في جـواب لرسـالة الـشريف حسين يخبره الفاروقي رداً على طلب الشريف بالاتصال بالضباط العرب بأنه أرسل كتاباً إلى العقيد مولود مخلص والضابط عبد الله الدليمـي، وهمـا ضـابطان عـراقيان مـن ضـباط العهـد، وكانـا مأسـورين لـدى الـبريطانيين في الهند، ويطلب منهما الاستعداد للسفر للاشتراك بالثورة العربية في الحجـاز، وأن الـشريف حسين يعد العدة لهذه الثورة. وتبين الرسائل المتبادلة بين الـشريف حـسين والفاروقي قبيل الثورة تتركز مضامينها على جمع أكبر عدد من الضباط العرب من التهيئة لاندلاع الثورة العربية وحاجتها الماسة لهم (32).

قـبل انـدلاع الـثورة في 10 حزيـران 1916 تـوجه محمـد شريف القاروقي بتكلـيف الجنـرال كلايـتون مـع الـسفن الحربية البريطانية إلى جدة، ومن ثم مكة والانـضمام إلى الشريف حسين لمتابعة سير عمليات الثورة وحاجياتها العسكرية والماديـة، وتقديم تقرير مفصل عن تطوراتها ومدى التأييد الذي سوف تلاقيه من قبل القبائل العربية في الحجاز.

وحـين اندلعت الثورة في مكة المكرمة صبيحة يوم 9 شعبان 1334 الموافق 10 حزيـران 1916 كـان محمـد شـريف الفاروقي في جدة، فشارك فيها مشاركة فعلـية في الـيوم الثانـي من انطلاقتها، فأوعز إلى السفن الإنكليزية الحربية بقصف المراكـز التركـية في جـدة. وقـاد الهجـوم العربـي علـى الحامـية التركية في جدة، واسـتمرت المعـارك بـين الطرفين مدة ستة أيام، إلى أن وافق قائد الحامية التركية علـى الاستـسلام، فـتمت المفاوضـات بـين القائد التركي وشريف الفاروقي حيث

انتهت باستسلام الحامية، وتم أسر كافة أراد الحامية حيث بلغ تعداد أسرى الحامية (1346) جندياً، وغنم الثوار العرب عشرة مدافع ميدان، وأربعة مدافع جبلية وأربعة رشاشات ومستودعاً للسلاح والذخيرة، وكثيراً من المهمات الحربية ذات قيمة، وهكذا تكون جدة أول مدينة عربية يتم تحريرها من الاتحاديين من قبل الثوار العرب، وبذلك أصبح لهم منفذ حر على البحر الأحمر(33).

وقد أرسل شريف الفاروقي رسالة هامة إلى الجنرال كلايتون من جدة، يعلمه بتطورات الثورة العربية في جدة، وذلك قبل أن يصل إلى مكة المكرمة، ومقابلة الشريف حسين، في الوقت التي كانت الحامية التركية في مكة لا تزال تقاتل القوات العربية التي حاصرتها في قلعة (جياد) وفي ثكنة (جرول)، ونص الرسالة إلى كلايتون المؤرخة في 21 شعبان 1334 الموافق 22 حزيران 1916 التالي:

(سيدي الجنرال كلايتون

لم أذهب لمكة، ولكنني إلى الآن في مرفأ جده وذلك لتأخر المدافع، ولهذا السبب ليس في الإمكان أن أكتب لكم تقريراً عن الحالة العمومية كما وعدتكم سابقاً. وعند وصولي إلى مكة وإطلاعي على الأحوال، سأحرر لكم تقريراً مفصلاً يتناول كل شيء، مبيناً الأشياء اللازمة لنا على وجه التفصيل. والآن يمكنني أن أبين لكم مشاهداتي وإحساساتي:

1ـ أخذت مكة سوى حصن أو حصنين عديمي الأهمية، وقد أسر وكيل الوالي والموظفين والضباط وهذا مؤكد.

2ـ ليس لدي نبأ أكيد عن أخذ الطائف ولكنه شائع كثيراً.

3ـ انتصارات العرب في المدينة متوالية على الترك، وسقوط المدينة قريب، والبعض يتحدث أنها سقطت.

4ـ من المؤكد أن جدة تسلم لنا اليوم.

5ـ تأثير نفوذ سيدنا الشريف على جميع عرب الحجاز مدهش جداً.

6ـ الحرب التي جرت وتجري الآن مع الترك حرباً عشائر لا حرب نظامية، ولكن شجاعة العرب وجبن الترك، أنتجا فوزاً للعرب لم أتوقعه.

7ـ بنادق الترك من طراز حديث. وعندهم قليل من المتراليوز، ولا أقدر قطعات الترك المنظمة بأكثر من ألف ومائة جاندرمة.

8ـ أظن مدافع الترك في جدة قديمة.

9ـ أظن قوة الترك في جميع الحجاز لا تزيد عن (7000).

10ـ يتكلم العرب اليوم عن استقلالهم برئاسة الشريف، والكل فرحون بمحالفة سيدهم لإنكلترا.

11ـ الجميع عاقدون النية على الاستيلاء على سوريا.

12ـ أظن أن العرب حلفاؤكم الجدد قادرون على سحق عدوكم وعدوهم بشرط أن تمدونهم.

13ـ إني شخصياً ما كنت أؤمل أن أرى الأحوال مساعدة لنا ولآمالنا بهذه الدرجة وبهذه السرعة، فاسترحم معاونتنا بكل ما يلزم كما عودتمونا رسمياً وحضرتكم شخصياً، وعند وصولي إلى مكة سأحرر طلب الأشياء اللازمة، وسأجتهد أن أجعل هذه الحكومة العربية منظمة. وأني مطمئن إلى أن سيدنا الشريف راغب كل الرغبة بهذا، على شرط صداقتكم. واقبلوا فائق احترامي.

محمد شريف الفاروقي (34).

بعد هذه الرسالة تشير وثائق تاريخية أن شريف الفاروقي قد انتقل إلى مكة المكرمة، فكان أول الضباط العرب الذين وصلوا إلى الحجاز بعد قيام الثورة ومعه ستة جنود عرب كان قد تم أسرهم من قبل بريطانيا، ونقل إليها المدافع التي استولى عليها في جدة، ونصبها أمام قلعة "جياد" التي كانت محاصرة منذ 9 شعبان 1334 مع بداية انطلاقة الثورة، وبدأ بهذه المدافع الرمي عليها (35). ولم يبق الفاروقي مع القوات المهاجمة حيث كلفه الشريف حسين بمهمة عاجلة إلى القيادة البريطانية في القاهرة، تتضمن مجموعة من الطلبات العسكرية كتأمين

ضباط وجنود من العرب وعتاد من أسلحة وذخيرة، وحمله منشور إعلان الثورة لعرضه على القيادة البريطانية، وبيان الرأي فيه لإذاعته على العالم العربي والإسلامي وكافة أنحاء العالم. وقد بقيت قلعة "جياد" محاصرة حتى جاءت فصيلة عسكرية مصرية من المدفعية بقيادة أمير اللواء سعيد علي ففتحت ثغرة في جدار القلعة، وبعد سفر الفاروقي إلى مصر شنت القوات العربية هجوماً على قلعة جياد، واستطاعوا احتلالها بعد أن دمروا جانباً منها في 4 رمضان 1334 الموافق 4 تموز 1916، وتم أسر حاميتها، والاستيلاء على مدفعين كبيرين، وثلاثة مدافع جبلية وثمانية آلاف بندقية وذخيرة. وكان النصر العربي في قلعة جياد أثره على معنويات الثوار العرب، فشددوا الحصار على ثكنة جرول، ومن خلال المدافع التي حصلوا عليها أجبروا حاميتها على الاستسلام فسقطت الثكنة في 9 رمضان 1334 الموافق 9 تموز 1916 وبذلك تم تحرير مكة فانطلقت القوات العربية لتحرر ثغري ليث وأملج على البحر الأحمر(36).

الفصل الخامس عشرة

الفاروقي يؤمن مستلزمات لثورة بعد شهر من قيامها

يلاحظ من الوثائق التاريخية أن الضابط محمد شريف الفاروقي كان أول ضابط عربي يساهم في صناعة الثورة العربية مساهمة فاعلة، فنجده بعد أن التقى الشريف حسين يعود فوراً إلى القاهرة ويلتقي مع نائب الملك البريطاني في القاهرة، ويطلعه على تطورات الثورة وما طلب الشريف حسين من أسلحة وذخائر ومال، والتأكيد على إرسال الضباط والعسكريين العرب سواء من هرب من الجيش التركي أو أسر لحاجة الثورة لهم، فاستطاع فعلاً إقناع القيادة البريطانية بتأمين الأسلحة والمال والعسكريين العرب، ويلاحظ أن الفاروقي كانت لديه قدرة فائقة في الحوار وإقناع المحاور الآخر. فبعد خمسة وعشرين يوماً على انطلاقة الثورة العربية في الحجاز، تم تأمين العديد من الطلبات، وهذا ما كشفته الرسالة التي أرسلها إلى الشريف حسين في 3 رمضان 1334 الموافق 5 تموز 1916. قال فيها:

(.. تواجهت يومين متواليين مع فخامة نائب الملك، وقد سررت بحسن قبوله لي، وطلبت عدة مطالب، ووجدته مستعداً لكل ما نطلب، ولهذا تأكد عندي أن دولة إنكلترا في الحال الحاضر ميالة إلى مساعدتنا من كل الوجوه).

وذكر له ما تم الاتفاق عليه مع القيادة البريطانية حول تلك المساعدات، وذكر منها:

- إنشاء تلغراف تحت البحر الأحمر لتسهيل الاتصالات بين الطرفين.
- إرسال خمسين ألف جنيه خلال أربعة أو خمسة أيام.

- إرسال ألف بندقية مع الرصاص والذخائر التي طلبها الشريف.

وعن الضابط والجنود العرب أعلمه الفاروقي أنه جمع عدداً من الضباط والجنود قائلاً: (لقد اشتغلت بتحضير الجنود والضباط العرب، والحمد لله توفقت، بعد ثمانية أيام أو تسعة يسافر من هنا إلى قبل سيدي سبعمائة جندي عربي مدرب تحت قيادة عدة ضباط، والكل تحت قيادة صاحبي الذي أئتمنه نوري البغدادي (نوري سعيد) ومن هؤلاء ستمائة مشاة، ومائة مدفعية مع ضابط عربي مدفعي، ويكون معهم بطارية أوبوش (مدافع ضخمة)، ومعهم رشاشات، وكلهم متحمسون صادقو الخدمة لسيدي، نافرون من الترك.

وسيكون مع نوري قنابل اليد والديناميت لأجل تخريبات السكة الحديدية فنياً، وتخريب المباني الجسيمة، فأرى أن يأمر مولاي أن تروح هذه البعثة رأساً إلى المدينة، لأنني معتقد بأنه لا يوجد خطر في غير محل.

وأما الضابط والجنود الباقون من أولاد العرب فقد كتب نائب الملك تلغرافاً إلى الهند وإلى العراق لكي يأتوا سريعاً فعند مجيئهم سيجهزون ونرسلهم. وأما البعثة الحالية فكان الجنود منها مأسورين بمصر، ولقد اجتهدت أن تعطي حكومة إنكلترا جميع لوازمهم مع رواتب الضباط والجنود بمقدار واف من الدراهم. وبعد وصولهم إلى قبل سيدي استرحم من مولاي أن يعين لهم رواتب حسبما اعرض من المقدار بعد)(37).

كما ورد في الرسالة ما يدعو إلى وقفة تاريخية بما يفكر به هذا الضابط العربي رغم ما أحيط به من قبل العديد من المؤرخين العرب من شبهات، على أنه أضاع فرصة اتفاق أفضل مع البريطانيين، ففي هذه الرسالة نرى أنه يفكر بتكوين جيش عربي حديث ومتطور، فبعد أن أشار إلى مدربين في المدفعية والمشاة من الضباط العرب، إذ به ينتقل إلى إمكانية إنشاء قوة جوية لهذا الجيش العربي بقوله للشريف بالرسالة: (أريد أن أعين وأفرق مقداراً كافياً من الضباط والجنود العرب لكي يدرسوا فن الطيران، وعند إكمالهم نرسلهم مع طياراتهم)(38).

كلام فيه الدهشة أكثر ما فيه من الاستغراب في هذه الوثيقة عما أطلعنا عليه من قبل الوثائق التي تحدثت عن الفاروقي وسيرته، فهو يطلب أن يبقى عدداً من الضباط والعسكريين لدراسة الطيران، ولكن يتبع ذلك بعد أن ينهوا الدراسة والتدريب يعودوا إلى الجيش العربي مع طائراتهم. ونتساءل هل هذا الكلام قد بحث مع نائب الملك البريطاني ووافق عليه؟ أم اقترحه نائب الملك؟ أم هو فكرة اختمرت في فكر الفاروقي؟ أسئلة لا إجابة قطعية عليها إنما تحليلات احتمالية لا تصل إلى الحقيقة الكاملة.

ثم نجده في هذه الرسالة يقدم مشروعاً لتأسيس دولة عربية عصرية تقوم على خبرات من أبناء الأمة العربية، حين يطرح على الشريف بعد أيام فقط من قيام الثورة خلق مؤسسات للدولة فيقترح التالي: (أريد أن أرسل أربعة مأمورين ملكيين من العرب الذين اعتمد عليهم إلى جدة، لكي يكون أحدهم مساعداً لحضرة نائب مولاي، والثاني مساعد رئيس البلدية، والثالث للتجارة، والرابع للبوسطة والجمرك، وهؤلاء ليسوا من المغفلين الذين يريدون الطفرة، بل من العقلاء الذين اعتمد عليهم، وليست رواتبهم أكثر من 15 أو 20 جنيهاً، فإني أرى إرسال هؤلاء الأشخاص ضرورياً)، ومن خلال الرسالة يظهر أن تلك المقترحات تم بحثها مع نائب الملك فوافق عليها جميعاً إلا مأمور التلغراف، فأن نائب الملك أصر على أن يكون بريطانياً، فاقترح الفاروقي أن يكون ممن يتقنون اللغة العربية.

كما طرح الفاروقي بناء على طلب الشريف حسين أو من أحد من أنجاله أو معاونيه على نائب الملك أن يمنح الشريف حسين لقب (ملك العرب) لكننا لا نجد في الرسالة موافقة من قبل نائب الملك البريطاني وإنما قبول ضمني كما جاء في نص رسالة الفاروقي: (ولقد تباحثت مع نائب الملك لأجل لقب (ملك العرب)، فوجدته ميالاً لقبوله)(39).

وتذكر مجلة الأسرار البيروتية بعد رسالة الفاروقي أرسل البريطانيون سبعة آلاف بندقية، وخمسة ملايين ونصف رصاصة، وكثيراً من المواد الغذائية إلى

الشريف، وتذكر أيضاً بأنه لم يمض شهر على إعلان الثورة حتى كان لدى الشريف عدد كبير من المتطوعين والمدافع والذخيرة والعتاد الحربي(40).

الضابط الفاروقي في الميزان

كتب عدد من الباحثين والمؤرخين عن محادثات وإفادات ودور الضابط محمد شريف الفاروقي في الثورة العربية، وانقسم التقييم للفاروقي بين الإدانة والثناء، بحيث كل كاتب ومؤرخ قيمه وفق البناء الإيديولوجي الذي يتبناه، فنجد في الكاتب القومي العربي المعروف وميض جمال عمر نظمي، وهو عراقي من الموصل يحمل الفاروقي والشريف حسين مسؤولية التنازلات التي قدمت إلى بريطانيا سواء في الحدود والاستقلال، وإنشاء الدولة العربية الواحدة، بل أن التنازلات سببت كل هذه التشويه للنضال القومي الذي قادته منظمات قومية كالعهد والفتاة، بل اتهمهما بأنهما خدعا القوى القومية والوطنية التي اندفعت في المشاركة بالثورة دون أن تعلم ما اتفقا عليه مع بريطانيا، وكأنه يقول لو كانت تلك القوى تعلم إلى ما توصل إليه الشريف حسين والفاروقي، لما ساندت الثورة العربية وشاركت فيها، وهذا ما قاله: (.. إن التنازلات التي قدمها الفاروقي وبعده الحسين، لم تخرج وتنحرف فقط من البرنامج السياسي المتفق عليه من القوميين العرب؛ بل كذلك أعاقت وشوهت نمو القومية العربية، وألغت العلائق الإنكلو - عربية... إننا نواجه هنا تنازلات قدمها (ممثل) مفترض لحركة معينة بدون معرفة رفاقه المسبقة، ناهيك عن موافقتهم، وقد تدفقت الأغلبية الساحقة من القوميين فيما بعد، نظراً لعدم معرفتهم بالاتفاقات الحقيقية، تحقيق الحد الأقصى من أهدافهم)(41).

أما جورج أنطونيوس فإنه ينفي عن الفاروقي بأنه كان ممثلاً لجمعية العهد، ولم يكن مكلفاً منها في التباحث مع البريطانيين، بل كان غير صادق في ادعائه بالتمثيل للعهد والفتاة، وأنه كان م طلعاً على برامج المنظمتين، واستفاد منها ومن المشاعر التي كانت تتوق للتحرر والخلاص من التطهير العرقي الاتحادي، فكتب

يقـول: (كانـت للمعلـومات التي ذكرها الفاروقي أثر حاسم في موقف مكماهون ومستـشاريه، ولم يكـن الفاروقـي في الحقـيقة مـبعوثاً مفوضـاً عن جمعية العهد، ولكـنه كان على معرفة وثيقة بهذه الجمعية وبالهيئة الأخرى "العربية الفتاة" مطلعاً علـى تنظيماتها وأهـدافها، فأفـاض الحـديث عن المشاعر التي تجيش في نفوس الأعضاء)(42).

أمـا سـليمان موسـى ولـه العديـد من الكتب عن الثورة العربية فإنه قيم دور الفاروقـي تقـيماً حـيادياً معقـولاً حـين قـال: (.. رجـح لديـنا أن أقـوال الفاروقـي الـشفهية فسرت بأكثر مما تحمل، وإذا قارنا بين إفادة الفاروقي التي كتبت في 12 أيلـول، ورسـالته إلى الـشريف بـتاريخ 5 كانـون الأول، وجـدنا أن الفاروقـي ظل متمـسكاً بـرأي واحـد. وأن مـا قـيل علـى لسانه ليس جديراً بأن يؤخذ كوثيقة لا يأتـيها الباطل. ولكن الآراء التي عزيت كانت ذات تأثير في صياغة التأكيدات التي أعطـيت للـشريف، ولعله من السهل القول أنه لولا آراء الفاروقي لحصل الشريف علـى وعـود أفـضل، ولكـن لـيس من المستبعد أيضاً أن، لولا الكلام الكبير الذي صـدر عـن الفاروقـي حول قوة الجمعيات العربية في الجيش العثماني لما أعطى الإنكليز العهود التي قطعوها)(43).

هذه النماذج الثلاثة من آراء كتاب ومؤرخين في تقييم دور الفاروقي وتأثيره في تغـيير الأحـداث مـا قبل الثورة العربية وما بعدها، عبرت كل منها على وجهة نظـر أصـابت أم أخطـأت، إلا أنـنا يجـب أن ننظـر علـى ما قام به محمد شريف الفاروقـي وفـق الـزمن الـذي كانـت تمـر بـه الحـركة العربية ومشروعها القومي، والظـروف العـربية والدولـية، ومـا تملـك تلك الحركة من إمكانيات تستطيع أن تفـرض تطلعاتهـا وتحقق مشروعها. فقد وضعنا القارئ الكريم في صورة الوضع العربـي والدولي في الفصول السابقة، ولا نريد التكرار بقدر ما نعيد رسم الصورة حتـى يـتم لـنا التقيـيم الموضوعي لدور الملازم الأول محمد شريف الفاروقي في الـثورة العـربية، والاتفـاق مـع بـريطانيا، ولماذا لم يحصل هو أو الشريف حسين على اتفاق أفضل مع بريطانيا؟.

فالوضع الداخلي العربي لم يكن موحداً تجاه القضية والثورة العربية فكل قطر كانت له رؤية متباينة عن القطر الآخر، ففي بلاد الشام كانت هناك قوى فاعلة ذات توجه قومي عروبي صادق يسعى إلى تحقيق الإستقلال والهوية العربية، وقاست من الاستبداد الاتحادي ما قاست، ونكرر بأنها قدمت أفضل قادتها على مذبح تلك الأهداف. في الوقت نفسه كان هناك من العرب في بلاد الشام خاصة من الإقطاعيين والتجار من كان يتحالف مع الاتحاديين، ويتبنى سياستهم وهذا ما تجلى في الانتخابات البرلمانية في نيسان 1912 فأسقطوا لوائح قوى الحركة العربية (44)، كما وجد جمال باشا أنصار لسياسته من بينهم، والبعض شاركه وأعانه على ضرب قيادات الحركة العربية وصفق لتنفيذ الأحكام بحقهم.

أما في الجزيرة العربية كانت النزاعات بين الأمراء وشيوخ العشائر دامية، وكان كل واحد يبحث عن مصلحته، ولم تكن هناك أية صلة لهم بالحركة العربية إلا الشريف حسين وبدأت متأخرة في عام 1915 عن طريق ولده الأمير فيصل. وكان لكل أمير وزعيم وشيخ اتفاقاته ومعاهداته مع بريطانيا والدولة العثمانية بعيداً عن الحركة العربية وأهدافها وتطلعاتها. لهذا لم تكن الجزيرة العربية خالصة للشريف حسين ليفعل ما يريد ويفرض ما يريد على بريطانيا.

ومن عوامل اتفاق الفاروقي والشريف مع البريطانيين أيضاً الضعف الذي أصاب الحركة العربية والتي عمادها العهد والفتاة بعد نقل الفرق العربية وتشتيتها من الشام إلى مناطق متفرقة، إضافة إلى الهجمة الشرسة التي شنها الاتحاديون على القوة القومية التحررية بين القتل والإعدام والسجن والنفي وهروب البقية خارج بلادهم. وعدم وجود توازن في القوة العسكرية بين الحركة العربية والجيش العثماني، وهذا ما يستدعي التحالف مع قوة دولية كبرى معادية للدولة العثمانية، وهذا التحالف لن يكون بالطبع دون تبادل المصالح، وفي أقل الأضرار، لأن الدول الكبرى ليست جمعيات خيرية، بل لها مصالح واستراتيجيات خاصة بها، والتحالف وفق المصالح، ووفق توازن القوى.

إن ممارسات الاتحاديين دفعت الحركة إلى البحث عن خشبة الخلاص فإما السحق والتطهير العرقي كما جرى من قبل ضد الحركة الأرمنية أو الاتفاق مع أية دولة تساعدهم للخلاص من هذا الجحيم المرعب الذي وضعهم به جمال باشا. وخاصة أن جمال باشا والمجموعة الحاكمة معه وخاصة أنور باشا وطلعت باشا، كانوا مصممين على سحق الحركة العربية في الوسطين العسكري والمدني، بل كان هناك تخطيط لعزل الشريف حسين، وإرسال قوات إضافية إلى الحجاز لسحق أي تمرد عربي فيه.

إذا نقل القارئ ذاكرته وعقله إلى تلك المرحلة الزمنية الصعبة، يمكنه أن يتخيل أو يتصور الدوافع الحقيقية التي دفعت محمد شريف الفاروقي إلى الفرار من جبهة الدردنيل والتباحث مع البريطانيين باسم العهد والفتاة، من أجل تحرير بلاده وشعبه من الذوبان القسري الذي يوم به الاتحاديين بالقوة وتحت أعمدة المشانق والتصفية للضباط في ميادين القتال البعيدة. مع العلم أن الفاروقي كان فعلاً عضواً فاعلاً في جمعيتي العهد والفتاة، وألا لما استطاع أن يكون مقنعاً في محادثاته مع القادة البريطانيين من ساسة وعسكريين ورجال أمن كبار في القاهرة، وليس من السهل أن يخدع ضابط صغير هذا الكم من رجال الخبرة الأمنية والعسكرية لدولة كبرى.

فمن المعلوم لدى الباحثين والمؤرخين وفي كتب تلك المرحلة أن عالم الجاسوسية في المنطقة العربية على أشده بين الدول الكبرى المتصارعة على ثروات المنطقة العربية، والتي تخطط من أجل استعمارها، حيث كان حمى الاستعمار على أشده بين الدول الأوروبية وهذا ما فجر الحرب العالمية الأولى، حيث طالبت ألمانيا بحصة لها في المغانم الاستعمارية. وهناك العديد من الوثائق التي تتحدث عن مئات وعشرات من الجواسيس الإنكليز من رجال ونساء في بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، وخاصة أن تلك الشبكات الجاسوسية قادرة على أن تصل إلى قصر السلطان والحكومة الاتحادية، فهل يسهل خداعها من قبل الفاروقي أو غيره، علماً أن بريطانيا لم تقطع أمرها بمساعدة الشريف حسين

إلا بعد سنتين كاملتين من شباط 1914 من مباحثات عبد الله وستورس إلى موافقة مكماهون في كانون الأول 1916.

ومن هنا نقول أن محمد شريف الفاروقي قد أدى دوره التاريخي في إخراج أمته العربية وخاصة من المشرق العربي من الذوبان القومي، واستغل ظروف الحرب استغلالاً جيداً ليدفع ببريطانيا إلى مساندة قيام الثورة العربية في الحجاز، ويدعم بصورة مباشرة محاولات الشريف حسين التي بدأت منذ عام 1914 في جر بريطانيا للاتفاق معه إلى ثورة ضد الترك، وأن كان الشريف حسين أو الفاروقي لم يستطع أن يحصل إلى اتفاق أفضل مع بريطانيا، فهو يعود في الواقع إلى الظروف الذاتية والعربية والدولية آنذاك.

لورنس يحرض الضباط في العراق على الثورة.

خلال اشتداد الحصار على القوات البريطانية في منطقة الكوت جنوب بغداد من قبل القوات العثمانية، وتكرار الفشل العسكري البريطاني في فك الحصار بالقوة، أرسل كتشنر لورنس بمهمة غريبة في تاريخ الحروب، وهي عرض رشوة قائد الحصار العثماني خليل باشا بمبلغ يصل إلى مليون جنيه مقابل فك الحصار الذي دام خمسة أشهر من كانون الأول 1915 إلى أواخر نيسان 1916 (45) ووصل إلى البصرة في 30 آذار 1916، والتقى لورنس مع برسي كوكس وناقشه حول الجمعيات العربية السرية ومجيء عزيز المصري ومحمد شريف الفاروقي من أجل حركة في العراق ضد الأتراك، فرفض كوكس مساعدتهما رفضاً شديداً لأنهما حسب تعبيره لديهما أفكار تقدمية(46).

ومن أجل وسيط من البصرة التقى سليمان الفيضي، الذي كان عضواً في مجلس النواب العثماني عن البصرة وفي الوقت نفسه كان عضواً في جمعية العهد السرية، وعرض عليه القيام بثورة ضد الأتراك ووضع إمكانيات بريطانيا في خدمته(47)، فرفض لأسباب منها أنه لا يملك العشيرة القوية، ولا لديه الزعامة التقليدية، وأنه في هذا الوقت ليس عدواً للعثمانيين بل عدواً للبريطانيين(48)،

وعرض عليه أن يقود الثورة طالب النقب الذي نفته السلطات البريطانية إلى الهند، فرفض لورنس لغضب بريطانيا عليه.

ثـم طلـب الاتـصال بـبعض الضباط العرب الموجودين في البصرة، واجتمع مع مولود مخلص وعلي جودت الأيوبي، وعبد الله الدليمي، وعرض عليهم القيام بثورة ضد الأتراك، وتقديم لهم كل المساعدة من بريطانيا، فرفضوا لأنهم لا يثقون في بريطانيا(49).

المصادر والهوامش

1ـ مجلس الأسرار- بيروت ـ العدد 37 ـ 12/ 12/ 1938 ـ ص 5.

2ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 38 ـ 19/ 12/ 1938 ـ ص 12/ 13.

3ـ محمـد كـرد علي ـ خطط الشام ـ دمشق ـ مطبعة الترقي ـ 1925 ـ الجزء الثالث ـ ص 142.

4ـ F.O, 371/ 2140/ No 143, 24 Aout 1914. et No 46261, 14 Sep 1914

5ـ F.O, 3711 2140/ No 143, 24 Aout 1914. et No 46261, 14 Sep 1914

6ـ محمـد حسنين هيكل ـ الاتصالات السرية بين العرب وإسرائيل ـ دمشق ـ جريدة تشرين 24/ 3/ 1996.

7ـ محمد حسنين هيكل ـ الاتصالات السرية ـ المصدر السابق.

8ـ F.O 371/ 2140/ No 347, 14 Now 1914

9ـ F.O 371/ 2140/ No, 187. 30 Now 1914

10ـ F.O 371/ 2140/ 198,8 Dee 1914.

11ـ محمد حسنين هيكل ـ الاتصالات السرية بين العرب وإسرائيل ـ دمشق ـ جريدة

تشرين 24/ 3/ 1996.

12ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية سيرة ـ المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908 ـ 1924 ـ بيروت 1977 ـ ص 166/ 167.

13ـ مجلة الإسرار البيروتية ـ العدد 45 ـ 6 شباط 1939.

14ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 45 ـ 6 شباط 1939، ص 8 و 9.

15ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 45 ـ 6 شباط 1939 ـ ص 9.

16ـ حسام علي محسن الملامغة ـ لورنس والقضية العربية ـ مصدر سابق ـ ص 51.

17ـ P.R.O.F.O 3711 637. pp. 30-31+F. o 882/ 13/ MES/ 15? 13, Cairo, October 1915

18ـ F.O 882/ 151619. Intelligence Department, war O office, 12 September 1915 Statement of captain (Frugal)

19ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ص 620.

20ـ F.O 882/ 13/ MES/ 15/ 18. 22 November 1915

21ـ P.R.O.F.O. 882/ 13.

22ـ P.R.O.F.O, 371/ 6237, pp 17-18

23ـ P.R.O.F.882/ 13. 16 November 1915

24ـ المصدر السابق.

25ـ P.R.O.F.O 882/ 13 Telegram, No. W.O 8184, of 17 ct 1915

26ـ P.R.O.F.O 882/ 13/ MES/ 15/ 18. 22 November 1915

27ـ P.R.O F.O 371/ 6337, P. 18. And F.O 141/ 461. 796

28ـ جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب وتاريخ حركة العرب القومية ـ ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ـ 1966 ـ ص 207.

29ـ مجلة الأسرار البيروتية ـ العدد 46 ـ 13 شباط 1939 ـ ص 21 / 23.

30ـ جمال باشا ـ إيضاحات مصدر سابق ـ 115 / 125.

31ـ مجلة الأسرار ـ العدد 46 ـ 13 شباط 1939 ـ ص 21.

32ـ دليل الجمهورية السورية ـ دمشق ـ مكتبة النهضة العربية ـ 1946 ـ ص 43.

33ـ مجلة الأسرار البيروتية ـ العدد 47 ـ 20 شباط 1939 ـ ص 13.

34ـ مجلة الأسرار البيروتية ـ العدد 47 ـ 20 شباط 1939 ـ ص 16.

35ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 51 ـ 20 آذار 1939 ـ ص 15.

36ـ سليمان موسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص 275.

37ـ مجلة الأسرار البيروتية ـ العدد 47 ـ 20 شباط 1939 ـ ص 16.

38ـ مجلة الأسرار بيروت ـ العدد 52 ـ 27 آذار 1939 ـ ص 13 / 15.

39ـ مجلة الأسرار ـ المصدر السابق ـ ص 14.

40ـ مجلة الأسرار ـ المصدر السابق ـ ص 14.

41ـ مجلة الأسرار ـ المصدر السابق ـ ص 15.

42ـ وميض جمال عمر نظمي ـ الجذور السياسية والفكرية ـ مصدر سابق ـ ص 148.

43ـ جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ـ مصدر سابق ـ ص 258.

44ـ سيمان موسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص 216.

45ـ فيليب خوري ـ أعيان دمشق والقومية العربية ـ ترجمة عفيف الرزاز ـ بيروت ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ 1993 ـ ص 103 و 104.

46ـ وميض جمال عمر نظمي ـ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للقومية العربية الاستقلالية في العراق ـ بيروت ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ 1984 ـ ص 110.

47ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص 166/ 167.

48ـ سليمان الفيضي ـ في غمرة النضال ـ بيروت ـ دار القلم ـ 1974 ـ ص 212

49ـ سليمان الفيضي ـ في غمرة النضال ـ المصدر السابق ـ ص 215.

الباب الرابع

دور الضباط العرب في الثورة العربية

الفصل الأول

الشريف حسين وخلافه مع الاتحاديين

من الغريب أن الذي عين الشريف حسين أميراً على مكة المكرمة هم الاتحاديون، وهم الذين حاربوه بعد ذلك، وكان قبل توليه الإمارة قد أمضى سبعة عشرة عاماً في العاصمة العثمانية الآستانة بسبب خلافه مع الشريف عون على إمارة مكة المكرمة، وبقي فيها حتى وفاة الأخير، وقد تلقى أبناؤه تعليمهم في العاصمة. وللشريف حسين أياد بيضاء على الاتحاديين بعد توليه إمارة مكة، فقد ذهب بنفسه إلى عسير في 1912 لإخماد ثورة الأدارسة ضد الاتحاديين، وتعاون معهم في السنوات الأولى من توليه الإمارة تعاوناً كبيراً. إلا أن الخلاف الذي دب بين الطرفين بسبب مجموعة من الممارسات التي مارسها الاتحاديون ضد الشريف، دفعه إلى خيار الثورة عليهم، ونذكر بعض أسباب الخلاف بين الشريف والاتحاديين:

ـ أدرك الاتحاديون خطأ تعيين الشريف حسين لإمارة الحجاز متأخرين، بعد أن أعلمتهم استخباراتهم عن اتصالات الشريف وأبنائه مع قادة الحركات العربية، ومن ثم الاتصالات التي يجريها مع البريطانيين من أجل الإستقلال عنهم، لهذا خططوا إلى عزله، وتعيين الشريف علي حيدر حليفهم بدلاً عنه، وهذا ما علمه الشريف حسين من أصدقائه في العاصمة.

ـ تكرار محاولات الاتحاديين من تقليص سلطة الشريف حسين بحيث يبقى أميراً على مكة فقط، ويقتصر عمله على خدمة الحجيج فقط، وتقسيم إمارة الحجاز بعزل المدية عن مكة، وفعلاً بدأت إجراءات فصل المدينة المنورة عن

مكة وجعلها متصرفية مستقلة تتبع الآستانة. وفي عام 1913 اتخذ الاتحاديون عدة تدابير حكومية من أجل فصل المدينة. وهذا ما أغضب الشريف حسين، فأوعز لحلفائه من زعماء القبائل العربية، فشنت العناصر البدوية عدة هجمات على المواقع العسكرية الاتحادية، وقطع الطريق على قوافل الإمدادات العسكرية، مما أجبر الحكومة الاتحادية على التراجع عن فكرة فصل المدينة المنورة، والطلب من والي المدينة أن يطلب من الشريف حسين والتدخل لتهدأت القبائل العربية الثائرة.

ـ تم تعيين اللواء وهيب باشا والياً وقائداً للقوات العثمانية على الحجاز، وقد طلب منه أنور باشا أن يعمل على مضايقة الشريف حسين والحد من صلاحيته. وهذا ما قام به فعلاً بعد وصوله إلى مكة المكرمة، فطلب من الشريف حسين أن يأتي إليه مرحباً مخالفاً للأصول المتبعة في تلك البقاع المقدسة، فقد كان البرتوكول المتعارف عليه أن أي من الولاة أو القادة العثمانيين في حال وصوله إلى مكة، يبادر إلى زيارة الشريف، ويقبل يده لصفته الدينية، وباعتباره أميراً على المناطق الحجازية، ونائباً للسلطان في خدمة الحرمين الشريفين، ثم يطوف بالكعبة المشرفة، وبعدها يقوم الشريف بزيارته، والترحيب به. فرفض الشريف طلب وهيب باشا، وطالبه بالالتزام بالأصول المتعارف عليها، فامتنع الوالي، مما أدى إلى نشوب نزاع بين الطرفين استمر حتى قيام الثورة العربية.

ـ كانت الشكاوى التي يرفعها الشريف حسين عن المضايقات التي يقوم بها الوالي وهيب باشا له، لا تجد آذان صاغية لدى الحكومة الاتحادية، بل كانت تلاقي الإهمال وعدم اللامبالاة، بل زادت الحكومة الاتحادية في تعزيز مركز وهيب على حساب الشريف حسين، ومن الإجراءات التي ضايقت الشريف حسين، قيام الوالي وهيب على سحب القوات العثمانية التي كانت تقوم بخدمة وحراسة الشريف من قصره، قاصداً إضعاف الشريف، والتقليل من هيبته أمام أتباعه، وأشعار الناس في الحجاز بأنه صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في الحجاز كلها.

ـ استمرار محاولات الوالي وهيب لسلخ المدينة المنورة من سلطة الشريف حسين على الرغم من توقف الحكومة الاتحادية عن ذلك علناً، إلا أنها لم تمنع ما كان يقوم به وهيب من الفصل بين مكة والمدينة، مما أوحى للشريف أن الاتحاديين يضمرون له الشر.

ـ يذكر الأمير آلاي وهيب باشا في مذكراته أن زود من قبل الحكومة الاتحادية حين كلف بولاية الحجاز وقيادة الجيش العثماني في البلاد الحجازية بالتعليمات التالية: (إننا نعلم أن الشريف حسين باشا يعمل بكل قواه في سبيل استقلال العرب، وسلخ هذه البلاد عن السلطنة العثمانية، ولهذا اعتزمنا عزله وتولية الشريف حيدر باشا بدلاً عنه، فعليك حين وصولك إلى مكة المكرمة أن توجد خلافاً بين مقامي الولاية والإمارة لنتمكن من تحقيق هدفنا)(1)، وفعلاً صدرت إرادة سنية من قبل السلطان محمد رشاد في 1 تموز 1916 بعزل الشريف حسين عن إمارة الحجاز وتولية الشريف علي حيدر بدلاً عنه، وذلك بسبب قيادته للثورة العربية.

ـ المتاعب التي كان الشريف حسين يلقاها من مع فرع حزب الاتحاد والترقي في مكة وجدة وباقي البلاد الحجازية، والذين كانوا يطالبونه بتطبيق الدستور، والسماح لمنظماتهم في تنظيم المجتمع المدني بالسماح بإقامة المنظمات والجمعيات الأهلية وغيرها مما كان يجري في العاصمة، مما أشعره أن هذا يحد من سلطاته المطلقة من خلال وجود رقابة أهلية عليه.

ـ كان للأحكام القاسية التي نفذها جمال باشا ضد قادة الحركة العربية في الشام أثرها العميق في دفع الشريف حسين إلى تفجير الثورة، وخاصة ما تضمنه بلاغ جمال باشا الذي أعقب تنفيذ حكم الإعدام في 6 أيار 1916 من تهديد مبطن للقادة العرب المناهضين لسياسة الاتحاديين، فقد شعر الشريف أن الفقرة التي تقول في البلاغ: (وهناك نفر من الخونة الذين يشغلون مراكز سامية، سيؤدون حساباً على أعمالهم الإجرامية بعد نهاية الحرب الحاضرة)، شعر بأنه المقصود منها، فما أن سمع الشريف حسين باشا البلاغ حتى أخبر الشرفاء

والمقربين إليه: (إن جمال قد أعدم اليوم إخواناً لنا في سوريا، وسيقدم غداً على تنفيذ هذا العقاب بنا نحن أبناء الحجاز)(2).

اتصالات الشريف حسين مع البريطانيين.

تبدو من خلال الوثائق أن الاتصالات بين الشريف حسين والبريطانيين؛ بدأت في شباط عام 1914 عن طريق الأمير عبد الله، الذي كان عضواً في مجس المبعوثان، وخلال سفره إلى الآستانة لحضور اجتماعات المجلس، كان يمر بالقاهرة. فطلب منه والده خلال سفره في شباط 1914 أن يجس نبض الإنكليز في إمكانية مساعدته إذا قام بثورة ضد الاتحاديين، خاصة بعد أن علم بما يدبر له الاتحاديون من مؤامرات لإقصائه عن الإمارة، فكان هذا التاريخ أول اجتماع عقده عبد الله مع البريطانيين، حيث اجتمع وتباحث مع رونالد ستورس أحد العاملين في مكتب القاهرة الاستخباراتي(3).

كما التقى أيضاً باللورد كتشنر المندوب السامي البريطاني في القاهرة، وعرض عليه ما كلفه به والده، عن المساعدة التي يمكن أن تقوم بها بريطانيا في حال انفجار ثورة ضد الأتراك في الحجاز، وأعلمه أن هدف الثورة هو فصل الحجاز عن الدولة العثمانية، وإعلان استقلاله عنها. وسأل شكل الدعم الممكن تقديمه في حال قيامها، هل هو مادي أو سياسي لها؟ وقبل ذلك ما رأي الحكومة البريطانية في الثورة؟.

ومن خلال الوثائق التاريخية يتبين أن بريطانيا كانت لا ترغب في إثارة تركيا، حتى يتبين لها موقفها النهائي من الحرب، ومع أي طرفين المتحاربين ستقف، لهذا لم يعط اللورد كتشنر الأمير عبد الله جواباً صريحاً، لهذه الأسئلة التي طرحها عليه، وسافر الأمير عبد الله إلى الآستانة دون أن يتلقى جواباً شافياً، وبعد عودته أعلم والده بما حصل معه، فغضب الشريف حسين من هذا الموقف(4).

بعد قيام الحرب ظهر فشل بريطانيا في جر تركيا إلى جانب الحلفاء ضد ألمانيا، وباختيار الاتحاديين الوقوف إلى جانب ألمانيا ضد بريطانيا وفرنسا

وروسيا، رغبت بريطانيا في توجيه ضربة لتركيا من الداخل، فأصدر اللورد كتشنر الذي أصبح وزيراً للحربية تعليماته إلى المعتمد البريطاني في القاهرة السير هنري مكماهون بالاتصال بالشريف حسين وبحث مسألة استقلال الحجاز عن الدولة العثمانية. إلا أن الشريف حسين حين تم الاتصال به، رفع سقف المطالب إلى استقلال المشرق العربي بكامله وليس الحجاز فقط، وإلى إقامة مملكة عربية في المشرق العربي، وأن يعترف به ملكاً على هذه الدولة، وخليفة للمسلمين. وخلال الحرب بدأت المراسلات بين الشريف حسين والحكومة البريطانية، والتي أصبح تعرف تاريخياً باسم (مراسلات حسين ـ مكماهون).

الشريف حسين والديمقراطية

بينما ما سبق الأسباب التي دفعت القوى القومية من نخب وضباط إلى الاتصال ببريطانيا استغلالاً للظروف والمناخ الدولي قبل الحرب وأثنائها، وبينا أن بريطانيا لم تكن راغبة في التعاون مع تلك النخب، بسبب حساباتها الخاصة في تحقيق استراتيجيتها ومصالحها في المنطقة العربية مع حليفتيها فرنسا وروسيا، ولكليتهما كان له حسابه الخاص، فرنسا تسعى لاستعمار سورية ولبنان والموصل، وروسيا هدفها السيطرة على مضيق الدردنيل ليكون لها منفذ على البحر الأبيض المتوسط.

لهذا لم يكن أمام النخب إلا البحث عن قائد عربي من هؤلاء الزعماء، فتم الاتفاق على الشريف حسين الذي يملك النفوذ الديني والعشائري أكثر من غيره، وأميراً على أهم البقاع المقدسة لدى العرب والمسلمين مكة المكرمة، مما يعطيهم شرعية مواجهة نظام يدعي الخلافة باختيار خليفة عربي هاشمي، ووجدوا في ولديه فيصل وعبد الله إمكانية القيادة.

أمام هذه الظروف الداخلية والخارجية غاب عن النخب العربية إلزام الشريف حسين والأمير فيصل تضمين مشروع الدولة العربية المطروحة الديمقراطية، والحرية والشفافية وبناء المؤسسات الرقابية، ودور الجماهير في

صناعة النظام العربي الجديد، فاقتصر المشروع على دولة عربية واحدة في المشرق العربي، يقودها ملك واحد هو الشريف حسين.

وهكذا حمل المشروع القومي الذي طرحته النخب والضباط، وترجمته الثورة العربية بقيادة الشريف حسين حمل في طياته الفشل المستقبلي في تحقيق الديمقراطية للأمة العربية. وكان هناك تبايناً في رؤيا الطرفين للمستقبل القادم للأمة، فبينما كانت النخب العربية تريد مشروعاً ينهض بالأمة العربية لبناء مجتمع يقوم على الديمقراطية، كان الشريف حسين يسعى إلى مملكة عربية وراثية له مطلقة، وقد كان يحاور القوميين والبريطانيين على خلافة أو ملكية وراثية له ولأولاده ضمن دولة تضم الشام والحجاز والعراق.

كما أن إغفال المشروع القومي للديمقراطية كمرتكز وأساس له كان سبباً لإخفاقاته المتكررة، لهذا عانت شعوب الأقطار العربية من هذا الإغفال كثيراً ولا زالت تعاني من النظم المطلقة وغياب الديمقراطية، وأظن أن النخب العربية التي قدمت خيرة رجالها على مشانق جمال باشا؛ كانت تظن أن الديمقراطية ستكون تحصيل حاصل في حال إقامة الدولة العربية المستقلة، لهذا أغفلته في غالبية أدبياتهم واتفاقاتهم مع الشريف على الثورة العربية،ولم تراجع سيرة الشريف والديمقراطية حين كان يملك القرار السلطوي في إمارة الحجاز.

فقد كان الشريف يعادي الديمقراطية ودعاتها منذ أن تولى إمارة الحجاز، وبدأ خلافه مبكراً مع الديمقراطيين والدستوريين الحجازيين الذين طالبوه بالتحديث للمجتمع الحجازي. وبدأ النزاع بين الطرفين بعد تعيين الشريف حسين في تشرين الأول عام 1908.

فبعد وصوله إلى جده قادماً من الآستانة، استقبلته مجموعة من شباب جدة من دعاة الدستور والديمقراطية من أعضاء فرع جمعية الاتحاد والترقي في جدة بالترحيب والتقدير، وألقى زعيم المجموعة عبد الله بن قاسم زنيل كلمة ترحيبية بقدومه، قال فيها:

(جئنا نرحب بالأمير الدستوري الجديد، الذي نؤمل من سيادته أن يعدل عن الأساليب الإدارية القديمة، ويعدل عن المظالم التي كان يقترفها الشريف عون الرفيق باشا والشريف علي باشا في ظل الإدارة السابقة المستبدة، والبلاد إذ تحيي سيادة الأمير، فإنها تحيي شخصية الرجل الذي آمن بروح العصر الدستوري الجديد الذي استقبلته البلاد، وترجو أن ينهض للعمل في ظله، فهو نبراس الشعب..).

وكان لكلمات الدستور والعصر والأساليب الإدارية القديمة التي قال زنيل، وقعها السيئ على المحتفى به، حيث أثارت غضب الشريف حسين، فرد على زنيل وطلاب الديمقراطية قائلاً:

(.. لقد حظيت بمقام أسلافي. وآبائي على الشريعة، التي بايع بها الشريف أبو نمي السلطان سليم الأول، أن هذه البلاد لا تقوم بها إلا شريعة الله المشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي الحريصة على الاحتفاظ بحقها، فليذهب كل منكم إلى عمله، الموظف لوظيفته، والتاجر لتجارته، والصانع لصنعته، وإياكم من قيل وقال وما يقولون، فهذه البلاد بلاد الله، ليست بملك، وأن السلطان الأمر بالدستور الذي تذكرونه، والذي أمر أن يعمل في بلاده بالدستور، يفخر وأسلافه بأنهم خدام الحرمين الشريفين، وليس الخادم بالمالك، وأن الدستور الذي يقام في بلاد الله هو شريعة الله وسنة رسوله)(5).

كان الشريف كغيره من الحكام يرى أن الدستور سيكون مقيداً لصلاحياته، وأن وجود مؤسسات تشريعية ورقابية ستحد من سلطاته، لهذا كان يرفض الدستور، بذريعة أن الشريعة هي الدستور، هذه الذريعة التي استخدمها حكام النظام المطلق منذ قرون من الزمن ولا زال البعض منهم اليوم، يخدعون كثيراً من العامة البسطاء من الشعب، وتساندهم مجموعات من فقهاء السلاطين لترسيخ هذه المقولة في أذهان العامة، دون أن يدركوا أن الرسول ﷺ كان أول من وضع الدستور في الإسلام، ففي الأيام الأولى لوصوله إلى المدينة عمل تأسيس دولة تقوم على دستور، فأعلن بما هو مشهورة اليوم بـ(الصحيفة) والتي وضعت مفهوم

المواطنة، فأوجدت في نصوصها الحقوق والواجبات لكل مواطن فيها سواء أكان مسلماً أو يهودياً أو مشركاً.

فالدستور لا يتعارض مع الشريعة بل يتعارض مع النظام المطلق، فلا بد من دستور يحدد صلاحيات الرئيس أو الملك أو الخليفة، ويبين حقوقه وواجباته، وكذلك الوزراء، والمؤسسات التشريعية والانتخاب أو الاختيار أو القضاء وغيرها من أسس بناء الدولة، فالدستور أن كان مبنياً على أن الشريعة هي مصدر التشريع، فإن الحاجة ماسة لتبيان نوعية المؤسسات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وصلاحياتها واختياراتها ومحاسبتها وعزلها وغير ذلك.

لهذا نجد أن المشروع القومي منذ انطلاقة الثورة، ومبايعة النخب العربية للشريف حسين قائداً لها، وملكاً للعرب، حمل في أحشائه إعاقته، وعدم القدرة على تحقيق شعاراته ومنطلقاته، على الرغم من الضحايا التي قدمها القوميون لإخراجه إلى حيز التطبيق عبر الثورة.

فكانت نتائج عدم الاتفاق بين حملة المشروع من النخب الفكرية والسياسية والعسكرية وبين الشريف حسين وأولاده على مرتكزات المشروع وأولها الديمقراطية، وبناء الدولة الحديثة الدستورية، التي تقوم على التداول، وحرية اختيار السلطة التنفيذية من قبل الشعب، وإن كل المؤسسات خاضعة لمساءلة الشعب ومؤسساته المنتخبة منه، واحترام حرية التعبير والتظاهر والأحزاب في الدولة المشروع، ورفض الحكم المطلق الذي تسبب للظلم والاستبداد قروناً طويلة، ووضع القوانين الملزمة لمنع احتكار السلطة، أن بقيت الأمة سنين طويلة بعد انتهاء الثورة العربية تناضل لنيل حقوقها من حكامها، وتسعى لبناء الدولة الديمقراطية العصرية.

مراسلات حسين مكماهون

كان الكتاب الأول الذي أرسله الشريف حسين إلى السير هنري مكماهون في 28 رمضان 1333 الموافق 14 تموز 1915 والذي جاء فيه: (أرجو أن

تعملوا كل ما في وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم طيه، المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية. وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم ولحكومتكم، أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا، لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة. ثم لا يجب أن تتعبوا أنفسكم بإرسال الطيارات أو رجال الحرب لإلقاء المناشير وإذاعة الشائعات كما كنتم تفعلون من قبل لأن القضية قد قررت الآن...).

وجاء في المذكرة المرفقة بالكتاب: (... يرى الشعب العربي من المناسب أن يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها أو ممثلها على الاقتراحات الأساسية الآتية:

أولاً - أن تعترف إنكلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين - أدنه حتى الخليج الفارسي شمالاً، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً، ومن المحيط الهندي للجزيرة العربية جنوباً - يستثني من ذلك عدن التي تبقى كما هي - من البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى سينا غرباً. حتى أن إنكلترا توافق أيضاً على إعلان خليفة عربي عل المسلمين.

ثانياً - تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية إنكلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية، إذ كانت شروط تلك المشاريع متساوية.

ثالثاً - تتعاون الحكومتان الإنكليزية والعربية على مجابهة كل قوة تهاجم أحد الطرفين، وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية، وتأميناً لأفضلية إنكلترا الاقتصادية فيها، على أن يكون هذا التعاون في كل شيء، في القوة العسكرية البحرية والجوية.

رابعاً - إذا تعدى أحد الفريقين على بلاد ما، ونشب بينه وبينها عراك وقتال، فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد، على أن هذا الفريق المعتدي إذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه، ففي وسع الفريقين أن يجتمعا معاً، وأن يتفقا على الشروط.

خامساً ـ مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة، وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام).

وقال في المذكرة (وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق جواباً، فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء)(6).

ونجد ما طرحه الشريف حسين في المذكرة التزاماً دقيقاً بالمطالب التي أرسلتها منظمتا الفتاة والعهد مع الأمير فيصل في زيارته إلى دمشق، حيث سلم الفريق ياسين باشا الهاشمي والفريق رضا باشا الركابي مع قادة الفتاة في أيار 1915 الخريطة للأمير فيصل، وطالبوه أن يسلمها إلى والده في حال اتفاقه مع بريطانيا.

وجاء رد السير مكماهون في رسالة مؤرخة في 19 شوال 1333 الموافق 3 آب/ أغسطس 1915 والتي بدأت بالتمجيد والتفخيم للشريف على رفضه تحديد الحدود بذريعة قصر المدة لإعلان الثورة وبسبب الحرب، حيث قال فيها: (وأود بهذه المناسبة أن أؤكد لكم ما قاله اللورد كتشنر في الرسالة التي وصلتكم بواسطة علي أفندي، وهي الرسالة التي أوضح لكم فيها بصراحة رغبتنا في استقلال البلاد العربية وسكانها، وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربياً عريق العروبة.

أما ما يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا في مثل هذه التفاصيل ـ والوقت قصير والحرب قائمة ـ سابقاً لأوانه، وخاصة أن تركيا تحتل قسماً كبيراً من الأراضي التي أشرتم إليها في اقتراحكم احتلالاً تاماً)(7).

فهو يعترف للشريف بالخلافة، أي اعتراف اسمي بخلافة دون دولة محددة، ويقر بحاجة البلاد العربية للاستقلال، ولكن دون البحث في حدودها بحجة لا يمكن تحديدها فالحرب قائمة، والوقت أصبح قصيراً فلا بد من عمل عربي سريع ضد الترك، ويظهر للقارئ الخبث البريطاني، فهي تقدم للشريف طموحه

بالخلافة، وتتهرب من إلزام نفسها بالاعتراف بدولة عربية لها حدود معروفة، لأن هذا يتضارب مع أطماعها وأطماع حليفتها فرنسا.

أما الكتاب الثاني الذي أرسله الشريف حسين للسير مكماهون فقد كان في 29 شوال 1333 الموافق 9 أيلول/ سبتمبر 1915 والذي يبدو منه إدراك الشريف حسين للعبة البريطانية، فجاء في الكتاب: (وأرى من الضروري أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى، واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشؤون، وفي أي شكل وفي أية ظرف، ويجب أن أكد لكم أيضاً أن مصالح أتباع ديننا كنها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم.

ويعذرني فخامة المندوب إذا قلت بصراحة أن البرود والتردد اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود، وقوله أن البحث في هذه الشؤون إنما هو إضاعة للوقت، وأن تلك الأراضي لا تزال بيد الحكومة التي تحكمها، ويعذرني فخامته إن قلت أن هذا كله يدل على عدم الرضا، أو على النفور أو على شيء من هذا القبيل.

فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه، ومفاوضته بعد الحرب، بل هي مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود، وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد.

وهذا ما جعل الشعب يعتقد من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة، ويعلقون عليها الآمال وهي بريطانيا العظمى)(8).

كما تضمنت هذه الرسالة إدراكاً واضحاً لخطورة إغفال الحدود حين أشار إلى موضوع الحدود إذا أجل سيكون باباً للصراع بين العرب وبريطانيا أو حليفتها، كما أشار إلى رفضه أن تحتل فرنسا أية بقعة من الأرض العربية كما جاء في الرسالة (.. وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة).

وأجـاب مكماهـون الـشريف حـسين في رسـالة مـؤرخة في 15 ذي الحجة 1333 الموافـق 24 تـشرين الأول/ أكتوبـر 1915 قـال فـيها: (.. وقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعلقون أهمية كبرى على قضية الحدود، وأنكم تعتبرونها من المـسائل الحيوية، فأرسلت مضمون كتابكم إلى الحكومة البريطانية، وأنه ليسرني أن أرسل إليكم البيانات التالية التي أثق كل الثقة بأنها ستفوز برضاكم.

إن "مرسين" و"إسـكندرونه" وبعـض الأقـسام الـسورية الـواقعة غربـي دمشق وحمـص وحمـاه وحلـب لا يمكـن أن يقال أنها عربية محضة. فيجب أن تستثني مـن الحدود التي ذكرتموها. ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات، على أن لا تنقض شيئاً من اتفاقاتنا مع زعماء العرب.

أما الأراضي التي تستطيع إنكلترا أن تعدل فيها بملء الحرية، ودون أن توقع ضـرراً بحليفـتها فرنـسا، فـإن لـي السلطة التامة باسم حكومة صاحب الجلالة أن أعطيكم التأمينات التالية جواباً لكتابكم:

1ـ إن إنكلـترا مـستعدة ـ على أساس تلك التعديلات ـ أن تعترف باستقلال العرب، وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة.

2ـ تحمـي بـريطانيا الأراضـي المقدسـة مـن كـل اعـتداء خارجي، وتعترف بوحدتها.

3ـ تقـدم بـريطانيا للعـرب ـ عـند الحاجـة ـ كـل مـساعدة أو نصيحة تلزم وتـساعدهم في تـشكيل أفـضل شـكل مـن أشـكال الحكومات في مختلف البلاد العـربية. هـذا مـن الناحـية، ومـن ناحية أخرى فإن العرب يوافقون على الاقتصار علـى استشارة ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها، ويرضون بأن يكون جميع لموظفين الذين يحتاجون إليهم لتنظيم دوائر مملكتهم من التبعة الإنكليزية.

أمـا مـا يـتعلق بولايتي البصرة وبغداد، فإن العرب يعرفون أن مركز إنكلترا ومـصالحها فـيها تـتطلب شكلاً إدارياً خاصاً، ومراقبة خاصة للمحافظة على تلك الأنحـاء مـن الاعـتداءات الخارجـية، وتـأمين راحـة واطمئـنان الـسكان، وتوطـيد

مصالحنا المشتركة فيها.

وأني على ثقة بأن هذا التصريح يجعلكم أبعد ما تكونون عن الشك في عطف بريطانيا على أماني أصدقائها" التقليديين" العرب، ويؤدي حتماً إلى التحالف والعمل على طرد الأتراك من البلاد العربية، وإنقاذ العرب من النير التركي، الذي كان وما زال يضغط على أعناقهم منذ أعوام)(9).

وبذلك أبعد مكماهون الساحل السوري واللبناني والفلسطيني من الدولة العربية معتبراً أنها ليست عربية محضة، كما أخرج ولايتي بغداد والبصرة، والإمارات على الخليج وعدن، وحتى اليمن وعسير ونجد وغيرها من الإمارات خارج الدولة العربية المستقلة، وربط أيضاً مصالح فرنسا في تلك الدولة.

ورد عليه الشريف حسين في رسالة مؤرخة في 24 ذي الحجة 1333 الموافق 5 تشرين الثاني/ نوفمبر وهي من الرسائل الهامة قال فيها: (تلقيت بسرور كتابكم الكريم المؤرخ في 15 ذي الحجة، وها أنا أجيبكم عليه بما يلي:

1ـ رغبة في تسهيل الاتفاق وخدمة الإسلام واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين، واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة، فإننا نتنازل عن إصرارنا في ضم مرسين وأدنه إلى المملكة العربية.

أما قضية حلب وبيروت وسواحلها فهي عربية صرفاً، وليس هناك فرق بين المسلم العربي والمسيحي العربي فكلاهما من نسل واحد....

2ـ لما كان العراق قسماً من المملكة العربي، وكان مركز حكوماتها في عهد علي بن أبي طالب والخلفاء الذين اتبعوه، ولما كان هذا القطر مهداً لحضارة العرب ومدنيتهم، وفيه أنشئت أبنيتهم الأولى، وفيه عظمت قوتهم، ولا يستطيعون أن ينسوا بسهولة تقاليدهم وذكرياتهم.

ولذلك أعتقد أنه ليس من المستطاع إقناع الشعب العربي بالتنازل عن هذا القطر، إنما رغبته منا في تسهيل الاتفاق، واعتماداً على عهودكم في المادة الخامسة من كتابكم، وحفاظاً على مصالحنا المشتركة في هذا القطر، فقد نوافق

أن نترك الآن لمدة قصيرة الأراضي التي تحتلها الجيوش الإنكليزية تحت إدارة إنكلترا، لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة الاحتلال تلك المنطقة، واحترام اتفاقكم مع شيوخها.

3ـ إذا كنتم ترغبون في الإسراع بالثورة فإننا نرى كثيراً من المخاوف. وأول ما نخشاه أن يقوم مسلمو الطرف الآخر، ويلوموننا على حركتنا وثورتنا على حكومة إسلامية.

ثم أن هناك أمراً نخشاه، وهو أننا إذا وقفنا في وجه الأتراك ووراءهم جميع القوى الألمانية، فإننا لا نستطيع أن نعرف إذا كان من الممكن أن تضعف إحدى الدول المحالفة وتطلب الصلح، فهل تتركنا إنكلترا وحدنا أمام الأتراك أم لا؟. فإذا تم هذا وبقي العرب وحيدين أمام الترك فماذا نصنع؟.

4ـ إن الأتراك لا يكادون يرونا وحيدين حتى يعمدوا إلى الانتقام منا، فيعبثوا بحقوقنا المادية والمعنوية، ويعتدوا على كرامتنا وشرفنا بمساعدة حليفتهم ألمانيا.

هذه الأمور يجب النظر إليها بعين الاعتبار لأن لها علاقة خاصة بقضيتنا(10).

في هذه الرسالة تنازل من الشريف عن مرسين وأضنه، ولم يتنازل عن إسكندرونة، ولا عن الساحل السوري، واعتراف باحتلال ولايتي بغداد والبصرة، وهذا التنازل بسبب الابتزاز البريطاني والتخوف الظاهر في الرسالة من انقلاب بريطاني فرنسي عليه في حال التصالح مع تركيا، مما يبقيه لقمة سائغة بيد الترك الذين يشعرون أن الشريف بدأ يعد لثورة عربية لتحرير بلاده.

ورد مكماهون بسرور على الشريف برسالة في 13 كانون الأول/ ديسمبر 1915 الموافق 9 صفر 1334 قال فيها: (.. سرني ما رأيت فيه من قبولكم إخراج ولايتي مرسين وأدنه من حدود البلاد العربية). (..أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما ودونت ذلك عندها بعناية تامة، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها، فالمسألة

تحتاج إلى نظر دقيق، وسنخ'بركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب.

وأن حكومة بريطانيا - كما سبق فأخبرتكم - مستعدة أن تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها للملكة العربية، ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية...) ثم قال حول المخاوف التي وردت في رسالة الشريف (.. فإن حكومة بريطانيا قد فوضت إلي، أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة أن بريطانيا العظمى لا تنوي إبرام أي صلح كان، إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الأتراك والألمان)(11).

رأي في مراسلان حسين/ مكماهون

كثير من الكتاب والسياسيين ممن وجه نقداً إلى ما توصل إليه الشريف حسين مع البريطانيين، مدعين أنه كان بإمكانه أن يتوصل إلى اتفاق ملزم مع بريطانيا تعترف به بإقامة دولة عربية في المشرق العربي مستقلة موحدة، ولم يحسن استغلال الظرف السياسي والعسكري الذي كانت به بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، والتي كانت فيه بأمس الحاجة إلى العرب لمساندتها في حربها ضد الأتراك والألمان، قول فيه من التجني على الشريف حسين والثورة، فقد كانت الحركة العربية في مأزق قاتل، وفي موقف مصيري بين السحق العرقي والتفتت، وبين استعادة الذات والهوية العربية. ولولا تلك الثورة لبقيت الأمة العربية في غياهب الاحتلال. ولا نقول إن المعاهدات كانت الأفضل، ولكن لم يكن هناك أمام الشريف أحسن منها، وبينا في الفصول السابقة دهاء السياسة البريطانية في التجاذب بين مكتبي القاهرة والهند في تحقيق مصالح بريطانيا ومخططاتها الاستعمارية دون تنازلات جوهرية، بل استخدام الحركة والمأزق القومي العربي خاصة بعد السحق الجسدي الذي قام به جمال باشا بحق النخبة العربية، ومطاردته للبقية الباقية من قادة النضال العربي.

ولا بد من أخذ الواقع العربي المتخلف والجاهل والذي أنهكه الجوع القاتل، وإدراك الشريف ومعظم القادة العرب ضرورة الاستعجال بالثورة، واغتنام

الفرصة التاريخية بالتحالف مع بريطانيا، علماً أن الوثائق التاريخية تشير إلى أن الترك علموا بمخططات الثورة وكانوا يعدون العدة لسحقها قبل قيامها وهذا يعني أن الشريف والحركة العربية أصبحوا ما بين المطرقة التركية والسندان البريطاني، فما كان لهم من خيار إلا تفجير الثورة. وليس لديهم إلا تلك الوعود البريطانية، قد صدقها الشريف، وخاف منها العسكريون وعلى رأسهم عزيز المصري كما سنبينه في الفصول القادمة.

كما أشرنا إلى الخبث البريطاني في الفصول السابقة بعدم الاتفاق على الثورة مع النخب الواعية في الحركة العربية، بل كانت تسعى إلى الاتفاق مع زعماء العشائر والأمراء، ورفضت التعاون مع الضباط العرب، وهذا ما أوردناه في الفصل السابق عن محادثات عزيز المصري مع الجنرال كلايتون، وما نتج عنه من رفض بريطاني لثورة يقودها الضباط العرب.

كما لابد هنا من قراءة علمية وموضوعية لطبيعة ظروف تلك المباحثات من حيث زمنها ومكانها، ودراستها من كل جوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية، حتى يتم التقويم السليم لها، وأن لا نسقط الزمن الذي نعيشه اليوم على مرحلة زمنية تختلف في ظروفها اختلافاً تاماً عما نعيش اليوم، حتى لا نقع في خطأ تقويمي لتلك المباحثات.

إن ما قام به الشريف حسين تحت تلك الظروف التاريخية سواء في مباحثاته مع السير مكماهون والقيادة البريطانية، وما توصل إليه من نتائج، وقيامه بالثورة العربية، يعتبر إنجازاً ومنعطفاً هاماً في تاريخها ووجودها، فهو أخرجها من تخلف مريع، وحررها من ليل طويل، وسحق وتطهير قومي بشع.

الفصل الثاني

الضباط العرب والثورة

عندما بدأت الثورة لم يكن ضباط العهد موحدين في نظرتهم إلى الثورة العربية في الحجاز، فبعض الضباط كان مرتاباً من الاتفاق الذي جرى ما بين الشريف حسين والإنكليز، فإن كانوا جميعاً يقدرون الشريف حسين لمكانته الدينية، فإنهم كانوا يخشون من بريطانيا وأطماعها في الأرض العربية، التي لم تكن خافية عليهم. وتذكر بعض المصادر التاريخية عندما أعلنت الثورة كان نوري السعيد في البصرة كما أشرنا تردد في الذهاب إلى الحجاز على الرغم من كونه أحد دعاة الثورة على الاتحاديين الذين حكموا عليه بالإعدام(12) كما رفض عدد من الضباط العرب الالتحاق بسبب ريبتهم من بريطانيا وعدم وثوقهم من كل ما تعهدت به، بل البعض رأى في المطامع البريطانية أشد خطراً من بقائهم في أتون التطهير القومي الذي يمارسه الاتحاديون، ونذكر من هؤلاء الضباط القوميين من جمعية العهد: محمود سامي، سامي النقشلي، جميل قبطان، محمود رامز، شاكر القرغولي، محي الدين السهروردي، سليمان فتاح، حسين علواني، شاكر محمود البغدادي، وشاكر محمود (من المسيب)، وطه الهاشمي، وياسين الهاشمي، ورضا الركابي، وللفريق ياسين الهاشمي قول مشهور حين زاره موفد من الأمير فيصل في دمشق يطلب منه الانضمام عام 1918: (إن الإنكليز ليسوا مخلصين لفيصل ولا لأبيه، فبعد أن وعدوا بتأسيس دولة عربية، اتفقوا مع اليهود وأصدروا وعد بلفور، واتفقوا مع الفرنسيين على إعطائهم سوريا، كما ربطوا العراق بالهند)(13).

وكلام ياسين الهاشمي كما هو واضح تم بعد الكشف عن اتفاق سايكس -

بيكو 1916 ووعد بلفور 2 تشرين الثاني/أكتوبر 1917، هذا الكشف الذي أفقد ثقة العرب جميعاً وليس الضباط فقط ببريطانيا وبوعودها، في حين كما بينا في الفصول السابقة، كان الرأي مختلفاً لدى الهاشمي، حين ناقش الفاروقي بالاتصال ببريطانيا عام 1915. وهذا الارتياب وانعدام الثقة نراه أيضاً عند عزيز المصري، ومن بعد في الضباط الذين التحقوا بالثورة كما ستبينه الفصول القادمة من الكتاب.

وما أن بدأت الثورة حتى بدأ تدفق الضباط والجنود العرب إلى الحجاز للالتحاق بالثورة، سواء من كان منهم في الأسر أو من ود طريقاً له وفر من الجيش العثماني والتحق بالثورة، فكان لهم الدور الأساس في نجاح الثورة، وتحرير المشرق العربي من الاستبداد والاحتلال، حيث لم يجدوا في نظرهم طريقاً للخلاص من الهيمنة الاتحادية إلا بالتعاون مع بريطانيا، فتم الاتصال بها سواء كان عزيز المصري أو الفاروقي أو نوري السعيد وغيرهم من الضباط العرب.

أما الذين لم يلتحقوا بها أمثال الفريق ياسين الهاشمي والفريق رضا الركابي منذ بدايتها، يعود إلى انكشاف المخططات البريطانية والفرنسية التي تستهدف الأرض العربية، فوضع العديد منهم في حالة الارتباك بين التخلص من الاستبداد والتطهير العرقي والقومي، وبين استعمار أوروبي يمزق بلادهم، ويدمر مشروعهم القومي الذي ناضلوا من أجله. لهذا كان هاجس الخوف من الأطماع البريطانية عاملاً هاماً في المشاركة الفعلية

إعلان الثورة

في صبيحة العاشر من حزيران 1916 الموافق 9 شعبان 1334 أعلنت الثورة بالطلقة الأولى التي أطلقها الشريف حسين من منزله في مكة المكرمة، فانطلقت القوات العربية العشائرية تطلق النار على ثكنة "جياد" وثكنة "جرويل" التي كانت فيها القوات التركية، لتستمر إلى تشرين الأول 1918 حين تم تحرير

سورية.سلم الشريف حسين إعلان الثورة العربية لمحمد شريف الفاروقي في مكة في 26 حزيـران 1916، مـن أجـل عرضـه على القيادة البريطانية في مصر، وبعد الموافقة عليه، يتم نشره، وإعلانه في وسائل الإعلام في مصر، وبعد عودة الفاروقي إلى مصر، عرض الإعلان على الجنرال كلايتون الذي أرسل كتاباً إلى الفاروقي اقترح عليه تعديل واختصاره، وجاء في كتاب كلايتون: (.. إن ما جاء في هذا المنشور عن ضرب العثمانيين للكعبة وبعض الأماكن المقدسة في مكة المكرمة يحدث تأثيراً سيئاً في الهند، إذ أن للاتحاديين كثيراً من الأنصار والمريدين، فهذه العبارات تجعلهم ينقمون علينا وعلى سيادتكم، وتدفعهم للاعتقاد بأنها دعايات لا قيمة لها..)(14).

ولهذه الأسباب اقترح الجنرال كلايتون على الشريف حسين حذف الكثير من الكلمات من المنشور، مما أخر الإعلان عن قيام الثورة إلى نهاية شوال 1334 وآخر آب 1916. ويعتبر هذا المنشور من الأهمية لما يحمل من أسباب التباين والاختلاف مع جمعية الاتحاد والترقي عقيدة واستراتيجية وأهدافاً، وما ارتكبته تلك الجمعية من أخطاء قاتلة في حق العرب والإسلام، وما شكلته ممارساتها من صراع داخل الدولة العثمانية، ويبين المنشور الدوافع البعيدة والقريبة التي دفعت العرب إلى القيام بالثورة ضد الدولة العثمانية، والطلب بالاستقلال التام عنها، ويعتبر هذا المنشور من أهم الوثائق التي تؤرخ مرحلة الثورة العربية. (النص الأصلي لمنشور الشريف الذي رفض الأنكليز تم نشره في باب الوثائق).

العسكريون العرب الذين شاركوا في البدايات

اشتد الضغط الاتحادي على الشريف حسين وعلى القبائل العربية، بعد إعلان الثورة، فأرسل الاتحاديون تعزيزات كبيرة من العتاد والجنود إلى المدينة، وأصدروا التعليمات لقادتهم بتعزيز صمود القوات الاتحادية في الطائف والمدينة، ثم قاموا بتعيين الشريف علي حيدر أميراً على الحجاز بدلاً من الشريف حسين، هذه الإجراءات أخافت الشريف حسين، ودعته أن يطلب من

مندوبه محمد شريف الفاروقي في القاهرة ضرورة الإسراع في إرسال الضباط العرب إلى مكة للمشاركة في القتال مع الجيش الاتحادي. ففي برقية للشريف حسين لمحمد الشريف الفاروقي مؤرخة في 23 رمضان 1334 الموافق 24 تموز 1916 جاء فيها: (بلغنا أن حيدراً تعين أميراً، وأنه وصل أو على وشك الوصول إلى المدينة، أما الصلح فهو مقرون بصلح حلفائنا، ولا يمكن أن أقبله معهم، بلغهم ليعتقدوا بصورة قطعية ولو لم يبق معي سوى أولادي. إني بفارغ الصبر انتظر بعث نوري بك ورفقه أو من يقوم مقامهم إلى الوقت الممكن لقدومهم، وجملة طيارات تكون حاضرة بجدة. ولا مانع أن يكونوا من الإنكليز لأنهم على كل حال يستخدمون خارج الحرم، لأنه منتظر في كل دقيقة خبر تجاوزهم على الأولاد "أي جيوش سمو الأمراء فيصل وعبد الله وعلي وزيد". أفدتم تقرر تخريب الخط بواسطة الحكومة، فما بقي حاجة للأشخاص الذين ذكرتموهم. المطبعة موجودة. اسم الصحيفة "القبلة" وينبغي أن تكون كلمة "القبلة" بحرف كبير.

الحسين) (15).

في 23 رمضان 1334 الموافق 24 تموز 1916 أرسل معتمد الشريف في القاهرة محمد شريف الفاروقي برقية إلى الشريف حسين يعلمه باستمالة عدد من الضباط العرب الأسرى لدى البريطانيين إلى جانب الثورة العربية، وعن استعدادهم للسفر إلى الحجاز. وأجابه الشريف ببرقية في 24 رمضان 1334 الموافق 25 تموز 1916 طلب منه التالي:

1ـ بمجرد تلقيكم برقيتنا هذه تحظون بفخامة نائب جلالة الملك لتقرروا مع حضرته استقدام من تستنسبون من الضباط لتنظيم وتشكيل جيش البلاد الذي بلغ عدد أفراده في اليوم الثالث من إعلان تجنيده ما يتجاوز الألف.

2ـ أبقوا لنا الفاضلين محب الدين الخطيب وفؤاد الخطيب للاستفادة منهما في ما يقتضي للصحيفة التي يراد نشرها باسم القبلة إذاعة حقوق البلاد "الحسين"(16).

ثم أرسل برقية أخرى في 28 تموز 1916 يخبره فيها عن توجه عدد من الضباط العرب وشخصيات عربية إلى الحجاز مع التجهيزات جاء فيها: (لقد استعد للسفر في 26 رمضان الأشخاص الآتية أسماؤهم مع التجهيزات: نوري بن سعيد، رؤوف عبد الهادي ومعه عشرون جندياً مدفعياً مع أربعة مدافع ضخمة من عيار 15 سنتمتراً، ومدفعين جبليين، وطبيب عسكري مسيحي متعصب للعربية الدكتور أمين معلوف مع مستشفى كامل لمائة جريح مع جميع اللوازم وخمسين خيمة.. ومن الملكيين (المدنيين) فؤاد الخطيب ومحب الدين الخطيب المحرران للجريدة (جريدة القبلة التي قرر الشريف إصدارها)... وسيسافر بعد مدة قصيرة مدير البوليس إلى جدة وطبيب أو طبيبان مع خمسة ضباط مدفعية أكبرهم اليوزباشي محمد رشيد البغدادي، والملازمون سعيد البغدادي، وراسم الشامي، وإبراهيم الراوي، ومحمد حلمي البغدادي، وعدد قليل من الجنود للتشكيلات مع 26 رأس خيل لجر المدافع، و300 بغلة للنقليات).

ونرى في برقية الفاروقي للشريف حسين أنه يعلمه عن رواتب الضباط فيقول: (.. وهؤلاء الضباط تقرر معاشهم بصورة مؤقتة رشيد 20 جنيهاً، والباقون 12 جنيهاً لكل واحد، ونوري 15 ورؤوف عبد الهادي 14 إن استخدام ضابطاً للدرك، وأن كان ضابطاً يعطى حسب الوظيفة).

ويخبر محمد شريف الفاروقي الشريف عن اجتماعه مع عزيز علي المصري، وأنه حاوره للقدوم إلى الحجاز والمشاركة في الثورة العربية، ويذكر أنه لمس منه تحمساً للمشاركة، لهذا اتفق معه على الذهاب إلى مكة لمقابلة الشريف حسين، واستلام مهمته منه، ويخبر الشريف أن عزيز المصري سوف يسافر إلى الحجاز خلال عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً: (.. وأما عزيز بك فبعد المناقشة الطويلة معه، اعتمدت عليه اعتماداً تاماً، وأيقنت بشدة وطنيته، وتعلقه بمولاي، وسيسافر في بحر 10 أو 15 يوماً لأعتاب مولاي، لوضع أساس التشكيلات).

كما حدثه عن المساندة الجوية والبحرية لبريطانية للثورة بقوله: (أما من جهة ينبع فقد أبلغني نائب الملك أنهم أعطوا اليوم أوامر إلى السفن الحربية

لإقامة المظاهرة الحربية. وأما مسألة الطيارات والجيش المصري للمدينة فقد علمت دونها مصاعب جمة. يسافر الوابور بعد غد مع كل لوازم التلغراف والتلفون)(17).

من هذه الرسالة يتبين لنا أن محمد شريف الفاروقي استطاع خلال فترة قصيرة وبالتعاون مع البريطانيين في القاهرة من إعداد النواة الأولى لتشكيل جيش عربي نظامي يؤسس لدولة عربية حديثة، ويلعب دوراً هاماً في معارك الثورة، ومن ثم بناء النظام العربي الحالي في تكوناته القطرية الحالية.

كما يمكن أن تكون أول طلائع العسكريين العرب الذين التحقوا بالثورة العربية وشاركوا فيها حسب ما جاء في رسالة محمد شريف الفاروقي هم: الضباط نوري السعيد ورؤوف عبد الهادي ومحمد رشيد البغدادي وراسم الشامي وإبراهيم الراوي ومحمد حلمي البغدادي، ثم التحق بهم الفريق عزيز علي المصري.

وقد التحق الملازم الأول سعيد أفندي البغدادي مباشرة بعد وصوله إلى مكة بالقوات التي كانت تحت قيادة الأمير عبد الله بن الحسين في حصار الطائف، وأشرف على المدافع التي نصبت في حصار الجيش العثماني في ثكنة الطائف، التي كان لها دور في استسلام القوات العثمانية، وقد كلفه الأمير عبد الله مندوباً عنه في المفاوضات مع الضباط الترك من أجل استسلام القوات العثمانية في ثكنة الطائف.

وفي حصار الطائف المذكور خلال الأشهر الأولى من الثورة ألتحق عدد كبير من الجنود السوريين مع القوات العربية الثائرة، وكان لهذا الالتحاق دوره الفاعل في إضعاف القوات العثمانية واستسلامها، فيذكر اللواء غالب باشا في مذكراته عن حصار الطائف إن الجنود العرب وغالبيتهم من السوريين، الذين كانوا في ثكنة الطائف، تأثروا بإخوانهم العرب الثوار، ففروا زرافات زرافات من الثكنة والتحقوا في صفوف الثوار، مما أدى كما يقول: (حراجة موقفنا وبتنا في حالة مؤسفة جعلتنا لا نثق بمن حولنا)(18)

وبين الشريف حسين في برقية إلى الفاروقي في القاهرة والمؤرخة 30 رمضان 1334 تاريخ 31 تموز 1916 أسباب طلبه للمظاهرة البحرية الإنكليزية والطائرات لنشر الرعب في صفوف الجيش العثماني ومن كان يحالفهم من القبائل العربي فجاء في البرقية: (...

ـ إن رواية تجاوزهم على "ينبع" عن طريق (العلا) هي التي اضطرتني إلى طلب مظاهرة (ينبع) التي كثرت الإشاعات في اتخاذها واسطة السوقيات وما يقتضي لحركات المدينة.

ـ ضروري تعيين إحدى البواخر الحربية المستعدة مصحوبة بثلاث طيارات، لتقيم فيها، لدفع كل احتمال، وفي كل يومين أو ثلاثة تجري الاستكشافات المناسبة بواسطة الطيارات، ليعلم الترك الذين استحوذ عليهم الرعب الشديد من تأثيرها في (لام) بجوار (المنال) بوجودها، وهذا السبب الوحيد الذي أوجب طلب مظاهرة (ينبع) التي بواسطتها تنقطع آمالهم من التجاوز، وبتأثيرها في قواتهم بالمدينة)(19).

الضباط العرب الأسرى والثورة

أمام حاجات الثورة العربية الملحة والعاجلة للعسكريين العرب، ذهب عدد من القادة العرب إلى الشريف حسين وإلى موافقة البريطانيين بالسماح له بالدخول إلى معسكرات الأسرى لإقناع الضباط والجنود العرب من الأسرى بالالتحاق بالثورة العربية، فتم السماح لعدد منهم، فسافر البعض منهم إلى معسكرات الأسرى في الهند من أجل جلب الضباط والجنود للمشاركة في الثورة، وكان هؤلاء يحاضرون بهم في معسكراتهم عن مساوئ الاتحاديين، وما يمارسونه من ظلم واضطهاد بحق العرب، وما أقدموا عليه من تطهير قومي بالعرب وقادتهم، وعن جرائم جمال باشا الذين أعدم النخب العربية في دمشق وبيروت، وما يخططونه في إذابة العنصر العربي في القومية الطورانية، ثم يبينون لهم أن الثورة العربية هي طريق الخلاص الوحيد من الظلم والاستبداد، وأن الثورة

التي تفجرت في مكة المكرمة بقيادة الشريف حسين تهدف إلى إقامة دولة عربية مستقلة، وأن بريطانيا ستساعد العرب لتحقيق هذا الهدف، ويذكر أمين سعيد أن دعاة الثورة كانوا يخيرون الأسرى العرب بين الالتحاق بالثورة والتخلص من الأسر مع راتب مناسب سيحصلون عليه، أو الاستمرار في السجون والأسر(20).

ويذكر فؤاد غصن عن إحدى اللقاءات مع العسكريين العرب التي شارك بها، وتمت في معسكر بريطاني للأسرى في بومباي بالهند، أنه بعد أن ألقى محاضرة بهم عن الظلم والاستبداد الذي يقوم به الترك في سوريا، وعن الثورة العربية التي يقودها الشريف حسين ضد هذا الاستبداد، وجد تأثراً لدى الضباط والجنود العرب وحماسة واستجابة بالالتحاق بالثورة العربية، وقد أبحر معه في الباخرة إلى جدة من العسكريين العرب /19/ ضابطاً و/300/ جندي.

ومن بين الضباط الذين غادروا معسكر بومباي للأسرى: القائد حسن فهمي الزنبركجي (من دمشق)، والرئيس عبد الكريم تتري، والقائد رشيد آل أنكري (بغداد)، والرئيس عبد الرؤوف المصلاوي (الموصل) والملازم أحمد فكي أبو حمد (فلسطين)، وضباط برتبة ملازم: حامد الوادي، وشاكر الراوي، وعبد الحميد الشالجي، وشاكر عبد الوهاب، وعبد الرزاق الخجا، ورشيد حسن الخماش، وشاكر آل النائب، وعبد اللطيف طابور آغاسي، (من العراق) ونسيب متولي (سوريا) ومنعم عبده (فلسطين). وكان في استقبالهم في ميناء رابغ الضابط العراقي محمد حلمي(21).

ثم تتالت أفواج العسكريين العرب تلتحق بالثورة في الحجاز من معسكرات الأسر أو من معسكرات الجيش العثماني، ومعظم الوثائق والمصادر التاريخية تشير إلى أن أول باخرة قد وصلت إلى ميناء جدة تقل عسكريين عرب كان في تموز 1916، وأن كان البعض يرجح أنها وصلت في آب 1916، وكان فيها أحد عشر ضابطاً ومن بينهم ثمانية ضباط عراقيين وهم: نوري السعيد، رشيد المدفعي، سعيد المدفعي، محمد حلمي، راسم سردست، داود صبري، إبراهيم الراوي، ورشيد الهاشمي (22). ويذكر أمين السعيد أن من بينهم كان رؤوف عبد

الهادي (من فلسطين)(23).

ويتحدث سليمان موسى عن وصول أول باخرة إلى ميناء جدة في 2 آب 1916 وأنها كانت تقل (130) جندياً وخمسة ضباط، وعند البر اختلطوا بالأسرى الأتراك الذين كانوا ما يزالون هناك، فتأثر الجنود بأقوال أولئك الأسرى من أن الشريف جعل المسلمين يحاربون المسلمين، فأعلن أكثريتهم أنهم يريدون العودة إلى معسكرات الأسر التي جاؤوا منها. وعندما اتصل نوري السعيد الذي كان أعلى رتبة بين الضباط الخمسة هاتفياً بالشريف، وأبلغه ما حدث، رد عليه الشريف: (يا أبني نحن اللي ما يبغانا ما نبغاه). وبالنتيجة لم يبق من عساكر تلك الباخرة إلا خمسة ضباط وستة جنود.(24).

وتوالى وصول الضباط والجنود العرب حيث وصل إلى جدة في كانون الأول 1916 خمسة وثلاثون ضابطاً وكان منهم واحد وعشرين ضابطاً عراقياً هم: مولود مخلص، وعلي جودت، وعبد اللطيف نوري، وجميل المدفعي، وعبد الحميد الشالجي، وعبد الله الدليمي، وشاكر الشيخلي، وعبد الرؤوف الغلامي، وعبد الرزاق الخوجه، وشاكر النائب، وجمال علي، ورؤوف الشيخلي، ورشيد الإنكليزلي، وبرقي العسكري، وعبد الكريم شاه، وحامد الوادي، ورشيد خماس، وشاكر الروي، وشاكر عبد الوهاب، وعبد الكريم التاتار)(25).

وفي عام 1917 انضم عدد كبير من الضباط العرب إلى الثورة العربية من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين ونذكر منهم: جعفر العسكري، رمضان شلاش، محمد الشهواني، صبري العزاوي، ثابت عبد النور، تحسين علي، ناجي شوكت، عبد الغفور البدري، إبراهيم كمال وإسماعيل نامق، سعيد يحيى، حامد الهاشمي، حامد القشطيني، عبد الله صالح، إسماعيل صابر، سليمان مسرور، عبد المجيد الشيخلي، أحمد ناجي الباجه جي، ورشيد عالي، وغيرهم(26).

ويذكر جورج أنطونيوس في كتابه يقظة العرب أن الأمير فيصل أرسل رسالة إلى الفريق علي رضا باشا الركابي في دمشق حملها لورنس إليه، الذي اجتمع به في 13 حزيران 1917 خفية في عزبة آل بكري، وكان مضمون الرسالة

خطة تحرير سورية، وهي على عدة مراحل تبدأ من تحرير العقبة ثم تنتهي لتحرير باقي المدن السورية، ويطلب فيصل من الركابي أن يقوم بتحريض الجنود والضباط العرب على الفرار من الجيش التركي في حال وصول القوات العربية إلى العقبة، ثم يطلب أن يلتحق به في حال وصوله إلى العقبة، كما طلب فيصل من الركابي بعدم القيام بالثورة ضد الترك، كما سبق وأن تم طرحها معه عندما كان في دمشق قبل إعلان الثورة، خشية من فيصل أن يقدم الأتراك على مذبحة بحق الأهالي في دمشق، وهو لا يستطيع آنذاك مساعدتهم(27).

إلا أن بعض المصادر التاريخية تكذب حصول هذا اللقاء، والذي لم يورده لورنس في كتابه أعمدة الحكمة السبعة، بل جاء في تقرير رفعه لورنس إلى كلايتون تضمن لقاءه بالفريق الركابي في دمشق سراً(28).

ومن الذين نفوا حصول هذا اللقاء نسيب البكري الذي كان يشارك كأحد قادة حملة الأمير فيصل مغادرته دمشق (29) كما ينفي أكرم الركابي نجل رضا الركابي الحادثة، ويقول أن والده لم يلتق لورنس إلا مرتين الأول في قرقميش عام 1913 حين جاء لورنس إلى المنطقة بصفة عالم آثار، والثانية في تشرين الأول 1918 بعد تحرير دمشق، ويذكر الركابي أن لورنس قال لوالده في اللقاء الأخير: (ألا تذكرني يا باشا؟) فرد عليه: (أظن أنك عضو بعثة الحفريات). وهذا دليل على نفي اللقاء(30). ولهذا هناك شك كبير في اللقاء بين لورنس والركابي.

وأمام تعاظم الثورة وتطورها في عام 1917 شدد جمال باشا الخناق على العسكريين العرب، وأبعد ما تبقى منهم من سورية، وأمر باعتقال كل ضابط أو جندي عربي يشتبه بميوله القومية، وتحت هذه الذريعة تم اعتقال أمير اللواء عبد الحميد باشا القلطقجي والقائد زكي بك العظمة، ومارس عليهم التعذيب والتنكيل، وكاد أن ينفذ بهما حكم الإعدام لولا إنذار الأمير فيصل له بإعدام كل ما لديه من الأسرى من الضباط الترك، وكل لهذا التهديد مفعوله. فأطلق سراحهما ووضعهما تحت دائرة المراقبة الأمنية التركية(31).

الفصل الثالث

تأسيس الجيش العربي

خلال الأشهر الأولى من انطلاقة الثورة بدأت طلائع الضباط العرب تصل إلى جدة ومكة، ويرجع الفضل الأول إلى ما قام به محمد شريف الفاروقي من مساع حثيثة مع الإنكليز من أجل إرسال الضباط الأسرى إلى الحجاز، كما ما قام به من حوارات مع الأسرى العرب، الذين أسرتهم القوات الإنكليزية على جبهات القتال مع القوات العثمانية، أو من الفارين من الضباط العرب من الجيش، ومن ثم اتصلوا بالإنكليز لإيصالهم إلى الشريف حسين بعد أن علموا بتحالفه معهم.

وبعد الطلائع الأولى والتي كان عددها قليل كما أشرنا من قبل، بدأت تصل مجموعات أخرى حتى بلغ عددهم في الأشهر الأولى ثمانية عشر ضابطاً جلهم من تنظيم جمعية العهد، والغالبية من أصل عراقي، وكان من بينهم: نوري السعيد، مولود مخلص، علي جودت الأيوبي، رؤوف عبد الهادي، عبد الله الدليمي، محمد حلمي، سعيد المدفعي البغدادي، محمد رؤوف يحيى وغيرهم(32).

كما أن الإنكليز زودوا قوات الشريف حسين بمفرزة مصرية مؤلفة من بطارية جبلية وفوج مشاة وبضع رشاشات أرسلت إلى الأمير علي في رابغ. وأرسلوا مع نوري السعيد ألف بندقية، وستمائة عسكري عربي ممن كانوا في الأسر لديهم.

كانت حاجة الشريف والثورة هامة لتشكيل الجيش العربي، خاصة بعد أن أرسل إليه شريف الفاروقي برقية في 23 ذو القعدة 1334 تاريخ 20 أيلول

1916 قال فيها: (أفهمني نائب الملك أن الحكومة الإنكليزية لا تستطيع الآن إرسال جند إلى الحجاز لأسباب شتى، أهمها تحاشي أن يتهم العالم الإنكليز بأنهم يقصدون الاستيلاء على الأماكن الإسلامية المقدسة، واعتقاداً منها بأنه ليس للترك في الحجاز قوة يخشى بأسها).

وهكذا تكون التشكيلات الأولى للجيش العربي في البدايات تتكون من فوجين من المشاة وضعا بالقرب من رابغ، وألحق بهما فوج رشاش وبطارية مدفع. ثم جرى تشكيل فوج ثالث من المشاة وألحق به ثلاث بطاريات من المدافع من مختلف الأحجام، وسرية من المهندسين، وفوج هجانه.

وبعد عدة أشهر أسس كل من مولود مخلص وأحمد الموصلي وراسم سردست جيشاً عربياً ثانياً، رابط أيضاً بالقرب من ينبع القريبة من المدينة المنورة، كما نظم مولود أفواج الخيالة، وأحمد الموصلي أفواج المشاة، وراسم سردست بطاريات المدفعية(33).

وتم إنشاء أول مدرسة حربية عربية تدرب وتهيىء المراتب العسكرية المختلفة، وتخرج الضباط، وتم تكليف الضابط السوري شكري الشوربجي مديراً لها(34).

ولكن ما أن مضت سنة وبضعة أشهر على قيام الثورة العربية حتى غدا لها في أوائل تشرين الثاني 1917 أربعة جيوش: جيش الشمال، وجيش الجنوب، وجيش الشرق، وجيش الوسط، وهذا ما سوف نستعرضه في الفصول القادمة.

لورنس يبحث عن زعيم للثورة

طلب الشريف حسين من الإنكليز تشكيل لجنة من أجل بناء الجيش العربي، وتقدير احتياجات الثورة من عتاد وعساكر وفنيين، وتكون اللجنة منه ومن الإنكليز، فتمت الموافقة، وتشكل الوفد الإنكليزي من السير لورند ستورس السكرتير الشرقي لدار الاعتماد في القاهرة، والكابتن لورنس، ومندوب الشريف

الأمير عبد الله وكانت مهمة ستورس ولورنس الإطلاع على قدرة ثورة الشريف على النجاح، حيث كان الشك بدأ يراود عدداً من القادة الإنكليز في ضعف في الثورة، وعدم قدرتها على طرد الترك، وبني هذا الاعتقاد بسبب عدم تمكن الشريف من إنهاء حصار الطائف بوقت قصير، وكذلك الثكنات التركية في مكة، كما فشل في فرض الاستسلام للقوات التركية في المدينة المنورة بعد أن طال الحصار(35).

وصل لورنس وستورس في منتصف تشرين الأول 1916 على ظهر الباخرة البريطانية (لاما) إلى جدة، وكان معهم على ظهر الباخرة الفريق عزيز علي المصري، وقد استقبلهما في جدة الأمير عبد الله ومعه القنصل البريطاني في جدة الكولونيل ويلسن، ودارت بين الخمسة عبد الله ولورنس وعزيز وستورس وويلسن محادثات حول الثورة وحاجاتها، وخلال المباحثات عرض ويلسن برقية من الحكومة البريطانية مفادها إن الثورة العربية سببت لها متاعب في الهند، لهذا ارتأت سحب بعثتها العسكرية والبعثة العسكرية الفرنسية، وأنها ستبقي فقط على الدعم العسكري الأسلحة والعتاد والأموال.

وقد فجرت هذه البرقية غضب الأمير عبد الله، فقوات الثورة بحاجة للفنيين لاستيعاب السلاح الحديث، وإلى دعم جوي وبحري بريطاني، فأعلن عبد الله في حالة تطبيق محتوى البرقية سيقوم بإعلان الصلح مع العثمانيين، وهذا ما يغير كل المخططات البريطانية والفرنسية، فطلب لورنس وستورس منه التمهل لإعلام حكومتهما، وتبديل رأيها فأمهلهم الأمير عبد الله اثنا عشر ساعة، وبإعطاء الموافقة(36).

ويظهر أن التهديد كان له تأثيره على الضباط والقنصل البريطاني، فتم التريث في القرار، واجتمع ستورس بالأمير عبد الله وطلب منه السماح للورنس بالسفر إلى منطقة رابغ لإجراء دراسة شاملة عن الثورة العربية لتقديمها إلى الحكومة البريطانية، فوافق الأمير عبد الله على السفر(37) بعد أن استحصل على موافقة والده الشريف حسين، وبتدخل من ستورس لدى الشريف أيضاً(38).

أرسل لورنس برقية عن الاجتماع إلى كلايتون في 17 تشرين الثاني 1916 قال فيها: (حضر اجتماع اليوم: ولسن، ستورس، الشريف عبد الله، عزيز المصري، وأنا، لا أحد يعرف حقيقة الموقف في رابغ، عزيز المصري سيذهب غداً معي إلى رابغ، يبدو أن الشريف عبد الله يرغب في أن تكون القوة الأجنبية في رابغ نقطة ارتكاز، إذا لم ينجح الهجوم المشترك على المدينة.. عزيز المصري يرى أن قدوم اللواء الإنكليزي ليس ضرورياً ولا حكيماً. وهو يقول أن الطريقة الوحيدة لاستمرار العمليات العسكرية... هو وجود ضباط أركان إنكليز في رابغ، يتعاملون مباشرة مع الشريف علي والشريف فيصل، دون الرجوع بالتفاصيل إلى شريف مكة الذي يخافونه جميعهم(39).

وأشارت ملاحظات لورنس أنه كان أيضاً يبحث عن شخصية قيادية مؤهلة لمهمة قيادة الثورة والجيش المزمع إقامته، وبعد أن قابل كلا من عبد الله وعلي وفيصل، فقال: (كان القصد من زيارتي الأولى هذه التفتيش عن رجل ذي سيادة يستطيع أن يقبض على مقدرات الثورة، كفء للسير بها إلى الغاية التي تصورتها، فكنت كلما طال بنا الحديث أزداد يقيناً بأن الأمير عبد الله ليس أهلاً للزعامة المنشودة. وإنما يصلح للسلم لا للقتال)(40).

ثم وجد في فيصل الشخصية القيادية، بعد أن زاره في 24 تشرين الأول 1916 وقابله في قرية الحمراء القريبة من رابغ. فقال عن مقابلته الأولى لفيصل: (ووجدنا على باب أكبر المنازل عبداً أسوداً شاهراً سيفاً قبضته من فضة، فهمس الدليل كلمات في أذنه فقادني العبد إلى إحدى الغرف الداخلية، فوجدت رجلاً أبيض الوجه، لم أشك لأول وهلة أنه من جئت قاصداً إليه، فيصل الزعيم الذي أشعل الثورة العربية(41).

كما التقى لورنس في قرية الحمراء في اليوم الثاني بالضابط مولود مخلص وهو أول ضابط نظامي يلتحق بالجيش الذي يقوده الأمير فيصل ووصف لورنس تلك المقابلة بقوله: (وفي اليوم التالي تعرفت بمولود مخلص، وهو من العرب المتقدين حماسة ووطنية، أخذ أسيراً في العراق، وما أن سمع بثورة الشريف

حتى انضوى تحت لوائه، وكان أول ضابط نظامي انضم إلى فيصل.

وأخذ مولود يحدثنا عن شدة افتقار العرب إلى المعدات الحربية، وأن هذا سبب الورطة التي وقعوا فيها، والحالة السيئة التي كانوا يعانونها، وأنهم يأخذون شهرياً من الشريف 30 ألفاً من الجنيهات، ولكنه لا يقدم إليهم سوى قدر ضئيل من الدقيق والأرز والشعير، ولكنه لا يقدم لهم مدفعاً واحدا، ولا معلومات، ولا مساعدات فنية. فقلت له: إني ما جئت إلا لأقف على الحالة بنفسي، وأن مهمتي تنحصر في تبليغ السلطات الإنكليزية عن حاجاتكم...) وتحدث مولود الذي قال له ولفيصل: (.. إن الشيء الوحيد الذي نحتاج إليه هو أن نقاتل.. نقاتل... إلى أن نفني الترك.. قدم لي المدافع وأنا كفيل بأن أقوم بكل شيء... إننا نكثر من الأقوال ولكننا لا نفعل شيئاً). وقال عنه لورنس: (كان مولود من مهرة المقاتلين الجبابرة... وكان يعد المعركة التي لا يجرح فيها لا قيمة لها، بل هي من المعارك الذاهبة سدى، فكان الجرح في نظره دليلاً على اشتراكه في القتال)(42).

نتائج مهمة ستورس ولورنس

عادت اللجنة الإنكليزية إلى مصر وهي تحل ضرورة دعم الثورة العربية، فيذكر لورنس أنه حين رجع إلى مصر التقى سردار الجيش المصري السير ريجنالد وهو القائد الحربي المكلف بالثورة العربية، وأطلعه على ما حملوه من معلومات عن مهمتهم، وسافر معه إلى الخرطوم، وهناك يقول لورنس: (وهناك قدمت له التقارير الطويلة التي أعددتها، وفيها أظهر الأماني والآمال التي أعقدها على الثورة العربية المحتاجة إلى المساعدة الفنية الحاذقة، وضرورة إرسال بعض الضباط الإنكليز من أصحاب المواهب الفنية، والذين يستطيعون التكلم بالعربية لمساعدة القواد العرب كمستشارين فنيين، وأن هذا هو الطريق الوحيد لتحكيم الصلات بيننا وبين العرب.

وقد أصغى إلى السير ريجنالد وهو مفعم مسروراً من تفاؤلي لأن الثورة العربية، كانت حلمه الذي ملك عليه تفكيره طول السنوات الماضية.

وبعد أن قضيت ثلاثة أيام في الخرطوم عدت إلى القاهرة، وأنا أشعر بأن الرجل قد قبل كل الآراء التي عرضتها عليه. وبعد أسبوع تقرر إرسالي إلى بلاد العرب لأداء هذه المهمة)(43).

عزيز المصري وزيراً لحربية الثورة

وصل عزيز المصري بعد أربعة أشهر من قيام الثورة في 5 أيلول/ سبتمبر 1916 إلى مكة، والتقى بالشريف حسين فيها، وبعد هذا اللقاء عينه الشريف رئيساً لأركان الجيش العربي الذي بدأت تشكيلاته الأولى في الظهور بعد وصول الضباط العرب، وكانت أول هيئة أركانه بعد قيام الثورة تم تشكيلها قبل وصول المصري إلى الحجاز مؤلفة من ثلاثة ضباط هم: النقيب فؤاد والملازم سعيد المدفعي والملازم أول محمد حلمي(44).

ومن خلال ما عرضناه في برقية محمد شريف الفاروقي المؤرخة في 28 تموز/ يوليو 1916 أنه حاور عزيز المصري حول مجيئه إلى الحجاز ومشاركته في الثورة، ووجد لديه حماساً، وكرر الفاروقي على الشريف بثقته الكبيرة في عزيز المصري، ويتضح أن هناك عدة دوافع أقنعت الشريف حسين، الذي لم يكن راغباً به (45) بسبب معتقداته القومية وشخصيته القوية، لهذا نرى أن تلك الصفات من الأسباب التي جعلت الشريف حسين يتريث بالموافقة والقبول على الطلب من عزيز المصري للحضور إلى مكة، والمشاركة في قيادة الثورة.

إلا أن ظروف الثورة وتطوراتها أجبرت الشريف على طلبه وتكليفه بقيادة الجيش، ومنها:

ـ إن غالبية الضباط الذين التحقوا ببداية الثورة من ضباط العهد وعزيز المصري هو مؤسس جمعية العهد، لهذا ألحوا على الشريف باستقدام عزيز إليه لمكانته في نفوسهم، ونفوس معظم الضباط العرب في الجيش العثماني وغيره.

ـ إن سمعة عزيز المصري في الوسط العسكري والمدني كمناهض لاستبداد

الاتحـاديين، ومقارعـته لهم، وسيرته الطيبة سواء في اليمن أو ليبيا، وكرجل قومي عربي يحظى بالثقة من الجميع، يعطي الثورة وجهاً وطنياً وقومياً.

ـ ثقـة الـضباط العرب الذين لم يلتحقوا بالثورة بقائد العهد عزيز المصري، يدفع الكثير منهم للالتحاق بالثورة والمشاركة فيها.

ـ إن الـبريطانيين كانـوا في بدايـة الـثورة بحاجـة إلى خـبرة عسكرية قتالية، تملـك ثقـة العـسكريين العـرب، وتـدفعهم لقـتال الـترك، وإلى مؤسـس من ذوي الكفـاءات العـسكرية للجـيش العربـي الجديـد، فوجدوا ذلك في عزيز المصري، فضغطوا على الشريف حسين ليوجه الدعوة للمشاركة.

أمـام هـذه العوامل التي أرغمت الشريف حسين على الطلب من معتمده في القاهـرة محمد شريف الفاروقي بالاتصال بعزيز المصري ومحاورته، على الرغم مـن أن الـشريف لم يكـن راغـباً في قـدوم عزيـز المـصري القـوي الشخـصية، فالـشريف كـان يـرغب بوجود قائد عسكري يطيع أوامره وينفذ دون مناقشة، أي أداة يحـركها كـيف يـشاء، وهـذا لم يكـن متوفـراً في عزيـز المـصري المعـروف بالتمـسك بريه، وعدم طاعة ما لا يؤمن به. أراد عزيز المصري قبل أن يسافر إلى الحجـاز الإطـلاع إلى الاتفـاق الذي تم بين الحكومة البريطانية والشريف حسين، فالتقـى بالـسير ريجالـند وينجيت الذي عين قائداً للعمليات الحربية في الحجاز، ومـندوباً سـامياً في القاهرة بدل السير مكماهون(46)، وتم إطلاعه على الجانب الإيجابـي مـن تعهـدات مكماهـون للـشريف حسين، وأخفي عنه الكثير من تلك المراسـلات حتـى لا يتراجع عن السفر إلى الحجاز، فوافق على الانضمام للثورة، وتكوين جيش عربي نظامي يكون بقيادته(47).

التشكيلات الأولى للجيش العربي

في منتصف شهر محرم 1335 الموافق الثالث من كانون الأول 1916 وضع الفـريق عزيـز علـي المصري ونوري السعيد نواة الجيش العربي، إذ أصدر الملك الحـسين بـن علـي مرسـوماً ملكـياً بتألـيف الجيش العربي المؤقت على الشكل

التالي:

1ـ الجيش الشمالي، بقيادة الأمير فيصل، وكان مقره حوالي (بئر درويش) ووظيفته إشغال جيش فخري باشا وتوقيفه، إلى أن تتم تشكيلات الجيش العربي النظامي في (رابغ).

2ـ الجيش الجنوبي: بقيادة الأمير علي، مقره رابغ.

3ـ الجيش الشرقي، بقيادة الأمير عبد الله مقره حوالي (وادي العيص) ووظيفته إشعال العثمانيين من الشرق.

كما أصدر الملك حسين بن علي في 3 كانون الأول 1916 تشكيلات الجيش العربي على الشكل التالي:

قيادة الجيش:

- القائد العام للجيوش العربية: جلالة ملك العرب الحسين بن علي.

- وزير الحربية ورئيس الأركان: الزعيم عزيز علي المصري. وتولي الوزارة بعد استقالته الفريق محمود القيسوني.

- الجيش الشمالي:

- القائد سمو الأمير فيصل. ومقره بئر درويش

- المرافق: مولود مخلص الموصلي

- وهو مؤلف من مدفعين جبليين مصريين وسرية الرشاش، والفصيل الهاشمي، وقوة العشائر.

- الجيش الشرقي:

- قائده سمو الأمير عبد الله. ومقره وادي العيص

- المرافق كان يتبدل حسب الظروف

- الجيش الجنوبي:

ـ قائده سمو الأمير علي. ومقره رابغ

ـ رئيس أركان الجيش: العقيد نوري السعيد

ـ مدير اللوازم: المقدم علي جودت الموصلي

ـ مؤلف من آلاي مشاة: قائده المقدم توفيق الحموي.

ـ وفرقتين من الجنود كل منهما خمسمائة، وفوج الرشاش قائده: المقدم عبد اللطيف نوري البغدادي

ـ إضافة 9 رشاشات وبطارية المدفعية: يقودها رائد، ومدفعين جبليين ومدفع أبوش، وقوة عشائر والبعثات الأجنبية.

وبذلك وضع عزيز المصري نواة الجيش العربي، بحيث قسمه إلى قسمين: الأول جيش نظامي يقال وفق التكتيكات الحربية التقليدية العسكرية. والثاني قسم (سيار) يقوم بحرب عصابات خلف الخطوط التركية مما يربك خطوطهم وإمداداتهم، فعزيز كان يريد الاستفادة من كل الطاقات الحربية المتوفرة لديه، فالجنود والضباط يقومون بعملهم العسكري التقليدي، في حين يستفيد من أبناء القبائل البدوية في تكوين وحدات أنصار، تعمل على إنهاك العدو نفسياً ومادياً وعسكرياً(48).

أول جهاز مخابرات عربي

وفي إطار تأسيس الجيش العربي تم إحداث أول جهاز للمخابرات العسكرية في عام 1917، حيث شكلت قيادة جيش الثورة لجنة من عدد من الضباط العرب ضمت: نوري السعيد ومزاحم الباجه جي ومحمد شريف الفاروقي وعلي جودت.

وحدد مهامها في محورين:

ـ تنظيم شبكة تجسس ضد الأتراك بالتعاون مع السلطات العسكرية البريطانية.

ـ تجنيد العرب في فلسطين ومعسكرات الأسرى للجيش العربي في الشمال(49).

تدريب الجيش العربي

كما قام الضباط بتدريب العناصر المتطوعة من رجال القبائل على السلاح لخلق بنية عسكرية للجيش العربي الجديد، وفي أواخر شهر كانون الأول 1916 زار الفريق عزيز علي المصري وزير الحربية منطقة رابغ، حيث كان يجري فيها التدريب، ودهش من التطور السريع والدقيق الذي يقوم به الضباط العرب في تدريب العناصر، فقال لضباط التدريب: (لم يكن يخطر ببالي أنكم تستطيعون تأليف جيش من العرب بهذه الدرجة من الانتظام، وخيل إلي أنني أصبحت في بوليفون (ميدان في ألمانيا لتجربة الأسلحة آنذاك)، عندما شاهدت ميادين الرمي المختصة بتدريب جنودكم)(50).

الحكومة العربية الأولى

في 7 ذي الحجة 1334 الموافق 4 تشرين الأول/ أكتوبر أصدر الشريف حسين أمراً إلى الشيخ عبد الله السراج مفتي الأحناف تضمن تشكيل أول حكومة عربية، وكان نص الأمر:

(حضرة العالم الكامل الشريف عبد الله سراج.

إنه لما كانت مصالح الرعايا، وانتظام شؤون المجتمع، وتوفير أسباب العمران، لابد لها من دواوين، يتوزع عليها النظر في الحكومة، وما هو معنى ذلك في المصالح العامة والخاصة، ويتعهد بها أساس الوظائف، التي تبني عليها المسؤولية، وتكوين حكومة لبلادنا المحروسة، وبالنظر لما تحققناه فيكم من الكفاءة والاستقامة. عزمنا بعد الاستعانة بالله عز وجل على توجيه منصب قاضي القضاة لعهدتكم. وتعيينكم وكيلاً عن رئيس الوكلاء العظام.

وقد اخترنا بقية الوكلاء حضرات الذوات الآتية أسماءهم:

ـ ولدنا عبد الله بن الحسين لوكالة الخارجية، ويكون وكيلاً عن وكيل الداخلية.

ـ عبد العزيز بن علي (المصري) رئيس أركان، ووكيل رئاسة الجند، مع ترفيع درجته عن رتبته الحاضرة. ـ الشيخ علي المالكي وكيلاً للمعارف.

ـ الشيخ يوسف بن سالم رئيس البلدية سابقاً وكيلاً للمنافع العمومية.

ـ الشيخ محمد أمين (تركي) مدير الحرم الشريف سابقاً وكيلاً للأوقاف في نظارة أمور الحر وكل ما يتعلق بوظيفته الشريفية.

ـ الشيخ أحمد بن عبد الرحمن باناجه وكيلاً للمالية.

وذلك لما توسمناه من درايتهم، واستعدادهم للسهر على مصالح البلاد وأهلها على ما يرضي الله. وإننا ننتظر منكم المبادرة إلى تأسيس الدوائر والدواوين الرسمية، وتعيين العمال والموظفين لها، وأرجو الله سبحانه أن يجعلنا مظهر توفيقه وهداه في كل ما يحبه ويرضاه.

في 7 ذي الحجة الحرام سنة 1334

شريف مكة وأميرها

الحسين بن علي)(51)

الضباط الإنكليز في الجيش العربي

كما شارك في تنظيم الجيش العربي عدد من الضباط الإنكليز ونذكر منهم الكولونيل لورنس والكولونيل "جويز" واللذان التحقا بالجيش الشمالي، كما ألف الإنكليز مجموعة (مفرزة) لتخريب سكة الحديد مؤلفة من 30 إلى 40 جندياً من المصريين وغيرهم؛ لتخريب السكة الحديدية وجسورها بالديناميت، وأنضم الكولونيل "نيوكب" إلى الجيش الشمالي وهو اختصاصي في شؤون المفرقعات والتخريب، وكان يشارك القوات العربية والبدوية وهو مرتدياً اللباس العربي لتخريب الجسور والسكك ومحطاتها. إضافة إلى ذلك انضم إلى جيش الأمير

عبد الله والأمير علي ضباط ارتباط من الإنكليز نذكر منهم الميجر "غارلند".

وأرسلوا فوج مشاة من العسكريين المصريين برئاسة الجنرال أمين بك المصري وبطارية جبلية وثمان رشاشات من أجل حماية الطائرات البريطانية. وقد بقيت هذه القوة في العقبة بعد الزحف العربي لتحرير بلاد الشام حتى عام 1918، ولم تشارك هذه المفرزة بأي عمليات حربية، في حين انتقلت البعثات الأجنبية مع الجيش العربي إلى الشام.

الضباط الفرنسيون

أرسلت فرنسا بعثة سياسية إطلاعية في شهر آب 1916 برئاسة سيدي قدور بن عيروط، والتي التقت الملك حسين، واطلعت على مجريات وتطورات الثورة، وعادت إلى فرنسا مقترحة مساندة الثورة العربية ودعمها مادياً وعسكرياً.

فأرسلت الحكومة الفرنسية بعثة عسكرية برئاسة الكولونيل "بروموند" والكابتن بيزاني وضباط مغاربة،وأسلحة مؤلفة من مدفعين جبليين، وأربع رشاشات، ومفرزة للتخريب ما بين 30 إلى 40 جندياً مغربياً، وقد وصلت تلك البعثة إلى جدة، ثم انتقلت إلى رابغ حيث قوات الأمير علي، وبعد تشكيل الجيش الشمالي التحقت به.

الفصل الربع

استقالة عزيز المصري

لم يكن الشريف حسين وفق معظم المصادر راغباً في حضور عزيز المصري إلى الحجاز ليترأس قيادة الجيش العربي كما بينا سابقاً، إلا أن الضغوط البريطانية أجبرته على طلبه وتكليفه بوزارة الحربية(52)، بسبب حاجة الجيش العربي الجديد إلى مؤسس من الضباط الكبار الذين مارسوا القتال وفن الحرب، وللاستفادة من خبراته العسكرية، وخاصة أن له تجربة عسكرية كبيرة، فحارب في البلقان وليبيا واليمن، وكان مدرساً ناجحاً في كلية الأركان في العاصمة العثمانية الآستانة، وهو من أكثر الضباط العرب في بداية الثورة خبرة عسكرية في تكوين وقدرة الجيش العثماني.

إضافة إلى ذلك كان عزيز قائداً سياسياً له نفوذ واسع على الضباط العرب، الذين بدأت طلائعهم تصل إلى الحجاز، وكان وجوده يمنح الثقة لهم بالالتحاق بالثورة، لأنهم يدركون أنه قائد عربي مخلص لأمته العربية، ولا يمكن أن يخونها، مما يمنحهم أيماناً أشد بالثورة والدفاع عنها، وضرورة نجاحها، وأن التحالف الذي تم مع بريطانيا لن ينقص من استقلال بلادهم المنشود.

أمام هذه العوامل وحاجة الشريف حسين إلى كسب الضباط العرب، وعدم رفض الطلب البريطاني، وحاجة الجيش الجديد لمؤسس، وافق الشريف على قدومه وقلده رئاسة الأركان ثم وزارة الحربية، ولكن كان عزيز تحت مراقبته وعيون جواسيسه عن كل خطوة يخطوها، خوفاً من استفحال أمره، وخاصة أن الشريف لا تزال ماثلة أمام عينيه ما فعل قادة الجيش العثماني بالسلطان عبد

الحميد الثاني، وكيف حولوا السلطان محمد رشاد ألعوبة بين أيديهم.

وبدأ الخلاف مبكراً بين الرجلين، فعندما أعطيت الصلاحيات لعزيز المصري في تكوين وتنظيم الجيش العربي النظامي، وتدريب المقاتلين العرب، ووضع الخطط القتالية لمحاربة الجيش التركي، بدأ عزيز في تنفيذ ما أوكل إليه، وكان في كل مرحلة يحتاج إلى مستلزمات العمل سواء للقتال أو التدريب وغيرها من المتطلبات العسكرية، وكان عزيز يرسل الطلبات التي يحتاجها إلى الشريف الذي كان يتريث في الموافقة، كما شعر أن استجابة الشريف لطلباته غير كافية. لهذا طلب عزيز من القيادة البريطانية التالي:

ـ أن تكون قيادة الجيش مستقلة، لا يتدخل بها الشريف حسين أو أحد من أبنائه.

ـ تقديم المال والعتاد اللازم لتوسيع وتجهيزه ليكون قادراً على مجابهة الجيش التركي.

فأرسل الكولونيل ولسن معتمد القيادة البريطانية في جدة رسالة إلى الشريف حسن، اقترح فيها منح عزيز المصري صلاحيات واسعة لقيادة القوات العربية، وتقديم موازنة مالية خاصة بقيادة الجيش قدرها خمسة عشر ألف جنيه شهرياً(53).

رفض الشريف حسين ما جاء في رسالة الكولونيل ولسن، وشعر عزيز بالمضايقات التي يقوم بها الشريف حسين له، عند ذاك اقترح عزيز على البريطانيين أن يبقى اتصاله معهم فقط مقابل تزويده بالعتاد والمال، فرفضت القيادة البريطانية هذا المقترح.

بعد الرفض البريطاني شعر عزيز المصري أنه بين طرفين مضادين لما يخطط ويعمل ويهدف، الطرف الأول الشريف حسين غير راغب به، والثاني القيادة البريطانية التي لم تر فيه سوى قائد لمجموعة عسكرية حزبية راغبة في طرد الأتراك عن بلادها، وإقامة الدولة العربية المستقلة، لهذا تحاول الاستفادة منه

ومن أتباعه، لتوظفهما في حربها ضد الأتراك والألمان.

وعلى الرغم من هذا الشعور كان عزيز أيضاً يريد أن يوظف الطرفين في سبيل تحقيق أهداف جمعيته (العهد)، متأملاً تغيير الظروف لصالحه، وخاصة بعد أن تكون لديه جيش عربي حديث وقوي، سيكون له وزناً كبيراً في هذا الصراع، وهو يعلم أنه لا يملك البديل في هذا الظرف العربي والدولي، الذي يسمح له بإنشاء جيش عربي إلا في الحجاز، فبدأ يراهن على ما يبدو على هذا الأمل، فاستمر في موقعه العسكري يحاول تطوير الجيش الناشئ بالتدريب، واستقبال الضباط والجنود من أتباع وأنصار جمعية العهد.

ازداد الشعور لدى عزيز المصري ورفاقه الضباط القوميين أن الأمة العربية تمر في ظرف صعب بعد اكتشاف المخططات البريطانية ـ الفرنسية لاستعمار المشرق العربي بعد خروج الترك منها، فقد تسربت إليه وللضباط بعض ما اتفق عليه هذان البلدان بما يسمى اتفاق سايكس/ بيكو، لهذا وجد أن بقاؤه في تلك المرحلة رغم الضغط البريطاني والشريف هو الأفضل، ولكن يظهر من الوثائق عاد إلى ذاكرته القديمة فبدأ يخطط لإقامة مملكة ذات تاجين تركي وعربي.

ويقول "مجيد خدوري" أن عزيز أخبره أنه فكر حين يصبح الهجوم على المدينة المنورة وشيكاً في تشرين الأول/ أكتوبر 1916، سيرسل ثلاثة من الأشخاص من أتباعه إلى المدينة، ليقوموا بالاتصال مع القيادة التركية ويعرضوا عليها التالي: تشكيل قوة عثمانية وعربية مشتركة تحت قيادته، تتحرك فوراً نحو مكة، وتسيطر على القيادة العامة بدلاً من الشريف حسين، وتتفاوض حول تسوية سلمية مع الباب العالي على أساس قيام حكم ذاتي عربي كامل ضمن الخلافة العثمانية.

ويذكر الخدوري أن عزيز المصري فكر أيضاً في التفاوض المباشر مع السلطات الألمانية والعثمانية في سورية، بهدف الوصول إلى إجراء مماثل بالنسبة للأراضي العربية الأخرى، إلا أن ضباط الجيش الذين كانوا يحبذون التعاون مع

الإنكليز أبلغوا الشريف علي بن الحسين بخطط عزيز(54).

ما كتبه مجيد خدوري عن هذا التآمر الخطر من قبل عزيز المصري، بأنه كان يفكر بالاتصال بالأتراك مستغلاً الهجوم على المدينة في تشرين الأول فيه كثير من المغالطات، وينافي لحقائق الزمن والتاريخ. وأول ما ينافي هذه المعلومة أن عزيز المصري وصل إلى جدة في 5 أيلول 1916 وعين رئيساً لأركان الجيش ووكيل وزارة الحربية في حكومة الشريف حسين في 4 تشرين الأول 1916، ولم يبدأ الخلاف إلا بعد أشهر، فكيف كان يفكر في هذا الأمر حين وصوله إلى الحجاز وهو سيكون القائد؟. وكيف يعين وزيراً للحربية بدل الوكالة بعد شهر من التاريخ المذكور والشريف يعلم من شهر هذه المؤامرة؟ كما لا توجد هناك قوة تمنع الشريف حسين من عزله وطرده، أكذوبة تاريخية لا أقل.

إن كانت هذه الفكرة راودت عقل عزيز فإنها قد تكون في الأشهر الثلاثة الأولى من عام 1917، بعد افتضاح معاهدة سايكس/ بيكو. وتشير المصادر أن عزيز المصري قد علم بها في نهاية شباط وأوائل آذار من عام 1917 في خلال حديثه مع الكولونيل "نيوكمب"، الذي أبلغه أن اتفاقاً تم بين بريطانيا وفرنسا واعتزام سايكس/ بيكو التلاقي لإبرام هذا الاتفاق، وقد أبلغ عزيز المصري الشريف حسين بمضمون الحديث.

أرسل الشريف رسالة إلى المعتمد البريطاني في جدة الكولونيل ولسن في 16 آذار 1917 أشار فيها إلى ما أخبره عزيز عن حديث نيوكمب فقال: (أرجو أن تكونوا علمتم بما دار بينه وبين الكولونيل نيوكمب من حديث، أما إذا لم يبلغكم شيء فأرجو أن تحققوا وتعلموني حتى أحصل على الحقائق الصحيحة بوضوح). فأجاب ولسن في اليوم التالي برسالة أرسلها للشريف: (إن الكولونيل نيوكمب أنبأه عن اجتماعه مع عزيز علي. وأنهما بحثا في الوضع العسكري، وأن عزيز حاول أ، يتحدث بالسياسة معه. ولكنني لا أذكر التفاصيل. وقد أعطيت تعليمات للكولونيل أن عليه عند وقوفه في رابغ أن يقول لعزيز: أن عنده من

الواجبات العسكرية ما يكفي. وأن عليه ألا يشغل نفسه بالسياسة. وأن جميع المسائل السياسية على أية حال خاصة بسموك والحكومة البريطانية. وقد قلت للكولونيل نيوكمب أن يبلغ عزيز بأن سموك حليف بريطانيا العظمى، وحلفاؤها مصممون أن لا يعقدوا الصلح إلا بعد أن تهزم ألمانيا تماماً).

ويظهر أن تسرب المعلومات التي وصلت إلى عزيز المصري أحدثت قلقاً لدى ولسن، وخوفه من تطور الأمور إلى أسوأ في حال اكتشاف الضباط العرب إلى ما وصل إليه اتفاق فرنسا وبريطانيا حول بلاد الشام والعراق، والتي ستثير لديهم الغضب والثورة على بريطانيا مما سوف تؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباها على كل ما قامت به بريطانيا، ويفسد الخطط البريطانية والفرنسية الاستعمارية التي وضعت للمنطقة العربية. فأبرق ولسن إلى رئيسه الجنرال كلايتون في القاهرة في 17 آذار 1916 برقية يعلمه فيها بخطورة المعلومات التي وصلت إلى الشريف حسين من قبل عزيز المصري على لسان الكولونيل نيوكمب، جاء فيها: (هذا بالضبط ما كنت أخشاه.. إن الموقف دقيق، تحتاج معالجته إلى الحذر) وأوصى في رسالته أن يتم إطلاع الشريف حسين على الهدف الحقيقي من بعثة سايكس ـ بيكو.

أما ردة فعل الشريف حسين بعد أن أخبره ولسن أن عزيز يتكلم بالسياسة، وهذا محرم طبعاً في عرفه، فلا يجوز أن يتكلم بها إلا هو، كما أشارت برقية ولسن له، والذي يعرف نفسية الشريف حسين، بأنه مثل أي زعيم عربي، بأنه يسوس الناس كشيخ قبيلة لا زعيم دولة، فنفخ فيه شعور التفرد والاستعلاء، حين أعلمه أن السياسة له فقط، ولا يجوز أن يتحدث بها أحد، وأخبره أن الكولونيل نيوكمب سوف يحذر عزيز من التكلم بالسياسة، ومن عواقبها في حال التكرار. وهذا ما جعل الشريف يتنفس الصعداء، ويكذب عزيز ويتحامل عليه، ويصدق ويلسون فيقول: (إنه لا يصدق ما بلغه له عزيز)(55).

أدرك عزيز المصري بعد هذه الحادثة، بأن الشريف حسين لم يعد يصدق ما يقول، بل يحذر منه، ويسعى إلى التخلص منه، وأنه وضع ثقته الكاملة

بالإنكليـز، بعـد أن وعدوه كذباً بأنه سيكون ملك العرب، وخليفة المسلمين وكما ورد في رسـائل مكماهـون، ولم يعد يصدق أحداً سواهم. كما أن الإنكليز شعروا بخطـورته مـن خـلال معـرفته لمـا يخططـون مـن شر للمنطقة، ولهذا حذروه من جديـد أن أراد الـبقاء كوزيـر بعـدم الـتكلم بالـسياسة، الـتي تعـني عـدم الـتدخل بمستقبل أمته العربية ومصيرها بعد الحرب. وشعر المصري أن الإنكليز يريدونه ورفاقه العسكريين العرب مرتزقة يقاتلون من أجل مصالحهم.

وأمـام خطـورة الوقائـع بـين يديـه، فكـر عزيـز المـصري على ما يبدو بعد حادثـة الكولونـيل نيوكمب بالاتصال بالأتراك أو القيادة الألمانية كأهون الشرين، وإنقـاذ مـا يمكـن إنقـاذه مـن أحـلام العـرب في الحرية والاستقلال (كالمستجير بالـنار بالرمـضاء)، فلـيكن حكماً ذاتياً للعرب بدل الاستعمار البريطاني/ الفرنسي والتجـزئة، طبعاً أن ما فكر فيه عزيز المصري ليس إيجابياً يمكن أن نوافق عليه، لأنـه يحمل في طياته من الخطورة على القضية العربية وحركتها بما هو أشد من مخططات فرنسا وبريطانيا.

ويؤكد اللواء علي جودت عضو جمعية العهد، ومن الذين التحقوا مبكراً في الـثورة العـربية، الـذي كـان في جـيش الأمـير علي التي زحفت قواته إلى المدينة، الاتـصالات الـتي كـان يـريد أن يجـريها عزيـز المـصري مـع الأتراك، فيقول في مذكـراته أن عزيـز المـصري قد زوده بالشفرة السرية، ليرسلها إلى الفريق فخري باشـا قائـد القـوات التركـية المحاصـرة في المديـنة المـنورة، لـيقوم بإرسـالها إلى طلعـت باشـا في الأسـتانة، لـيقوموا بالاتـصال به شخصياً في القاهرة دون معرفة الأمـير علـي بهـا، وبـسبب اكتـشاف هـذا الأمـر تم إبعـاد عزيز المصري من قبل الإنكليـز، كمـا تم إبعـاد الـضابط علـي جـودت من الحجاز إلى مصر بعد رحيل عزيز المصري(56).

ولابـد مـن الإشارة إلى مصادر أخرى عن سبب استقالة عزيز المصري، فقد ذكـرت بعـض المـصادر التاريخـية أن القـوات العـربية في اليوم السابع من كانون الأول عـام 1916 زحفـت بقـيادة الأمير علي بن الحسين إلى المدينة، والتقت مع

القوات العثمانية في منطقة "بير الناجم"، حيث نشبت معركة طاحنة بين الطرفين دامت خمس ساعات، أدت إلى هزيمة ساحقة للجيش التركي، ووصلت القوات العربية في زحفها بعد الانتصار إلى المدينة المنورة، وكادوا يدخلونها، ولكن توقفوا بسبب نصيحة من عزيز المصري للأمير علي بأن ينسحب إلى رابغ، فعاد بقواته إلى رابغ.

وقد أدت هذه النصيحة إلى انقسام الضباط العرب وخلافات بينهم، وعزا البعض تلك النصيحة أن عزيز كان ينوي نية سيئة للأمير علي لأنه اتفق مع العثمانيين. وأخرى أن عزيز أساءه أن يتم تحرير المدينة على يد الأمير علي، وكان يريد أن يحررها هو. (57) وقد أدى خلاف الضباط مع عزيز المصري، ومع بعضهم البض، وخلافات عزيز والشريف إلى أن يقدم عزيز المصري استقالته ويغادر الحجاز في آذار 1917 بعد ستة أشهر من وصوله إليها، وأن يعود إلى مصر.

من عمليات الضباط العرب في الثورة

أدى الضباط العرب لدور الأهم والرئيسي في صناعة الثورة العربية ونجاحها، وقد أغفل الكثير من الكتاب هذا الدور الهام في نجاح الثورة، وبناء النظام العربي الحديث، فقد شارك الكثير من العسكريين في كافة المعارك سواء في المواجهة والالتحام والاقتحام، وحتى في عمليات التفجير والتفخيخ للمحطات والجسور، ولم تقتصر على لورنس والإنكليز، ويعترف لورنس في مذكراته بذلك، فيقول عن إحدى العمليات: (ذهبت في الليل مع بعض رجالي وثلاثة من الضباط العرب إلى الجسور الحديدية القائمة هناك ووضعنا عدداً من القذائف الميكانيكية، ثم نثرنا قذائف صغيرة تحت الخطوط الحديدية، نأينا عنها كثيراً ونحن ممسكون بطرف الشريط ثم أشعلنا النار بالفتيل فأخذت تمتد بسرعة بحيث لم تمض عشرة دقائق حتى دوت سلسلة من الانفجارات وتعالى الدخان واللهيب وانهارت الجسور فتعطلت مواصلات السكة الحديدية. وقد جنينا من

وراء ذلك فائدة كبرى إذ فزنا بتأخير حملة عسكرية كان الترك يسوقونها نحو المدينة)(58).

نذكر من المعارك التي سطر بها الضباط العرب الملاحم معركة (المجز)، وكانت من المراكز الهامة للجيش التركي وهي قريبة من المدينة المنورة حيث كان القائد الأمير علي، ولكن القيادة الفعلية للعقيد نوري السعيد ومساعده المقدم محمد حلمي البغدادي قائد المدفعية، وتمت في ليلة 11 و 12 آذار 1917 حيث حاصرت قوات نوري السعيد المعسكر، وخاضوا معه معركة شديدة دامت عدة ساعات، تم طرد العثمانيين من هذا الموقع الهام بعد تكبدهم خسائر فادحة، واستيلاء الجيش العربي النظامي عليه، الذي كان مؤلفاً من فوج مشاة يقدر بأربعمائة جندي ومدفعي صحراء وأربعة مدافع جبلية ومدفع قوس (أبوش) وعدد من وسائط النقل، وقد تابع في طرد الجيش التركي من مواقع هامة على الطريق مثل بئر درويش وبئر جليجلة(59).

وتشير الوثائق التاريخية أن عزيز المصري هو الذي اقترح تشكيل قوى عربية من الضباط العرب والعشائر البدوية، لتقوم بحرب عصابات ضد الإمدادات الجيش العثماني، كما بينا في الفصل السابق،وليس لورنس كما يدعي في كتابه أعمدة الحكمة السبعة، فبعد جولة عزيز المصري الاستطلاعية على منطقة رابغ ومحيط المدينة المنورة المحاصرة، اقترح في تشرين الثاني 1916 خلال اجتماعه في جدة مع الأمير عبد الله ولورنس وستورس وويلسن، أن يتم استخدام تكتيك حرب العصابات ضد الإمدادات التركية، والمواقع الصغيرة للجيش التركي بالإغارة عليها، والتي كان لهذا الأثر في ضعضعة الجيش العثماني وتشديد الخناق عليه في المدينة(60).

الفصل الخامس

تطوير الجيش العربي وتشكيلاته

مع تطور الثورة وتوسع رقعتها الجغرافية، ووصل عدد كبير من العسكريين العرب إلى الحجاز للالتحاق بالثورة، رأت القيادة العليا توسيع تشكيلات الجيش العربي، فشكلت في بادئ الأمر سرية من الخيالة، وأخرى من الهجانة، وبطارية مدفعية وفوج مشاة مع القوة النظامية الموجودة في الجيش.

الجيش الأولى (جيش فيصل) تألف من:

- القائد العام للجيش الأول: الأمير فيصل.
- رئيس أركان حرب الجيش: العقيد نوري السعيد.
- رئيس دائرة اللوازم: المقدم حسن فهمي الشامي
- سرية الهجانة: برئاسة الرئيس خالد السليماني.
- سرية البغالة: برئاسة المقدم مولود مخلص
- بطارية المدفعية وكانت مؤلفة من مدفعيين جبليين ومدفعيين صحراويين: بقيادة الرئيس رشيد البغدادي يعاونه الملازم راسم والملازم حسن الغزي.
- سرية الرشاشات: بقيادة الملازم انعم القدسي.
- فوج المشاة مؤلف من أربعمائة جندي: بقيادة الرئيس حسن.

الجيش الجنوبي

- وكان يتألف من ثلاثة أفواج مشاة مشكلة على النحو التالي:
- القائد العام الأمير عبد الله

ـ رئيس الأركان: المقدم نوري الكوبري

ـ الفوج الأول بقيادة الرئيس شكري الشربجي

ـ الفوج الثاني بقيادة الرئيس شاكر النائب

ـ الفوج الثالث بقيادة الرئيس محمد البغدادي

ـ أضيف إلى تشكيل الجيش الجنوبي فوج هجانة وسرية استحكامات ومفرزة التخريب، وفوج رشاش الذي كان مؤلفاً من 16 مدفعاً رشاشاً وبطارية أوبوش إنكليزية وبطارية جبلية، وآخر للمدفعية الصحراوية، وفصيل للمدفعية الجبلية، ومن قوة متبدلة من العشائر والقبائل(61).

الجيش الشمالي

ـ ويترأسه الأمير شرف بن راجح

ـ ويتألف من اللواء الهاشمي: ويقوده الرئيس عبد الله الدليمي والرئيس راسم المدفعي.

ورغم هذا التطور العددي للجيش العربي الجديد، إلا أن حسابات الإنكليز كانت تعمل أن يصل إلى مستوى معين، بحيث لا يهدد مصالحها في المستقبل أو مصالح فرنسا، أ يسعى إلى تدمير ما رسماه من مخططات واتفاقات بينهما لاقتسام المنطقة، فمن ناحية التسليح بقي في مستوى مدني، فليس لدى العرب التسليح البري الثقيل كالمدرعات والدبابات، فقط أسلحة مدفعية ورشاشات وبنادق ومتفجرات، أما من الناحية الجوية فلم تعمل بريطانيا على تطوير هذا السلاح؛ بل أبعدت العرب عنها حتى منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين، وهذا ما ينطبق أيضاً على السلاح البحري، فبقي الجيش العربي ضعيفاً في السلاحين السابقين معتمداً على القوات البريطانية لتوفرهما له عند الضرورة.

لهذا بقي التسليح للجيش في الحدود الدنيا على الرغم بأنه يخوض معاركه في حرب عالمية ضد دولتين قويتين هما تركيا وألمانيا، وذلك لمستقبل رسمتهما فرنسا وبريطانيا، والدليل على ذلك أن رئيس وزراء فرنسا جورج

كليمنصو في عام 1919 عاتب رئيس وزراء لويد جورج على إمداد العرب بالسلاح، والذي سيشكل عائقاً كبيراً أمام الجيش الفرنسي، الذي كان متمركزاً في بيروت من الزحف على سورية واحتلالها، فرد لويد جورج برسالة مؤرخة في 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919 قال له فيها أن الأسلحة التي أعطيت للعرب، وبقيت لديهم هي أسلحة خفيفة لحفظ النظام فقط(62).

الأزمة الداخلية بين الملك حسين والضباط

كان وجود الفريق عزيز المصري مع العقيد نوري السعيد عاملاً هاماً ميدانياً في تشكيل الجيش العربي، من حيث الانسجام النفسي والفكري بينهما، فهما عملا سوية في جمعية العهد في الأستانة كما بيّنا سابقاً، واشتركا معاً في حرب البلقان ما بين 1912 و1913، وكان نوري السعيد ثقة عزيز المصري في الكفاح السري لتنظيم العهد، وعندما اعتقل عزيز في شباط 1914 على أيدي جهاز أمن الاتحاديين اختفى نوري السعيد، وقيل في بعض المذكرات أن نوري السعيد كان أمين سر الجمعية، وحين تم اعتقال عزيز، أخفى الأوراق لدى العقيد طه الهاشمي شقيق ياسين، وكان طه من أبرز شخصيات ضباط العهد، وقد أرسلته القيادة الاتحادية إلى اليمن ضمن عمليات تصفية الضباط العرب.

وحين استقال عزيز المصري من وزارة الحربية، وعاد إلى مصر تأثر كثيراً نوري السعيد وخاصة أن الذي حل محله لم يكن له علاقة بالفكرة القومية أو بالنضال من أجل الأمة العربية، حيث عيّن الملك حسين الضابط محمود القيسوني وزيراً للدفاع، ولحساسية العلاقة بين الطرفين بسبب ولاء نوري السعيد لعزيز المصري، بدأ القيسوني يصدر الأوامر لنوري السعيد الذي شعر أن تلك الأوامر كيدية، فرفضها، فاشتكى القيسوني للملك حسن والذي استدعاه لمكة، ونتيجة الجدال قدم السعيد استقالته، فقبلها وأراد تعيين شريف الفاروقي بدلاً عنه، ولولا الأمير فيصل، الذي أصلح بين الطرفين لرحل السعيد، وكان لرحيله خروج معظم الضباط العراقيين من العهد من الجيش العربي، والذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من ضباط الجيش العربي، وبذلك أنهى الفيصل أزمة داخلية

كادت تؤثر على مجرى الثورة العربية(63).

بقيت العلاقات سيئة ما بين الشريف حسين والعديد من الضباط العرب، بسبب فرديته، وتعاليه، وكان آخرها قبيل تحرير دمشق التي ازدادت الفجوة بينه وبين الضباط، حين قلد الجنرال اللنبي العقيد جعفر العسكري وسام (CMG) في مقر قيادته في فلسطين، وجاء في كلمة التكريم لقب جعفر (القائد العام) مما أثر الشريف حسين، الذي أصدر بياناً في جريدة القبلة جاء فيه أن الحكومة العربية لم تمنح ألقاباً أو رتباً عسكرية لجعفر أو غيره، وأن لقب القائد العام الذي أعطي لجعفر لا يتفق مع الحقيقة(64).

وعندما وصلت الجريدة إلى معسكر الأمير فيصل انزعج الضباط العرب، وقدم جعفر العسكري استقالته من الجيش، وكانت ردّة فعل فيصل أكبر حين أعفى نفسه من قيادة الجيش الزاحف إلى سورية، وكلّف أخاه ويد بدلاً عنه، الذي أرسل إلى أبيه بالأمر وخطورته، وحين علم الجنرال اللنبي بالأحداث التي تجري في الجيش العربي أعلم القيادة البريطانية في القاهرة، فتدخل المندوب السامي ويجنت واللنبي وألحّا على الشريف حسين بضرورة إصلاح الأمور، فالجيشان البريطاني والعربي يخوضان المعارك الأخيرة لتحرير سورية، ومن دون الجيش العربي فإن كل الخطط الحربية سيكون نصيبها الفشل، عندها أرسل الشريف رسالة إلى فيصل اعتذار ذكر فيها أن ما صدر في جريدة القبلة لم يقصد به إهانة جعفر، وسيصدر قراراً بالرتب العسكرية. عندها انتهت الأزمة وعاد فيصل إلى قيادة الجيش وجعفر والضباط العرب بعد أن ترك الشريف أثراً سيئاً في نفوسهم(65).

العقيد جعفر العسكري

ولد جعفر العسكري في بغداد عام 1884، وكان أبوه مصطفى بك العسكري ضابطاً كبيراً برتبة (أميرلاي) في الجيش العثماني، وتعود أصوله إلى قرية (عسكر) قرب كركوك، درس في المدارس الابتدائية والرشدية في بغداد والموصل، والتحق بالمدرسة الحربية في استنابول عام 1901 وتخرج منها برتبة

ملازم في عام 1904، ثم أصبح مدرساً في المدرسة الرشدية العسكرية 1906، وأرسل مع البعثة إلى ألمانيا 1910، ول ينتسب إلى جمعية العهد كبقية الضباط العرب، وفي الحرب العالمية كان برتبة عقيد حين أرسل في غواصة ألمانية إلى ليبيا تحت إمرة نوري باشا شقيق أنور باشا لقتال الإنكليز على الحدود الليبية/ المصرية، تمهيداً لشن هجوم جمال باشا على مصر في منطقة القنال، ومنح نتيجة بسالته في الحرب لقب (باشا)، كما أن الألمان منحوه وسام الصليب الحديد الألماني، وفي 26 شباط 1916، وقع أسيراً بيد الإنكليز بعد إصابته في معركة ضارية معهم.

بعد إعلان الثورة العربية، رغب في الالتحاق بها، وتوسط عزيزي المصري ولم يفلح التوسط، ويظهر أن الشريف حسين تخوف منه لقربه من القيادة الاتحادية وخاصة من أنور باشا، وبعد أشهر على قيام الثورة كرر الطلب، فأرسل الرسالة التالية إلى الملك حسين:

(بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الملك الهاشمي العربي

عبد فقير يلتجأ ببابك، وقاصد أن يجاهد في سبيل ربك، إن شئت عقد أمره تيسر، ومتى أمرت بفك أسره لم يتعذر، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة والشفاعة، زكاة المروءة، وإنما هذا أمر يكبر في عين سائله، ويصغر فعند باذله، وأن سهلت عسر سهل، واسأله سبحانه وتعلى أن يؤيدك بنصره، بجاه جدك رسوله ﷺ.

في 15 صفر الخير 1335

الخاضع لسلطانك

محمد جعفر العسكري)(66).

ورغم ذلك لم يرد عليه الملك حسين أو يجيب على طلبه، مع أن الملك كان بأمس الحاجة إليه ولخبراته في الجيش العربي الحديث، ويخطر على بالنا

سؤال هل كان الملك يريد أن يذله أكثر وهو في أسره؟ ثم يمنن عليه بعد تكرار محاولات الاستعطاف؟ أم كان الحسين لديه الخشية من استمرار علاقاته مع الترك، فينقلب عليه بعد إطلاق سراحه؟

فمن الملاحظة، أن جعفر العسكري توسط في هذه المرة الأخيرة محمد شريف الفاروقي، الذي أرسل رسالة طلب لجعفر يرجوه بالالتحاق بالجيش العربي، وبعد وساطة الفاروقي، وضغط من الكولونيل ولسن الذي أخبر الشريف حسين، أن جعفر ليس كعزيز المصري فلا يتدخل بالسياسة، بل يركز على اهتمامه في عمله(67). عندها أجاب الملك حسين على طلب جعفر بالرسالة التالية:

(بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة القائد الهمام محمد جعفر باشا دام علاه

أحمد الله إليك. أما بعد، فقد تناولت كتابك الناطق بما طبعت عليه الحمية والنجدة فوقع لدينا أكرم موقع، وليس ذلك بكبير على شيمكم العربية المعروفة. وأن بلادنا مستعدة لترحيب لكن إذا أذن الله تعالى بمقدمكم إليها، وأن جيشنا العربي غير مستعد لقائد شهير مثلكم، لأنه لا يزال جنيناً، ومع هذا فالرأي لكم في القدوم. واقبلوا، يا عطوفة القائد، أزكى التحية والسلام.

مكة المكرمة في 14 ربيع الأول 1335 المخلص لكم: حسين)(68)

وفي الرسالة تردد في القبول، واستمرت مراسلات وتوسلات جعفر حتى وافق الملك حسين عليه فغادر الأسر في مصر في شعبان 1335 الموافق حزيران 1917 فالتحق بالملك حسين في مكة المكرمة حيث عينه قائداً للجيش الشمالي النظامي الذي يقوده الأمير فيصل في منطقة (الوجه). وقد علمت القيادة التركية بالتحاق جعفر باشا في صفوف جيش الثورة، فأرسل إليه جمال باشا رسالة سرية يذكره فيها بحماسته لتحرير مصر من الإنكليز، ويستعطفه إلى ترك جيش الثورة والعودة إلى صفوف الجيش العثماني(69).

الفصل السادس

العسكريون العرب والمخططات البريطانية والفرنسية

وفي خضم الحرب مع القوات التركية كشفت الأوراق السرية للمخططات الاستعمارية لبريطانيا وفرنسا، حين نشرت حكومة لينين بعد انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا نصوص اتفاقية سايكس/ بيكو في 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، وما أن اطلعت عليها الحكومة الاتحادية أرادت الاستفادة منها بفضح ما يخطط الحلفاء للعرب الذين يقاتلون معهم، وإيصالها إلى الثائرين في المشرق العربي بأن حلفاءهم يخدعونهم. فأرسل جمال باشا ثلاث رسائل رسالة إلى الأمير فيصل وأخرى للعقيد جعفر العسكري وكلاهما مؤرختين في 26، تشرين الثاني، نوفمبر/ 1917، والثالثة بتاريخ 5 كانون الأول/ ديسمبر 1917 إلى الأمير عبد الله بن الحسين(70).

وجاء في رسائله إلى خداع الحلفاء العرب حين دفعوهم إلى الثورة ضد الجيش العثماني من أجل تخريب العلاقات الإسلامية بين العرب والترك، وأنهم يريدون شق المسلمين لمصالحهم وغاياتهم الاستعمارية، فإن فرنسا وبريطانيا اتفقتا على أن تأخذ فرنسا سورية، وأن تأخذ بريطانيا العراق، وتحدث عن خوفه على فلسطين حيث مخططات الدولتين وضعها تحت حكم دولي خدمة لليهود.وسأل سؤالاً محرجاً للقادة الثلاثة هل كانت غايتهم الوصول إلى هذه النتيجة؟

ودعاهم في نهاية الرسالة إلى العودة إلى الضمير فلا زال هناك وقت للمراجعة، وإعادة العلاقات بين العرب والترك المسلمين، وإزالة سوء التفاهم

الـذي وقـع بينهم. وطلب من الأمير فيصل أن يفكر ويراجع نفسه واقترح عليه أن يلتقـي بالـشيخ بـدر الـدين الحـسني الدمـشقي المعروف والد تاج الحسني رئيس جمهـورية سـورية في العهد الفرنسي، كي يشرح له الشيخ الحسني موقف الجولة العثمانية ورأيها في وقف القتال والتعاون.

أما رسالة جمال باشا إلى جعفر فأرادها أن تصل إلى الضباط العرب. ففي حالـة أن فيـصل أو عـبد الله أخفـياها عـنه وعن الضباطّ وقد ذكره جمال بمواقفه الـسابقة البطولـية في الجـيش العثمانـي. وذكره أنه يقاتل إلى جانب من يريد أن يحـتل بـلاد المـسلمين، حـيث الإنكليز يسعون إلى استعادة احتلال فلسطين التي حـررها صـلاح الدين الأيوبي من الصليبيين، فهو الآن في الموقف الخطأ، وأنه لا يـزال يعـتقد بإخلاصـه، ويتمنـى مقابلـته والتباحث معه على إعادته إلى صفوف الجيش العثماني مكرماً معززاً كما كان في السابق قبل الأسر(71).

أرسـل فيـصل مـضمون رسالة جمال باشا إلى أبيه الشريف حسين، ويطلب مـنه الـرأي حـيالها، فأرسل الرسالة إلى السير ريجالند وينجت الذي حل معتمداً بـريطانياً في القاهـرة بـدل الـسير الـشريف حسين إلى وزير الخارجية البريطاني بلفـور، يقـترح علـيه أن يرسـله هو (وينجت) رسالة خداع إلى الشريف حسين، تنفـي كـل مـا جاء في رسالة جمال باشا، ويعتبرها أنها من أنواع الحرب النفسية الـتي يقـوم بها جمال باشا للإيقاع بين العرب والحلفاء، فوافق بلفور على مقترح ويـنجت، فأرسـلت رسـالة ويـنجت للحـسين في 8 شـباط 1918(72). فـصدق الحـسين مـا قالـع ويـنجت، ووقـع في شـبكة الخداع البريطانية مرة أخرى، حين صدق ولسن وكذب عزيز المصري حول الاتفاقات.

أرسـل الـشريف حـسين رسـالة إلى ولده فيصل بمتابعة القتال، وعدم الرد علـى مـا يطـرح جمـال باشـا لأنـه خداع من قبله لمنع الجيش العربي من متابعة القتال كما قال وينجت الذي نفى صحة الاتفاقات(73).

ومـن الأغرب في تصرفات الشريف حسين الفردية، أن وعد بلفور لم يجف بعـد حبره في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، وورود الأنباء إلى الشريف حسين

عـن بـيع الإنكليـز فلسطين لليهود قبل أن تـصل إلـيها أقـدام جنودهم أراضيها الطاهرة، فيستفسر عن ذلك، ويرسل إليه الإنكليز الكولونيل هو غرت الجاسوس البريطانـي الـشهير وأسـتاذ لـورنس. والـذي يعمـل في مكـتب القاهـرة، ويلتقـي هـوغارت الـشريف حـسين في جـدة، ويقـنعه أن وعـد بلفـور لا يـتعارض مـع طمـوحاته وأهـداف الـثورة العـربية، وباعتـباره الملـك المنتظر وخليفة المسلمين القـادم، وحتـى لا تـضيع تلـك الأماني صدق هوغارت، وكذب كل ما سمعه عن مخاطر وعد بلفور على فلسطين(74). وهكذا أضاع الحسين فرصة تاريخية كان بإمكانـه فـرض شـروط لـصالح القـضية علـى بـريطانيا التي كانت بأمس الحاجة للعرب لحسم الحرب لصالحها(75).

العسكريون والمخططات البريطانية والفرنسية

كمـا توقـع جمال باشا بأن رسالتيه إلى فيصل وعبد الله سيتم إخفائهما عن العـسكريين العـرب، أمـا رسـالته إلى جعفـر العـسكري فلا يمكن إخفاءها لأنه سـيطلع المقـربين إلـيه مـن الـضباط علـيها، وهـؤلاء بـدورهم سـيعلمون البقـية بمـضمونها، وصـح هـذا الـتوقع، فوقعت أنباء اتفاقية سايكس - بيكو ووعد بلفور علـى الـضباط العـرب وقع الصاعقة، فأعلنوا وقف العمل مع الإنكليز والشريف، فهم على غير استعداد لاستبدال الأتراك بالإنكليز والفرنسيين.

ووصـف نـوري الـسعيد حالـة الهـيجان الـذي أصـاب الـضباط العـرب مـنذ سمـاعهم بوعد بلفور بقوله: (.. حين وصل إلى الجيش العربي تصريح بلفور في شـهر نوفمبر (تشرين الثاني) سنة 1917.. وكان ذاك يقترب من العقبة، عمّ الذعر كافـة القـوات العـربية، فتـشاورنا فـيا بيـنـا، وأعلـنا عدولـنا عن الحرب في سبيل استقلال العرب، ريثما يرد إلينا تأكيد بأن تعهدات السير مكماهون ستنفذ. وما لم يوضح الإنكليز الأمر(76).

وعمّـت الفوضـى ضـباط الجيش، ولم تعد تطاع أوامر فيصل، مما دعاه إلى إرسـال بـرقية إلى أبـيه عمـا يجـري في معسكره، ويطلب من أبيه أن يرسل إليه

تأكيدات بريطانية على تنفيذ كل ما تعهدت به عبر السير مكماهون، فأجابه والده الشريف حسين في 11 كانون الثاني/ يناير 1918 بأنه واثق من الحلفاء وأنهم سينفذون تعهداتهم له بل لن يتخلوا عن حرف أقرّ له به، (أما الترك فليس لهم إلا السيف)(77).

فأخبرهم فيصل برسالة أبيه وما تضمنت من تأكيدات بأن البريطانيين سوف ينفذون كل ما تعهدوا به في رسائل السير مكماهون. فكان لتأكيدات الشريف حسين وفيصل أثرها في استئناف العمل العسكري ضد الترك(78).

ولم يكن أمام الضباط خيار آخر سوى متابعة الثورة، فالحرب توشك على نهايتها وهي تلوح بانتصار الحلفاء بعد خروج روسيا منها، وتعلقوا بأمل وفاء الحلفاء لما تعهدوا به، أو بمتغيرات دولية، تطيح بكل ما تأمروا به عليهم.

الضباط العرب والخلاف على تحرير سورية

بعد تكامل الجيش العربي في عام 1917 وتولي العقيد جعفر العسكري قيادة العمليات العسكرية، ووصول العسكريين العرب إلى أعداد كبيرة، نشطت العمليات الحربية، فأظهر فيها العسكريون العرب بسالة كبرى من أجل تحرير بلادهم من الاستبداد الاتحادي، وهذا ما برز من خلال سير المعارك لتحرير سورية، ومن المعارك التي منها معركة زمردة قرب العقبة والتي قادها جعفر العسكري، وشارك فيها اللواء الهاشمي الذي كان يقوده مولود مخلص، والمدفعية بقيادة راسم المدفعي والرشاشات بقيادة عبد الله الدليمي، والمشاة بقيادة الرئيس حسن أفندي.

وقد قاد الضباط العرب الكثير من العمليات خلال مسيرة الثورة، التي استمرت ما يزيد على عامين، وقدموا الكثير من التضحيات في سبيل تحقيق أهدافهم القومية، وأحلامهم في إقامة دولة عربية مستقلة كما وعد البريطانيون الشريف حسين، إلا أنهم شعروا وهم في منطقة العقبة أن بريطانيا وفرنسا تعدان خطة لإبعادهم عن تحرير بلاد الشام، وأن دورهم يتوقف عند العقبة، والباقي

تكمله القـوات البريطانية والفرنسية. فطلب الكولونيل جويس والكولونيل لورنس مـن العقـيد مولـود مخلـص(79) قائد الفرقة العربية الرابعة بالتوجه إلى جنوب معان (جنوب الأردن) للاستيلاء على محطة قصوعة.

شـعر مولـود الـذي كـان يـتوجس ريبة من المخططات البريطانية أنهم يريدون إبعـاد العـرب إلى الجـنوب، وأن تـتوجه الجـيوش الـبريطانية شمـالاً إلى فـلسطين وسـورية، فانـتفض مولـود حـين تـسلم الأمر وقال: (بأن الواجب على الجيش العربي هـو الاتجـاه شمـالاً نحـو بـلاد الـشام (سـورية)، لخدمة القضية الوطنية والعمل على تحريـر العـرب، لا الاتجـاه نحـو الجـنوب)(80). كـان ذلـك تحـدياً خطـيراً للقيادة الـبريطانية ، التي كانت تعمل لتأخير زحف القوات العربية إلى سورية، ريثما تزحف القوات البريطانية عليها، وبذلك لا يكون هناك فضل للعرب في تحريرها.

ولم يكـتف مولـود مخلـص بهـذا، بـل عقـد اجـتماعاً للـضباط العـرب في المعـسكر لمناقـشة خطـورة عـدم زحـف القـوات العربية لتحرير سورية، واتفقوا علـى إرسـال مذكرة إلى الأمير فيصل تتضمن مطالبهم، وفعلاً أعدوا المذكرة في نيـسان 1918 جـاء فـيها: (... إنـنا لم نلـتحق بالجـيش العربـي إلا لخدمة القضية العـربية، وتخلـيص وطنـنا مـن الأتراك، وليس للحصول على رواتب من إنكلترا، ولـسنا نـرى سـبباً في تـأخير زحفنا نحو الشمال، اللهم إلا النوايا السيئة للإنكليز وصناعهم..)(81).

أثـارت المذكـرة غضب فيصل والإنكليز معاً، واعتبروها تمرداً خطراً، فعزل فيـصل مولـود مخلـص عـن قـيادة الفرقة، ووضعه في السجن لعدة أيام، مما أثار حـنق الـضباط العـرب لمعـرفتهم ببـسالة وشجاعة ووطنية مولود مخلص، وأمام ضـغط العـسكريين العـرب تم الإفراج عن مولود وإعادته إلى فرقته، بعد أن قدم فيـصل للـضباط العـرب تطميـنات بأنـه يعمـل من أجل المصلحة العربية، إلا أن الـنوايا الإنكليـزية لم تكـن سليمة تجاه مولود، فأصيب بطلق ناري في رجله حين قـاد هجـوماً علـى الحامـية التركـية في معـان بطريقة مريبة، فتم نقله إلى مصر، حيث تم التخلص منه ومن متاعبه للإنكليز(82).

بدأت الكراهية للإنكليز تزداد يوماً بعد يوم لدى العسكريين العرب منذ نشر اتفاقات سايكس - بيكو وعد بلفور، وشعروا أنهم يخدعونهم ويخدعون الشريف حسين وأبناءه، لهذا كانوا يتحسسون من كل تصرف يقومون به الضباط الإنكليز، وأكثر ما أغاظهم ادعاء كل عمل بطولي ونصر إليهم وخاصة للورنس، ونشره في الصحف العربية والأجنبية؛ ليبدو أن هم الأسطورة في البطولة والسيادة، وهم تابعون لهم كأدوات فقط، ومما فضح هذه الأكاذيب وهذه الأساطير نشر صورة للضابط العربي صبحي العمري مع مجموعة من الضباط في مجلة إنكليزية بعد إحدى المعارك، وكتب تحتها اسم لورنس بدل العمري بأنه يستريح بعد المعارك مع ضباطه(83)، هذه البطولات التي يقوم لها العرب وتنسب للإنكليز كانت تثير مشاعر الضباط العرب.

ومن الأحداث والصدامات بين الضباط العرب والإنكليز كانت قبل تحرير دمشق بأيام، في أواخر أيلول ل1918، حين طلب الميجر يونغ من الجيش العربي تسوية أرض من أجل أن تكون مهبطاً للطائرات البريطانية، ونتيجة كراهية العسكريين العرب للإنكليز لم ينفذوا الأمر، وكان قبل أيام طلب أسماء الضباط والجنود الذين شاركوا في العملية، وقدمت له الأسماء بالمئات فوزع على الضباط والجنود أوسمة ومكافآت مادية، فعندما وجد عدم الاستجابة المطلوبة قال: (عند الإكرامية سبعمائة وعند الشغل عشرون). فاعتبرها الضباط إهانة لهم وتظاهروا مرددين: (نقاتل الإنكليز قبل الترك)، وكتبوا مذكرة لفيصل بعدة مواد منها:

ـ المادة الأولى: نحن عرب قبل كل شيء، ثرنا لنيل استقلال العرب، فإذا أراد الإنكليز اعتبار هذه الثورة خدمة لهم ومعينة لجيشهم في فلسطين، فإننا نقاتل بريطانيا قبل تركيا...

ـ المادة الثانية: بما أن رئيس الحملة العسكرية نوري السعيد يساير السياسة البريطانية، ويماشي الأهواء العسكرية الإنكليزية، فإننا نرفض طاعته، ومنذ هذه الساعة لا نأتمر بأمره.

- ورفضوا الإكرامية المالية والأوسمة البريطانية..

وكادت الأمور تتطور إلى الأسوأ لولا تراجع الميجر يونغ واعتذاره للضباط العربي وتدخل كل من المقدم علي جودة الأيوبي والمقدم جميل المدفعي في الوساطة، عندها عادت الأمور إلى مجاريها(84).

كانت القيادة البريطانية العسكرية تدرك أن الضباط العرب لديهم القدرة على فهم الأحداث، ومعرفة بما تخطط هي وفرنسا، وأغلب هؤلاء الضباط من تنظيم جمعية العهد، وهي تنظيم سياسي قبل أن يكون أعضاؤها من العسكريين، فهم إلى جانب خبرتهم العالية العسكرية، لديهم الخبرة السياسية، وما كان يمر على الشريف لا يمرر عليهم، وتحس أن لديهم كراهية لها بسبب ما يسمعون عن أطماعها في بلادهم، ولديهم الشعور بأن بريطانيا خدعتهم، كما خدعت الشريف من قبل بما قالت له في مراسلاتهم معهم عن استقلال بلادهم، وكل ما وعدت به لن يأخذ طريقه للتنفيذ.

وازدادت مخاوف الضباط العرب من التآمر البريطاني على قضيتهم العربية ومشروعهم القومي، حين أوقفت القوات العربية في العقبة، وبدأ الشك لدى الضباط العرب بأن الإنكليز، يحاولون عدم إشراك الجيش العربي أو أية قوات عربية في تحرير الساحل الشامي وفلسطين وسورية، واقتصار هذا الأمر على القوات البريطانية، بحيث يزحف الجيش البريطاني إلى فلسطين بدون مشاركة عربية، وهذا هو يعني عدم متابعة الزحف العربي شمالاً لتحرير سورية، فانفجر الخلاف الذي أشرنا إله بين مولود مخلص ولورنس، ومن ثم الضباط العرب مع الميجر يونغ الذين أكدوا على ضرورة مشاركتهم في تحرير سورية.

في هذا الجو الذي تسيطر عليه الريبة والشك بين الضباط العرب والإنكليز، انقسم الضباط العرب إلى فريقين عراقي وسوري، مما يضع لدينا الشك أن لجواسيس بريطانيا وضباطها الدور الخفي في صناعة هذا الانقسام، والهدف تفكيك وحدة الضباط العرب، مما يساعدهم في السيطرة عليهم، وبريطانيا من أشهر من طبّق سياسة (فرق تسد) في كل منطقة حلّت بها أو استعمرتها.

الفصل السابع

الخلاف بين الضباط العرب

في الـزمن الـصعب، وحين كان الجيش العربي يتهيأ لخوض معارك سورية، انفجـر خـلاف بـين الـضباط الـسوريين والعـراقيين علـى القـيادة. كـان الـضباط الـسوريون في الجـيش العربي يشعرون أنهم مبعدون عن مراكز الأولوية في قيادة تحريـرها. كمـا كـان لـدى الضباط السوريين شعوراً؛ بأن بعض الضباط العراقيين يسايرون الضباط الإنكليز في مفهوم استقلال التام، وعدم تحقيق المشروع القومي الـذي ضـحوا مـن أجلـه علـى مـشانق جمـال باشا، وأن العمليات العسكرية التي تجـري تـتم وفـق المـصالح البـريطانية، وزاد مـن تخـوف الـضباط السوريين على بلادهم الزيارات المتكررة التي كان يقوم بها كل من سايكس وبيكو لفيصل، حين وصـل واسـتقر في مـنطقة الـوجه، وهمـا المعروفان باتفاقيتهما الخطيرة ضد بلاد الـشام والعـراق، ثم ازداد الأمر تدهوراً بزيارة حاييم وايزمن لفيصل في معسكره، وهـو الـزعيم الـصهيوني الكـبير ورئـيس المؤتمـر الـصهيوني بعـد هرتزل، وكان خـوف الـضباط ممـا تحمـل الزيارة بعد صدور وعد بلفور، من إقدام فيصل على الموافقة لإقامة كيان لليهود في الجنوب السوري (فلسطين)(85).

وفي الحقـيقة أن سـبب وجـود الأعـداد الكـبيرة مـن الـضباط العـراقيين في القـيادة، لأن أعـدادهم كانـت تفـوق أعـداد الـضباط السوريين في الجيش العربي، وذكـرنا في الفصول الأولى من الكتاب أن أعداد الضباط العرب في جمعية العهد الـتي تـشكلت عام 1913 غالبيتها العظمى من الضباط العراقيين، وانتشر تنظيمها في كل المدن العراقية الرئيسية، فاستقطبت أعداداً كبيرة من العسكريين والمدنيين العـراقيين، في حـين كانـت أعـدادها أقـل في سـورية، حـيث كانـت جمعية الفتاة

واللامركزية لهما السيادة والانتشار في سورية.

وحين بدأت الخلافات تتفاقم بين الطرفين، أسرع أحد القادة القوميين العرب من السوريين (كامل القصاب)، الذي كان يقيم في القاهرة إلى دعوة عدد من ضباط من الجيش العربي، الذين كانوا يزورون القاهرة، مع عدد من السياسيين السوريين الذين يعملون في الحقل القومي، إلى الاجتماع في بيت محب الدين الخطيب في القاهرة، وعقد الاجتماع فعلاً في مكانه المحدد، وقد ضمّ إلى جانب القصاب كلاً من الضباط نوري السعيد وقاسم راجي ومحمد حلمي البغدادي ومن السياسيين كامل القصاب ومحب الدين الخطيب والدكتور عبد الرحمن الشهبندر والدكتور عيسى الإمام، ودار الحديث حول الخلاف ومعالجته.

وقد أبدى نوري السعيد ورفاقه الضباط عن استعدادهم لإعادة اللحمة بين الضباط ووحدة الطرفين، وأكد نوري السعيد عدم وجود أي ارتباط بين الضباط العراقيين والإنكليز، فاقترح كامل القصاب أن يقسم جميع الضباط العرب على قسم يؤكدون فيه خدمتهم للقضية العربية والإخلاص لها. فأقسم الجميع على القسم التالي:

(أقسم بالله. ألا أشتغل إلا للبلاد العربية، والأمة العربية، وأن أقاوم كل من يمدّ يده للأجانب، وكل سلطة تتعاون مع الأجانب، وكل سلطة استبدادية في البلاد)(86).

ومن خلال سطور القسم يتبين خوف السوريين من عاملين:

ـ الأول: الخوف من أن يتحول كل ما قام به العسكريون العرب في الثورة العربية، ليصب لصالح المشاريع الاستعمارية في بلادهم، أو من إقامة سلطة عميلة تنفذ مصالحه.

ـ الثاني: الخشية من إقامة سلطة استبدادية تحت غطاء العروبة، بدل السلطة الاستبدادية التي ناضلوا لإسقاطها، وقدموا من أجلها خيرة رجالهم، حيث تعرفوا عن قرب ما يتحلى الشريف حسين من فردية، ورفضه للدستور وأي قانون يحد

من سلطته.

أرسل كامل القصاب رسالة إلى الضباط السوريين حملها نوري السعيد، تضمنت ما توصل إليه المجتمعون في القاهرة، وتطلب من الضباط السورين إعادة الوفاق والوحدة مع إخوانهم العراقيين من أجل خدمة القضية العربية، سلم نوري السعيد الرسالة في العقبة إلى القائمقام حسن رفقي الخيمي كبير الضباط السوريين والدكتور محمود حمدي حمودة رئيس أطباء جيش الشمال. وأطلع الأمير فيصل على ما دار في اجتماع القاهرة.

ويظهر أن الضباط السوريين لم يقتنعوا بالرسالة، مما استدعى مجيء كامل القصاب إلى جنوب الأردن (الكويرة) قرب العقبة، فالتقى بالأمير فيصل الذي سأله عن سبب مجيئه إلى المعسكر، فقال: (ما أردت سوى خدمة قضيتنا الوطنية العامة،والتمكن لها في النفوس، وما جئت إلا في سبيلها، فالانقسام الواقع بين الضباط السورين والعراقيين يسيء إلى سمعة الجيش نفسه مادياً ومعنوياً، ويسيء إلى سمعتكم الشخصية. إذ يجب أن لا يكون هناك سوري ولا عراقي، وأن ينصهر الجميع في بوتقة العروبة..)(87).

وقد أفلحت زيارة القصاب في إعادة الانسجام بين الضباط السوريين والعراقيين، إلا أن القوى التي أحدثت الانقسام سرعان ما لعبت على تدمير ما بناه القصاب، فما أن غادر القصاب المعسكر إلى القاهرة، حتى أصدر فيصل أمراً دمج الفرقة الأولى التي يقودها حسن رفقي الخيمي مع الفرقة الثانية التي يرأسها نوري السعيد تحت قيادة جعفر العسكري، ليصبح قائداً للجيش، وعين نوري السعيد رئيساً لأركان الجيش، ورفقي الخيمي مفتشاً عاماً لجيش الشمال، مما أغضب الخيمي، فاستقال، وذهب إلى القاهرة بعد خلاف شديد بينه وبين جعفر العسكري(88). بعد هذه الحادثة انقسم ضباط العهد إلى عهدين، الأول عراقي والثاني سوري.

العسكريون وانتصار الثورة

قبل وصول القوات العربية بقيادة الأمير فيصل ومعه قوات إنكليزية بقيادة

الجنرال اللنبي إلى دمشق، انسحبت القوات التركية منها، وعلى الفور شكل الأمير سعيد الجزائري في 30 أيلول/سبتمبر 1918، حكومة عربية مؤقتة، استمرت يوماً واحداً، حيث وصل في 1 تشرين الأول 1918 الشريف ناصر، الذي عين أمير اللواء شكري باشا الأيوبي رئيساً لحكومة مؤقتة، وهذه لم تستمر إلا أيام. وفي اليوم الثالث من تشرين الأول الأمير فيصل يرافقه العسكريون العرب الذين قاتلوا معه، كما دخل دمشق الجنرال اللنبي وقواته البريطانية لتحل إحدى ثكنات دمشق وتتمركز فيها.

أما الأمير فيصل ما أن استقر في دار الحكومة حتى استعان بالضباط العرب في توفير الأمن والاستقرار للبلاد السورية، فأصدر أمراً أميرياً عين فيه أمير اللواء رضا باشا الركابي حاكماً عسكرياً على دمشق. وعين أمير اللواء شكري باشا الأيوبي حاكماً عسكرياً على بيروت(89). وفي اليوم الثاني دعا الفريق ياسين الهاشمي زعيم حزب العهد، الذي رفض الالتحاق بالثورة لريبته من بريطانيا ومطامعها في الأرض العربية، وكلفه رئيساً لديوان الشورى الحربي، وكلف الشهيد البطل القائد يوسف العظمة رئيساً للأركان.

أما اللنبي الذي أراد أن يشعر العرب في أول يوم بعد انتصار ثورتهم أنهم بلعوا الطعم البريطاني. الذي قدموه للشريف حسين، فإنه اجتمع مع فيصل في اليوم الأول 3 تشرين الأول 1918، ليبلغه عن سياسة بريطانيا في المنطقة العربية، وعلى اعتبار العرب حلفاء، وأن الجيش العربي هو أحد الجيوش التابعة له، لهذا قرر تعيينه رئيساً لإدارة مؤقتة على سورية الداخلية التي تضم دمشق وحلب وحمص وحماه وشرقي الأردن والبادية السورية، فأخرج من سلطته لبنان وفلسطين وحتى دير الزور والحسكة والرقة لم تدخل في دولته، وقال الجنرال اللنبي أنه وضع فلسطين تحت الحكم المباشر تحقيقاً لوعد بلفور، وأن لبنان تقرر أن تديره فرنسا، وأنه وضع ضابطي ارتباط فرنسي وبريطاني بينه وبين فيصل(90)، فأفرغ اللنبي بهذه التعليمات كل الأماني والدماء العربية التي سفكت على مذبح الحرية والاستقلال في بحر السراب والأحلام.

وعلى الرغم من ذلك نجد الأمير فيصل في 5 تشرين الأول/ أكتوبر 1918

يصدر بياناً باسم الشريف حسين للشعب العربي في سورية يتحدث عن الأحلام والأماني والاستقلال قال فيه:

(إلى أهالي سوريا المحترمين

أشكر جميع السوريين على ما أبدوه من العطف والمحبة وحسن القول لجيوشنا المنصورة، وللمسارعة للبيعة باسم مولانا السلطان أمير المؤمنين الشريف حسين نصره الله..) ثم أبلغهم المواد التالية:

1 ـ تشكلت في سورية حكومة دستورية مستقلة استقلالاً مطلقاً لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة جميع البلاد السورية.

2 ـ قد عهد إلى السيد رضا باشا الركابي بالقيادة العامة للحكومة المذكورة نظراً لثقتي باقتداره ولباقته.

3 ـ تتألف إدارة فرعية عرفية لرؤيا المواد التي يحيلها القائد إلينا.

وبيّن في بيانه أن الحكومة تأسست على العدالة والمساواة، وأنها لا تفرق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي)(91).

وفي 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1918 وقعت الحكومة التركية في موندروس الهدنة مع قوات الحلفاء، ونص الاتفاق على الجلاء التركي التام عن البلاد العربية. وبذلك انتهى الاحتلال التركي الذي دام أربعة قرون. وبعد أن قدم الشعب العربي وحركته القومية التضحيات الغالية في سبيل حريتها وكرامتها وإنهاء ليل الاستبداد الطويل.

إلا أن الأيام لم تكن كما صور البيان الاستقلالي، فهل تمض أيام حتى أنزل الفرنسيون العلم العربي عن دار الحكومة في بيروت، وعن بقية المدن العربية الساحلية، ثم قال البريطانيون أنهم لا يعترفون بدولة عربية مستقلة إلا بدولة الحجاز يرأسها الملك حسين، وحتى هذه لم تبق إلا بضع سنوات، ثم زالت هي وملكها وأسرته. وفي 24 تموز 1920 غزت القوات الفرنسية الأراضي السورية فطردت فيصل منها. وهكذا حلّ ليل آخر على الأمة العربية، ليبدأ الشعب العربي بعسكرييه ومدنييه نضالهم من جديد لبناء مشروعهم القومي التحرري.

المصادر والهوامش:

1 ـ مجلة الأسرار البيروتية ـ العدد 48 ـ 27 شباط ـ 1939 ـ ص13.

2 ـ مجلة الأسرار البيروتية ـ العدد 48 ـ 27 شباط ـ 1939 ـ ص22.

3 ـ حسام علي محسن الملامغة ـ لورنس والقضية العربية ـ دمشق ـ الأوائل 2005 ـ ص60.

4 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 46 ـ 13 شباط ـ 1939.

5 ـ أميل سعيد ـ أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ص45.

6 ـ دليل الجمهورية السورية ـ دمشق ـ دار اليقظة العربية ـ 1946 ـ ص31 و32.

7 ـ دليل الجمهورية السورية ـ المصدر السابق ـ ص34.

8 ـ دليل الجمهورية السورية ـ المصدر السابق ـ ص35.

9 ـ دليل الجمهورية السورية ـ المصدر السابق ـ ص38 و39.

10 ـ المصدر السابق ـ ص40 و41.

11 ـ المصدر السابق ـ ص42 و43.

12 ـ وميض جمال نظمي ـ الجذور السياسية والفكرية ـ مصدر سابق ـ ص151.

13 ـ وميض جمال عمر نظمي ـ الجذور السياسية ـ المصدر السابق ـ ص152.

14 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 51 ـ 20 آذار ـ 1939 ـ ص16.

15 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 64 ـ 19 حزيران ـ 1939 ـ ص21.

16 ـ المصدر السابق ـ الأسرار ـ 19 حزيران ـ 1939 ـ ص21.

17 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ المصدر السابق ـ العدد 54 ـ 10 نيسان 1939.

18 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 53 ـ 3 نيسان ـ 1916 ـ ص21.

19 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 64-19 حزيران ـ 1939 ـ ص22.

20 ـ أمين سعيد ـ أسرار الثورة العربية ـ مصدر سابق ـ ص238.

21 ـ أمين سعيد ـ أسرار الثورة العربية ـ المصدر سابق ـ ص120 و121.

22 ـ وميض جمال عمر نظمي ـ الجذور السياسية.. ـ مصدر سابق ـ ص152.

23 ـ أمين سعيد ـ أسرار الثورة العربية ـ مصدر سابق ـ ص121.
24 ـ سليمان موسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص290.
25 ـ وميض جمال عمر نظمي ـ الجذور السياسية ـ مصدر سابق ـ ص153.
26 ـ وميض جمال عمر نظمي ـ الجذور السياسية ـ المصدر السابق ـ ص153.
27 ـ جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ـ مصدر سابق ـ ص322.
28 ـ David Garnett, The Essential T.E. Lawernce, London, Jonatan, Cape, 1938, P, 120.
29 ـ سليمان الموسى ـ لورنس العرب ـ وجهة نظر عربية ـ عمان 1963 ـ ص99.
30 ـ خيرية قاسمية ـ الحكومة العربية في دمشق 1918 ـ 1920 ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ 1971 ـ ص123.
31 ـ جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ـ مصدر سابق ـ ص298.
32 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 65 ـ 26 حزيران ـ 1939 ـ ص16.
33 ـ سليمان الموسى ـ الحركة العربية ـ مصدر سابق ـ ص531.
34 ـ أمين سعيد ـ أسرار الثورة العربية ـ مصدر سابق ـ ص121.
35 ـ أمين سعيد ـ أسرار الثورة العربية ـ المصدر سابق ـ ص122.
36 ـ عبد الله بن الحسين ـ مذكرات الملك عبد الله بن الحسين ـ بيروت ـ 1965 ـ ص123.
37 ـ لرونس ـ أعمدة الحكمة السبعة ـ بيروت ـ المكتبة الأهلية ـ 1971 ـ ص29.
38 ـ سليمان الموسى ـ لورنس العرب ـ وجهة نظر عربية ـ عمان 1963 ـ ص47.
39 ـ سليمان الموسى ـ لورنس العرب ـ المصدر السابق ـ ص48 و49.
40 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 65 ـ 26 حزيران ـ 1939 ـ ص17.
41 ـ مجلة الأسرار ـ المصدر السابق ـ ص19.
42 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 65 ـ 26 حزيران ـ 1939 ـ ص19 و20.
43 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 65 ـ 26 حزيران ـ 1939 ـ ص21.
44 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 66 ـ 3 تموز ـ 1939 ـ ص17.
45 ـ مصطفى طلاس ـ الثورة العربية الكبرى ـ مصدر سابق 204 ـ وذكر اسم فؤاد فقط.
46 ـ محمد أمين العمري ـ تاريخ حرب العراق خلال الحرب العظمى ـ سنة 1914

- 1918 - بغداد - المطبعة العربية - 1935 - ج1 - ص378.
47 - جورج انطونيوس - يقظة العرب - مصدر سابق - ص310.
48 - جورج انطونيوس - يقظة العرب - المصدر السابق - ص310.
49 - سليمان الموسى - الحركة العربية - مصدر سابق - ص293.
50 - وميض جمال عمر نظمي - الجذور السياسية - مصدر سابق - ص152.
51 - مجلة الأسرار - بيروت - العدد 66 - 3 تموز - 1939 - ص21.
52 - أمين سعيد - أسرار الثورة العربية - المصدر سابق - ص126 و127.
53 - Lawrence The Seven Pillars of Wisfom: A Triumph, P 75, and Storrs. Orientations, p, 184.
54 - سليمان موسى - الحركة العربية - مصدر سابق - ص294.
55 - مجيد خدوري - نظام الحكم في العراق - بيروت - 1965 - ص154.
56 - سليمان موسى - الحركة العربية - مصدر سابق - ص295.
57 - علي جودت - ذكريات علي جودت - 1900-1958 - بيروت - مطابع الوفاء - 1967 - 1967 - ص42.
58 - مجلة الأسرار - بيروت - العدد 68 - 17 تموز - 1939 - ص19.
59 - مجلة الأسرار - بيروت - العدد 69 - 24 تموز - 1939 - ص18 و19.
60 - Jhon Baylis, Ken Both, John Carnett, Phil Willians, contemparay strary theories and policies. London, 1975, p. 75.
61 - مجلة الأسرار - بيروت - العدد 69 - 24 تموز - 1939 - ص21.
62 - مجلة الأسرار - بيروت - العدد 69 - 24 تموز - 1939 - ص21.
63 - مجلة الأسرار - بيروت - العدد 69 - 24 تموز - 1939 - ص12.
64 - مجلة القبلة - العدد 207 - 19 آب - 1918.
65 - سليمان الموسى - الحركة العربية - مصدر سابق - ص316.
66 - مجلة الأسرار - بيروت - العدد 70 - 31 تموز - 1939 - ص14.
67 - سليمان الموسى - الحركة العربية - مصدر سابق - ص294.
68 - مجلة الأسرار - بيروت - العدد 70 - 31 تموز - 1939 - ص14.
69 - وميض جمال عمر نظمي - الجذور السياسية - مصدر سابق - ص151.
70 - F. O., P.I, 371/3380/23 Fev 1918. P. 465.

71 ـ F. O. 371/3384/8 Now 1918

72 ـ جريدة القبلة ـ مكة المكرمة ـ عدد 696 ـ حزيران 1923.

73 ـ F. O., P.I, 371/3380/4 Fev 1918. P. 450.

74 ـ F. O. 371/3054/tel Now 24, 4 Jan 1918

75 ـ أمين سعيد ـ أسرار الثورة العربية ـ ص46.

76 ـ نوري السعيد ـ خطاب في مؤتمر لندن عن فلسطين 1939 (منشورات بغداد 1939).

77 ـ F.O. 371/ 3395/ 11 Jun 1918

78 ـ صبحي العمري ـ لورنس كما عرفته ـ بيروت ـ دار النهار ـ 1969 ـ ص58.

79 ـ مولود مخلص (1884-1954) نشأ في الموصل من عائلة قدمت من تكريت ـ درس في الموصل، ثم التحق بالأكاديمية العسكرية في الآستانة عام 1901، فصل من الجيش مرتين بسبب انتقاده للسلطان عبد الحميد، كان من الضباط العرب الذين انتموا إلى جمعية الاتحاد والترقي، وساهم في انقلاب 1908 ضد السلطان عبد الحميد، ثم انتمى إلى جمعية العهد في عام 1913، ومع ملاحقة الاتحاديين لضباط العهد هرب إلى البصرة، ومنها إلى الحجاز ليشارك في الثورة العربية.

80 ـ علي سلطان ـ تاريخ سورية 1908 ـ 1918 ـ مصدر سابق ـ ص465.

81 ـ محمد أمين العمري ـ تاريخ حرب العراق خلال الحرب العظمى ـ مصدر سابق ـ ج2 ـ ص244.

83 ـ صبحي العمري ـ لورنس كما عرفته ـ مصدر سابق ـ ص128.

84 ـ علي سلطان ـ تاريخ سورية 1908-1981ـ مصدر سابق ـ ص466 و467.

85 ـ علي سلطان ـ تاريخ سورية ـ المصدر السابق ـ ص469.

86 ـ أمين سعيد ـ أسرار الثورة العربية ـ مصدر سابق ـ ص239.

87 ـ أمين سعيد ـ أسرار الثورة العربية ـ المصدر السابق ـ ص240.

88 ـ أمين سعيد ـ أسرار الثورة العربية ـ المصدر سابق ـ ص240 و241.

89 ـ مصطفى طلاس ـ الثورة العربية الكبرى ـ مصدر سابق ـ ص251.

90 ـ F. O. 371/3383/ 5 Oct 1918, P, 556

91 ـ أحمد قدري ـ مذكراتي عن الثورة العربية ـ مصدر سابق ـ 75.

باب الوثائق (العسكريون والثورة العربية)

الوثيقة (1)

مؤتمر باريس

كلفت الجمعية العربية الفتاة(1) بعضا من منتسبيها المقيمين في باريس وهم (عوني عبد الهادي وجميل مردم بك ومحمد محمصاني وعبد الغني العريسي) بمهمة عقد مؤتمر في باريس لتحقيق أهدافها القومية، واتصل هؤلاء بكل من (ندرة المطران وشكري غانم وشارل دباس وجميل معلوف) وألفوا جميعاً ما أطلق عليه لجنة (مؤتمر باريس)، اختاروا من بينهم (شارل دباس وعبد الغني العريسي وجميل مردم بك) لأمانة سر المؤتمر.

في 4 نيسان 1913 أرسلت لجنة باريس بناءً على تعليمات العربية الفتاة كتاباً إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية للموافقة على عقد المؤتمر في باريس، وكان حزب اللامركزية شكله عدد من السوريين المقيمين في القاهرة أواخر عام 1912(2) جاء فيه:

"لقد جمعتم في برنامجكم الأماني التي يرتادها أبناء العرب لسعادتهم وترقيتهم في كل حين، لذلك أوقفنا أنفسنا لخدمة غايتكم النبيلة، واعتبرناكم مصدراً لما نتوقع أن نقوم به في هذه الديار إزاء مناظرات الجرائد ومغامز الخطباء في الأندية السياسية ومجرى المخابرات الدولية بشأن الدول العربية. ذلك ما حمل الجالية العربية على الاجتماع والبحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن المحبوب من الطوارئ وإصلاح أمور بلادنا على أساس اللامركزية. وبعد المناقشات ارتأت أن تعقد مؤتمراً للعرب تظهر فيه للأجانب، أن العرب يدرؤون عادية الاحتلال من أية دولة كانت، ويحتفظون بحياتهم الوطنية، وتصارح الدولة العثمانية بوجوب تطبيق الإصلاحات اللامركزية في بلاد العرب.

وإليكم ما تدور حوله مباحث المؤتمر:

- الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.
- حقوق العرب في المملكة العثمانية.
- ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية.
- المهاجرة من سورية وإليها.

وحسبنا الله أن يأخذ بأيديكم وأيدينا لوقاية الأمة من فساد البداية والمعاد **والسلام عليكم)(3).**

ونقتطف من نص من كتاب الدكتور عبد الكريم رافق حول الأسباب الموجبة لعقد المؤتمر في كتاب العربية الفتاة من باريس لحزب اللامركزية: (إن مناظرات الأجانب ومغامرات السياسية العامة قد أوقفتنا على استقراء ما يجري بشأن البلاد العربية، وخاصة زهر الوطن سورية، ولم يبق بين جمهور الناطقين بالضاد من لا يعلم أن الظلم نتيجة سوء الإدارة اللامركزية. فحدا بنا هذا الاجتماع في هذه المدينة، والبحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الأرض المترعة بدم الآباء، ورفات الأجداد من عداء الأجانب، وإنقاذها من صبغة التسيطر والاستبداد، وإصلاح أمورنا الداخلية على أساس ما يتطلبه أهل البلاد من قواعد المركزية حتى يشتد بها ساعدنا، وتستقيم قناتنا، فينقطع بذلك خطر الاحتلال والاضمحلال، وتنتفي مذلة الرق، وتخفت نأمة الاستعباد، ويظهر للاعبين بحياة الشعوب أننا أمة تأبى الضّيم، ولا تستسلم للذل)(4).

وفي 14 نيسان 1913 وافق حزب اللامركزية على حضور المؤتمر. واشترطوا أن يكون لهم الحق في النظر والمشاركة في مواضيع المؤتمر حتى تتوافق مع مبادئ الحزب وبرامجه. كما استجابت الجمعية الإصلاحية التي تأسست أواخر عام 1912 وكان مقرها بيروت وأعلنت برنامجها في شباط 1913 ودعت إلى نظام اللامركزية، وحلها جمال باشا بعد أشهر فقط، لكن عناصرها بقوا على سريتهم رغم الاعتقالات لبعضهم.

المؤتمر

حضر المؤتمر كل من: عبد الحميد الزهراوي مندوباً عن حزب اللامركزية، وقد ترأس جلسات المؤتمر، وحضر من حزبه من القاهرة: زميله: اسكندر عمون.

ـ أما عن الجمعية الإصلاحية في بيروت: أحمد مختار بيهم، وسليم علي سلام، والدكتور أيوب ثابت، وأحمد حسن طباره.

ـ وعن العراق: توفيق السويدي وسليمان عنبر.

ـ وعن بعلبك: محمد حيدر وإبراهيم حيدر.

ـ وعن الجالية العربية في الآستانة: عبد الكريم خليل.

ـ وعن المهاجرين السوريين في أمريكا الجنوبية: عباس بجاتي.

ـ وعن المهاجرين السوريين في الولايات المتحدة الأمريكية: نجيب دياب ونعوم مكرزل والياس مقصود.

ـ وعن الجالية العربية في باريس: ندرة المطران وجميل مردم بك وشكري غانم وعوني عبد الهادي وعبد الغني العريسي وشارك دباس وخير الله خير الله ومحمد محمصاني(5).

جلسات المؤتمر

عقد المؤتمر أربعة جلسات رسمية لمدة ستة أيام برئاسة عبد الحميد الزهراوي ونائبه شكري غانم، كانت الجلسات الثلاث الأولى تقتصر على المندوبين العرب، أما الجلسة الرابعة فسمح للأجانب بالحضور، ومن الغريب أن المناقشات كانت تجري باللغة الفرنسية. وتم إلقاء عدد من الكلمات نذكر مقتطفات منها:

ـ جاء في كلمة الافتتاح لرئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي التالي:

(إن العرب كانوا قد ألفوا الترك، وهؤلاء ألفوا العرب، وامتزج الفريقان

امتزاجاً عظيماً، مضى عليه أكثر من عشرة قرون، ولكن كما مزجت بينهم السياسة؛ فرقت بينهم السياسة أيضاً، ولم يبق من ذلك الامتزاج القديم إلا رابطة بين العرب وبعض الترك. وهذه الرابطة لا تزال تعد ثمينة عند الترك العثمانيين والعرب العثمانيين معاً. لكنها مع عزتها في نفوس الفريقين قد أصبحت مهددة بالسياسة أكثر مما كانت من قبل، ومعلوم أن السياسة في هذه المملكة بيد الترك، ولذلك تعرفها أوروبا بأنها حكومة الترك. فلما رأى العرب الآن ما وصلت إليه هذه المملكة بتلك السياسة، التي مضى العمل عليها حتى الآن، وكانوا حريصين على البقية الباقية من تلك الرابطة. تنبهوا إلى واجب عظيم كان الترك والعرب جميعاً غير مهتمين له كما ينبغي، وهو اشتراك الفريقين بسياسة البلاد. فإنه قد تبين واضحاً أن لا العرب انتفعوا ببراءتهم من ذنب إضاعة البلاد، ولا الترك انتفعوا بتحملهم وحدهم تبعة العبء الثقيل. وبديهي أن هذا الاشتراك لا ينافي الإخاء، بل الذي ينفي الإخاء هو عدم هذا الاشتراك).

- وجاء في كلمة اسكندر عمون:

(الأمة العثمانية بعد الحوادث الأخيرة على شفا جرف هار، فهي بين ذلك الماضي المؤلم والمستقبل المظلم، تنظر إلى أمسها بعين الحزن والأسف، وترمق غدها بعين الخوف والوجل. في مثل هذا الموقف موقف الخطر على الحياة، تمر على ذهن الأمم كما تمر على ذهن الأفراد حوادث حياتها الماضية، حلقات آخذ بعضها برقاب بعض، فترى بينها من الارتباط ما لم تره وهي رهن الحوادث أيام وقوعها، وتنكشف الأسرار التي ساقتها إلى حيث صارت فتستعين بما عرفت من ذلك لتهتدي إلى سبيل النجاة إن كان ثمة إلى النجاة سبيل. ذلك الخطر الذي أصبحت الأمة فيه هو الباعث على اجتمعنا من كل حدب وصوب في هذا البلد الأمين، وهذا الغرض هو نرمي إليه من هذا الاجتماع).

مقررات المؤتمر

1 - إن الإصلاحات الحقيقة واجبة وضرورية للملكة العثمانية، فيجب أن

تنفذ بوجه السرعة.

2 ـ من المسلم به أن يكون تمتع العرب بحقوقهم السياسية مضموناً، وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للملكة اشتراكاً فعلياً.

3 ـ يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لا مركزية تنظر في حاجاتها ومتطلباتها للرقي.

4 ـ كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة صودق عليها يوم 31 كانون الأول 1912 بإجماع الآراء، وهي قائمة على مبدأين أساسيين وهما توسيع سلطة المجالس العمومية، وتعيين الدولة العثمانية لمستشارين أجانب كموظفين لدى الحكومة، فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين المطلبين.

5 ـ اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني، ويجب أن يقرر المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية.

6 ـ تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية إ في الظروف والأحيان التي تدعو إلى الاستثناء الأقصى.

7 ـ يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفية لبنان وسائل ماليتها.

8 ـ يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية، ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم. ويحيي العراق.

9 ـ يجري تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية.

10 ـ وتبليغ هذه القرارات أيضاً للحكومات الأوروبية، ويشكر المؤتمر الحكومة الفرنسية شكراً جزيلاً لترحابها الكريم بضيوفها.

ملحق القرارات

1 ـ إذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر فالأعضاء المنتخبون في لجان الإصلاح العربية، يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة

العثمانية إلا بموافقة خاصة من الجمعيات التي ينتمون إليها.

2 ـ تكون القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين، ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات النيابية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وتنفيذه.

3 ـ المؤتمر يشكر مهاجري العرب على وطنيتهم في مؤازرتهم له.

هامش ومصادر:

1 ـ جمعية العربية الفتاة تأسست في باريس على يدي ثمان من السوريين المقيمين في باريس عام 1911 وهم: (عوني عبد الهادي، رفيق التميمي، محمد رستم حيدر، محمد محمصاني، عبد الغني العريسي، وصبري الخوجة، وتوفيق الناطور، وأحمد قدري) ثم انضم إليهم. جميل مردم بك، وصبحي الحسيني، والأمير مصطفى الشهابي، وتوفيق فايد، وإبراهيم حيدر) وكانت تدعوا سراً إلى الاستقلال التام للولايات العربية عن الدولة العثمانية. واشترطت لعضويتها الإيمان بالقومية العربية، وكانت السرية المطلقة أسلوب عملها (أحمد قدري ـ مذكراتي ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق ـ 1993 ـ ص12).

2 أسسه نخبة من السوريين في مصر. تشكلت إدارة حزب اللامركزية من عشرين عضواً وهيئة تنفيذية مؤلفة من ستة أشخاص وانتخبت كلاً من رفيق العظم رئيساً، واسكندر عمون نائباً للرئيس، وحقي العظم أميناً للسر. ومن بين الأعضاء: رشيد رضا وفؤاد الخطيب وعلي النشاشيبي، وقد أقر الحزب نظام اللامركزية في الولايات المتحدة.

الوثيقة (2)

الصحف التركية ومؤتمر باريس

نشرت صحيفة (طنين) لسان حال جمعية الاتحاد والترقي في 3/أيار-مايو/1913 حول المؤتمر العربي في باريس مقالة جاء فيها:

(.. لما كررنا القول وأعدنا التصريح بأن الفئة التي تتظاهر تارة في سورية، وتارة في مصر وفي العراق وباريس بالغيرة على مصالح العرب، وعشق العربية، والهيام بأمثال ذلك، هي فئة ليست من العربية في شيء، وما هي إلا آلة الفساد، وعبارة عن طائفة عجيبة في أطوارها.

لما قلنا ذلك حمل علينا بعض الصحف العربية حملة شعواء. فبينما نحن لا نتكلم عن العرب والعربية إلا بما يشق عن الميل الشديد، وإذ تلك الصحف تلقبنا بأعداء العرب الألداء، ولا تتردد في تسميتنا "المعول العظيم لهدم كيان الأمة العربية".

وأما نحن فلا نحاول نفي هذه التهم، لأننا توخينا ذلك نكون قد خدمنا هذه الشتائم والمطاعن، من حيث نريد الإعراض عنها. فإن كتاباتنا في المسألة العربية كانت نوراً استضاء العرب به، فقاموا يداً واحدة يدافعون عن الحقيقة، ويردون كيد المزورين في نحورهم، فكانت نتيجة ذلك ضد ما يعمله الخونة المارقون.

الحق يعلو ولا يعلى عليه، فالأنباء الأخيرة التي وردت من الدول العربية أثبتت بألمع برهان أن الغاية التي كنا ولا نزال نتوخاها في كتاباتنا أثرت تأثيراً عظيماً في سورية. فقد رأينا دمشق بفضلائها وعظمائها قد هبت من رقدتها، رادة التهم الشنيعة التي ألصقها بها المنافقون. فقد نشرنا أمس رسالة برقية منهم اطلع

القراء على أسماء موقعيها، فإذا هم كبار أعيان دمشق مهد الحضارة العربية. هم العلماء الأجلاء والأشراف العظماء وأرباب الزهد والتقوى، فكم يكون خذلان أصحاب الألاعيب العربية في باريس.

إن المؤتمرين باسم العرب النجباء الذين نظموا بروغرامهم، وأعدوا معدات الاختلال، وأخذوا يوزعون النشرات السرية، ستكون لهم عاقبة أليمة جداً. والذين قاموا يصيحون في وجههم، يصح لكل واحد منهم أن يتكلم عن ولاية عربية برمتها.

اسمعوا ما يقول هؤلاء العظماء في تلغرافهم: (إن الذين يرسلون الاحتجاجات ليسوا من العرب في شيء، ولا صفة لهم، ولا شأن فقد طلبوا من الحكومة آمالاً لم ينالوها فهبوا الآن يعادونها، وهم عبارة عن فتيان بلا عقل ولا أدب ولا أخلاق. هؤلاء كما أنهم لا شيء في الهيئة الاجتماعية فهم أيضاً غير مندوبين عن العرب لا صفة ولا وكالة). فنحن نشكر أعيان الشام وعظمائها ألف شكر لأنهم أرشدونا إلى الحقائق).

وكتبت نفس الصحيفة (طنين) في 6 أيار - مايو 1913 مقالاً اتهمت فيه المؤتمرين في باريس بأنهم من الجنسية الفرنسية، وكان هذا المقال بعنوان (مؤتمر غريب) جاء فيه:

(إن موقعي بيان المؤتمر دخلوا في الجنسية الفرنسوية، ولم يبق لهم أقل صلة بالعربية والإسلامية، فمؤتمرهم الذي يعقد في باريس على ما جاء في بيانهم عارٍ عن كل أهمية. وإذا كان موقعوه يسعون حقيقة باسم العرب فلماذا لا يدعون مندوبين من كل البلاد التي ينطق سكانها بالضاد)(1).

الوثيقة (3)

خطبة الشهيد عبد الكريم الخليل في 5 آي 1913

أمام الصدر الأعظم بمناسبة قبول الحكومةِ الاتحادية بعض مطالب مؤتمر باريس

(يا صاحب الفخامة. أتشرف بالمثول بين أيديكم بالأصالة عن نفسي والنيابة عن الشبيبة العربية، للقيام بواجبين من أهم واجبات الإخلاص. فالواجب الأول هو تهنئة الحكومة العثمانية باسترجاع أدرنة من يد العدو، وشكر الجيش العثماني المظفر على هذا النصر الباهر.

أما الواجب الثاني فهو شكر فخامتكم، وسائر أركان الوزارة الكرام على تقديرها الإصلاح في البلاد العربية حق قدره، وعلى وعودها إعطاء الحقوق المدنية والسياسية للأمة العربية، وإشراكها في أمور الحكومة.

فالشبيبة العربية تشكر لكم هذا العمل العظيم، الذي تعده فاتحة سعادة ورفاه لهذا الملك المحبوب.

فلتطمئن فخامتكم، وهيئة الوكلاء الكرام، لأن الأمة العربية التي تقدر هذه القرارات حق قدها، تسعى جهد طاقتها، وتبذل جميع مساعيها لرقي هذا الوطن المشترك وسعادته ونجاحه.

ولهذا أرجو من صميم الفؤاد تنفيذ قرارات الإصلاح بأقرب ما يمكن. ولن أتجرأ على أشرك في شكري بعض ما تتمناه الأمة العربية، مستميحاً العفو لدن فخامتكم.

إن بقاء الإدارة العرفية بين بيروت منذ سنتين يدعو الأسف، وإننا نلتمس

رفعهـا، ونرجو رفع المنع عن الصحف المصرية، والسماح بنشر الجرائد المحلية المقفلـة، لأنـنا لا نـشك في إخلاصـها لهذا الملك، وذلك رغبة في تعميم الشكر، وانـتقاله مـن قلـوب الـناس إلى أعمـدة الـصحف، ولأنهـا بإيفاء وظيفتها الوطنية تسهل الوظيفة الحكومة كثيراً.

وهـناك مـسألة ثانية وهي مسألة بيع الأراضي المدورة ـ الجفالك ـ في البلاد العـربية ولاسيما فلسطين، لأن دخول الأجانب إليها، وحرمان أهاليها من مواردها ممـا لا ترضـونه فخامـتكم. فألـتمس من حنان الحكومة السنية اتخاذ قرار قطعي موافق هذا الشأن).

وثيقة (4)

من رسالة الشهيد عبد الحميد الزهراوي للشيخ رشيد الرضا

في 16 كانون الثاني 1914

(مكتوم كله عن كل أحد)

(كنت قد فصلت لكم إذ جئت باريس كيف وجدت أمر مؤسسي فكرة المؤتمر فوضى، وكيف تعبنا في ستر الأمر، وإيجاد المؤتمر، وبعد انقضاء المؤتمر تفرق الجمع، الذي لفق تلفيقاً، ثم بعد قليل نفذ صبر البيروتيين، فذهبوا إلى بلادهم عن طريق استنبول، وبقيت يا عزيزي وحدي أمثل الفكرة، وبقي خليل زينيه وأيوب ثابت وهما لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية ولا قطرة واحدة، حتى ولا من الجامعة السورية، وإنما همهما بيروت وحدها لا شريك لها. ولكن لأنهما متعلمان سايراني وسايرتهما، وتوادينا جيداً حتى سفري، ولم يكن مثل هذا التواد ولا ربعه بينهما وبين رفقتهما البيروتيين المسلمين.

لو عجلت تلك الأيام ورجعت على الفور إلى مصر لبقيت المسألة مقطوعة بتراء، فيكثر استهزاء الأفراد والجماعات والأقوام بأشخاصنا وبجماعاتنا وقومنا، لكن الله عز وجل سلمني من هذا، وقدرني على الصبر هناك ممثلاً للفكرة مدة خمسة أشهر - وما هي بالقليلة ولا الكثيرة - ونعمت المدة كانت، وفقت فيها كثيراً وعظم فيها اختباري لأوروبا، ومت أحوجنا إلى مثل هذا الاختبار.

جئت بعد ذلك إلى استنبول لأرى ما جدّ فيها لأن المعرفة بالقديم لا تغني، والمعرفة عن بعد كثير من مأخذها غير صحيح، وما أضر العلم المبني علي

مأخذ غير صحيح.

وبعد وصولي بقليل عرفت كثيراً من الأحوال الحاضرة هنا، وبعد مدة أخرى عرفت أكثر، وكدت أظن أني اكتفيت وأحطت كل الإحاطة، ولكن الآن تبين لي أنه لولا الصبر والتأني اللذان مكنني الفاطر سبحانه منهما لرجعت بمعرفة غير كافية، ولذلك أصبحت لا أجسر أن أقول تمت إحاطتي، وإنما أقول أصبحت يجوز بي أن أفصل بشيء من الطمأنينة، وأن تأخير هذا التفصيل والشرح كان أنفع وجاء اليوم في وقته.

والشرح هاهنا يتعلق بثلاثة مواضيع أو "موضوعات":

1 ـ أوروبا والعثمانية.

2 ـ الاتحاديون وغيرهم.

3 ـ رجال الإصلاح الحقيقي وأبناء العرب هنا وفي الجهات الأخرى.

وأني أبدأ بالأول لقصر البحث فيه، واشفع بالثاني، وأخرت الثالث لطوله وطولّته لتوقف التفاهم، وكثير من أعمالنا على الإحاطة بهذه الحقائق المشروحة.

أوروبا العثمانية:

لقد كشفت أوروبا آخر ستار من ستر السياسية في المسألة العثمانية، وقررت التدخل في سائر شؤونها، وإنما لا يزالون مختلفين بعض الاختلاف في كيفية هذا التدخل، وكميته، وصورة توزيعه فيما بينهم، وليس في أوروبا موضوع مقرب على هذا الموضوع، ولا تمضي ثلاثة أشهر حتى تتمخض الليالي، فلد ذلك الشكل الجديد الذي يتفقون عليه، والذي أظنه أن الدولة ستبقى معه، وتعيش أحسن مما كانت عائشة، لأن بعض التدخل طيب، ولست مغالياً إذا ذهبت إلى أن الموت أقرب إليها، مع عدم التدخل البتة منه مع شيء من ذلك، فإننا إذا قلنا بعدم التدخل البتة، فحينئذ تخلق كل واحدة سبباً لإنشاب الحرب عليها، فتؤخذ بداء السكتة دفعة واحدة.

الاتحاديون وغيرهم:

الاتحاديـون معـروفون فمـن غيرهم؟. لا يوجد الآن حزب سياسي آخر إلا أن يكـون خفـياً، ولم أشـمّ شيئاً مـن هـذا، وحينـئذ لا تجد مقابل الاتحاديين إلا جماعات الأجناس كجماعات الروم وجماعات الأرمن وجماعات العرب. تعرف للروم جماعات، وللأرمن جماعات، فهل للعرب مثل هذا؟ هلمّ ننظر:

أولاً ـ الـروم كلـهم جماعـات واحـدة يرأسهم البطرك، ولكيلا يستبد ربطوه بمجلسين روحاني وجسماني، أما العرب فليس لهم مثل ذلك.

ثانـياً: الروم والأرمن لهم جمعيات سياسية منظمة مرتبة غنية، وليس للعرب مـثل ذلك، اللهم إلا جماعتنا في مصر وجماعتنا في بيروت، إذن غير الاتحاديين هم الروم والأرمن وجماعتنا في مصر وجماعتنا في بيروت.

فالاتحاديـون هـم أولـياء الأمـر مباشـرة، وهم اليوم يتسلحون بعزائم شديدة ماضـية، ونـاوون نـية قاطعـة أن يجـددوا شـباب الدولـة بقـدر ما تسمح الظروف، ويـشتهون أن يخلـص لهـم العـرب، ويـساعدوهم فـضلاؤهم في هـذا الـسبيل، ويعترفـون بخطيئـتهم الماضية، ويودون أن لا يعودوا إلى مثلها بقدر الإمكان، أنا مـؤمن بنياتهم وأقوالهم هذه كل الإيمان لأدلة كثيرة ظهرت لي، ولكنني مرتبا من جهـة قابليـتهم لتطبـيق العمـل علـى النـية، وعلـى كـل حـال أرى أن عـدم تركهم وحـدهم خـير مـن تـركهم، ويرجى به أن تقوى قابليتهم، فإن شئتم أن تخطئونني بتحـسين الظـن إلى هـذه الدرجـة ـ كمـا أشـرتم في كـتاب.. ــ فإني لا أخطئكم بالتخطـئة لأني أجل رأيكم أكثر من رأيي، وإنما أرجو أن يكون في خطئي شيء مـن البركة، أرجو ذلك من مصداق قوله سبحانه: "فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً".

هـذا وصـف الاتحـاديين بمـا هـم علـيه، أمـا الـروم فقـد قلـوا في المملكة، وقـصارهم أن يحافظـوا علـى مـا بـيدهم مـن امتـيازات البطركية وحق المبعوثية، وسـيقل الالـتفات إليهم، وأما الأرمن فهم آلة بيد روسية، وسيتم لهم في المبعوثية حظ قريب مما يأملون. وأما نحن معشر العرب فإن أخاكم يعتبر ممثل جماعتنا،

وقد فصلت ما تم على يدي في الكتاب الذي أرسلته إلى الأخ الرفيق في البريد الماضي وهاهنا سأزيد.

رجال الإصلاح الحقيقي وأبناء العرب هنا وفي الجهات الأخرى:

ما أظنكم - أستغفر الله - وما أعتقد أنكم في حاجة إلى بيان أن رجال الإصلاح الحقيقيين غير كثيرين، وما أعتقد أنكم تعرفون منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، وأعني برجال الإصلاح الحقيقيين من جمعوا في موضوع الإصلاح بين صدق النظر وصدق العمل، من كثرت تجاربهم، ومرنت رؤيتهم، وصحت عزيمتهم، وشهد لهم ماضيهم، من كثر اختلاطاتهم بمختلف الطبقات، ووقوفهم على متباين النزعات، وصبرهم على متنوع العقبات، من امتزجت روحهم بحب النظام الذي يحبه الله، وكره لفساد الذي يكرهه الله، وامتزجت سيرتهم بأخبار معامع الجهاد الإصلاحي، ومن أشربت أفكارهم فهي معنى الرابطة، وأفئدتهم محبتها وتعشقها، فنحن لقلة هؤلاء واقعون أمام حاجتين عظيمتين: الحاجة إلى تكثيرهم، والحاجة إلى اشتغال هؤلاء مع من ليس من جنسهم وطبيعتهم، ثم نحن مع قلتهم وصعوبة اشتغالهم مع غيرهم أمام مشكلين عظيمين: الأول السبات الذي فيه الأمة. والثاني الجشع الذي أوربا فيه.

أرتك تفصيل هذا الإجمال لحكمتكم وحسبنا هي في كل موضوع، وأخذ الآن بحكاية حال أبناء العرب هنا لأنكم علقتم الأمل على صنف منهم هاهنا.

العرب هنا ثلاثة أصناف: متاجرون ومتعلمون ومأمورون:

فالصنف الأول: ــ لا في العير ولا في النفير من جهة السياسة والإصلاح ثم هو في غاية القلة.

والصنف الثاني: - أولاد في ناشئة العمر لا يليقون للسياسة ولا تليق بهم.

والصنف الثالث: ــ أربعة أقسام الضباط والمأمورون المنضبون في بعض الوظائف، والمأمورون المتقاعدون المقيمون هنا، والمأمورون المعزولون الذين جاءوا لينصبوا.

فأما الضباط فلا تجربة لهم في هذه البتة، والأولى عدم دخولهم فيها، فإن

هـذه التجـربة القليلة سأقصها الآن زهدتني في كل سياسة يشترك بها الضباط منا. ذلـك أن (..) نـاقم الـيوم على الحكومة، فيشتهي لأجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نـسفاً، وهـو لأجل ذلك ناقم على ائتلافنا مع الحكومة ومضاد له، لأنه على زعمه يؤخـر حـركات العـرب، ولا أدري مـا هـي حـركات العرب؟ وأين تسير؟ وأين ترسـي؟. وهـذا يجـتهد أن يجمـع حـوله بعض أولئك الأولاد، وينفرهم منا ومن صـنيعنا، ولكـن لا يـنجح بحـوله تعـالى، ومـن جهـة أخـرى يحـافظ على ظاهر الـصداقة بيننا، وقد أردت اختباره فرأيته يجنح إلى مصالحة أولياء الأمور وحينئذ يرضـى عـن كـل شـيء، فانظـر يـا عزيزي إلى الذين يعدون أنفسهم في مصاف رجالنا.

أمـا المأمـورون المـتقاعدون فمـثلهم مـثل العجائـز لا يرضـيهن شـيء ولا يستطعن عمل شيء.

وأما المأمورون المنضبون فلا همّ لهم إلا حفظ المنصب.

وأما كلا المأموريات فجياع مساكين لا يفهمون من الإصلاح إلا المأمورية، إن جاءت فقد جاء الإصلاح، وإن لم تجيء فقد منع الإصلاح.

ومـن هـذا التفـصيل يظهـر لـك أن العاصـمة في حالتها الحاضرة ليس فيها عـرب تـستطيع جماعتـنا أن تعتمد على أحد منهم، أو أن تعمل صلة ورابطة مع أحـد مـنهم، اللـهم أن يكون (فلان وفلان) وكل ما أخبركم عنه (فلان) هو سراب بقـيعة جـاءه أخـوكم الظمـآن فلـم يجـده شيئاً، وبعـض أولئك الأولاد يحسدون الـشاب عـبد الكـريم، وبعـضهم لم يتمكن من نالتهم أرباً لأبيهم أو أخيهم أو ابن عمهم ومن هنا أكثروا عليه من قيل وقال وكلّه هواء وهواء.

وأمـا العـرب في الجهـات الأخـرى فهـم أهـل سـورية وأهـل العراق وأهل الجزيـرة الخلـص. فالـسوريون والعـراقيون حضر ألفوا الذلّ، وتعودوا الاستجداء والاسـتكانة، لا يفهمـون ولا يـريدون أن يفهمـوا، لا يـساعدون ولا يـنوون أن يـساعدوا، لا يهـبون ولا يـروق لهـم أن يوقظـوا. أمـا أهـل الجزيـرة الخلص فهم الأهـل وقـاهم الله الخـير وشد سواعدهم، أولئك يجب وصل الرابطة بهم من غير

أن نقطعها مع الحضر على قلة غنائهم.

قدم فهمت من كتاب الأخر (فلان) كثيراً واستنبطت كثيراً، ولو كان في وسع البشر أن تتوزع أرواحهم على أمكنة متعددة لكانت روحي أوزاعاً على اليمن وعسير والحجاز ونجد وحضر موت ولكن نظرية الصوفية في هذا الباب لا يمكن تطبيقها.

انظر يا عزيزي أنا لازم لهناك كما تشير ولازم إلى هنا، فإن هنا محل عمل ليس بقليل، فأني أرجو أن يكثر بوجودي هنا عدد رجالنا الذين يعتمد عليهم، فإن رضيت عن هذا الرأي فعليك عملان معجلان، وعمل يمشي مع الزمان، وأنا معك فيه على بعد المقر، فالأول من المعجلين تبشيري بتلغراف عن رضائك وخاصة وهو الأهم، ورضاء الرفاق عامة وهو مهم. والثاني منهما حملك الرفاق على تقديم تلغراف للصدارة يحبذون فيه هذا التعيين، ويجعلونه دليل إقدامهم على تنفيذ الرغائب كلها بعبارات رقيقة تشويقية. أما الثالث فهو ما بيننا من أمر إيجاد الرجال الذين يعتمد عليهم وتوزيعهم بقدر ما يساعد الزمان والمكان لبث الإصلاح العلمي والعملي...

وإن لم ترض عن هذا الرأي فاكتب إلي مفصلاً مبيناً من كل جهة من جهات الموضوع، وأنا من عهدت من يدع رأيه أسيراً إلى رأي وليه..

هذه هي الخلاصة المفصلة، وإليك خلاصة الخلاصة وهي: إن اليأس لا يجوز في حال من الأحوال، ولكن الأمة في كل أطرافها ليست بحالة يعتمد عليها في شيء، وأنه مع هذا لا يجوز إهمالها، وكذا لا يجوز إهمال من بيدهم أمر المملكة وتركهم وحدهم، وأنه لابد لنا هاهنا من رجال، وأن أكثر ما يتصرف به الرواة غير الصحيح، وإني منتظر أمركم بسرعة. وأن شوقي عظيم..)

"عبد الحميد الزهراوي"

وثيقة (5)

من اجتماعات قيادة الاتحاد والترقي لتعيين جمال باشا حاكماً على سورية من مذكرات الدكتور بهاء الدين شاكر (أحد زعماء الاتحاد والترقي)

(لما أعلن النفير العام في أول آب سنة 1914 عقد المركز العام اجتماعاً بحث فيه الموقف في السلطنة العثمانية، ودار فيه البحث حول البلاد العربية، فاقترح أنور باشا تأسيس دوائر المصالح المشتركة قائلاً:

- أنا على ثقة وطيدة من أن العالم الإسلامي سيثور على الحلفاء عندما نعلن الجهاد المقدس باسم الخليفة، ويعلن تأييده لنا، ولهذا يجب أن نؤلف البعثات لإيفادها إلى تلك البلاد لتهيئة جو موافق لنا.

ولقد رأيت أن الجو بدأ يظهر ملائماً لأنور باشا فقلت:

ـ ولكن الحالة في السلطنة العثمانية نفسها على جانب كبير من الخطورة، فالأقوام المختلفة ناقمة تترقب الفرص للانقضاض علينا، وأرى أن الواجب يحتم أن نهتم بشؤوننا الداخلية قبل أن نهتم بالشؤون الخارجية. "إلا أن هذا الواجب لم يرق أنور باشا. فقال:

ـ إنك على خطأ يا عزيزي الطبيب لأننا حينما نعلن الجهاد على أثر دخلونا في الحرب، ستنشب ثورات متعددة في البلاد الخاضعة لنفوذ الحلفاء، وبذلك يزداد موقفنا نفوذاً، ولا يبقى من قدرة من نخشاهم أن يحركوا ساكناً، لأننا في تلك نصبح الأقوياء وهؤلاء القوام يرهبون دوماً القوي).

فأجبته:

ـ ولكن الأخبار الأكيدة تدل على أن العرب في كثير من المراكز لم يقبلوا

باندفاع على تلبية النفير العام، ثم لا تنس أن هناك عدداً من زعماء العرب يترقبون الفرص لمقاومة نفوذنا.

وهنا تدخل جمال باشا في الحديث وقال: ـ أنا عليهم. قلت لهم أفهم! . قال جمال باشا: ـ إذا دخلت الدولة في الحرب فسأكون أنا على رأس القيادة والإدارة في البلاد العربية، وسترى مني كيف أخضع هؤلاء إلى إدارتنا القوية).

اجتماع القيادة الاتحادية بعد تعيين جمال.

يتحدث الدكتور بهاء الدين شاكر في مذكراته قائلاً:

(عندما اتفق أنور باشا وجمال باشا على أن يتولى الأخير القيادة والإدارة في سوريا وبلاد العرب. عقد اجتماع في المركز العام لحزب الاتحاد والترقي، دار البحث فيه حول سياسة أحمد باشا المقبلة في تلك البلاد. وقد بسط أنور باشا ذلك بقوله:

ـ إن غاية الحكومة من وراء إسناد هذا المركز إلى أحد أعضائها أحمد جمال باشا وزير البحرية، هي وضع الإدارة والقيادة في يد واحدة، لتأمين الرقابة العمومية عندما نقرر فتح البلاد المصرية، ولهذا رأينا أن نطلق يد أحمد جمال باشا في اتخاذ التدابير التي يراها موافقة لحفظ الموقف.

قال خليل بك رئيس مجلس المبعوثان: ـ ولكن أحمد جمال باشا، هو مؤسس أندية "تورك اوجاغي" شديد التحمس لتركيته، وأبناء تلك البلاد العربية يرون فيه بعد المفاوضات التي قام بها على أثر إعلان الحرية العثمانية أحد الأشخاص العاملين على تتريك العناصر العربية، ولهذا أرى أن في إرساله إلى تلك البلاد في مثل هذه الأحوال الحرجة خطراً شديداً، ربما يؤثر على موقفنا وسياستنا تجاه العرب.

طلعت باشا: ـ إن سياستنا معروفة وهي ترمي إلى بسط نفوذ الحكومة المركزية على جميع أنحاء البلاد العثمانية، وهذا ما سيسعى إليه جمال.

خليل: ـ أنا عارف ذلك مؤيد له، إلا أنني أرى أن الأحوال في الوقت الحاضر خطرة.

أنور باشا: ماذا ترى أن نعمل إذاً؟.. ولم يجب خليل؟

أنور ـ إنك لا تجيب لبعدك عن إدارة الحكومة، أما أنا فأقول لك أن زكي باشا قائد الجيش الرابع في سوريا أظهر عجزاً متناهياً في إدارة الأمور، حتى أنه أبى أن يرسل قوة من الجيش إلى الجبل اللبناني بحجة أن هذا التدبير يثير اللبنانيين، ويسبب نقمتهم، وربما مقاومتهم وثورتهم على الدولة، فإذا كان هذا هو موقف قائد جيش من منطقة صغيرة، فماذا يكون أمرنا إذا اشتدت ثورة الحلفاء ضدنا وأثاروا العرب علينا؟

إن الواجب يقضي بأن يكون لدينا في تلك البلاد قائد قوي ينفذ سياستنا لتمكين نفوذ الإدارة المركزية في البلاد العربية).

وثيقة (6)

بلاغ جمال باشا حول إعدام قادة العرب في آب 1915

في اليوم التالي لتنفيذ حكم الإعدام بعبد الكريم الخليل ورفاقه، في 21 آب 1331 الموافق لليوم الثاني من شهر أيلول 1915، أصدر جمال باشا بلاغاً حول تنفيذ هذه الأحكام وضع صيغته باللغة التركية أحمد جمال باشا وعربه الشيخ أسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع، وهذا نصه:

بلاغ

من قائد الجيش الرابع الهمايوني

قد كانت الحكومة السنية استخبرت عن "الجمعية الثورية العربية" التي غايتها الفساد، والمجتمعة في مصر تحت عنوان "حزب اللامركزية" الظاهري ومرماها فصل البلاد السورية والعراقية عن المملكة العثمانية، وجعلها حكومة مستقلة تحت حماية الإنكليز. وإن المنتسبين إلى هذه الجمعية يجرؤون على ارتكاب الفظائع الجنائية، لأجل الوصول إلى غايتها الشنعاء، وما ينتج عن ذلك من وضع جميع المسلمين تحت ذل الإسار. وإنه من الأمور البديهية عدم وصول أدنى ضرر عمومي في المملكة بحركات بضعة أشخاص ممن لا أخلاق لهم من متبعي أهوائهم ومنافعهم الخسيسة، لما عليه القوم العربي النجيب من عواطف الإخلاص والإحساسات الدينية العالية، التي لا ريب فيها أصلاً. وكنا بدأنا بإجراء التعقيبات السرية لأجل قمع مضرات هؤلاء المفسدين، ورفع شرورهم لعلمنا أن أعداء الدين والمملكة، يريدون أن ينتهزوا أدنى فرصة يترقبونها. كنا ظننا أن رفيق العظم وأحد أقاربه حقي العظم المعروفين بسوء الأخلاق لدى عموم السوريين والمترئسين هذه الجمعية، أن يكفوا عن خيانتهم تجاه الوطن بعد وقوع الحرب

العمومية، ويعدلوا عن مساعيهم بالاشتراك مع الإنكليز الذين هم ألد أعداء الإسلام والعثمانيين الساعين لاضمحلال البلاد.

ولكنا فهمنا بكل أسف أن هؤلاء الأشخاص لم يزالوا ساعين بأكثر أماكن البلاد السورية، لحصول آمالهم الشيطانية بعد إعلان الحرب أيضاً، وعليه قد كنا أودعنا الوثائق المهمة وأوراق المخابرة التي استحصلنا عليها من بدء المسألة إلى ديوان الحرب العرفي في عاليه، ليبدأ هذا الديوان بمحاكمة من لهم علاقة بالمسألة. وقد فهم من التحقيقات العميقة والدقيقة أن هؤلاء المجترئين، كانوا عقدوا النية على ترتيب شراذم عديدة، ليجوسوا خلال الديار، ويقلقوا الأمن والراحة في البلد بارتكاب الجرائم، ويجسروا على قتل أركان الحكومة وكثيرين من الذوات وغيرهم، وتحقق بأن هؤلاء كانوا دائبين على ترتيب الجنايات العظيمة كالقتل وإيقاع الفتنة الداخلية في البلاد على حساب الأعداء.

وقد قرر الديوان الحربي العرفي المذكور بموجب المادة الرابعة والخمسين من قانون الجزاء الحكم بالإعدام وجاهاً على كل من: عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي وأحد وكلاء الدعاوى، وسليم الأحمد عبد الهادي من أشراف قضاء جنين وأحد أعضاء مجلس إدارتها، ومحمد المحمصاني البيروتي المجاز من مكتب الحقوق بباريس، وأخيه محمود التاجر في بيروت، ونور القاضي، وعبد القادر الخرسا من أشراف بيروت، ومحمد علي الأرمنازي من أهالي حماه وصاحب جريدة "نهر العاصي". ونايف تللو مأمور أوقاف لواء الكرم، ومحمد مسلم عابدين الشامي مأمور أوقاف اللاذقية، وصالح بك حيدر رئيس بلدية بعلبك، وحافظ بك السعيد من يافا ومبعوق القدس السابق، وسعيد الكريم مفتي قضاء بني صعب.

وكذلك حكم بموجب المادة المذكورة بالإعدام غياباً لفرارهم قبل الحرب إلى مصر والبلاد الأجنبية المختلفة، ولعدم تيسير توقيفهم على كل من: رفيق وحقي العظم، والشيخ رشيد رضا الطرابلسي صاحب مجلة المنار، وداود بركات رئيس محرري جريدة الأهرام، وفارس نمر رئيس محرري جريدة المقطم، والدكتور سبلي شميل وخليل مطران وإبراهيم النجار وجورج عبد المسيح من

محرري جريدة المقطم، وجبرائيل أصفر وكيل دعاوى، ونجيب عازوري، والفرد عازوري، وجور وعزيز بحري، والأمير خليل أبو اللمع، وخليل بولاد، ونجيب بك البستاني وكيل دعاوى، وأمين ويوسف وحبب آل بستاني، وفيليب شيحا، ونجيب قطان، ونجيب قريصاتي، وجورج دوماني، وجورج قريصاتي، كميل أده وكيل دعاوى، جان عبيد، نجيب غناجه، نعمة الله غانم، ورفائيل غره، ميشال لطف الله، الدكتور يوسف كحيل، الشيخ يوسف الخازن، جورج خير، رشيد بك خياط وكيل دعاوى، أمون ملحمه، الدكتور خليل مشاقه، يوسف سمعان صيدناوي، الياس زنانيري وكيل دعاوى، سليم بك شميل، يوسف حبيب زنانيري، الياس زهار، الفونس زينيه وكيل دعاوى، فؤاد الخطيب، قسطنطين يني من حمص، وعبد الحفيظ محمود الحسن.

وكذلك حكم بالإعدام غياباً لفرارهم بعد عودتهم لديوان الحرب لأجل استجوابهم على كل من عبد الغني العريسي من أهل بيروت وصاحب جريدة المفيد، وحسن حماد من أشراف نابلس، وعمر حمد من معلمي المدارس العثمانية في بيروت.

وحكم بالنفي المؤبد والمؤقت على كل من رضا بك الصلح مبعوث ببيروت السابق، وابنه رياض بك الصلح، واسعد حيدر من أشراف بعلبك والدكتور حسين بك حيدر من متعهدي النافعة.

وقد نفذ حكم الإعدام صباحاً بكل من عبد الكريم الخليل وسليم الأحمد عبد الهادي ومحمد ومحمود المحمصاني وأحمد نجا العجم ونور القاضي وعبد القادر خرسا وعلي الأرمنازي ونايف تللو ومسلم عابدين والح حيدر.

وبما أن حافظ بك السعيد وسيعد الكرمي مفتي بني صعب من المتقدمين في السن ومن منتسبي العلم، استنسب استعطاف المراحم السلطانية بتحويل حكم الإعدام بالكورك.

قائد الجيش الهمايوني الرابع
ووزير البحرية الجليلة
جمال

الوثيقة (7)

بيان جمال باشا حول إعدام واعتقال قادة النهضة العربية

لما جرى القصاص على بعض الأشخاص المنتسبين إلى الحزب المتشكل في مصر والممالك العثمانية، تحت تمويه عنوان "حزب اللامركزية"، والذين حوكموا في ديوان الحرب العرفي بعاليه، كنت كتبت في البيان الذي نشرته في أوائل أغسطس سنة 1331 أن التحقيقات جارية بصورة دقيقة بحق أعوانهم الأشرار الذين لم يكن قبض عليهم قبلاً.

إن الوثائق السياسية التي عثرنا عليها، واعتراف عبد الغني صاحب المفيد، الذي ألقي القبض عليه أخيراً، بعد أن ذكرنا خبر فراره، واعتراف سيف الدين الخطيب عضو محكمة بداية حيفا السابق، ورفيق سلوم ضابط الاحتياط، ورفاقهم الآخرون، قد نور المسألة من جميع أطرافها، وسيق إلى ديوان حرب عاليه الأشخاص، الذين ظهر أن لهم علاقة في هذه المسألة بدرجات متفاوتة، مع من تبين أن لهم دخلاً في المساعي الخائنة بتنفيذهم ترتيبات الجمعية وتشبثاتها وأعمالها.

وفي ختام التحقيقات والمحاكمات التي أجراها الديوان العرفي في عاليه، صدرت الأحكام المقتضاة بحث المظنون فيهم من الموقفين والفارين، كل على حسب اشتراكه في ترتيبات هذه الجمعية، التي غايتها ومقصدها سلخ سورية وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية، وجعلها إمارة مستقلة.

فحكم على:

ـ شفيق بن أحمد المؤيد العظم، والأمير عمر بن الأمير عبد القادر، وعمر بن مصطفى حمد، ورفيق بن موسى زرق سلوم، ومحمد بن حسين الشنطي، وشكري بن بدري العسلي، وعبد الغني بن محمد العريسي، وعارف بن محمد الشهابي، وتوفيق بن أحمد البساط، وسيف الدين بن أبي النصر الخطيب، والشيخ أحمد حسين طباره، وعبد الوهاب بن أحمد الإنكليزي، وسعيد بن فاضل عقل، وبترو باولي، وجرجي بن موسى الحداد، وسليم بن محمد سعيد الجزائري، وعلي بن محمد بن حاجي عمر، ورشدي بن أحمد الشمعة، وأمين لطفي بن محمد الحافظ، وجلال بن سليم البخاري، بالإعدام. لثبوت اشتراكهم في هذه التشبثات بالدرجة الأولى بصورة فعلية.

وعلى ما تبين دخولهم الدسيسة بصورة فرعية:

- سالم بن مصطفى مظلوم بالاعتقال بالقلعة خمس سنين.
- توفيق بن محمد الناطور، ويوسف بن مخيبر سليمان بعشر سنين.
- حسين لن خليل بخمس عشرة سنة.
- رياض بن رضا الصلح بنفي مؤبد
- الأمير طاهر بن أحمد الجزائري بعشر سنوات في الكريك.

ـ وعلى الذين مع كونهم لم يفهموا المقصد، والتشبث الحقيقي، وثبت وجود مساع لهم مع هذه الجمعية بصورة محسوسة، إما بسائق الجهل أو التصلف، وإنما يوجد عليهم وثائق تنور وجدان الحاكمة، وتثبت مجروميتهم، واشتراكهم وهم: رضا الصلح، وأسعد حيدر بإعادتهما إلى منفاهما.

ـ وأعطي القرار بمنع محاكمة وبراءة كل من: محمد أفندي كامل الهاشم، إبراهيم القاسم، سامي العظم، الشيخ جمال الدين الخطيب، عبد الحميد معلم الرسم، محي الدين فريحه، البيطار حسين صبري، رشدي الغزي، عاصم بسيسو الغزي، عزت الأعظمي، مصطفى الكيلاني، عبد الرحيم حنون، الدكتور حسام

الـدين، نجيب شقير، سليم الشمعة، سليم البخاري، فائز الخوري، رشيد الخشيمي، عمـر الأتاسـي، الكبكباشـي علـي رضا، الدكتور أمين قازما، سعيد عدره، الدكتور عبد الحفيظ، اليوزباشي جميل، فريد باشا اليافعي، عثمان العظم.

ومـن الـذين صـدر بحقهـم حكـم الإعـدام وهـم: شفيق المؤيد، الأمير عمر، شـكري العـسلي، عـبد الوهاب الإنكليزي، رشدي الشمعة، رفيق رزق سلوم جرى إعـدامهم هـذا الـصباح في الـشام، والآخـرون جـرى إعـدامهم في بيروت. وسائر المجـرمين صـار سـوقهم إلى منفاهم وحبوسهم، وعلى هذه الصورة تقرر إذاً في سورية وفلسطين السكون والأمن المحتاج إليهما إلى الأبد.

وسينـشر كـتاب حـاو جمـيع الوثائـق علـى حـده مـع اعترافـات المجرمين وتـاريخ صـغير لهـذه المسألة. ومن إمعان في هذا النظر في الوثائق يفهم أولاً: إن هـؤلاء الأشـخاص قـد ضـحوا بـلا تـردد جمـيع مـا لديهم من المقدسات الدينية والوطنـية لقـاء مـنافعهم الخسيـسة والماديـة. إن هـؤلاء الأشـخاص قـد أشـركوا مـساعيهم ونفـوذهم وقـدرتهم أعـداء الدولـة، وسـعوا في إعداد الطاعة في الداخل تجاه تجاوزات الأعداء في الخارج.

وممـا هو جدير بالتقدير إدارة هذه التشبثات، لم تتسع بالنظر لما جبل عليه العنـصر العربي النجيب من الصداقة والطاعة والصلابة الدينية العارية عن شوائب الظنون والشكوك بأسرها. بل حصرت بين بعض أشخاص مسلمين ومسيحيين لا أهمـية لهـم. ولا يكاد يتجاوز عددهم المائتين من المحكوم عليهم حديثاً وقديماً وجاهاً وغياباً.

وبـناء على الصلاحية التي تخولين إياها المادة الثانية من القانون المؤرخ في 14 مايـو وسنة 1331، المتضمن التدابير التي ينبغي للجهة العسكرية التوسل بها في وقـت الـنفير العـام ضـد الخـارجين علـى الحكومة وإجراءاتها، فإني ساع في إبعـاد أولـئك الأشخاص الذين يتخذون حقوق الدولة ومقدساتها ملعبة في سبيل مـنافعهم الشخـصية، مع من لهم علاقة معهم من أسرهم وعائلاتهم من قريب أو

بعيد إلى بعض ولايات الأناضول. وقد اتخذت الأسباب الكافلة لإعاشة هذه العائلات، ورفاهيتهم في المحال التي ينفون إليها تحت عناية الحكومة السنية وعاطفتها. وسيعطون هناك أرضاً وأملاكاً قيمتها تعادل أملاكهم وأراضيهم التي يملكونها في سورية. وإني أوصي جميع الأهلين في سورية وفلسطين بالسكينة والطمأنينة. على أنه من الآن وصاعداً لم يبق محل لإجراء التعقيبات والإبعاد إلى الولايات العثمانية في حق أحد مطلقاً، ما لم تظهر وثائق قوية تدل على خيانته.

قومندان الفيلق الرابع وناظر البحرية

أحمد جمال (1)

الوثيقة (8)

ما كتبته جريدة المقطم المصرية في تشرين الأول/ أكتوبر 1961 حول إعدام قادة النهضة

أخبرني الصديق الذي وصل أخيراً من سورية، أنه ابنة المرحوم رشدي بك الشمعة كانت مصابة بالحمى المعوية قبيل صدور الحكم على والدها، فأمر جمال باشا بإبعادها مع بقية أفراد العائلة قبيل التنفيذ بنحو أسبوع، ولكن الطبيب استرحم، وأظهر ما في هذا الأمر من الخطر على حياتها، إلا أن أحمد جمال باشا "..." الذي لا تشوبه شائبة، أصر على رأيه، وأصدر الأمر بنفي أسرة رشدي بك الشمعة، مهما يكن مرض كريمته خطراً، فحملت على ظهور الرجال، وسيقت هي ووالدتها وأخوتها إلى محطة البرامكة، ومنها إلى محطة رياق، حيث أطل أخوها الصغير من الشباك عرضاً، فرأى أباه في قطار بيروت آتياً من عاليه؛ ليشنق في دمشق مع من سيشنق في ذلك اليوم، فصرخ الولد صراخ الفطيم، عندما يرى مرضعه الحنون، وصار ينادي "أبي! أبي!". ومدت مريضتنا رأسها من الشباك لتتحقق من هذا الحلم بنفسها، فرأت والدها يبتسم في وجه ولده! ابتسام المحروق على تقبيله، فصاحت من شدة الانفعال، وأرادت أن تخاطبه وتودعه الوداع الأخير، وتطلب رضاه، ولكن الجندرمة الموكل بهم.. لكموها على وجهها، فسقطت على المقعد أمام عيني أبيها، الذي بقية مبتسماً، ابتسامة الاحتقار. وما أمسى المساء حتى فارقت الحياة قبيل وصولها إلى حماة، وهي تشير بيديها وفمها من غير وعي كأنها تقبل الأيدي التي طالما حملتها في صغرها.

وقد عرف المشنوقون صدور الحكم عليهم قبل التبليغ بأربعة أيام. وكان

وداع الشاب الضابط جلال البخاري لوالده الشيخ المسن الأستاذ سليم البخاري، الذي كان مسجوناً مثله يُفطر القلوب. وقد شجع الشاب أباه تشجيعاً مؤثراً فقال له: "يا أبتِ لا تخف ولا تجزع أن لي أخوة يعزونك عن فقدي، وإذا مت أنا فأن أمتي لن تموت. والذي أرجوه لك، وحرمت نفسي منه، أن يطيل الله عمرك حتى ترى بعينيك مصرع الباغين، وعاقبة الظلم والفساد". فسقط الوالد المسكين فاقداً صوابه، ولم يعد إليه رشده إلى الآن.

ونقلوا الذين شنقوا في بيروت بالاتومبيلات من عاليه إلى بيروت، وكان منظرهم يفتت الأكباد. وظلوا ينشدون الأناشيد الحماسية طول طريقهم، ويترنمون بالأهازيج القومية، كمن شعر بقيام واجبه، وعرف أن دمه سيكون سبباً لتشديد عرى الرابطة القومية، وتحرير البلاد من الأشرار. أما الذين شنقوا في دمشق، فقد سيقوا إليها في قطار الركاب العادي الاعتيادي، الذي يسافر بين بيروت والشام مرتين. ولما وصل القطار إلى محطة الزبداني، نزل منه المرحوم الأمير عمر الجزائري والمرحوم عبد الوهاب المليحي (الإنكليزي) لراحة الجسم من عناء الجلوس، والتمتع بآخر نظرة لربى بلودان، فرآهما في المحطة صديق لهما، وقال لهما: (خير إن شاء الله) فأجابه عبد الوهاب بأن وضع يده على عنقه وضمها كمن يخنق شيئاً، إشارة إلى المشنقة، التي ستنصب لهما ولرفاقهما تلك الليلة.

وقد وصل المحكوم عليهم بالإعدام إلى دمشق في مساء ذلك اليوم، وأنزلوا في الثكنة العسكرية في البرامكة، وفي منتصف الليل سيقوا إلى ساحة المرجة، حيث أعدت لهم السدد حوالي العمود التذكاري الحميدي، وأتى جمال باشا إلى نزل أمريكا المطل على تلك البقعة، ليمتع نظره بمشانق علماء سورية وأفاضلها، ويشفي غلته من الأمة العربية.

تقدموا كلهم إلى المشانق برباطة جأش نادة المثال، وكان في مقدمتهم شفيق بك المؤيد وهو أكبرهم سناً، فألقى خطبة بليغة مختصرة بين فيها الغاية الشريفة التي كان يسعى إلى تحقيقها رجال العرب والإصلاح الأساسي، الذي كانوا

ينشدونه من الدولة العثمانية، ثم طلب أن يكون الختام قراءة الفاتحة الشريفة. وسمع شكري لك العسلي يقول على سدة المشنقة ـ وهو آخر كلام نطق به ـ: (ولا تحسين الله بغافل عما يعمل الظالمون). ولما أزيح الكرسي من تحت أقدام المرحوم السيد الزهراوي، لم يحمله الحبل فانقطع به، فرفع مرة ثانية، وشدّ رجليه شداً قوياً.

وثيقة (9)

وثائق التهم التي صدرت بحق القادة العرب وفق كتاب إيضاحات لجمال باشا

الاسم	التهمة	الاتصال بالأجنبي
عبد الحميد الزهراوي	انتساب إلى الجمعيات	لا اتصال
شفيق مؤيد العظم	انتساب إلى الجمعيات	له اتصال مع الفرنسيين لاستقلال سورية
شكري العسلي	انتساب إلى الجمعيات	له اتصال بفرنسا، ويدعو للافتراق، وتشكيل إمارة في سورية، واستدعاء قوات فرنسية لسورية
عبد الغني العريسي	انتساب للأحزاب	لا اتصال
سيف الدين الخطيب	انتساب للأحزاب	لا اتصال
محمود المحمصاني	انتساب للأحزاب	لا اتصال
محمد المحمصاني	انتساب للأحزاب	لا اتصال
صالح حيدر	انتساب للأحزاب	لا اتصال
عبد الوهاب الإنكليزي	انتساب للأحزاب	لا اتصال
رفيق سلوم	انتساب للأحزاب	لا اتصال
عمر حمد	انتساب للأحزاب	لا اتصال

عارف الشهابي	انتساب للأحزاب	لا اتصال
عبد الكريم الخليل	انتساب للأحزاب	لا اتصال
الشيخ أحمد طباره	انتساب للأحزاب	لا اتصال
الأمير عمر الجزائري	كان يتقاضى الأموال من الفرنسيين وكان يمهد لفرنسا	
علي الأرمنازي	انتساب للأحزاب	لا اتصال
حافظ السعيد	انتساب للأحزاب	لا اتصال
محمود العجم	انتساب للأحزاب	لا اتصال
محمد مسلم عابدين	انتساب للأحزاب	لا اتصال
سعيد الكرمي	انتساب للأحزاب	لا اتصال
سليم عبد الهادي	انتساب للأحزاب	لا اتصال
سليم الجزائري	داعي استقلال عربي	لا اتصال
أمين لطفي	رئيس جمعية العهد بحلب	لا اتصال
عبد القادر الخرسا	انتساب للجمعيات السرية	لا انتساب
رشدي الشمعة	انتساب للجمعيات السرية	لا اتصال
محمد الشنطي	انتساب للجمعيات السرية	لا اتصال
جورجي حداد	انتساب لجمعية النهضة اللبنانية واستقلال لبنان	لا اتصال
سعيد عقل	انتساب لجمعية النهضة اللبنانية واستقلال لبنان	لا اتصال
بترو باولي	انتساب لجمعية النهضة اللبنانية واستقلال لبنان	لا اتصال
سبط علي	انتساب لجمعية النهضة اللبنانية	لا اتصال

	واستقلال لبنان	
محمد سالم مظلوم	انتساب للجمعيات السرية	(حكم خمس سنوات)
نوري القاضي	انتساب للجمعيات السرية	له اتصال بالفرنسيين
توفيق البساط	انتساب للجمعيات السرية	لا اتصال
جلال البخاري	انتساب للجمعيات السرية	لا اتصال

الوثيقة (10)

من مقابلة الأمير فيصل لجمال باشا في القدس 30 أيار 1915

كتب نص المقابلة فالح رفقي بك مرافق جمال باشا والذي حضرها، وقد أصبح عام 1938 صاحب جريدة (اولوس) في أنقره وعضو المجلس الوطني الكبير في تركيا:

(استقبل أحمد جمال الضيف الكبير بحفاوة، وأعلمه عن رغبته في تجهيز حملة من الحجاز لمساعدته في حملة قناة السويس الثانية، ثم قال: (إن الأمير شكيب أرسلان يجمع لنا المتطوعة من حوران، وكامل بك الأسعد يقوم بمثل هذا العمل في جبل عامل، إلا أن الذي يهمنا قبل كل شيء أن تكون لنا قوة من المتطوعة من الحجاز لما في قدوم هؤلاء من رمز للقوة). فوعده الشريف فيصل بك بأن يسافر قريباً إلى الحجاز لتحقيق هذه الغاية.

ثم اغتنم الشريف فيصل هذه الفرصة وحادث أحمد جمال باشا في أمر الأشخاص الذين يسوقهم رجال الشرطة إلى ديوان الحرب فأجابه الباشا قائلاً:

ـ إن هؤلاء الأشخاص لن يظلموا لأن الأوامر الموجودة لدى ديوان الحرب توجب عدم مس أحد منهم بسوء وإجراء العدل والإنصاف بحق الجميع.

ـ ولكن الوشايات كثيرة هذا الوقت.

ـ إنك على حق في هذا الأمر، ولهذا أرسلت أعلم مدير شرطة بيروت أن لا يوقف أحداً من الأهلين لمجرد الوشاية، ولكن المؤسف جداً أن الوشايات تتوالى على المقامات الرسمية بشكل يجعل من الصعب معرفة الحقيقة، ومع هذا فإننا نعمل بكل قوانا لمعرفة الحقيقة.

- إن البلاد يا صاحب الدولة بحاجة إلى الاستقرار والسكون، ولهذا أرى من الواجب أن تقفوا في إجراءاتكم هذه جانباً، لنتمكن من أن نجمع كلمة الجميع حولنا، ونوحد الصفوف لمساعدتكم في مشروعكم الجليل الذي تعملون من أجله.

- إنك على حق في ذلك يا صاحب السيادة، ولكن تركنا الأمور كما هي في شدة الأمر. ولهذا رأيت ضرورة استعمال بعض العنف، ثم إن هناك أمراً علينا أن نضع حداً له، هو الدعوة التي يقوم بها بعض إخوانكم العرب في الخارج، فإنهم يكتبون مقالات تحريضية ضدنا مع أنه لم يسبق لنا أن قمنا بعمل من شأنه أن يبرر مثل هذه الحملة.

- إذا رأى صاحب الدولة نكتب لهم.

- كلا فأنا أعرف كيف أخمد هذه اللألسنة المضرة.

- والموقوفون؟

- سيحاكمون.

- ولكن العدل يا صاحب الدولة.

وهنا بدأت إمارات الحدة على ملامح أحمد جمال باشا وقال:

- إن العدل يوجب يا حضرة الشريف محاكمة هؤلاء.

- إن العاقبة ستكون وخيمة،

- ماذا؟ أتهددني؟

- كلا يا صاحب الدولة فأنا لا أهدد الآن وإنما ألفت نظركم إلى المخاطر المقبلة"؟

وعلق فالح رفقي بك بقوله: إن أحمد جمال باشا لم يحفل أبداً بنصائح الشريف فيصل، لأنه كان شديد الغرور بنفسه، وهو كما رفض مع إخوانه في استنبول أن يصغي إلى المخلصين من الأمة، أبى في هذه المرة أن يستمع

لنصيحة الشريف الحقة. نعم بعض المكائد دبرت في صيدا إلا أن مجرد اليقظة كان طافياً لأن يحول دون وقوع هذه الجرائم الدموية التي ارتكبت فيما بعد انتقاماً لحوادث وقعت في الماضي.

وقد رأيت الشريف فيصل يغادر ديوانه وهو متأثر، ولو أحسن أحمد جمال باشا الإدارة لما جلب عليه حقد هذا الرجل النبيل، ولكان موقفنا في ذلك الوقت غير الموقف الذي رأينا في أيام الحرب العصيبة).

الوثيقة (11)

رسالة الضابط محمد شريف الفاروقي إلى الشريف حسين في 27 محرم 1334

بعد المقدمة ما نصفه: (أنا شريف بن محمد الفاروقي من الموصل ضابط في الجيش العثماني، ومعلم الفيلق الثاني عشر في فن الرماية، وضابط الأمر أو ياور الفريق فخري باشا قائد الفيلق الثاني عشر وكيل جمال باشا بسوريا. والعضو الأول في جمعية العهد المتشكلة من الضباط، ومؤخراً بجمعية الفتاة العربية، وزميل ياسين باشا البغدادي الذي كان رئيساً لأركان حرب الفيلق الثاني عشر، وإذا أراد مولاي أن يزيد هذا التعارف تعارفاً فليتفضل ويلقي بنظره الكريم على قائمة أسماء الضباط الذين بايعوا عظمتكم، وجاءكم من دمشق الملازم الأول عبد الحميد أفندي البغدادي خصيصاً لهذه المسألة فكتب أسماءهم. ولابد أن سيادة نجلكم حضرة الأمير فيصل يذكرني حين تشرفت بمقابلته مع سامي الصلح والمرحوم محمد المحمصاني في حلب الشهباء في بيت المدرس عند عودته من الآستانة، وهنا بلغني السيد محمد رشيد رضا بأن حضرة صاحب السيادة تجلكم الكريم عبد الله مشترك معنا في مبادئنا وأمانينا، وتجمعنا عين الجامعة، وأظن أن هذه الإشارة كافية لسيادتكم: (2× 6=12+).

إذا كان مولاي قد وثق من معرفتي أبادر إلى إخباره بأنه في أثناء تفاهم ياسين بك البغدادي مع جمعية الفتاة بسوريا، بلغني هذا الخبر وأنا في حلب، واطلعت على خطتهم ومناسبتهم، وإطاعتهم لسيادتكم، ووحدنا مساعينا معهم. وأحس جمال باشا يومئذ بسريان الحركة العربية، فكان ما كان منه من حبس

بعض إخواننا، وأما نحن الضباط فبعد أن حبسنا في حلب مقدار 15 يوماً، أصدر بإرسالنا أنا وياسين بك وأمين لطفي بك وعبد القادر أفندي إلى الآستانة، وعقب وصولنا اجتمعنا أنا وياسين بك وقررنا المواد التالية:

1 ـ أن يكتب ياسين بك كتاباً لمركز الشام بالشيفرة المعلومة، بأننا عزمنا على الفرار من الترك إلى الإنكليز، لنجعله طريقاً للوصول إلى سيادتكم، لأننا كنا عارفين بالمخابرات الجارية بين عظمتكم ودولة بريطانيا العظمى.

2 ـ أن يطلب أوراق الاعتماد والدراهم التي يتمكن من الحصول عليها من رضا باشا الركابي خوفاً من أن يتفش.

3 ـ أن يعرّف المركز بعائلتي بالموصل لكي يعاونوها عند الحاجة.

وبعد بعضة أيام سافرت من الآستانة إلى كاليبولي، وبقيت بخط العرب في (انافورطه) عشرة أيام، كنت خلالها أترقب الفرص، إلى أن سهل لي الله العظيم هذه الفرصة، وهي لكوني قائداً مستقلاً، وجرت في أثناء الليل حرب مدهشة بيننا وبين الإنكليز، وترك الطرفان في ساحة القتال عدداً من القتلى ومعهم بعض المجاريح. فطلبت من القائد الإنكليزي لأجل أن نرفع المجاريح، وندفن القتلى.

وفي ذلك اليوم كافأني الترك بوسام الحرب، ووعدوني بغير هذه المكافأة أيضاً. ولما أتيت القائد الإنكليزي اشترطت عليه الشروط الآتية، التي لو رفضها لكنت رجعت للترك، لأن عدم قبوله يخالف فكرتنا وخطتنا، ويمس بعزة النفس والشرف. أما الترك فأرادوا أن يكافأوني، ولكني علمت أنهم ما أتوا بنا إلى كاليبولي إلا لأجل أن نقتل، وهم قاصدون قتلنا، وقتل قومنا، وأمانينا العزيزة المقدسة.

وأما الشروط التي اشترطتها على القائد الإنكليزي ورضي بها فهذه هذه:

1 ـ أن لا أعتبر أسيراً بوجه من الوجوه.

2 ـ أن أكون ضيفهم في أثناء إقامتي عندهم.

3 ـ أن أرسل إلى مصر ومنها إلى المكان الذي أختاره لمصلحة العرب

ومصلحتهم والمقصود سيادتكم.

4 ـ كتمان اسمي وأمري كي لا يفهم الترك أنني أصبحت أسيراً، لأنهم إذا علموا حقيقة الحال انتقموا من أهلي وأخوتي الذين ليس لهم سواي، ثم يشددون الضغط والاستبداد والظلم على أخواني.

ولما نزلت بمصر قدمت للإنكليز تقريراً مسهباً، وأفهمتهم أني أنا وأخواني نرى مصالح العرب والإنكليز متحدة، ولهذا السبب يلزم أن نكون أصدقاء، ولولا هذا الاعتقاد لما أتيتهم قاصداً سيادتكم، وذكرت لهم أشياء عن جمعيتنا، وبيّنت لهم شدة الحركة العربية، وبسطت البسط الوافي عن إخلاصنا وتعلقنا بسيادتكم.

وذكرت لهم أننا نحن رجال ليس لنا أرب سوى الاستقلال، ونحن مستعدون لتضحية كل ما يلزم لهذا الاستقلال، لأن منافع الطرفين متحدة كل الاتحاد. ونحن نرى الموت حياة في سبيلنا، ولنا ثقة بأنفسنا واعتماداً على بريطانيا التي جاهرت بود العرب، والتي تحب أن تصاحب العرب أصحاب السيادة على العالم الإسلامي، وتعينهم على استقلالهم لاتحاد المصلحتين، ثم بحثت معهم بشأن المفاوضات التي دارت بينكن وبينهم بشأن تشكيل الدولة العربية تحت رياسة سيادتكم، وطلبكم منهم الاعتراف بهذا الاستقلال، الذي تكون حدوده مرسين ـ مديات.

وقد كان بلغني هذه الأمور وغيرها أخي ياسين بك، واتفقت معه على مخاطبتهم بها، ليثقوا بي، ويعتمدوا علي. فبناء على بياناتي لهم اعتمدوا علي، ومن ثم أفهموني جوابهم لسيادتكم، الذي يستثنون به غربي خط الشام وحمص وحماة وحلب ومرسين والاسكندرونة معتذرين عن ذلك، بأن لفرنسا حليفتهم مصالح لا يسعهم أن يغضبوها لأجلنا. واعتراف بريطانيا وإعطائها لاستقلالنا تحت رئاسة سيادتكم مع استثناء الحدود المذكورة ومن غير المساس بمصالح فرنسا، وما عدا المعاهدات الممضاة قبلاً بينهم وبين مشايخ ورؤساء العرب، وفيها طلب مساعدتكم بشأن ولايتي بغداد والبصرة، وأن يعترف لهم بحقوق ومصالح

اقتـصادية، وتـأمين تلك المصالح من كل خطر أجنبي، وجلب المفتشين الإنكليز، وأنهم يمنعون كل تعد عن البلاد المقدسة.

وبعـد أن أطلعونـي علـى هـذه المـواد، طلبوا مني رأيي الشخصي، فأجبتهم بـصفة شخـصية حـسب معرفتي السابقة، والمحاورات التي دارت بين وبين ياسين بـك وبعـض الأخـوان، أنـه لا يمكـن بـوجه من الوجوه التنازل عن شبر أرض في سوريا، وأني لست أعرف في غرب خط الشام وحلب بلداً غير عربي كما يدعون. وقلـت لهـم أنـه لابـد مـن الاعـتراف بـذلك، ووضع معاهدة تحالف، وأن لا يبرم صـالح إلا باشـتراك سيادتكم، وأن يعترف بهذا الاستقلال جميع الدول المتفقة مع أمـريكا، وهـو يـشمل سـوريا والعـراق، وأن يمـدونا بالأمـوال والذخائر الحربية، ويمكـن الاعـتراف للإنكليـز بالمـنافع الاقتـصادية بالعـراق، وللفرنـسيين بسوريا، وجلب المفتشين منهم.

جـرت هـذه المذاكـرة مـع أصـحاب السلطة هنا، وقد تكلمت أيضاً في هذا الموضـوع مـع أحـد نـوابهم المخـتص مـن قبل جولتهم بالمسألة العربية المدعو السير (مارك سايكس)، وهذه المذاكرة الشخصية تعددت وتكررت مراراً، وأظنهم قـد قـنعوا بهـا، وفهمـوا أنـنا ننفعهم أكثر من نفعهم لنا، ومصالحهم فيها أكثر من مصالحنا.

ولمـا ورد خطاب سيادتكم إليهم، أخبروني بأنه جاء مشتملاً على ما ذكرته، وقـد أرسـلوا جـوابهم مـع رسـولكم. وعندما جاء رسول سيادتكم الشيخ عريفان، طلـبت إلـيهم أن أبـرح مـصر قاصـداً سيادتكم، فأجابونـي أنـه لابد للسفر سفراً مطمئـناً، مـن الحـصول علـى أمـر، وإذن سـيادتكم، لتسهيل الطريق ولا سيما من الساحل إلى الداخل حتى لا يبقى هناك شيء من الأخطار.

وقـد رأيـت أن جوابهم مبنياً على الحكمة، ولهذا تجاسرت بتقديم عريضتي هذه بكمال الحرية والخضوع لسيادتكم، ضباط العرب الذين أسروا في الترعة لا يـبلغون الثمانـية، وإذا رأيـتهم مـستعدين لقـبول فكـرتنا، أدخلـهم الجمعية، وهم

يطلقونهم أحراراً، ففعلت وحدي دون أن يشترك معي أحد من الإنكليز، وأدخلنا ضابطاً اسمه رؤوف عبد الهادي من عائلة الأمير عبد الهادي النابلسي وابن عم المشنوق ظلماً في سبيل العربية عبد الهادي، ولما عرفتهم أني أعتمد عليه، وهو قد قبل بفكرتنا أطلقوه للحال، وعينوا له معاش يكفيه.

فإن كنتم سيادتكم تأمرونني أخبر الضابط الذين هم في العراق والهند، وأظنهم لا يخالفون، وهذا دليل على صداقتهم وحسن نيتهم للعرب ولا سيما سيادتكم. والدليل الثاني حسن معاملتهم لي وأنا أرى من الواجب أن أعرض لجلالتكم بصفتكم رئيسنا المعظم مزيد شكري وامتناني. وأنا غريق ألطافهم، وقد عاملوني معاملة ضيف شريف، وأنزلوني عند مجيئي في منزل نعوم بك شقير أحد وجهاء المسيحيين السورين الموظف عند الإنكليز، الذي يشترك بفكرتنا مبدئياً، فأكرمني، وأحسن ضيافتي، وأنساني هو وعائلته غربتي.

وهنا تواجهت مع إخواننا السيد رشيد رضا ورفيق العظم وعزيز علي المصري وحقي العظم وجميل الرافعي، وكلهم يقبلون أناملكم الشريفة ويدعون لحضرتكم - قبلة العرب ومخلص الإسلام - بالفوز العاجل. وأختم كتابي هذا بتقبيل يديكم الشريفتين، وأسأله تعالى أن يقدرني على تقبيلها بالفعل قريباً بالخير والسلامة.

خادمكم

محمد شريف الفاروقي

الوثيقة (12)

رسالة من محمد شريف الفاروقي إلى الشريف حسين في 3 رمضان 1334هـ أي 5 تموز 1916م

(سيدي وسيد الجميع شريف مكة وأميرها المعظم

تواجهت يومين متتاليين مع فخامة نائب الملك، ولقد سررت بحسن قبوله لي، طلبت عدة مطالب، ووجدته مستعداً لكل ما نطلب، ولهذا تأكد عندي أن دولة إنكلترا في الحال الحاضر ميالة إلى مساعدتنا من كل الوجوه.

تعمير التلغراف تحت البحر تم وكمل، بعد أربعة أيام أو خمسة سترسل خمسون ألف جنيه، والذخائر سترسل بمقدار أزيد مما طلب مولاي، الألف بندقية والخراطيش أرسلت، التلغراف الذي أرسله سيدي إلى رئيس جمهورية أمريكا تبلغ إلى الرئيس المشار إليه قبل يومين؛ لأن نائب فخامة الملك ترك التلغراف يروح من بروت سودان إلى أمريكا رأساً، لكي يفهم أنه مرسل من قبل سيدي، وهذا موافق. لقد اشتغلت بتحضير الجنود والضباط العرب والحمد لله توفقت، بعد ثمانية أيام أو تسعة يسافر من هنا إلى قبل سيدي سبعمائة جندي عربي مدرب تحت قيادة عدة ضباط والكل سيكونون تحت قيادة صاحبي الذي أئتمنه نوري البغدادي (نوري باشا السعيد) ومن هؤلاء ستمائة مشاة ومائة مدفعية مع ضابط عربي مدفعي. ويكون معهم بطارية أوبش (مدافع ضخمة) ومعهم رشاشات، وكلهم متحمسون صادقو الخدمة لسيدي نافرون من الترك.

وسيكون مع نوري قنابل اليد والديناميت لجل تخريب السكة الحديدية فنياً، وتخريب المباني الجسمية، فأرى أن يأمر مولاي أن تروح هذه البعثة رأساً إلى

المدينة، لأنني معتقد بأنه لا يوجد خطر في غير محل. وأما الضباط والجنود الباقون من أولاد العرب فقد كتب نائب الملك تلغرافاً إلى الهند وإلى العراق لكي يأتوا سريعاً، فعند مجيئهم سيجهزون وترسلهم. وأما البعثة الحالية، فكان الجنود منها مأسورين بمصر، ولقد اجتهدت أن تعطي حكومة إنكلترا جميع لوازمهم مع رواتب الضباط والجنود بمقدار واف من الدراهم، وبعد وصولهم إلى قبل سيدي استرحم من مولاي أن يعين لهم رواتب حسبما أعرض من المقدار بعد. وأريد أن أعين وأفرق مقداراً كافياً من الضباط والجنود العرب لكي يدرسوا فن الطيران، وعند إكمالهم نرسلهم مع طياراتهم.

وأما المساعي السياسية فقد استحصلت على مساعدة نائب الملك لأجل أن ينشر رفقائي المتعددين العرب عدة مقالات في جريدة المقطم والأهرام ووادي النيل، وسأطلع على هذه المقالات قبل نشرها لكي تكون موافقة مصالحنا، وأن لا تمس مصالح الحلفاء، وبعد أن نرسل هذه المقالات سترسل إلى الهند والجزائر وتونس ومراكش وسائر البلاد الإسلامية، وستكون المقالات مقدمة تمهيدية لنشرة مولاي.

وسأرسل هذه الجرائد إلى مولاي. أريد أن أرسل أربعة مأمورين ملكيين العرب الذين أعتمد عليهم إلى جدة، لكي يكون أحدهم مساعداً لحضرة نائب مولاي، والثاني مساعد رئيس البلدية، والثالث للتجارة، والرابع للبوسطة والجمرك، وهؤلاء ليسوا من المغفلين الذين يريدون الطفرة بل من العقلاء الذين أعتمد عليهم، وليست رواتبهم أكثر من 15 أو 20 جنيهاً، فإن إرسال هؤلاء الأشخاص ضرورياً. لأن جدة ثغر مهم جداً بمناسباتها مع الخارج. وأما من جهة المأمور الذي سيكون في مصر لأجل التلغراف البحري، فإنني رأيت فخامة نائب الملك غير ميال إلى قبوله. ولأجل هذا ما رأيت الإصرار يفيد، واقتنعت بأن يكون مأمور التلغراف البحري في مصر من الإنكليز شريطة أن يستعملوا العربية، ووافقوا على هذا.

ولقد تباحثت مع نائب الملك لأجل لقب (ملك العرب) فوجدته ميالاً لقبوله، واسترحم مولاي أن يرسل مولاي النشرات سريعاً، ثم استرحم بناء على اغتراري بعفو مولاي أن يأذن لخادمه إذا كان في النشرة بعض الكلمات التي يعترض عليها نائب الملك، أن يسمح لي أن تغير بعض الألفاظ ولكن لا تزيد على ما قرر من قبل سيدي. وأنني قلق جداً من جهة المدينة، فأسترحم مولاي أن يمد جيشها إمداداً مؤثراً. وأسترحم من سيدي أن لا يتركني قلق البال من عدم إرسال الأخبار من قبل سيدي لي.

وإذا كان في معروضاتي هذه شيء غير موافق لإرادة سيدي فليأمرني سريعاً لأتخذ خطة أخرى. ولكي مطمئن من صواب معروضاتي هذه لأنها من آراء سيدي، وقد أوصلت المكتوب إلى رشدي باشا وأفهمت نائب الملك من جهة مأموري الإنكليز، وعدم مراعاتهم لعوائد البلاد ووافق على العادات. أما الشائع في الجرائد فهو أن تركيا مشغولة بتحضير الجنود لأجل الحجاز، وستجلب هذه الجنود من فلسطين، وقد نشرت تلغرافاً عن قتلا المدينة وعن انكسار العرب هناك، وخروج فخري باشا من المدينة. وأما أعمالي الباقية فسأعرضها بعد هذا وأرجو من كاتب مولاي أو من مأمور التلغراف أن لا يغلطوا في كتابة الشيفرة، واقبل الأيدي والأقدام داعياً بالنصر والإجلال.

محمد شريف الفاروقي

الوثيقة (13)

النص الحرفي للمنشور الذي أرسله الشريف حسين لإعلان الثورة مع الفاروقي في 26 حزيران 1916 وطلب الجنرال كلايتون تعديله وحذف الكثير من كلماته (منشور عام من شريف مكة وأميرها إلى جميع إخوانه المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين

كل من له إلمام بالتاريخ يعلم أن أمراء مكة أول من اعترف بالدولة العلية من حكام المسلمين وأمرائهم، رغبة منهم في جمع كلمة المسلمين، وإحكاماً لعرى جامعتهم، لتمسك سلاطينها من (آل عثمان) العظام طاب ثراهم، وجعل دار الخلود مثواهم، بعروة الإيمان بكتاب الله ورسولهﷺ، ولبناء إحكام دولتهم على الشريعة الغراء، ولنفس تلك الغاية السامية الرفعية ما زال الأمراء المشار إليهم يحافظون عليها ـ حتى أنني حملت بالعرب على العرب بذاتي في 1327 سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وألف حصار (أبها) محافظة على شرف الدولة، وفي السنة التي تلتها كان مثل هذا الحركة تحت قيادة أبنائي إلى غير ذلك، مما هو في هذا المعنى كما هو مشهود ومعهود ـ.

إلى أن نشأت في الدولة جمعية الاتحاد، وتوصلت إلى القبض على إدارتها وجميع شؤونها بقوة الثورة، فحادوا بها عن صراط الدين، ونهج الشرع القويم، ومهدوا السبل للمروق منه، واحتقار أئمته ـ وسلبوا شوكة السلطان المعظم ما له من حق التصرف الشرعي والقانوني أيضاً ـ وجعلوه هو ومجلس الأمة ومجلس

الوكلاء منفذين للقرارات السرية التي لا يخفى أمر خطرها ووخامة عاقبتها على أحد ـ وأضاعوا ممالك كبيرة من ممالكها ـ ومزقوا شمل الأمة العثمانية بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية بالقوة القاهرة، فوقعوا بينها وبين العنصر الذي أرادوا تسويده عليها، وإدغامها فيه العداوة والبغضاء ـ وخصوا العرب ولغتهم بالاضطهاد.

ولم يكتفوا بذلك كله حتى خاضوا بالدولة والأمة غمرات هذه الحرب الأوروبية الساحقة الماحقة، فوقفوا بالدولة موقف الهلكة، وألقوا بأيديهم إلى التهلكة، واستنزفوا باسمها ثروات الأمة، كما استنزفوا قبلها ثروة الدولة، ثم اتخذوها ذريعة للفتك بجميع المخالفين رأيهم في سيادتهم الخرقاء وإدارتها الظالمة، وللتنكيل بالعرب خاصة، حتى أن حرم الله سبحانه وحرم رسوله الأعظم ﷺ لم يسلما من شرهم، فأنهم عرضوهما للخوف والجوع والخراب.

أما انحرافهم عن الصراط الدين فلا نأخذ فيه عنا بمجرد ما اشتهر عن زعمائهم من الكفر والإلحاد في الصحف الإسلامية والأوروبية، ولا بما نعلم من سوء اعتقاد جمهور علماء الآستانة وغيرهم فيهم، بل نأخذ فيه بأقوالهم وأفعالهم ـ فمن باب الأقوال ما نشروه في دار السلطنة من الكتب والصحف التي جاهرت بالطعن في الإسلام، وانتقاص ما عظم الله تعالى من قدر خاتم رسله وقدر خلفائه الراشدين الكرام، ككتاب "قوم جديد" الذي اشتهر بما فيه من الكفر والضلال والإضلال، وتحريف نصوص الكتاب العزيز والسنة، ومجلة "اجتهاد" التي شوهت أجمل سيرة في الخلق وأشرفها وهي سيرة المصطفى ﷺ، ولا يمكن أن تنشر أمثال هذه المطبوعات في دار السلطنة على مرأى ومسمع من شيخ إسلامها وعلمائها، ومن رجال السلطنة ووزرائها، لولا أن الجمعية هي الناشرة لها، وما نرى من ينتقد جمعيتهم ولو بحق يعاقبونه بالقتل أو النفي أو السجن المؤبد، ومن يطعن في دين الله وصفوة خلقه يعزز ويكرم.

ومن باب الأفعال أنهم أبطلوا ما كان محتماً على تلاميذ المدرسة الحربية وغيرها وعلى جميع العسكر من التزام الصلاة، فجعلوا الصلاة في نظامهم

العسكري اختيارية غير واجبة، توصلاً بذلك إلى إبطالها بالفعل، وقد جعل كتاب "قوم جديد" لديهم ركناً لا صلاة فيها ولا صيام ولا حج. ثم جاءت أوامرهم في أثناء الحرب إلى الجنود المقيمين في مثل المدينة المنورة أو مكة المكرمة أو الشام تحتم عليهم الإفطار في رمضان. بعلّة المساواة بينهم وبين الجنود الذين يقاتلون في حدود الروس، ولفقوا أقاويل لمعارضة النص الصريح الذي لا يقبل التأويل وهو قوله عز وجل: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدّة من أيام أخر﴾.

بل شرعوا إبطال أحكام الشريعة المنصوصة في القرآن الكريم المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة. وقد يعد من هذا القبيل ما ورد أخيراً إلى قاضي محكمة مكة الشرعية بأن لا يحكم إلا بالشهادة التي تحررت في محكمته وبين يديه، وألا يلتفت إلى الشهادات التي يكتبها المسلمون فيما بينهم، غير مبالين بما في آية البقرة. ومنه استحلالهم لقتل المسلمين والذميين بغير محاكمة شرعية لا حكم، أو بأحكام عرفية ما أنزل الله بها من سلطان، واستحلال مصادرتهم، وسلب أموالهم، وإخراجهم من ديارهم - وسيأتي شيء من شواهد ذلك المنشور - ومن أغربها مشروع (سجلات المستشفين) الذي قرره شيخ إسلامهم السابق، وأصدر به أرادات سنية، وقصاراه بيع الشفاعة النبوية لطالبها بليرة عثمانية، وكتابة أسماء المشترين للشفاعة في سجلات تودع في الحرم النبوي الشريف.

وأما سلبهم ما للسلطان المعظم من حق التصرف والشرعي - وكذا القانوني - فهو مما لا يجهله أحد من أهل العاصمة وأهل المعرفة في جميع أقطار المملكة ولا من الأجانب أيضاً، حتى أنه لا قدرة له على اختيار رئيس الكتاب (المابين) في سلطته الشريفة، ولا رئيس خاصته المبجلة المنيفة، فضلاً عن اختيار الصدر الأعظم وشيخ الإسلام - فضلاً عن النظر في أمور المسلمين ومصالح العباد والبلاد - وقد أسقطوا بهذا بقايا شروط الخلافة التي يطالب بها المسلمون كافة، إذ يجب على المسلمين أن يكون لهم إمام (خليفة) شرعي مستقل قادر على

التصرف في إقامة الشرع، ورفع لواء العدل.

وأما إسرافهم في أموال الدولة، وإرهاقها بالقروض الفاحشة فأمره معلوم للخاصة والعامة، وكذلك إضاعتهم لعدة ممالك من الدولة كمملكتي البوسنة والهرسك والممالك الألبانية والمقدونية وطرابلس الغرب وبرقة. وكذلك إثارة الأحقاد الجنسية الممزقة لشمل الأمة العثمانية، وبهذه السياسة السوء أضاعوا المملكة الألبانية، وأفقدوا الشعب الأرناؤوطي الباسل الذي كان سياجاً للدولة أمام البلقان، وهي التي حملته على ما اشتهر خبره في هذه الأيام من الفتك بالأرمن رجالاً ونساء وأطفالاً، فأين أن صح عشر معشاره من قول الرسول الأعظم ﷺ [من أذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة] رواه الخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود. وفي هذه الوصية يحفظ حقوق أهل الذمة والعهد أحاديث في الصحاح والسنن، ومن الأحاديث المخيفة ما رواه الطبراني من حديث جابر: (إذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو) فإذا كان في سنه ضعف فإن متنه في غاية القوة تؤيده السنن الاجتماعية.

وأما ما خصوا به العرب ولغتهم من اضطهاد، فهو أعظم ما جنوه على الدين والدولة من الفساد، حاولوا قتل اللغة العربية في جمع الولايات العثمانية، بإبطالها في المدارس، ومنعها من الدواوين والمحاكم، وأصدروا في ذلك أوامر كثيرة لقيت من مبعوثي العرب معارضات شديدة، ونفروا عنها في كتبهم الجديدة، وألفوا لذلك الجمعيات الكثيرة، ولا يخفى أن قتل اللغة العربية قتل للإسلام نفسه، فالإسلام في الحقيقة دين عربي، بمعنى أن كتابه أنزل باللغة العربية، وجعل متعبداً بتلاوته، وتدبره وفهمه لا بمعنى أنه خاص بالعرب فمن المعلوم من الدين بالضرورة أنه عام لجميع الأمم، وقد قال الله في سورة الرعد ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾.

وقد أمكنتهم فرصة إعلامهم الأحكام العرفية في البلاد من تنفيذ كل ما يريدون في العرب، فطفقوا يقتلون ويصلبون كبراء ونوابغ رجال النهضة الذين اشتهروا بغيرتهم على الأمة والدولة من أرباب المعارف والأفكار وحملة الأقلام

وبارعـي الـضباط. وآخر ما وصل إلينا من بلاغاتهم الرسمية في ذلك أنهم صلبوا في الـشام 21 رجـلاً في آن واحـد: (مـنهم شـفيق بـك المؤيد والسيد عبد الحميد الزهراوي والضابط الكبير سليم بك الجزائري والأمير عارف الشهابي والسيد عبد الغني العريسي وشكري بك العسلي وعبد الوهاب بك وتوفيق بك البساط).

وأنـه ليـصعب علـى كـثير مـن ذوي القلـوب القاسـية إزهاق مثل هذا العدد الكـبير مـن الأنفـس لأجـل الانتقام، ولو كانت من الدواب أو بهيمة الأنعام، وإنما يقـتلون مـثل هـؤلاء جهـراً، ويـصلبونهم في الشوارع العامة صلباً، حتى لا يطمع عربي بأن يقول بعدهم أن لغتنا لغة الإسلام، فيجب على الدولة الإسلامية الكبرى مـساعدتنا علـى حفظهـا، وأن لـنا في المملكة حقوقاً شرعية وقانونية يجب علينا المطالـبة بها، وأما من يقتلون رمياً بالرصاص بعلل عسكرية، ومن يقتلون اغتيالاً في الـسجون والـشوارع فلا سبيل إلى العلم بأخبارهم إلا إجمالاً. وأنه ليعز على كـل إنـسان أن يرضـى لقـومه أو لغيرهـم من أبناء جنسه بأن تكون دماؤهم مهين غـير محترمـة إلى هـذا الحـد. وقـد عظـم الإسـلام أمـر احترام الدماء، وجعل من يعتمد القتل خالداً في النار.

ثم أنهم صادروا أموال من لا يحصى من الناس، وعمدوا إلى كثير من الأسر (العـائلات) الغنـية أو المغـضوب عليها لأسباب سياسية، فأخرجوهم من ديارهم وأمـوالهم وعقـارهم وأبعدوهـم نساء وأطفالاً إلى بلاد الأناضول بلا كافل شرعي، فاهـتكوا حـرمة المخـدرات مـن النـساء المؤمـنات اللواتـي لا يعـرفن الـسياسة، وعرضـوا أطفالهن للهلاك بين أيديهن في طريق الفني الطويل، الذي لا يجدن فيه الكفايـة مـن القـوت والأسـباب الواقية من البرد أو الحر. والله تعالى يقول: ﴿ولا تـزر وازرة وزر أخـرى﴾. والظاهـر أن الغـرض مـن هـذا أن يكـون من يسلم من الهـلاك مـن هؤلاء النساء والأطفال كالإماء والعبيد للترك في الأناضول، ولابد من أن ينـسى الأطفـال لغـتهم هـنالك، فـيكونوا تـركاً تعمـر بهـم بلاد الترك، ولعلهم يـريدون أن يأتـوا بـترك يحلون محل هؤلاء المنفيين فيسهل جعل البلاد السورية تركية.

ولم يكتفوا بالتنكيل بالأحياء تقتيلاً وتصليباً ومصادرة ونفياً، بقساوة على الأطفال والمخدرات، تنفطر لمجرد تصورها القلوب، وتذهب النفوس حسرات، بل وصل حقدهم على العرب إلى إهانة الأموات، فتجرؤا على قبر الأمير الأبر والمجاهد التقي الزاهد الشريف عبد القادر الحسني بإهانته وتحقيره.

أي مسلم بل أي بشر يرضي لقوه بمثل هذا الظلم والخسف، وقد جعل الله تعالى أمر نفي المرء من وطنه، مقارناً لأمر قتاله ليرتد عن دينه، وسبباً لمشروعية القتل فقال تعالى في تعليل الإذن بالجهاد ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير۞ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق﴾ - الآية، - وقال في شأن معاملة غير المسلمين بالعدل والبر والإحسان ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين۞ إنما ينهاكم عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾.

وأما نصيب الحجاز وسكان الحرمين الشريفين من هذه الأرزاء، فلو سكتنا على ما كان من بوادره أو أوائله لطغى هذه، حتى لا يعلم الله أين يكون حده، ساقوا إلينا الألوف الكثيرة من جنودهم المنظمة مستكملة الأسلحة والذخائر، وهم يعملون كما نعلم أن الحجاز لا يهاجمه أحد من الدول المتحاربة، حتى يحتاج إلى قوة مدافعة، وأنهم في أشد الحاجة إلى هؤلاء الجنود في ميادين القتال، فلم يبق إلا أنهم يريدون أن يفعلوا في الحجاز ما فعلوه في سوريا والعراق، ليتم لهم القضاء على الأمة العربية في عقر دارها، وموطن منعتها وعزتها وفخارها. ويذيقوا هذا الحرم الذي جعله الله آمناً تجيء إليه ثمرات كل شيء، ما أذاقوا جنة الدنيا (الشام) من الجوع والخوف، ويسلبوه ما منّ الله به عليه، وامتن به على سكانه في كتبه العزيز، فكان وجود هذه الجنود سبباً لمنع ورود الأقوات على الثغور الحجازية، وعليها مدار معيشة البلاد، وسبباً لمنع ورود الحجاج منها لا كسب لأهلها إلا منهم، فاشتد الضيق حتى اضطر كثير من أبناء

الدرجة الثانية من الأهالي إلى بيع أبواب بيوتهم، وخشب سقفها، بعد بيعهم جميع ما يملكون لأجل الحصول على سد الرمق.

وصار من المحتم علي دفع أسباب الهلاك عن قوم جعلني الله راعياً مسؤولاً عنهم، وأسباب منع سواد المسلمين الأعظم في سبيل الدفاع عن الأوطان، أو المصلحة الراجحة للإسلام، لتتحمله البلاد بالافتخار، ولساوى فيه الشرفاء والموسرون غيرهم ولو بالاختيار، ولكنه كما أسلفنا ضد مصلحة الإسلام والوطن.

فيا أيها الأخوان المسلمون!

إننا قد وصلنا إلى حال من الخطر لم يسبق في الإسلام نظير كان لنا دول عزيزة قوية دول أسلافنا العربية، وقد ورثتها هذه الدولة لعثمانية، فكنا نحن العرب أحرص الناس على حياتها، على كونها هي التي خذلت اللغة العربية، وانتحلت لنفسها منصب الخلافة دون الدول التركية والكردية قبلها، وكنا نحن أمراء مكة وشرفاءها أخلص زعماء العرب وغيرهم لها، على حرمانها بلادنا مهبط الوحي والعرفان من علوم الدين والدنيا، وكل ذلك حرصاً منا ومن العرب كافة على أن يكون للإسلام دولة قوية تحفظ استقلاله وتنفذ شرعه ولو في الجملة.

وقد صار أمر هذه الدولة إلى جمعية اغتصبت آل عثمان الكرام ملكهم بقوة الثورة، وجعلته في أيدي زعنفة ليس لأكثرهم في الشعب التركي الإسلامي أصل راسخ، ولا في الإسلام علم صحيح ولا عمل صالح، كأنور باشا وجمال باشا وطلعت بك، فكان من سوء تصرفهم فيهم وفينا ما أجملناه لكن في هذا المنشور، وقد كانت مقاومة إخواننا الترك لهم أشد من مقاومة العرب، وأما نحن فكنا كلما سمعنا أو رأينا شيئاً من هجماتهم على الإسلام ندفعه بالتأويل، إلى أن أعيانا التأويل، وكلما علمنا بجناية منهم على الدولة أو على العرب نقول لعله ذنب عارض يرجعون عنه بعد قليل، ولا نستحل مقاومتهم لأجله لئلا يترتب عليه

صدع في الدولة، ويزيد له ما يريدون من التفرقة بين العرب والترك، حتى أنني ساعدتهم في مقاتلة قومي، ومقاومة أبناء أبي وأمي، فلم يرضهم كل ذلك من العرب ولا مني.

ولما رأيناهم عرضوا استقلال هذه الدولة التي نحرص عليها للزوال، ولم يبقوا على كرامة الدين ولا على أحكام الشرع ولا على استقلال السلطان، لم يبق من سبب نحتمل لأجله منهم هذا الخسف والهوان، فلما وصل سيل طغيانهم إلينا في حرم ربنا الذي أكرمنا بخدمة بيته وإقامة دينه، وحرم جدنا ورسولنا عليه الصلاة والسلام، الذي نحفظ من حديثه الصحيح: [إذا ذلت العرب ذل الإسلام].

اضطررنا إلى مقاومة بغيهم من أسلم الطرق، وهو حصر جنودهم في معاقلها من غير أن نبادئهم بقتال، فمن سلم منهم سلم، ومن قاتلنا كانت جنايته على نفسه، فما كان من حاميتهم بمكة إلا أن فعلت ما يعد برهاناً على ما تكن صدورهم للدين والعرب، وهو رميهم للبيت العتيق الذي أضافته العزة الأحدية لذاتها العلية في قوله تعالى: ﴿وطهر بيتي للطائفين﴾، وهي قبلة المسلمين وكعبة الموحدين بقنبلتين من قنابل مدافعهم، التي بحصن "جياد"، عندما علموا بقيام البلاد بالمطالبة باستقلالها، وقعت إحداهما فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف ذراع، والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع، فالتهبت بنارهما أستار البيت حتى هرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب، واضطروا إلى فتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهيب، وما أن انتهى أمرهم بهذا حتى عززوا الاثنتين بثالثة وقعت في مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، هذا ما عدا ما وقع من القذائف في بقية المسجد الذي اتخذوه هدفهم الوحيد في غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص، وما زالوا يقتلون الثلاثة والأربعة في نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد التقرب من الكعبة المشرفة.

وفي هذا الاستخفاف من الدين وازدراء بيت الله تعالى والإلحاد فيه، ما نترك القول والحكم فيه أيضاً لجماعة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، بعد تذكيرهم بقول الله عز وجل ﴿ومن يرد به بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾،

وتذكيرهم بأن الجاهلي كان يرى قاتل أبيه في هذا البيت فلا يمسه بسوء "نعم" نترك الحكم في هذا الاستخفاف وازدراء للعالم الإسلامي، ولكننا لا نترك مشاعر ديننا وشعائره ألعوبة في أيدي الاتحاديين، ولا نبيح لهم من التصرف في حرم الله وحرم رسوله، ما استباحوا في ديار الشام ولا في الآستانة نفسها، ولا نسكت لهم بعد على شيء من بغيهم على أحد من أبناء جنسنا، إذ لم يبق في السكوت مصلحة راجحة لا الدين ولا الدولة، بل صارت المصلحتان الإسلامية والعربية (وهما متلازمتان) في مقاومة هذه الفئة الباغية.

ولما كان أمر حماية الحجاز من هذا البغي والعدوان، وإقامة ما فرضه الله فيهمن شعائر الإسلام، ووقاية العرب والبلاد العربية من عاقبة الخطر الذي استهدفت له الدولة العثمانية بسوء تصرف هذه الجمعية الباغية، كل ذلك لا يتم تداركه إلا بالاستقلال التام، وقطع كل صلة بهؤلاء المتغلبين السافكين للدماء الناهبين للأموال.

فقد هبّت البلاد بتوفيق الله تعالى للنهوض بأمر استقلالها، بعد أن ضربت على أيدي عمال الاتحاديين ورجال حاميتها، فاستقلت فعلاً، وانفصلت عن البلاد، التي لم تزل تئن تحت سلطة المتغلبين من الاتحاديين انفصالاً تاماً مطلقاً بكل معاني الاستقلال الذي لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجي، جاعلة مبدأها وغايتها نصرة دين الإسلام، والسعي لإعلاء شأن المسلمين، والمساواة الشرعية في الحقوق بينهم وبين جميع من يدخل في حوزة استقلالها من المخالفين، قائمة في كل أعمالها على أساس أحكام الشرع الشريف الذي لا يكون لنا مرجع سواه، ولا مستند إلا إياه في جميع الأحكام وأصول القضاء وفروعه، مع استعدادها لقبول ما ينطبق على أصول الذين ويلائم شعائره من أنواع فنون الرقي الحديث، وأسباب النهضة الصحيحة، باذلة كل ما في الجهد والطاقة لإعزاز العلم وتعميمه بين الناس على اختلاف الطبقات وعلى حسب الحاجة والاستعداد.

هذا ما قمنا به لأداء الواجب الديني، علينا، راجين من إخواننا المسلمين في

مشارق الأرض ومغاربها أن يؤدوا كذلك ما يرونه واجباً لنا عليهم من أحكام روابط الإسلام والتناصح على البر والتقوى، وليعلموا أننا قمنا بما قمنا به، ونحن نعتقد اعتقاداً راسخا أنه أفضل خدمة للإسلام، إذا لم تتحقق به أكبر أماني المسلمين الصادقين حتى الترك منهم، فإنه لا ضرر فيه يوازي معشار الضرر في تركه، وستظهر لهم الأيام حقيقة، ذلك فليصبروا إن الله مع الصابرين، والله نسأل وبحبه وحب رسوله، نتوسل أن يتولانا بالتوفيق، ويمدنا بالهداية إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين، والاعتماد على الله العلي الكبير وهو حسبنا ونعم النصير.

شريف مكة وأميرها

الحسين بن علي

الخاتمة

انتهت الثورة العربية، وطويت صفحة أخرى من صفحات نضال الأمة العربية الطويل، التي كانت من شدة وقائعها دفع النخب العربية من عسكريين ومدنيين للبحث عن خشبة الخلاص من هذا المدّ العنصري القومي الساعي لاقتلاع الأمة العربية من هويتها وتاريخها وشخصيتها، حيث حمل هذا المدّ كل أشكال الطغيان والظلم والعنف الدموي تجاه العرب وهويتهم القومية، فكانت خشبة الخلاص الثورة من أجل البقاء، والمحافظة على الكينونة القومية ذات الجذور الضاربة في عمق التاريخ لآلاف السنين.

وكان العسكريون العرب في مقدمة من حمل الهم القومي كما أوضحنا في صفحات الكتاب، حين شعروا بخطورة نتائج التطهير القومي العنصري، والذي بات يهدد الأمة العربية وجوداً من خلال الذوبان والتلاشي في أمة أخرى، وتضاف بعدها إلى قائمة الأمم التي طوى التاريخ صفحاتها، والتي باتت تعرف لدى الدارسين والمؤرخين بالأمم التي (سادت وبادت).

استيقظ العسكريون قبل أوان الذبح العنصري، وأدركوا أن تنظيماً يجمعهم هو أنجع السبل للمواجهة، فشكلوا تنظيمهم القومي جمعية (العهد)، ثم خاضوا معارك الحرية سواء في مواجهة العنصريين في معسكراتهم ومواقعهم، فتعرضوا للسجون والتعذيب وحكم الإعدام أو القتل في ميادين القتال غدراً وظلماً، ثم انتقلوا إلى مواجهة الاستعمار والتجزئة والتقسيم.

واتصلوا بالقوى الدولية باحثين عن عون يخلصهم ويخلص أمتهم من هذا السحق القومي المريع، فلم يجدوا سوى أشرّ ممن حاربوه، الذي غدر بالعهود والاتفاقيات فناضلا ضده، بعد أن مدوا أيديهم إلى إخوانهم في الحجاز، ليصنعوا معهم ثورة قومية تجمع قدرات الأمة؛ لتطهر أرضهم؛ وتحررها من الغلاة

القوميين، ولتعيد لأمتهم وجودها وهويتها ولغتها، واكتشفوا وهم في أتون المعركة أنهم خدعوا ووقعوا في شراك الطامعين الجدد في أرضهم وثرواتهم.

تحالفوا بشرف مع بريطانيا وكانوا وقود الثورة التي ساهمت في صناعة النصر للحلفاء، أما بريطانيا كان تحالفها معهم خداع وتمر، كانوا يحررون بلادهم بأجسادهم، والحليف في الخفاء يجزأ البلاد ليتقاسمها مع فرنسا، ويعطي الوعود للغرباء في أرضهم، بل وفي أقدس أماكنها، لم يقنطوا، بل تحاملوا على جراح المؤامرة، فخاضوا نضالاً طويلاً من أجل تحقيق مشروع الأمة القومي دون أن يصبهم الوهن من كثرة أعداء الداخل والخارج.

عرفوا أن ثورتهم انتصرت، وأن الذي جنى ثمارها من غدر بهم، فلم يجدوا سوى أن يناضلوا من جديد ليجتثوا إفرازات الاستعمار التي كانت تقسيم وتجزئة واستيطان بغيض، وهذا ما نأمل أن نتناوله في الكتاب القادم ن شاء الله.

زبير سلطان قدوري

المصادر العربية

1 ـ أحمد جمال باشا القائد العام للجيش الرابع ـ إيضاحات عن المسائل الأساسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه ـ مطبعة طنين ـ استنبول ـ 1334.

2 ـ أحمد جمال باشا ـ المذكرات ـ ترجمة علي أحمد شكري ـ مصر ـ دار النشر ـ 1923.

3 ـ أحمد حلمي العلاف ـ دمشق في مطلع القرن العشرين ـ دمشق ـ وزارة الثقافة ـ 1993.

4 ـ أحمد طربين ـ دمشق ـ دمشق ـ مطبعة طربين ـ 1981.

5 ـ أحمد قدري ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ـ دمشق ـ وزارة الثقافة ـ 1993.

6 ـ أسعد داغر ـ ثورة العرب ـ حلب ـ مطبعة مطرانية الأرمن ـ 1989.

7 ـ أمين سعيد ـ أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين ـ بيروت ـ دار الكاتب العربي.

8 ـ جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب وتاريخ حركة العرب القومية ـ ترجمة ناصر الأسد وإحسان عباس ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ـ 1996.

9 ـ حسن كيالي ـ ترجمة عبد اللطيف الحارس ـ جمال باش في سورية ـ مجلة الاجتهاد ـ بيروت ـ العدد 45 و46 ـ 2000.

10 ـ خيرية قاسمية ـ الحكومة العربية في دمشق 1918 ـ 1920 ـ القاهرة ـ دار المعارف 1971.

11 ـ حسام علي محسن المدامغة ـ لورنس والقضية العربية 1888! ـ 1935 ـ دمشق

ـ طبعة ثانية 2005 ـ الأوائل.
12 ـ رتشارد النكتون ـ لورنس في البلاد العربية ـ ترجمة محمود عزت موسى ـ لا توجد مطبعة أو تاريخ ـ ص154.
13 ـ س. ناجي ـ المفسدون في الأرض ـ دمشق ـ مطبعة الإنشاء ـ 1965.
14 ـ سليمان الفيضي ـ في غمرة النضال ـ بيروت ـ دار القلم ـ 1974.
15 ـ سلمان موسى ـ الحركة العربية سيرة ـ المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908 ـ 1920 ـ بيروت ـ دار النهار ـ 1977.
16 ـ سليمان موسى ـ لورنس والعرب وجهة نظر عربية ـ عمان ـ 1963.
17 ـ صبحي العمري ـ لورنس كما عرفته ـ بيروت ـ دار النهار ـ 1969.
18 ـ شكيب أرسلان ـ سيرة ذاتية ـ بيروت ـ دار الطليعة.
19 ـ عبد الله بن الحسين ـ مذكرا الملك عبد الله بن الحسين ـ بيروت ـ 1965.
20 ـ عبد الرحمن الكواكبي ـ طبائع الاستبداد ـ دمشق ـ دار المدى ـ 2002.
21 ـ عبد الكريم رافق ـ المشرق العربي في العهد العثماني ـ دمشق ـ مطبعة مؤسسة الوحدة ـ 1981.
22 ـ عبد اللطيف يونس ـ شكري القوتلي ـ حياة أمة في رجال ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ 1959.
23 ـ عبد المنعم مصطفى ـ لورنس قصة حياته وحقيقة موقعه من الثورة العربية الكبرى ـ بغداد ـ دار الشؤون الثقافية ـ 1990.
24 ـ عزيز بك ـ الاستخبارات والجاسوسية في الدولة العثمانية ـ ترجمة فؤاد ميداني ـ بيروت.
25 ـ الجنرال علي فؤاد باشا ـ الترجمة العربية ـ كيف غزونا مصر ـ بيروت ـ 1062
26 ـ د. علي سلطان ـ تاريخ سورية 1908 ـ 1918 ـ دمشق ـ دار طلاس ـ 1987
27 ـ عمر أبو النصر ـ مجلة الحرب العظمى ـ المجلد الثالث ـ الجزء 31 ـ 1987.
28 ـ عبد المنعم مصطفى ـ لورنس قصة حياته وحقيقة موقعه من الثورة العربية

الكبرى ـ بغداد ـ دار الشؤون الثقافية ـ 1990.
29 ـ الجنرال غلوب باشا ـ بريطانيا والعرب ـ لندن ـ دار النشر ـ 1959.
30 ـ علي جودت ـ ذكريات علي جودت 1900 ـ 1958 ـ بيروت ـ مطابع الوفاء ـ 1967.
31 ـ فائز الغصين ـ مذكراتي عن الثورة العربية ـ دمشق ـ مطبعة الترقي ـ 1939.
32 ـ فايز ساره ـ سعيد العاص ـ دمشق ـ وزارة الثقافة ـ 1993.
33 ـ فوزي القاوقجي ـ مذكرات ـ تقديم وإعداد خيرية قاسمية ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ـ 1995.
34 ـ فيليب خوري ـ أعيان دمشق والقومية العربية ـ ترجمة عفيف الرزاز ـ بيروت ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ 1993.
35 ـ الكسي فاسيليف ـ تاريخ العربية السعودية ـ موسكو ـ دار التقدم ـ 1986.
36 ـ لوتسكي ـ تاريخ القطار العربية الحديث ـ موسكو ـ دار التقدم ـ 1971.
37 ـ لورنس ـ أعمدة الحكمة السبعة ـ بيروت ـ المكتبة الأهلية ـ 1971.
38 ـ مجدي حداد ـ العسكريون والقضية العربية ـ بيروت ـ مركز الدراسات العربية.
39 ـ مجيد خدوري ـ نظام الحكم في العراق ـ بيروت ـ 1965.
40 ـ محمد أمين العمري ـ تاريخ حرب العراق خلال الحرب العظمى 1914ـ 1981 ـ بغداد ـ المطبعة العربية ـ 1935.
41 ـ محمد حسنين هيكل ـ الاتصالات السرية بين العرب وإسرائيل ـ دمشق ـ جريدة تشرين.
42 ـ محمد الفرجاني ـ فارس الخوري وأيام لا تنسى ـ بيروت ـ دار الغد ـ 1965.
43 ـ محمد كرد علي ـ خطط الشام ـ الجزء الثالث ـ دمشق ـ مطبعة الترقي ـ 1925.
44 ـ محمد كرد علي ـ المذكرات ـ دمشق ـ مطبعة الترقي ـ 1948 ـ ج1.
45 ـ مصطفى طلاس ـ الثورة العربية الكبرى ـ دمشق ـ دار طلاس ـ ط4 ـ 1987.
46 ـ محمد يوسف إبراهيم القريش ـ المس بل وأثرها في السياسة العراقية ـ رسالة

ماجستير غير منشورة ـ جامعة بغداد ـ كلية الآداب ـ 1993.
47 ـ وميض جمال عمر نظمي ـ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للقومية العربية الاستقلالية في العراق ـ بيروت ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ 1984.
48 ـ نوري السعيد ـ خطاب مؤتمر لندن عن فلسطين 1939 ـ بغداد ـ منشورات بغداد ـ 1939.
49 ـ هنري مورغنتو ـ مذكرات سفير أمريكا في الآستانة ـ ترجمة فؤاد صروف ـ القاهرة ـ 1922.

الدوريات:

1 ـ مجلة الأسرار ـ العدد السابع ـ 17 أيار ـ 1938.
2 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 37 ـ 1938/12/12.
3 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 38 ـ 1938/12/19.
4 ـ مجلة الأسرار البيروتية ـ العدد 45 ـ 6/ شباط/1939.
5 ـ مجلة الأسرار البيروتية ـ العدد 36 ـ 13/ شباط/1939.
6 ـ مجلة الأسرار البيروتية ـ العدد 47 ـ 20/ شباط/1939.
7 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 51 ـ 20/آذار/1939.
8 ـ مجلة الأسرار ـ بيروت ـ العدد 52 ـ 27/آذار/1938.
9 ـ مجلة المقتطف ـ مجلد 49 ـ ج5 ـ نوفمبر/ تشرين الثاني 1916.
10 ـ مجلة الأسبوع العربي ـ بيروت ـ عدد 621 ـ 3/أيار/1971.
11 ـ مجلة المنار ـ القاهرة ـ 1922 ـ مجلد 23 ـ ج2.
12 ـ مجلة العربي ـ سعيد الأفغاني ـ الكويت ـ العدد 169.
13 ـ مجلة الأسبوع العربي ـ بيروت ـ العدد 621 ـ أيار/1971.
14 ـ جريدة القبلة ـ مكة المكرمة ـ عدد 696 ـ حزيران 1923.
15 ـ جريدة القبلة ـ العدد 207 ـ 19/آب/1918.

16 ـ دليل الجمهورية السورية ـ دمشق ـ مكتبة النهضة العربية ـ 1946.

المصادر الأجنبية:

1- P. R. O. F. O 371/ 637. pp. 30-31+F. o 882/13/ MES/ 15? 13, Cairo, 1915

2- F. O 882/ 151619. Intelligence Department, War, O office, 12 September 1915. Statement of Captain (Frugal)

3- Briton Cooper Busch, Britain, and the Arab, 1914-1921, Califorrnia, University of California pres, 1971, pp 102-105

4- Papers relating to the foreign relation of the united States, the Lansing papers 1914-1920

5- Cemal Pasa – Hatiralar – Istambul – 1977- ibid, 55

6- Zeine Zeine, The Struggle for Arab Independence (New York 1977), 11. Sectet Buchanan to Grey. Petrograd, January 2 1916; PRO. Fo 361/2492 PRO. FO.

7-371/2767. File no). File no, 200744, F ecember 29,1915. 34, no. 17 (868

8- PR, FO, 371/2492. Buchanan to Grey, no. 3124, Confidential. December 31, 1915.

9- Phllipe Graves, the Life Of Sir Bercy Cox, London, h Hutchinson Graves Robert, 10- Lawrence and the Arabs, Edited by Eris Kennington, London: Cape, 1927, pp 58-60

11- F. O 371/2144, Tel. Form Secretary of the Fovemment of India in the Foreign

12- Political. Fepartiment Simila, 24 Aug ust 1916

13- Moberly, The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918: History of the Great Wer 14- Based on Official Documents, vol, 4, p 21

15- Favid Garnett, The Essential T.E. Lawernce, London, Jonatan, Cape, 1938, p, 120

16- Lawrence The Seven Pillars of Wisfom: A Triumph, p 75, and Storrs. Orientations, p, 184
17- Jhon Baylis, Ken Both, John Carnett, Phil Willians, contemparay strary theories and
18- policies. London, 1975, p. 75
19- Cemal pasa-Hatiralar – Istambul – 1977 – ibid, 55. 113. Sectet. Buchanan to Frey. 20- Petrograd,January 2, 1916; Moberly, The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918: 21- History of the Great Wer Basef on Official Documents, vol PRO. FO, 371/).
22- Fo361/2492. File no, 200744, D ecember 29, 1915. 2767. File no. 34,no. 17 868)
23- PRO, Confifential. Fecember 31, 1915
24- F.O 371/2144, Tel. Form Secretary of the Govemment of India in the Foreign
25- Political. Fepartiment Simila, 24 August 1916
26- F. O 361/2767. No, 3834 January, 10, 1916
27- F. O 371/2140/ No, 187, 30 Now 1914
28- F. O P.I, 371/3380/ 23 Fev 1918. P. 465
29- F. O 371/3384/ 8 Now 1918
30- F. O 371/3380/ 4 Few 1918, P. 450
31- F. O 371/3054/ tel Nov 24, 4 Jan 1918
32- F. O 371/3395/ 11 Jun 1918
33- F. O 371/3383/ 5 Oct 1918, p, 556
34- F. O 371/2139/ No, 444923 (1 Sep 1914)
35- F. O 371/ No 9858 (1908 Aout A 20 Dec 1910) P. 16
36- F. O 9013/7963/ 14/ 44/ NO. 117
37- F. O 903/ 7963/ 14/44/ NO. 153
38- F. O16768/931/ 4/44/ NO. 249
39- F. O371/2139/ NO, 444923 (1 Sep 1914
40- F. O371/2140/ NO 143, 24 Aout 1914. et No 46261, 14 Sep 1914
41- F. O 371/2140/ NO 347, 14 Now 1914
42- F. O 371/2140/ NO 347, 14 Now 1914
43- F. O 371/2140/ 198, 8 Dec 1914

44-P. R. O. F. O 371/637. pp. 30-31+F. o 882/ 13/ MES/ 15/ 13, Cairo, "October 1915"

45- F. O 882/ 151619, Intelligence Department, War, O office, 12 September 1915. Statement of Captain (Frugal)

46 - F. O 882/13/ MES/ 15/ 18. 22 November 1915

47- P.R.O.F. 882/13. 16 November 1915

48- P.R.O.F. 882/13. Telegram, No. W.O, 8184, of, 17 Oct 1915

49- P.R.O.F. 882/13/ MES /15/ 15. 22 November 1915

50- F. O 371/2140/ No, 187, 30 Now 1914

51- F. O 371/ 2140/ 198, 8 Dec 1914

52- P. R. O. F. O 371/637. pp. 30-31+F. o 882/ 13/ MES/ 15/ 13, Cairo, "October 1915"

53- F. O 371/2140/ No 143, 24 Aout 1914. et No 46261, 14 Sep 1914

54- F. o 882/151619. Intelligence Department, War, O offlce, 12 September 1915. Statement of Captain (Frugal)

55- F. O. 882/12/ MES/ 15/ 18. 22 November 1915

56- P. R. O, F. 882/13. 16 November 1915

57- P. R. O. F. O 882/13 Telegram, No. W.O. 8184, of, 17 Oct 1915

58- P. R. O. F. O 882/13/ Mes /15/ 18. 22 November 1915

59- P. R. O. F. O 371/6337, P. 18. And F.O 141/461. 796.

الفهرس

العسكريون و الثورة العربية الكبرى : دراسة / زبير سلطان
دمشق : اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٨ - ٣٥٣ ص؛ ٢٥ سم .
سلسلة الدراسات (١٢)

١ـ ٩٥٦,٠٨٤ ق د و ع ٢ـ ٣٢٢,٥٠٩٥٦ ق د و ع ٣ـ العنوان
٤ـ قدوري ٥ـ السلسلة
ع - ٢٠٠٨/٩/١٨٤٣

اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق